خوسيه كارلوس سُومُوثا

ESTUDIO EN NEGRO

الدراسة السوداء

مكتبة



ترجمة: أ. د. عبير عبد الحافظ

الدراسة السوداء





طبع هذا العمل بدعم من وزارة الثقافة والرياضة الإسبانية.



للنشر والتوزيع

إدارة التوزيع

00201150636428

لمراسلة الدار:

email:P.bookjuice@yahoo.com

Web-site: www.aseeralkotb.com

- العنوان الأصلي: ESTUDIO EN NEGRO
- العنوان العربي: الدراسة السوداء
- حُقوق النشر:

- الطبعة الأولى: يناير/ 2025م

- تأليف: خوسيه كارلوس سُومُوثا
- ترجمة: أ. د. عَبير عَبد الحَافِظ
- تحرير: أحمد حسين
- تنسيق داخلي: معتز حسنين علي
- رقم الإيداع: 2024/32638م
- الترقيم الدولي: 978-977-992-487-8

خوسيه كارلوس سُومُوثا

ESTUDIO EN NEGRO

الدراسة السوداء

ترجمة: أ. د. عبير عبد الحافظ



إلى أبي

طلبتَ مني ذات يوم البقاء بالمنزل. وقد كان...

...الآن، امكثْ أنت فيه إلى الأبد.

مقدمة إلى الموتى

«النجاح المسرحي لعملٍ ما قوامُه الموت لا جدالَ فيه:
فهو يبقى على لوحة الإعلانات إلى ما لا نهاية،
ولا يحتاج عرضه الأول إلى أي بروفة ليكون مثاليًّا».

- السير هنري جورج براينت، دراسة في المسرح الإنجليزي (1871)

كان الموت خاطفًا، بيدَ أنَّه مثير للأعصاب، مثله مثل الشعور بوصول الأصابع إلى ذلك المكان في ظهرنا الذي ظلَّ يُسبب لنا الحكَّة على مدار ساعات.

وهكذا بدا مريحًا، سريعًا، وتقريبًا مُحبَّبًا.

لم يكن هناك احتضارٌ ما، أو طبيب، أو صديق أو أحد أفراد الأسرة ليبكي رحيله ويحزن عليه، أو حتى حاملوا النعش، ولا خيول مزينة

بريش مثل الغربان، ولا أرملة بغطاء وجهٍ خفيف تتصدر أيَّ موكب. جاءتْه اللحظة الحاسمة وهو جالس. ثم حمله شخصان، وأخرجاه من منزله في جراب. ما تلى ذلك لم يكن الصمتَ، بل قعقعة مبتذلة في عربة غير ملائمة بأي شكل لوظيفتها الجنائزية.

سادَ وطغى ظلام الليل بالفعل عندما توقفت تلك العربة المتأرجحة. خرج الرجلان وفتحا الجراب، ووضع المُتوفَّى قدميه على الأرض. دعوه للدخول إلى مكان مجهول تمامًا بالنسبة له. بدا للوهلة الأولى أطلال منزل، أو ربما مزرعة. فاحتْ رائحة مثل روث البقر، المكان عارٍ تقريبًا من أي أثاث بداخله، مثل الحياة الآخرة، تجعلك تفقد الإيمان بلا أدنى شك.

وقف أحد الرجلين اللذين رافقاه في الغرفة الأكبر وأشعل مصباح زيت.

- بمَ تشعر؟

أعطى المتوفَّى إشارة تدلُّ على الإنهاك وعدم المبالاة. فقد حماسَه بعد دخول هذا القصر غير المأهول. تذكَّر حياتَه المفعمة بالنشاط، وحتى لحظة البرق الأخيرة كانت مقارنةً حقيقيةً، وأكثر إمتاعًا من ذلك العدم الأغبر (وبالمناسبة، فقد تساءَل أين اختفت الفتاة التي تسببتْ في موته). بيدَ أنَّ جميع علوم القرن التاسع عشر التي عرفها الرجل الميت، بآلياتها، ونظرياتها حول القرود الملحدة ودينه الإنجليكاني، ساعدته في فهم الكيفية التي ستصير عليها الحياةُ فورَ عبوره العتبة الأخيرة. ظنَّ أنه سيعتاد الأمر. لم يكن هناك شيءٌ أفضل أو أسوأ.

علاوةً على ذلك، فمعرفته بهذا الأمر منحته سعادة قصوى، فهناك احتمال كبير لعدم اضطراره إلى البقاء بمفرده لفترةٍ طويلة. هذا ما أخبره إياه الرجل بعد قليل.

- سيكون هناك المزيد من الموتى.

شعر حينها بالارتياح. فالجثة في وحدتها اللانهائية، تحب أن يكون لها رفاق.

الجزء الأول

يُرفع الستار

هذا الشعور الغريب أن أواصل النظر
إلى شيء مُستتِر يُماط اللثام عنه قريبًا.
وقت الانتظار هذا. تلك البداية المروِّعَة...

ج ج كليمنس،
حياتي من مقعدي (1874)

السيد إكس



-1-

هذا اللغزُ الذي أنا بصدد حكايته ليس عن حياتي، بل عن السيد إكس. لكنني أعتقدُ أنه سيتوجب عليَّ أن أقصَّ شيئًا عن نفسي بالمثل، وبإمكاني ذكر العديد من الأشياء الأخرى، غير أنَّ هذا هو ما يحضرني الآن:

في بداية عام 1882، كنت أعيش مع والدتي في ساوثوارك، لندن، في شقةٍ حقيرة فرشُها حفنة من النفايات، كان صاحب المنزل يتقاضى مبلغًا باهظًا لنستطيع البقاء فيه. وفي أحد الأيام، ظلَّت أمي تتطلع إليَّ دون توقف، في تلك اللحظة أدركتُ أنها توفيتْ، فاتصلتُ بأخي، ودفعنا تكلفة نقل نعشها إلى بورتسموث من حيث جئنا، لدفنها بجوار والدي، وحدث أنه في محطة البلدة مسقط رأسنا، اشترى أخي الصُّحف المحلية: صحيفة بورتسموث *جورنال*، وعين بورتسموث، وبورتسموث جازيت. اعتادَ أخي قراءة الصحف بشكل أساسي خصوصًا من أجل المقالات المسرحية، على الرغم من تخلِّيه منذ سنوات عن حلمه في أنْ

يصبح ممثلًا، وعمل موظفًا بأحد البنوك. عثر على شيءٍ ما في الجريدة وأشار لي لأطالعه. كان هناك طلب وظيفة رعاية طبية لشخصٍ مضطرب عقليًّا بمصحة، وسكن خاص للرجال في ساوث سي بورتسموث. فكرتُ في الأمر قليلًا؛ قليلًا وحسب، وفور عودتي إلى لندن، أرسلتُ أوراقي. وصلتني رسالة القبول بعد أسبوعين. ما هذا؟ حدثتُ نفسي. شعرتُ كأنني أغلقتُ مرحلةً بحياتي: لقد وُلدتُ في بورتسموث، وسوف أعود إليها، ربما إلى الأبد.

في ذلك الوقت كنت أواعدُ رجلًا التقيتُه قبل أربع سنوات، اسمه روبرت ميلجرو، بحّارًا على متن سفينة تجارية، وهذا يعني أنه اعتاد زيارتي كلَّما تسنَّى له ذلك، أو هذا هو ما أخبرني إياه. لا ينبغي للقارئ أن يتخيل شابًّا بلا لحية، مفتول العضلات: كان أكبر مني، قويًّا ولكنه قصير، ذو لحية شعثاء، يعاقر الشراب، عنيفًا في بعض الأحيان، فلا أعتقد أنه يمكنك الحصول على كل شيء. حين كانت والدتي على قيد الحياة، لم أصطحبه إلى المنزل قط، لكن هذه المرة، عندما أعلن لي عن وصوله، أعددتُ له أشياءَ لأستقبله بها: طهوتُ له يخني اللحم، الذي يحبه كثيرًا، وابتعتُ له زجاجة من النبيذ الأحمر المعتَّق وهو المفضل لديه.

وكنتُ قد دعوته في وقتٍ سابق لرؤية السيرك في كامبرويل. فالدعوة للسيرك يمكن تحمُّل تكاليفها، وتدخله النساء دون مشكلات. علاوة على ذلك، معظم عروضه ليست فاضحة.. إلا أنها تمنحك الكثير من المشاعر، مع تلك الشخصيات صاحبة الأقنعة من الأكروبات، الذين لا يتوقفون عن رسم الوجوه بأشكال عدة. في تلك الفقرة تمَّ حبسهم في قفص كبير وتظاهروا بالرغبة في الخروج. صرخوا وتقافزوا مثل القرود. ضحكَ روبرت حتى كاد يعجز عن التنفس، وقد كان منهكًا بالفعل، بعد ذلك

عدنا إلى المنزل، وشعر بالدوار قليلًا بسبب الأداء الحركي والصراخ. وفي أثناء العشاء، أنصتَ بهدوء لخطتي بشأن الذهاب إلى بورتسموث، والعمل والادخار وشراء منزل صغير هناك لكلينا. بينما كنتُ أتحدث، التهم طبقين كاملين من اليخني. وعندما انتهيتُ من الحديث بقي صامتًا. ساورني القلق. بعد ذلك، مدَّ يده وأمسك بزجاجة النبيذ الفارغة وقذف بها صوبَ رأسي. لحسن الحظ، كان هناك أحد الكراسي، فتعثرت فوقه الزجاجة في الوقت المناسب واصطدمت بالحائط. سقطَ الزجاج فوقي، وتهاوى روبرت ورائي. لقد جعلني أقف لا ألوي على شيء. كان أقصر مني، ممتلئ الجسم، وأكبر سنًّا، لكنه كان رجلًا بطبيعة الحال. كان بالغ القوة. أمَّا قوتي فهي بالكاد تكفيني لحالات الرعاية والشفاء، أمَّا قوته فكانت فظيعة. مدمِّرة.

- هل ستهجرين لندن من أجل جحر الفئران هذا؟ (أخذ يصيح بينما امتلأت لحيته ببقايا الحساء وتقافز مثل رجال الأكروبات) هل ستهجرينني لترحلي من هنا؟ تذهبين بمفردكِ مثل العاهرات؟ لن يحدث هذا يا جلالة الملكة.

سألته متوسلة: «لماذا تحولت على هذا النحو؟ لا يزال بإمكاننا رؤية بعضنا بعضًا في بورتسموث».

لكنه لم يصغِ لي.

لم يستمع إليَّ قط، عندما يكون في حالة سكر، لكنني كنت أعرف ذلك جيدًا.

كان لديه مزاج سيئ، لكنه عرف ذلك جيدًا.

ومع ذلك، في تلك اللحظة فعل شيئًا لم يفعله من قبل، ولم يخطر ببالي أنه يمكن أن يفعله بي يومًا ما.

بدأ يخنقني.

- رو... برت. (زفرت).

رأيتُ نفسي أموت. هناك، في منزلي الحقير المكون من غرفتين، وقد تحطمتْ أطباقي الخزفية، ويدا روبرت تضغطان رقبتي. لكن أكثر ما أخافني عيناه الداكنتان ورائحة اللحم تفوح منه. لم أرغب في النظر إليهما.

- هل ترغب...ين في الر...حيل؟ (تلعثمَ) حسنًا، فلترحلي.

بعدها أطلق سراحي، بينما أخذتُ أسعلُ عند قدميه، سمعته يصرخ قائلًا: «حسنًا، يمكنكِ الذهاب إلى الجحيم إنْ أردتِ».

ثم أخذَ بعضًا من مدخراتي وصفعَ الباب.

انتهى كل شيء كالمعتاد. وفي اليوم التالي، بينما كنتُ لا أزال أتألم في السرير، وضعَ شخصٌ ما ظرفًا تحت باب منزلي وبداخله ورقة. لقد كانت من روبرت، لم يكن خط يده، لأنه بالكاد يعرف كيف يقرأ ويكتب، وقد طلب من شخصٍ آخر بحَّار، أو صبي مقصورة، أو صبي مستودع، والذي لم يكتب جيدًا بالمثل، ولكنه فعل شيئًا أفضل، وهو نسْخ الرسالة التي أملاها عليه. قال لي إنه سامحني، وإنه سيسعى لرؤيتي في بورتسموث، في أول ظهيرة لي يوم الإجازة. وإنه يحبني.

لم أتفاعل بالسلب أو الإيجاب. سويت الأمور مع مالك العقار، واحتفظتُ بالأساسيات، وأعطيتُ أخي ما تبقَّى، وفي يوم اندماجي الأول لبدء العمل الجديد، في منتصف يونيو، ارتديتُ أفضل ملابسي واستقللتُ القطار في محطة واترلو.

-2-

طوال مدة الرحلة لم أنقطع عن التفكير في الشيء نفسه. لماذا لم يرغب في ذهابي إلى بورتسموث؟ كان يعيش في البحر فماذا يهمه في ذلك؟

يعلم الربُّ تمامًا أنها لم تكن مدينة جميلة. لكن بها ميناء، ولكنه ليس ذلك الذي يشجعك على كتابة الشعر، إلا أنه كان مثاليًّا لأي بحار. أمَّا بقية المدينة فعبارة عن مجموعة منازل قبيحة مثل الأكواخ، وقد نشأتُ في أحدها، أمَّا جزء النبلاء من ساوث سي، فقد أخذ في النمو بمرور الوقت، ويعيش هناك أناسٌ أثرياء، كان بالمدينة العديد من المسارح، وهناك أيضًا كلارندون هاوس، المكان الذي سأعمل فيه.

ومهما كان الأمر، لماذا تصرَّف على هذا النحو؟ ما الخطأ الذي فعلته هذه المرة؟ صحيح أنني، لبعض الوقت، لن أتمكن من الحصول على منزلي الخاص -كنت سأعيش في دار الرعاية التي سأعمل بها- ولكن في لندن رأينا بعضنا بعضًا أيضًا بعيدًا عن المنزل. لم أفهم قط، ولكن هذا ما اعتدتُه دائمًا مع روبرت. بالمثل لم أفهم نفسي: لم أرغب في رؤيته مرة أخرى لا تزال علامات أصابعه واضحة على رقبتي، واضطررتُ لإخفائها بإيشارب صغير، لكنني أدركتُ عندما كتب لي أنني سأخضع. كنتُ على يقين من ذلك، مهما حاولتُ الإنكار.

لم يتبقَّ لي سوى القليل من الأشياء في الحياة: وظيفتي ممرضةً وروبرت. لم تكن حياة سهلة، لكنها كل ما أملك.

تدفقَ المطرُ غزيرًا عندما وصل القطار إلى محطة بورتسموث. أحد تلك الأمطار الصيفية التي تهطل إذا ما قررتُ ارتداء أفضل ملابسي، لتْرك انطباعٍ جيد في وظيفة جديدة. كنت -على الأقل- محظوظة بما

يكفي لأتمكن من استئجار عربة في المحطة. على الرغم من أنني طللت من النافذة لأرى شيئًا من مسقط رأسي، الذي لم أزره منذ جنازة والدتي -وهي الزيارة التي لم أتمكن خلالها من رؤية أي شيء باستثناء المقبرة- فإنني بالكاد تمكنت من رؤية القليل مع هطول المطر. بدا الأمر كأنه عملية رجم بالحجارة تنفذها زمرةٌ من المتعصبين. كأنها نهاية العالم.

لا شك أنَّ المسارح استمرت في جذب الناس، قضينا خمس دقائق انتظارًا لحشد المظلات المكتظة بإحكام، لإفساح المجال لنا أمام بوابات مسرح فيكتوري -على طريق فيكتوري- بدا أنهم يقدمون ميلودراما ناجحة.

كان كلارندون هاوس عبارة عن بقعة ضخمة تواجه البحر من الخلف، وتحيط بها التلال الخضراء. لا شك أنها تبدو لطيفة في الطقس الجيد. اعتقدتُ أنني أتذكرُ مبنًى مثل هذا في شبابي، بواجهة ذات طراز هولندي وأسقف مرتفعة. افترضتُ أنه كان ينتمي إلى عائلة نبيلة تدهور بها الحال الآن، وفورَ تجديده، أصبح مصحَّة للرجال الأغنياء. ربما باعته العائلة لأصحاب المسارح السرية -وهذا ما أخبرني إياه أخي بشأن ما حدث مع بعض العائلات الغابرة- ولكن مَن كان يعلم. تخيلتُ نفسي في وظيفة هادئة لرعاية رجل مسن متقلب المزاج. نوع المهمة التي أعتبر نفسي خبيرةً بها.

توقفت عربتي قبالة بوابة في الجدار المحيط بالمبنى، حيث كان هناك جرس ولافتة غسلتها مياه الأمطار: «مصحة كلارندون. سكن الراحة للسادة». أعطيتُ السائق أجرته، وأضفت إكرامية ليحمل أمتعتي إلى الباب الذي لمسته بيدي.

منذ أن كنت طفلة أحببتُ جلد الخيول اللامع عندما يزينها ماء المطر، كأنها أثاث من خشب الأبنوس المصقول، لكنني لم أكن في وقتٍ يسمح

لي بالاستمتاع بالمشهد حين غادر الحوذي الطيب من بورتسموث. شعرتُ بالوحدة الشديدة تحت مظلتي الصغيرة غير المناسبة عندما قرعت الجرس. تخيلت أنه لن يخرج أحد، وأنهم سيتركونني هناك، وسيقضي عليَّ المطرُ، ويذيبني كإحدى تلك القلاع الرملية التي يُشيدها الأطفال على الشواطئ..

لقد بدأ كل شيء بدايةً سيئة.

كان عليَّ أن أدرك أن الأمور ستزداد سوءًا.

-3-

- يا إلهي! إنكِ مبتلة تمامًا، أوووه. سأعطيكِ شيئًا لتجففي نفسك.

استقبلتني خادمة ممتلئة الجسم ترتدي زيًّا أزرق سماويًّا، تُدعى هنريتيا والترز لكن -«الجميع ينادونني هيتي، أوووه»- ضحكتْ حتى احمرَّ وجهها، كانت رؤيتي مبللة حتى عظام جسدي هو أطرف شيءٍ في العالم. بدا كأنَّ كل شيء بصحبتها يمضي بشكلٍ أسرع. ركضنا تحت مظلتها في ممرٍّ موحل، وعبرنا قاعة رصينة وقورة وبعض المطابخ التي تفوح منها رائحة المشروبات الساخنة والبيض المقلي، ثم دلفنا إلى غرفة صغيرة تبدو كأنها حجرة المعاطف. تركت لي هيتي منشفة. كانت هناك مرآة كاملة الطول، ورفوف تحمل الزي الأسود وبدلات ومآزر بيضاء. جففتُ نفسي بالمنشفة قدر استطاعتي دون أن أخلع فستاني. ثم بدأت بالطين العالق بحذائي ذي الرقبة القصيرة.

كانت هيتي تأتي من حينٍ لآخر وتسألني عمَّا إذا كنت بحاجة إلى أي شيء. لقد كانت امرأة يغلب عليها طابع الأمومة. سرعان ما اكتشفنا أننا نحن الاثنتين من بورتسموث، وبدا أنَّ الشيء الوحيد الذي نختلف فيه هو دورنا في العمل، فقد وضعناه جانبًا وتحدثنا عن المسرح.

تورَّد لون خديها الممتلئين عندما أخبرتني بصوتٍ منخفض أنني يجب أن أذهب لرؤية لوسي *الزاهدة*، وهي ميلودراما لاقت نجاحًا بالغًا على خشبة مسرح فيكتوريا. إنَّ مشاعر الميلودراما كثيرة جدًّا بالنسبة لي، من ناحية أخرى، كانت هيتي تحب الشعور بالحماس.

- لقد بكيتُ، وضحكتُ، أووووه. في أحيان كثيرة ضحكتُ وبكيتُ في الوقت نفسه.

سألتها بفضول: «هل هو عرض فاضح؟».

نظرتْ إليَّ، وأومأتْ برأسها ببطءٍ شديد وحزمٍ مماثل. كل إيماءة زادتْ من إحساسي بمدى الفضيحة. ثم مالت نحوي وأخبرتني كيف ظهرتِ الممثلة الرئيسية في مشهد معين وضعوها به، وفي أي جزء صرخ ناحيتها الجمهور. لقد وعدتها بأنني سأراها قبل أي عرضٍ آخر حتى تتوقف عن إخباري كلَّ شيء.

عندما انتهيت من تجفيف نفسي نظرتُ في المرآة.

رغبتُ في الظهور بشكلٍ جيد أكثر من أي شيءٍ آخر: قبعتي الصغيرة الحزينة، وأفضل ملابسي المبللة، والتجاعيد الواضحة على وجهي، أنفي المنتفخ، عيناي مزمومتان جدًّا. لقد كنتُ أنا، كما هو الحال دائمًا. على الأقل كنتُ نظيفةً. نعم هذا صحيح. أو مغتسِلة بمعنى أصح.

ورقبتي تحت الوشاح.

ثم قالت لي هيتي: «والآن، فلنذهب إلى السيد ويدون».

أطالت نطقها لاسم *ويدووووون*، على هذا النحو، مما أخافني حتى قبل أنْ ألتقيه.

-4-

عُلقتْ لوحة على الباب مكتوبٌ عليها «فيلومون ويدون، محاسب». بالإضافة إلى مكتبه، كان هناك مكتب آخر يشغله مساعده، وهو شاب ذو شعر أشقر ووجه ملائكي، قدَّم نفسه على أنه جيمي بيجوت. بدا خجولًا جدًّا. كان ويدون رجلًا شابًّا وقويًّا، ذا رأسٍ أصلع مقعَّر -لقد كتبتُه بشكل صحيح: مقعَّر، مُفلطَح في المنتصف- يتقاطع مع الشعر مثل خطوط الحبر. لم يدعُني للجلوس، بل ارتدى نظارة سميكة، وبدأ الكتابة في أثناء طرح الأسئلة عليَّ. لم تختلفْ بشكلٍ كبير عن تلك التي أجبتُ عليها بالفعل عند إرسال الأوراق الخاصة بي، لكنني لم أهتم. قال والدي: «الأمر الجيد في تكرار شيءٍ ما، هو أنك فعلته من قبل».

- العمر؟
- أربعة وأربعون عامًا.
- الحالة الاجتماعية.

لاحظتُ أنني قد لمستُ الوشاح الذي ربطتُه حول عنقي.

- عزباء يا سيدي!

استحضر وعيي روبرت، وحمله في ذهني مثل عشبٍ بحري يطفو قُرب الشاطئ، فهمتُ أنه ليس عليَّ ذكر اسمه. إذا لم أذكره فلن أفكر فيه، وإذا لم أفكر فيه فربما ينتهي بي الأمر بنسيانه، وربما أكفُّ عن الرغبة فيه. بعدها راجع الأشياء الاعتيادية: محل إقامتي السابق، عائلتي، وأذواقي في المسرح -الأوبريت، الدراما، السيرك- فأجبته بالنفي.

سألني: «والخبرة؟».

تحدثتُ عن عملي مع المرضى ذوي الحالات الخاصة، واعتقدتُ أنها ستكون ميزة أنْ أُكرر مرة ثانية ما ذكرته في خطاب التزكية: العامان اللذان قضيتهما في المصحة العقلية آشرتون دارتمور.

- لكن للأسف لقد التهمها حريقٌ عام 1872، بيدَ أنَّ ويدون اكتفى بأنْ لوى شفتيه.

- مسألة أنكِ عملتِ في مصحة أمر جيد وسيئ في الوقت نفسه آنسة ماكيري! (انتظرتُ التوضيح لهذه الجملة الغامضة)، ثم أضاف بلهجةٍ أكاديمية: في كلارندون ليس لدينا «مرضى» بل «نُزلاء»، يجب مناداتهم على هذا النحو، فهم سادة من عائلات ذات شأن يأتون إلى كلارندون، لتهدئة أعصابهم التي تضغطها الحياة بالمسؤوليات المهمة، أتفهمين؟

- نعم يا سيدي!

حسنًا، هذا كان الاسم، فقط. «كل مكان لديه قاموسه الخاص» كما قال أبي. ومع ذلك، استنتجتُ أنهم إذا قبلوني بمعرفة خلفيتي بالعمل في المصحة، فذلك لأنهم مهتمون بي.

وأخيرًا سلمني بعض الأوراق. كانت تلك هي الشروط التي كنت أعرفها بالفعل: ثمانون جنيهًا في الشهر، وطعامٌ، وإقامة، وزيٌّ نظيف، وتدفئة. كان من المتوقع مني أن أتصرف بطريقةٍ مهذبة وغير قابلة للنقد. ولم يكن يحق لي الزواج دون الحصول على إذن صريح من المدير الطبي. ولديَّ الحق في الحصول على نصف يوم إجازة كل أسبوعين، ولكن كان عليَّ أن أحدد العرض المسرحي الذي سأذهب إليه من باب العلم بالشيء. يونيو1882، وقَّعتُ: آني ماكيري. كان توقيعي يحمل الاسم نفسه بأحرف صغيرة جدًّا، مثل تلك التي تظهر الآن عندما أكتبه. وقف ويدون بعد أن حفظَ الأوراق.

- ستتعرفين إلى دكتور بونسونبي عاجلًا، والآن سأعرفكِ إلى النزيل الذي ستكونين منوطة به.

بدا متوترًا جدًّا كأنه هو مَن جاء حديثًا إلى المكان.

-5-

كان الأمر كما لو كانت هناك مذبحة وقاموا بمحو آثارها.

ارتدت الخادمات الزي الأزرق السماوي، وكنَّ مشغولات بجلي وتنظيف كل شيء بوحشية تقريبًا، الدرابزين والأرضيات والجدران. علمت لاحقًا أن كل شيء غير مفروش بالسجاد في كلارندون يتم غسله مرارًا وتكرارًا، كما لو كان ذلك عقابًا على خشونته.

قال ويدون بينما نرتقي درجات السلم للصعود إلى الطابق الأعلى: «السبب هو المطر، كل شيء يتسخ بسرعة».

وفي أثناء صعودنا، أوضح لي أن كلارندون يتألف من طابقين، يحتوي كلٌّ منهما على عشرِ غرف، خمس في كل جناح. يغتسل النزلاء في غرفهم، بمساعدة الممرضات أوَّلًا، ويتقاسمون الحمام في نهاية الردهة. كنَّا أربع ممرضات بالإضافة إلى رئيسة الممرضات، كان من المتوقع مني أن أعرف وأعتني بنزلاء الجناح الذي سأُوجَد فيه -الجناح الغربي، الطابق الأول- عندما يستدعي الأمر ذلك. وأضاف أنه تم قبول المقيمين الذكور فقط من الأُسَر الجيدة، ويُستبعد أبناء الأُسَر المتواضعة والمُعدمة، ولا تُقبل السيدات أبدًا، بغض النظر عن نوعية الأُسَر.

- لا نقبل النساء. (ذكر مؤكدًا حتى لا يكون هناك أي شكوك بهذا الشأن).

ربما هذا ما جعله ينظر إليَّ من أعلى إلى أسفل عندما وصلنا إلى الطابق الأول. لقد تخيلتُ تقريبًا أنَّه سيقول: نحن *أيضًا لا نستقبل الممرضات غير الجذابات*. لكنني هدأتُ على الفور بالنسبة لهذه الفكرة. قاطعتنا ممرضة بدت كأنها تملأ الردهة أمامنا بجسدها، أكثر سمنةً من هيتي، لكنها أقصر مما جعلها، بالإضافة إلى الزيِّ الأسود بالكامل، باستثناء القبعة والملابس الداخلية والمريلة، تبدو كأنها كرة تنزلق بصمت مع سيجارة فوقها. كانت تحمل صينية عليها الشاش، ومجموعة من المفاتيح معلقة من مئزرها. ملامحها جامدة مقتضبة وسط وجه شمعي الهيئة تحت القبعة العالية جدًّا، وبعيدة كل البُعد عن التشابه مع ملامح هيتي المرحة. تبادلتْ هي وويدون محادثة قصيرة وصامتة حول «النزلاء المقيمين»، *تعلمي الكلمة، آني*، ثم قامت الأولى بالتقديم.

- رئيسة الممرضات، ماري برادوك، نائبة بيتي.

تطلعتْ إليَّ من خلال كتلة ملامحها الغليظة دون مبادلة الابتسامة.

- أعتذرُ منك.. ثم واصلتِ السير.

هزَّ ويدون كتفيه كما لو كان قدَّم ابنة جريئة إلى حدٍّ ما، ولكن مكانتها العالية في التسلسل الهرمي للأسرة ليست موضع شك.

- كان عليها الاعتذار، ذلك أن السيد إكس حالة خاصة.

لم أفهم الاسم. ربما كان لقبًا أجنبيًّا.

لكنني لم أستطع توجيه أي سؤال آخر، لأنه ابتعد في الاتجاه الذي جاءت منه الممرضة، والذي كان بلا شك الجناح الغربي الذي يخصني. اصطفتْ على جانب واحد مجموعة من الأبواب المغلقة، وعلى الجانب الآخر نوافذ تطل على جادَّة كلارنس وبورتسموث بأكملها، وقد غشاها المطر الغزير. تخيلتُ أنَّ غرف النزلاء ستكون مطلة على البحر. توقفَ

ويدون عند الباب الأخير، بعد أنْ أشار إلى الحمَّام المشترك الفاخر في الخلف، وطرقه عدة مرات وفتحه دون انتظار إجابة.

والشيء الأكثر عجبًا أنه كان يتحدث في الداخل بصوتٍ مختلف تمامًا، عن صوت موظف المكتب الموقر والمدرب الصارم من قبل.

بدا صوتُه موسيقيًّا تقريبًا، ناعمًا، كأنه يدلل طفلًا رضيعًا.

- سيد إكس! لقد حضرت ممرضتك الجديدة.

وبينما يتحدث ابتعد عني قليلًا، وطلب مني الدخول.

لكنني لم أفعل ذلك.

كانت الغرفة حالكة الظلام بالكامل.



عين بورتسموث

نشرات مسرحية

لوسي المضحيَّة، ميلودراما في ثلاثة فصول من تأليف جي بي ويلفورد. مسرح فيكتوري.

لوسي سيمونز (أداء رائع من الآنسة كيندال)، ترتدي زِيَّ خادمة مذهلًا (فقط أشرطة وأقواس تغطي جميع أنحاء جسدها، مجرد أشرطة وأقواس!) تطيع أي شخص أيًا ما كان: السادة، الأطفال، الضيوف والأصدقاء، الكلب والقط، الفئران، المتسولون الذين ممثلين... الشوارع (جميعهم يلعبون ممثلين)... ولكن عندما يموت أحدُ أعمام لوسي في أمريكا، وترث بطلة العمل ثروتها، أصبحتْ ترتدي فراءً وحذاءً أسودَ عاليًا، تنظر في المرايا وتُملي الأوامر على نفسها... تفتقد الممثل إدوين نوجز، أحد المتسولين، الذي وصلت قفزاته على خشبة المسرح إلى السقف وهو يمسك بحزامه ببراعة شديدة... إدوين كما سيتذكر جمهورنا في بورتسموث، كان متسولًا حقيقيًا، وتوفِّي في شجار مع متشرد آخر الأسبوع الماضي.

هـ شريبر

الكَمَان



-1-

انعكسَ ظلي على مستطيل من الضوء فوق سجادة، طويتْ بعد ذلك ووُضعت خلف كرسي بذراعين.

وفي الخلف، جميع الستائر مسدلة.

كان المكان شاسعًا.

ظلَّ ويدون يشير لي بالدخول. اتخذتُ بضع خطوات.

أين أنتِ يا آني، سألتُ نفسي. كانت الغرفةُ فسيحةً، ولكن ربما عدم وجود الكثير من الأشياء أعطى هذا الانطباع. سرير مصنوع بدقة. إبريق بين السرير، وخزانة ملابس مع مزهرية كبيرة. على الجانب الآخر مدفأة مع رفٍّ ومصباح، منضدة مع كرسي وخزانة صغيرة. والكرسي في الوسط.

لا شيء آخر. لا كتب أو مجلات أو لوحات. ولم تدل رائحته أنه مجنون، ذلك الدفق المختلط بين الحيوان والإنسان الذي اعتدتُ عليه

منذ آشرتون، بل كخليطٍ من الهواء تُعاد فيه عملية الشهيق والزفير مرة أخرى كما تفعل البقرة مع العشب.

همس ويدون من الباب: «قولي له شيئًا...».

- إلى... إلى مَن؟

أشارَ برأسه بنفاد صبر إلى الكرسي.

فجأة شعرتُ بالخوف. تعرَّقتْ يداي، ووضعت إحداهما على الوشاح الملفوف حول رقبتي. لم يبدُ لي أنني كنت أقترب، لكن الكرسي هو الذي كان يتقدم نحوي ببطء، كأنه يحاول ألا يلاحظه أحد.

وعندما وصلتُ إليه نظرتُ.

ما رأيته كان دمية.

جلس منتصبًا دون تشويه هيئة المقعد بوزنه. في الظل، تكشفتْ لي عظمة الوجنة من الزاويَة، جبهة غير متسقة، عينان كبيرتان مفتوحتان، وقبل كل شيء، أنفٌ معقوف واضح للغاية. أمَّا الباقي -الجسم الهزيل الذي يرتدي ملابس النوم والرداء والخف المنزلي- كان بالإمكان أن يطير مع تيار الهواء دون أن يتغير الأمر برمته كثيرًا. لقد تحدثتُ بحماسٍ أكبر بكثير مما شعرتُ به.

- صباح الخير سيد إكس! اسمي آني ماكيري، وأنا... ممرضتك الجديدة، تشرفتُ بمعرفتك سيد...، سيد...

أضاف ويدون بجوار الباب: «السيد إكس».

عقبتُ على جملته: «ولكن ذلك ليس اسمك، أليس كذلك؟».

قال ويدون بوقاحة: «لا اسم له».

بدا ذلك سخيفًا بالنسبة لي. لم أكن أريد التحقق. الدمية لم تتحرك، لذا انحنيتُ لأرى وجهه. وفي الظلام لمحتُ شيئًا غريبًا في عينيه.

- هل تسمح لي أنْ أفتح الستائر يا سيدي؟، سألتُ فيما أميل برأسي ناحية وجهه.

بيدَ أنَّ ويدون عاجلني بالجواب بينما يقف مكانه عند عتبة الباب: «لا، هيا غادري الحجرة».

أدهشني توتر ويدون، ما كان مني سوى أن خرجتُ وحنيتُ رأسي، ثم أغلق ويدون الباب.

سألته: «لماذا لا يمكن فتح الستائر؟».

- لا يريد السيد إكس فتحها. هو شخص ذو طابع خاص للغاية. لا أعرف التفاصيل، سيبلغك الدكتور بونسونبي.

ومسح جبهته بمنديله، كما لو أننا قد زرنا مخبأ وحش خطِر.

فكرتُ: نعم، إنه يعرف التفاصيل، لكنه لا يرغب أن يخبرني.

لكن، حسنًا، كان ويدون محاسبًا، على ما افترضت. اتسمتْ معاملته للمرضى بناءً على الآراء المسبقة. لم يكن هذا يعنيني بأي حال.

اعتقدتُ أنني على استعداد لرعاية السيد «دون اسم».

-2-

قادتني هيتي والترز إلى ما سيصبح غرفتي في كلارندون: إحدى الغرف العلوية الخمس التي تقيم فيها الممرضات.

لا وصف لما رأيته.

كانت حجرة عارية وصغيرة. عُلقتْ مرآة نصف طولية على طاولة جانبية، بها درج كبير بما يكفي ليتسع السرير إلى جانبه. يسقطُ الضوءُ من كوة ذات سقف مائل. لقد عشت في أماكن أسوأ.

تمكنوا من وضع حوض من الماء الساخن على الأرض، وإسفنجة ومنشفة. أمتعتي وكذلك الزيُّ المطوي شوهت هيئة السرير. خلعتُ ثوبي واغتسلتُ وتفحصتُ الزيَّ الرسمي. كان هناك قميص، وحزام رباط، وجوارب، وقميص قصير، وفستان مع تنورة سوداء بلون الحداد كاملة، وسروال قصير بفيونكة بيضاء، ومئزر مع جيوب وأدوات على الحزام، وأساور وياقة مُنشَّأة، وجوارب قصيرة. كما كانت هناك قطعة من الملابس الداخلية التي تستخدمها النساء هنا بشكلٍ خاص، والتي لا نستغني عنها إلا في ظلمة الزواج.

إذا لم يكن الأمر كذلك، فيمكن للمرء الذهاب إلى المسرح لرؤية النساء، دون حتى تلك الحماية الأخيرة لزمن الأخلاق الحميدة. أعتقد أن ذلك معروف بالفعل. ليس عليَّ سوى البلاغ.

وبما أنني سيدة ناضجة وغير جذابة، لم يكن هناك أي رادع للإغراء: لا يوجد مشد برباط، ولا أحزمة صدرية، ولا -البركة من الرب- قبعة ذات قناع واسع لتغطية نصف وجهي. كانت قبعتي -ببساطة عالية- أسقفية الهيئة. وعندما توجت نفسي بها، أعادت لي المرآة -غير المصقولة كثيرًا- صورة غريبة.

كانت أنا، وليس أي شخص آخر. وعلى الرغم من أنه كان مطابقًا لقياسي إلى حدٍّ ما، فإنه منحنى مشهدًا غريبًا. هذه الملابس بدت مثيرة للفضول، كيف يمحو منك شيئًا، وفي الوقت نفسه يضيف إليك شيئًا آخر، كأنكِ ممثلة تلعبين دورًا. أخفتِ الياقة العالية بعض آثار العلامات، على الأقل في الوقت الحالي.

ابتسمتُ لتلك الصورة.

لقد أصبحتُ بالفعل ممرضة في كلارندون هاوس.

لم يكن الدكتور بونسونبي قد وصل بعد، لذلك اقترحتُ أنْ أبدأ عملي دون مزيدٍ من اللغط. كان أول شيء سأفعله هو فحص عينَي ذلك الرجل، مهما كان اسمه، في وضح النهار، لأنه النزيل الذي جئتُ لرعايته.

ولتحقيق هذه الغاية، صعدتُ السلالم المغطاة بالسجاد، ورفعت حواف تنورتي الجديدة، ومشيتُ إلى الباب الأخير، طرقته وفتحته، تمامًا كما فعل السيد ويدون، ولكن الآن مع الإحساس بالأمان لكوني المسؤولة.

ومع ذلك، فقد شعرت بالخجل مرة أخرى وسط الظلام والصمت. ماذا تريدون مني أن أقول لكم: لقد كان أمرًا شاقًّا بعض الشيء أن تجد ذلك الكرسي بذراعين وظهره مقلوب. والأدهى من ذلك عندما أغلقتُ الباب. كان الأمر كما لو أنَّ الأضواء انطفأت في النفق.

سيد إكس! (همم)، جئتُ لأفحص عينيك في دقيقة واحدة.

لم تكن هناك إجابة. داهمتني ذكرى غريبة: صورة والدي من ظهره جالسٌ في مكتبه يعمل في المكاتب البحرية على الرصيف. كانت هناك عدة مكاتب أخرى هناك -وطفتُ الآن، في ذاكرتي- لا نهاية لها، كان ظهره نحو المدخل. رأيت كتفَي معطفه، وشعره الأسود بالغ السواد... مثل عينَي الدب الخشن الذي امتلكته ذات يوم.

أزحتُ هذه الذكرى عن مخيلتي فيما أسير نحو النافذة.

قلتُ له: «هناك شيءٌ ما يدعى البحر، هناك، هل تعرف ذلك؟ رؤيته عادةً ما تكون مريحة وممتعة بشكلٍ عام...».

أمسكتُ بالستائر، ثم سمعتُ خلفي صوتًا ناعمًا ولكن واضحٌ جدًّا.

- لا.

التفتُّ نحوه بينما يتحدث، قلتُ لنفسي: واقفًا هناك، ضئيلًا ووقورًا في الوقت نفسه، وقد أغشى الظلام وظلي ملامحه.

- معذرةً سيدي!

- لا تفتحي الستائر.

نطق بصوتٍ واضح جدًّا، أودُّ أن أقول نطقًا حادًّا، دون عواطف.

سألته بنعومة كأنه رجاء: «هل لي أن أعرف السبب يا سيدي؟».

- أحبُّ أن تكون مُغلقة، فأتمكن من التركيز بشكلٍ أفضل.

واصلتُ مراقبة تلك الصورة الظليَّة المنعكسة على المقعد الوثير للحظة.

لماذا كان بحاجةٍ إلى التركيز؟ ما هذا الهراء؟ لقد تعودتُ على الطلبات السخيفة للمرضى العقليين، التي تشبه إلى حدٍّ كبير أهواء الأطفال. أفضل ما يمكن فعله هو تجاهلها عندما تضرُّ بصحتهم. قالتها فلورنس نايتنجيل، معلمة الممرضات: يجب أن يستمتع المريض بالهواء النقي والضوء.

التفتُّ إلى النافذة، وأمسكت بالستائر: «لن يستغرق الأمر وقتًا طويلًا. بعدها تعود إلى التركيز».

عندما فتحتهما رمشت بعينيَّ، ليس بسبب الوهج، بسبب سحابة الغبار التي هاجمتني فجأة، كانت السماء لا تزال تمطر، كان النهار رماديًّا ولم تظهر الشمس هناك، أدركتُ أنه لم يفتح أحد تلك الستائر أو ينظفها منذ أشهر. رأيتُ نفسي منعكسةً -بقبعتي العالية جدًّا في المستطيلات الزجاجية- لنافذة مزدوجة الألواح بالغة القذارة. بدا المشهد غير واضح بسبب الغبار والأمطار الداخلية، ولكن بالإمكان رؤية جذوع الأشجار في الحديقة، وجدار المنزل، وما وراء ذلك، اللون الرمادي للشاطئ. لم ينظف أحد النافذة أيضًا. لقد تُرك هذا الرجل لمصيره في منطقة كلارندون الراقية، لينغمس في هوسه السخيف وحسب.

ابتعدت عن الضوء، نظرتُ إلى الكرسي لأرى الجالس فيه.

هزيل جدًّا، وقصير للغاية، أمَّا رأسه فكان شيئًا آخر. يقف فوقه مثل التاج. جبهة عالية، وعظمتا وجنتين بارزتان، وذقن رَفيع، وفوق كل ذلك، الأنف المعقوف. لا يعني ذلك أنه كان حليق الوجه، بل يبدو أنه لم يحدث وأنبت ذقنه شعرًا أبدًا. جسم ضئيل كجسم طفل تقريبًا. رأس كبير وناضج. الأول يجعلك ترغب في اللعب معه، والثاني أنْ تحترمه.

حسنًا، كان غريبًا إلى حدٍّ ما، ولكن ماذا في ذلك؟

الجميع غرباء. أنا شخصيًّا لديَّ أنف منتفخ، وعينان ضيقتان، وذقن غائر. في المدرسة كانوا يدعونني ابن عرس. لم أعتقد أن السيد إكس أكثر غرابة من الآخرين.

لكن عينيه جعلتاني أتسمر في مكاني كأنني أصبتُ بالشلل.

كان لون العين اليمنى أزرق باهتًا تقريبًا، مثل حوض سمك فارغ. عندما انحنيتُ إلى الأمام قليلًا، أدركتُ أن سبب ذلك قزحية العين الضخمة التي ملأت الملتحمة بأكملها تقريبًا. بينما قزحية العين اليسرى محاطة بغابة من العليق الأحمر الكثيف، في كل مكان تقريبًا، يمكن أن يكون ذلك ببساطة جميلًا.

عينٌ زرقاء، والأخرى حمراء.

التشكيل كان رائعًا.

همهم من بين شفتيه شبه المنطبقتين: «هل انتهيتِ؟».

- من أي شيء سيدي؟

- من التحديق بي.

- ها... نعم يا سيدي!

- إذن من فضلك، أغلقي الستائر مرة ثانية، شكرًا.

امتثلتُ لأمره، لم أرغبْ في معارضته مجددًا. غير أنَّ منظر عينه الحمراء آلمني، فالسبب الطبي واضح: انفجار في الأوعية الدموية بالعين.

سألته: «هل... تؤلمك؟».

- ماذا؟

سألته بصوتٍ خفيض: «عينك اليسرى؟ هل تشعر بحُرقة بها؟».

- ماذا؟

- العين اليسرى... هل تشعر بحُرقة بها؟ لذلك لا ترغب في أن أفتح الستائر؟

رمش للمرة الأولى. إذا كان بالإمكان أن نُطلق ذلك على حركة عينيه. فعل ذلك ببطء شديد، كما لو كان يتذوق الظلام.

- عيني هكذا منذ ولدتُ آنسة ماكيري! والآن، أغلقي الستائر.

إنه يعرف اسمي. يجلس هناك هادئًا للغاية، جالسًا وصامتًا، مثل زهرة غريبة في أصيصها، كان على علمٍ بكل شيء.

-3-

الأمر يتعلق بحالةٍ مثيرة للاهتمام دون شك، ليس الأعجب بين كل مَن قمت بتمريضهم من قبل، ولكنه عجيب لا شك في ذلك.

كان مكتب الدكتور بونسونبي أكبر من مكتب ويدون، وبالمثل معرفته ورتبته: العديد من الأرفف المكتظة بالكتب، وجمجمة على الطاولة عليها عظام بأرقام محفورة، ونافذة تطل على الحديقة والجدار تُشكل تفاصيله البارزة.

لم يكن هناك شيءٌ مشجع، لكن بونسونبي كان طبيبًا. وكالعادة هؤلاء لا يكونون مشجعين.

كان بونسونبي نفسه متناغمًا مع الديكور: قوي البنية، وأصلع، ذو لحية صغيرة يداعبها باستمرار، وعينان تنظران إلى كل مكان باستثناء وجهي. طريقته في الكلام، دائمًا بكلمة «آه» التي يبدأ بها جمله، كأنه عندما يقول شيئًا ما يتذكر أنه وجب عليه قوله من قبل، أو كعادته في تصحيح نفسه -«هذا مثيرٌ للاهتمام، وليس الأكثر إثارة للاهتمام». «هذا ما أعرفه، لكنه مثيرٌ للاهتمام»- جعل الأمر أكثر صعوبة بالنسبة لي لمتابعة استطراداته.

وبينما كنتُ أستمعُ إليه نظرتُ إلى يديَّ المتشابكتين أمام المئزر. كانت قبعتي عالية جدًّا لدرجة أنني اعتقدتُ أحيانًا أنها ستلامس المصباح.

- سيكون الأمر سهلًا بالنسبة إليك، ربما الأكثر سهولة، ولكن... نعم من المنطقي أن يكون سهلًا... من السهل التعامل معه، آنسة ماكريجور.

- ماكيري.

- آه، معذرةً.

كانت هذه هي المرة الثانية التي يُخطئ بلقبي، ولكن لم يكن هناك أهمية لذلك؛ لأنه كان لطيفًا. جعلني أتساءل عمًّا إذا كان لطفه مرده عدم التفريق بين الأشخاص، أو لأنه كان على علمٍ بهذا الخطأ، فاختار التعويض عنه بلطف: «قبل كل شيء، تأكدي من أن المريض لا يشتكي... احترام مراوغاته قدر الإمكان. مثل الستائر المغلقة مثلًا... عليكِ أن تسمحي له بذلك. أنا لا أقول إنه لا يمكن وجود استثناءات،

ولكن... عائلته ذات مكانة عالية جدًّا. إنهم يدفعون جيدًا مقابل إقامته ورعايته. إنهم لا يريدون المشكلات.

- معذرةً دكتور! ولكن لماذا اسمه السيد إكس؟ لماذا لا يوجد اسم له؟

- آه... أعتقد أنه كان له اسم مرة واحدة، لكن لا أحد يعلم. «إكس» هو ما يُكتب في الأماكن التي يجب أن يظهر فيها اسمه في جميع التقارير، وهذا هو ما أطلقوه عليه بالفعل في أكسفورد. فعلت عائلته ذلك لتجنب التصرفات الطائشة. سبق أنْ أخبرتك إنها عائلة رفيعة متميزة جدًّا... وقد طُمست هويته في جميع الأوراق الرسمية.

- معذرةً، ولكن على الأقل ستكون هناك بعض المعلومات عن حياته السابقة قبل مجيئه إلى هنا.

- هذا أمرٌ صعب، يعيش في مصحات خاصة منذ أن كان طفلًا.

شعرتُ بغصة مفاجئة وموجة من العاطفة أغرقتني. بدأت أفكر في تلك العائلة «المتميزة» التي طردتْ نسلها من حضنها إلى الأبد، حتى إنها جردته من اسمه الأصلي. لقد رأيت في آشرتون حالات مأساوية للغاية، لكن حياة السيد إكس الذي نبذته عائلته جعلتني أتعاطف معه إلى حدٍّ كبير.

كان بونسونبي يسألني شيئًا ما.

- معذرةً دكتور!

- آشرتون. أرى في أوراقكِ أنكِ عملت في هذه المصحة، التي... اختفت للأسف. أعتقد أنكِ عملتِ مع فريق الدكتور أوين كوريدج، على ما أظن؟ (صادقتُ على كلامه) آه، هو من أحد أهم

اختصاصيي الأمراض العقلية في هذا البلد، بلا شك. ربما ليس الأهم لكن...، هل عملتِ معه في المسرح الذهني؟

- لا، لم أساعد أبدًا في هذه الجلسات، دكتور!

جعلته إجابتي يتوقف، كأنه يتوقع أن يمر بجانبي في اتجاهٍ ما، فضللتُ الطريق. ومع ذلك لم يتخلَّ عن الموضوع.

- يعجبني المسرح الذهني. لقد مارسته بنجاح ملحوظ.

ألقى نظرةً على ساعته المتدلية من سلسلة، وهي عادة أصيلة لدى الأطباء، كأنهم يقيسون نبض كل شيء، كان هذا إشارة لانتهاء اللقاء، لكنني رغبتُ في السؤال عن شيءٍ آخر: «معذرة دكتور! ولكن ال... النزيل، لديه انفجار أوعية دموية في عينه اليسرى. يجب أن يراه طبيب متخصص، ألا تعتقد ذلك؟».

بدا عبوس بونسونبي كأنه يُشير إلى أنه ليست لديه أي فكرة عما كنت أتحدث عنه، أو حتى مَن أنا.

- نعم... نعم.

- في العين اليسرى.

- أعرف ماذا تقصدين. نعم... نعم. كان على هذه الحال حين حضرَ إلى هنا، منذ شهرين.

- ولكن ربما يشعر بحُرقة في عينه. وربما لهذا السبب لا يريد فتح...

«آنسة... آه... آنسة!». ثم لوح بيده.

- ماكيري.

- شكرًا، لا تقلقي بشأن عينه، فهو لم يطلب أن يفحصه أيُّ طبيب متخصص.

بدا لي غريبًا ما يقوله. ربما صحة المريض تعتمد على رغباته الشخصية؟ حاولت التحدث بأكبر قدرٍ ممكن من التواضع: «معذرة دكتور! ولكن عينه حمراء جدًّا. من الممكن أنْ تؤلمه و... ربما كان شيئًا سطحيًّا. لو تمكنا من تخفيف هذا الالتهاب... سوف نستطيع أن نزيح عنه بقدر ما... نتمنى».

ظل ينظر إليَّ هنيهة.

- هناك طبيب متخصص وصل حديثًا إلى بورتسموث. لديه عيادة في ساوث سي بيد، عرض خدماته لتقديم الخدمات الطبية لنزلاء المصحة... أعتقد طب الأعين على وجه الخصوص. آه... سأخبر السيد ويدون أن يخطره، لكن التقرير يجب أن يُقدَّم لي أنا.

هذه الفرصة لوجود ذلك الطبيب جعلتني أبتسم.

- شكرًا دكتور!

ثم أحنيتُ رأسي في طريقي للخروج لكن صوته أوقفني: «آه، آنسة... آنسة!».

- ماكيري.

- آنسة ماكيري!

وفجأة أصبح لي وجود عنده، فقد توقف عن النظر لساعته وتصفح المجلدات، والعبث بلحيته، ووجدني أمامه بالزيِّ الذي أرتديه والقلنسوة على رأسي.

- لقد أُسست كلارندون منذ سبع سنوات، والفكرة أن يصبح مكانًا يستمتع فيه السادة المتميزون بالبحر والراحة ومعاملة الممرضات الطيبات... لقد نجحت حتى الآن. لكن يجب أن أحذركِ، هذا النزيل... آه، مميز جدًّا (رفع حاجبه) كوني حذرة جدًّا معه.

-4-

لقد أقلقني هذا التحذير أكثر مما كنت على استعداد لقبوله. أكون حذرة مع ماذا؟ لم يكن يريد أن يشرح ذلك: «سوف ترين»، قال لي عندما قلتُ وداعًا. لكن السيد إكس.. لقد عرفت حالات في آشرتون كان من شأنها أنْ تجعل عمَّال الرصيف يرتعدون رعبًا. ما الذي يُميز ذلك الكائن الفقير، باستثناء حبسه الدائم في دور الرعاية؟

كنت بحاجة إلى معرفة رأي زملائي.

لهذا السبب قبلتُ الدعوة بكل سرور، وفي نفس يوم وصولي، لأكون جزءًا من المجموعة المميزة من «ممرضات الشاي» في كلارندون.

في الواقع، تألفتِ المجموعة منا نحن ممرضات كلارندون، نجتمع لتناول العشاء ثلاث مرات في الأسبوع في مخزنٍ قديم ملاصق للمطبخ. لقد كان نوعًا من الطقوس. وقد أوضحت لي ذلك الصديقة التي اقتربت مني لتضمني إلى الأخوية. كان اسمها سوزي ترينش، كانت قصيرة ولها صوت أخنف، ولكنْ عيناها زرقاوان جميلتان. كانت سوزي -من جوسبورت- سعيدة بانضمام مواطن آخر من بورتسموث إلى الجيش الصغير. قادتني من الصالة إلى المطبخ ونحن نتهامس. على عكس توصية هيتي والترز، أصرت سوزي على أن العرض الحالي كان مسرحية الأطفال الموسيقية ليونتس ملك بوهيميا[1]، لم أعرفه، ولكنني لم أجده جذابًا لامرأةٍ عازبة ليس لديها أطفال.

- ولكنها للأطفال، أليس كذلك؟

- أوه، نعم، أوه... آني!

---

(1) العنوان مستوحًى من مسرحية «حكاية الشتاء» لــ شكسبير.

بعد ذلك عرفتُ أنَّ سوزي كانت تترك عبارات كثيرة ناقصة لخيال المستمعين، لا يهم، فوجهها الصغير كان مُعبِّرًا جدًّا.

- هل هي *فاضحة*؟

آثرتِ الصمت.

كان مكان اجتماعنا عبارة عن غرفة بلا نوافذ، يضيئها مصباح على الطاولة حيث أطباق الطعام ومعدات الشاي.

خبزتِ الطاهية السيدة جيليسبي بعض الحلوى بالكريمة لهذه المناسبة، وقدمتها لنا بعد تناول المرطبات. عندما دخلتُ كانوا جميعًا حاضرين بالفعل، كانت القبعات تضيئ في الظلام مثل الجبال الجليدية.

قدمت لي سوزي -رئيسة الممرضات- ماري برادوك -وكنت أعرفها بالفعل- بعد ذلك، نيللي ورينجتون الطويلة صارمة الهيئة، ثم جين ويمبول الصغيرة جدًّا -وبالتأكيد- الجميلة بزيها الضخم ووجهها المغطى تحت القبعة، والهدف عدم إثارة أفكار غير محتشمة لدى الرجال. كانت السيدة موراي -الممرضة المتقاعدة التي أخبرتني سوزي عنها- قد انسحبت إلى حدٍّ ما إلى الخلف بعيدًا عن الخمسة المختارين، وهي قد عملت مع والد الدكتور بونسونبي. لقد أحضرها إلى كلارندون؛ لأنه كان يحفظ لها معزةً خاصة. كانت السيدة موراي فوق كل شيء واتضح ذلك من خلال مناداة الدكتور بونسونبي باسمه الأول «بونسونبي» فقط. قالت: «بونسونبي محترف جيد ورئيس جيد». «مع بونسونبي عليك فقط الاحتفاظ بالأصول ومراعاة الشكليات».

بعد المقدمات، انتهزت سوزي الفرصة لتعلن للآخرين أنها لم تشاهد بعد -المسرحية الموسيقية- الملك ليونتس ملك بوهيميا. كان يجب أن تذهب لرؤيتها، كان ذلك واضحًا حتى إنهم غنوا الأغاني بأصوات منخفضة وحالمة:

اغسل، اغسل، كافح...
اغسل، اغسل، كافح...
هذا هو عمل القرصان
القرصان بأعالي البِحار.

كان الإيقاع لزِجًا بلا شك.

أضافت سوزي: «كما أنَّ إلمر هاتشينز أدى دورًا رائعًا... حين يخرج من الصندوق الخشبي ويقول: «أما أنا فلا، لا»».

وضعن أصابعهنَّ على شفاههنَّ وغرقن في الضحك.

قالت نيللي ورينجتون: «حين يدافع عن الفتاة التي أرادوا جلدها».

علَّقت الرئيسة برادوك: «هذا المشهد غير لائق بتاتًا».

وصدَّقنَ جميعًا على ما قالت. ولكن لمعت أعين بعضهنَّ، كان هذا واضحًا حتى في الظلمة. كان هناك أيضًا مسرحيات *طفولية* فاضحة.

ذكرت سوزي: «هي طفلة غير عادية في التاسعة من عمرها، ترقص مع إلمر هاتشينز وهي ترتدي شرابًا قصيرًا أحمرَ وحسب، يجب أن تروا كيف تدور ضفائرها».

ثم أعقب ذلك صمتٌ آخر ساخن.

سألتُ: «ومَن هو إلمر هاتشينز؟».

أجابت سوزي: «هو أكثر الشحاذين المحبوبين لدى أطفال بورتسموث».

علَّقت نيللي وهي تحتسي فنجان الشاي الثاني: «يقولون إنه لم يعد يشرب».

قالت ماري برادوك محذِّرة: «إنني لا أثق في السكارى، حتى وإن أقلعوا، لا يعرفون سوى السعي وراء المشكلات، انظروا إلى ما جرى لـ إدوين وهذا الرجل دولسي الذي قتله...».

علَّقت سوزي: «لكن هذا لا يحدث كل يوم، آنسة برادوك!».

«لكنه كافٍ لئلا أعجب بهم»، عقَّبتْ برادوك، التي اكتشفت شخصيتها كمديرة لاحقًا، كانت تعطي الكلمة الأخيرة لتُنهي أي محادثة، لكنها لم تنجح هذه المرة لأنَّ جين ويمبول الحالمة أضافت: «إلمر مختلف... الأطفال يعشقونه، آنسة برادوك! أخبروني أن قاتل إدوين كان في السجن، في أنشور جيت بسبب السرقة...».

ظهرتْ لفتات تدلُّ على الاشمئزاز. كانت نيللي وورينجتون مسؤولة عن اطلاعي على آخر المستجدات؛ من الواضح أنهما كانتا تتحدثان عن رجل مشرَّد، يُدعى إدوين نوجز، كان مشاركًا في عرض *لوسي المضحية*، الميلودراما التي أعجبتْ بها هيتي، فقد عثر الصيادون على جثته في الميناء الجديد -عند ساوث بيريد على الشاطئ- مقابل الثكنات العسكرية الشرقية قبل أسبوع. قالت نيللي إن إدوين ومحتال سابق يُدعى جاري هيسكوك، الذي يكسب رزقه معه، كانا قد خاضا معركة بالسكاكين أمام الجميع قبل أيام، ولهذا السبب تأكدت الشرطة من أن هيسكوك هو مَن قتله.

أوضحت لي نيللي: «هيسكوك اتهم إدوين بأنه سحب منه الدور في مسرح مؤسسة سانت ماري الخيرية، فالأدوار هناك تهمُّهم للغاية، اضطرَّ هيسكوك إلى القيام بدور الرجل المحبوب ليتمكن من العيش».

غالبتُ إيماءة عابسة على وجهي، شخصية *الرجل السكَّر* كانت رائجة جدًّا في لندن أيضًا، وهو عبارة عن عرض مسرحي جوَّال في الطريق وهو مثير للقرف ومنحلٌّ، غير أخلاقي. الرجال والنساء يُغطون أجسادهم

بالسكر الملتصق عليها، ويجولون بالطرقات ليلًا ومعهم مجموعة من الملاعق مقيدة بسلاسل طويلة تتدلى من أعناقهم. كان صوتها الرنان نموذجيًّا يمكنك أن تجرب السكر مقابل فلس واحد، ويمكنك تمزيق الأوراق بالملعقة. كان تمزيق ملابس الرجل أو المرأة اللطيفة هواية مفضلة لدى أطفال العائلات النبيلة.

همست نيللي: «أخبروني أنه بعد الشجار يأكل الأطفال السكر الذي حرروه من جروح هيسكوك!»، كانت هناك إشارات تدلُّ على الاشمئزاز.

قالت رئيستنا: «ليس هناك شكٌّ أن هذا المجرم السابق قتل إدوين».

ووافقوها جميعًا الرأي. طلبتِ السيدة موراي -التي كانت قد أنهت بالفعل الأطباق وبقايا الآخرين- أن تمرر إليها المعجنات.

لقد كانت تلك لحظتي. مسحتُ حلقي، وقلت لتغيير الموضوع: «لقد تمَّ تكليفي بـــ... «إكس». ماذا تعتقدن؟».

عمَّ صمتٌ جلل.

قالت نيللي ورينجتون: «نحن نعلم، يا له من أمرٍ مؤسف يا ابنتي».

وحذرتِ الرئيسة برادوك قائلة: «الوافدة الجديدة لدينا والتي سيتم استبدالها قريبًا».

أشفقتْ سوزي ترينش: «آمل أنْ لا...، أنا... أنا معجبة بكِ».

قالت نيللي ورينجتون: «لن أقترب منه حتى»، ثم تدخلت جين ويمبول بعطف: «لا نريد أنْ نخيفها، أيتها المسكينة...».

تمتمت سوزي: «بيتي هارفيلد، التي اعتنت به من قبل، كانت تبكي كل يوم».

قالت الرئيسة برادوك شاردة الذهن: «كانت بيتي مجنونة بهذا الرجل».

همستْ نيللي، كما لو كانت تذيع سرًّا رهيبًا: «أخبرتني بيتي أنها سمعت عدة *أصوات* ليلًا في حجرة السيد إكس».

سألت برادوك: «هل سمعتِها؟»، هزت نيللي رأسها نفيًا: «لقد أخبرتكم بالفعل؛ بيتي أُصيبت بالجنون».

أنقذت سوزي ترينش الموقف: «يا إلهي، آني! هل فعل لكِ شيئًا... هذا *الناي*؟».

- أي ناي؟

فضحكوا جميعًا، وبينهم تلك التي أشاروا إليها حتى ارتجفت صدورهم على ضوء المصباح. لكنها كانت ضحكة عصبية، مشحونة بالخوف. أطفأتها السيدة موراي فجأة.

- آنسات، آنسات... تعتقدن أنكنَّ تعرفن، لكنكنَّ لا تعرفن شيئًا، وتخترعن ما لا تعرفنه، هذا الرجل... إنه مرعب، لقد رأيته في اليوم الذي أتى فيه إلى كلارندون، وحذَّرت بونسونبي، لا تثق به، قلتُ له أنه ليس معتوهًا. هذا الرجل... هذا الرجل ساحر، أو ربما ما هو *أسوأ* من ذلك. نعم، *أسوأ* من ذلك.

- حسنًا سيدة موراي، ولكنكِ لم تتعاملي معه حتى...

- سوزي ترينش، كيف يمكن أن تعتبري نفسكِ ممرضة، إذا لم يكن لديكِ أي حدس بشأن المرضى حين ترينهم لأول مرة؟ (ونظرتْ إلينا جميعًا). صدقوني، يجب الحذر من هذا الرجل، إنه خطِر للغاية. قال بونسونبي إنه في المصحة السابقة التي كان فيها في أكسفورد...، حدث شيءٌ ما. لا يعرف ما هو على وجه التحديد، ولكنه أكد أن *البوليس* تدخل في الأمر.

ذكر «البوليس» يجعلني أشعر بعدم الارتياح دائمًا، تخيلتُ السيد إكس مجنونًا قاتلًا.

- من وجهة نظري لا يبدو لي رجلًا... خطِرًا جدًّا، عارضتهم جين ويمبول بتحفظ.. فقط... فقط أحيانًا...

- فقط هو مجنون صرف، عزيزتي (عقَّبت الرئيسة برادوك).

وهو ما أطلق العنان لموجةٍ جديدة من الضحك. بيدَ أنني نظرتُ إلى آنسة موراي، التي بادلتني النظرة موافقة.

همهمتْ: «في رأيي، كأنه *ينتظر شيئًا...*».

هذه العبارة الأخيرة جعلتِ القشعريرة تسري في جسدي دون معرفة السبب.

قالت ماري برادوك بلهجةٍ منفرة فيما تلتهم قطعة كاملة من الحلوى: «إنه ينتظر التخلص من الممرضة المُقبلة». ضحكن جميعًا، لكنَّ عينَي آنسة موراي الدامعتين واصلتا التحديق بعينيَّ.

-5-

حين دخلتُ غرفته بعد ظُهر ذلك اليوم، وجدتُ نفسي أكثر هدوءًا -على عكس ما قد يبدو للقارئ- عادةً ما يخاف الناس من الأشخاص المجانين لأنهم يفعلون أشياءَ غريبة. إذا كانوا يعانون مرضًا في المعدة -على سبيل المثال- فلن تخافوا من رؤيتهم يتقيؤون. أمراض العقل تُنتج أيضًا القيء بطريقتها الخاصة. اعتقدت أن رفاقي -وحتى بونسونبي نفسه- كانوا محترفين في التعامل مع المهاويس الأغنياء، لكن رجلًا مجنونًا حقيقيًّا من النوع الجاد ربما أربكهم.

حسنًا، لم يكن هذا هو الحال مع آني ماكيري، ممرضة دار الرعاية.

بمجرد دخولي توجهتُ نحو النافذة، وفتحت الستائر على مصراعيها. كان المطر أخف من أمطار الصباح فأعتم النوافذ.

- مساء الخيرات والأمطار الرائعة سيد إكس! سأفتح النافذة قليلًا لتهوية الحجرة.

نطق الصوت الرقيق لكن بلهجة قاطعة: «لا».

ملتُ نحوه متصنعة الغضب: «هيا بنا يا سيدي، لماذا لا تريد أن أفتح النافذة؟».

- لأنني لا أريد ذلك آنسة ماكيري! وقد فتحت الستائر من قبل. أغلقيها.

- ليس هذا سببًا.

تطلع إليَّ بصمت دون أن ترمش عيناه الكبيرتان ذواتا اللونين.

- لقد أخبرت الدكتور بونسونبي، سيأتي طبيب أعين متخصص لفحص عينيك، (ابتسم بسخرية، كما لو كان يضغط لسانه. لفتة مفاجئة على وجهه الجامد). ابتسمتُ: لا تتصرف مثل الطفل. لن يُسبب لك الطبيب المتخصص أي ضرر.

أخذَ نفسًا وأخرجه في تنهيدةٍ ضعيفة. ثم رسمتْ شفتاه ابتسامة خجولة -أتذكرها جيدًا- جميلة ومقتضبة، ولكنها ملحوظة. لقد كنت فخورة لأنني جعلتها تتفتح على ذلك الوجه الخالي من أي تعبير.

يا للرجل المسكين، فكرتُ. المطلوب فقط هو التحدث معه بأدب ومودة.

- ثق بي. قلتُ له -بعد شعوري بالرضاء لإنجازي البسيط، حتى إنني تجرأتُ وربتُّ على يديه- كل شيء سيكون على ما يرام.

تحدث مرة أخرى بينما كنت لا أزال أُربت على يده بلطف. بالكاد تحركت شفتاه الرقيقتان، لكن بالنبرة الواضحة المخملية السابقة نفسها.

- لقد اعتقدتُ أن مصحة كلارندون الخاصة، والمكلفة للغاية يمكن أن توظف شيئًا أفضل من سيدة شابة محبطة بسبب افتقارها إلى الجاذبية، مما يجعلها تقع في أحضان بحَّار يُفضل زجاجات الشراب عليها، وذلك في آخر موعد لهما، ألقى عليها زجاجة نبيذ أحمر فارغة، وحاول خنقها.

رفعتُ يدي عن كفه.

توقفتْ يدي،

وغطيتُ فمي باليد الأخرى.

أقسم أنه حتى المطر توقف. ربي!

ربي!

ربي!

ربي!

ربي!

ربي!

-6-

لا أعرف ماذا قلتُ، لا أعرف ماذا فعلتُ. بكيتُ، جذبتُ جلد وجهي، اشتعلَ وجهي من الحمى، انفجر خداي من الخجل.

اعتقدتُ أنني كنت أحلم.

- إذا كان لا بدَّ لكِ من البكاء، فلا تفعلي ذلك على السجادة (تابع الرجل الصغير ذو الرأس الكبير باللهجة نفسها) تتسبب الدموع القلوية في رائحة لا تُطاق حين تختلط مع النسيج الصناعي الذي يذكرنا -ولو عن بُعد- ببول الفئران. والآن، من فضلك اسحبي الستائر. لن أحتاج إليكِ حتى العشاء، مساء الخير.

لا أعرف كيف واتتني القوة للطاعة. ولا أتذكر أيضًا كيف تمكنتُ من الخروج من ذلك المكان المظلم: أتخيل أنني فعلت ذلك وأنا أمشي بحذائي الجديد، وسرعان ما عدت -على ما أعتقد- لأرتدي حذاء التمريض. أرى نفسي أسير بخطى ثابتة عبر الممر نحو الدَّرج، مثل آلة من تلك التي تظهر أحيانًا في مسارح الدمى. ومن هناك إلى الصالة، ومن هناك إلى المطابخ، ومن هناك إلى غرفتي الخاصة في الدور العلوي. والشكر للرب لم أقابل أحدًا خلال الرحلة. أو ربما لم أرَ أحدًا. أو ربما لا أتذكر. أو ربما مت وأكتب هذا على قبري. يا إلهي! آه، آه، آه.

أغلقت الباب وجلستُ على السرير أفرك يدي.

-7-

عندما كنت طفلة، اعتادتْ والدتي أخذي إلى الشاطئ، ربما على بُعد أمتار قليلة من مكاني الآن. كنت أفعل شيئًا طالما استمتعتُ به كثيرًا: أقف على الشاطئ وأجمع الرمال الرطبة، مستفيدةً من الفاصل الزمني بين الأمواج، حتى أقوم ببناء تلٍّ على عجل. عندما تدمره موجة، أحاول أن أفعل الشيء نفسه قبل الموجة التالية. كان هدفي هو بناء واحد بسرعة وصلابة، فلا تتمكن الأمواج من الإطاحة به. كنت حزينة لأن الماء سوف يهدمه. بالطبع لم أنجح: فالبحر يصل دائمًا أوَّلًا ويفوز. بدأتُ أعتقد أن هذا ما حدث لي في تلك اللحظة لأي تفسير حاولتُ العثور عليه.

تُرى مَن أخبره؟ أخي؟

ولكن، لماذا سيحكي أخي آندي شيئًا ما يخصني لمريضٍ عقلي في بورتسموث؟

ربما كان آندي قد وشى بي؛ ليطردني من العمل؛ ليمنعني أنا وروبرت من العودة لبعضنا؟ ربما كانت علاقتي مع روبرت معروفة في جميع أنحاء كلارندون؟ يا له من رعب! قلت لنفسي. كل هذا غير ممكن. هذا يحدث فقط في المسارح في العادة، أمَّا في الحياة الواقعية فلا يُعلن عادةً عن شيءٍ *فاضح* كهذا على الإطلاق.

من ناحيةٍ أخرى، صحيح أنَّ أندرو لم يحب روبرت مطلقًا، ولا يلومه أحدٌ على ذلك. ولم يعجبه مطلقًا إمكانية زواجي منه. لقد فضل أن يتركني مسؤولة عن رعاية الأسرة، بينما كان يبحث في لندن عن فرصة كممثل مسرحي. بعد أنْ جعلته تجاربه مع المسرح السري يندم على ذلك -بالكاد أخبرني عن أيٍّ منها- ادعى أنها «غير مناسبة للنساء»؛ ولم تكن كذلك -والرب يعلم أكثر- لكنني رأيتُ بالفعل بعض الأمور السرية مع روبرت، فقد ترك كل شيء وحصل على وظيفة في القطاع المصرفي. بالنسبة لي، فضلتُ الاعتناء بالناس. وصحيح أنني أجدتُ ذلك: اعتنيتُ بوالدنا عندما تورمت قدمه بسبب مرضه، لدرجة أنك لتظن أن كاحله سينفجر في وجهك عندما تقترب منه. وبعد ذلك عندما مات وبعنا منزلنا في هايتون ألي، أخذتُ والدتي إلى لندن لرعايتها، ولدفع الإيجار في ساوثوارك، كنت أعتني بالناس بدوام جزئي. خلال تلك الفترة التقيت روبرت ميلجرو، وهو بحار من الدرجة الثانية على متن سفينة تجارية تسمى إنجراتو. كنت أعلم أن روبرت لم يكن ملاكًا هبط من السماء؛ لقد شرب وأقسم، ومضغ التبغ وبصق، وضربني وصرخ. لكن في أفضل لحظاته كان حنونًا وجعلني أشعر بالأمان. كنت على قناعة

بأن ما دفعه إلى هذا العنف هو الشراب وليس شخصه، وأنني سأنجح في إبعاده عن الزجاجات في وقتٍ ما. لذلك كرستُ نفسي لرعايته.

حسنًا يا آندي، أنت لا تحب روبرت، لكنك كنت تحب المسرح وقت مراهقتك. اسمح لي أن أحصل على فرصتي في المسرح في الأربعين من عمري. هكذا اعتقدتُ. لا روبرت، المسرح غير نقي أو لائق، لكنهم يقدمون لنا شيئًا نفتقر إليه، أو على الأقل هذا ما كنت أومن به حتى مناقشتنا الأخيرة. وقت الزجاجة، والعلامات على رقبتي.

والآن بعد أن فكرت في *ذلك*.

وكانت محاولة الخنق والزجاجة تفاصيل لم يعرفها أندرو، وقد أخفيتُ آثار أصابعه على رقبتي بوشاحٍ صغير، تُرى هل خان روبرت علاقتنا ليطردني من كلارندون؟

لكن لو كانوا عرفوا ذلك في كلارندون، فلماذا قبلوني؟

كأنها أكوام من الرمال الرطب الغامض.

الشيء الوحيد الذي تمكن من التغلب عليَّ -صدِّق أو لا تُصدق- كان شيئًا غبيًّا للغاية.

أنظر إلى يديَّ بينما أفركهما، بقلق. رؤية أصابعي بأظافر قصيرة ومفاصل متصلبة، ويدي المتليفيتن المحمرتين، أعادتني إلى الواقع.

لم أكن أعرف ما الذي حدث أو لماذا، لكن كان لديَّ شيء لأفعله، ولم أكن لأتوقف عن القيام به بسبب هذا الحدث.

كان اسمي آني ماكيري وكنت ممرضة، هذا كل شيء.

نزلتُ إلى المطبخ، وطلبت من الخادمات إعداد شاي بتركيزٍ مخفف جدًّا، وفتشتُ خزانة الأدوية بحثًا عن شاش وملاقط، وعدتُ إلى غرفة النزيل الذي أتولى رعايته ومعي وعاء البخار وجميع الأدوات. ما الفرق

الذي سيحدث؟ لقد كنتُ كالميتة بالفعل بسبب *الفضيحة*، أما بالنسبة له، فمن الممكن أن يكون الشيطان نفسه أو ساحرًا، لكن تلك العين المتهيجة كانت بحاجة إلى الراحة.

لقد كان ذلك شيئًا ماديًّا على وجه الأرض. عمل، رعاية، فأنا صاحبة التصرف في كل ذلك.

طرقتُ الباب ودخلتُ دون انتظار الرد. في ذلك الظلام المفاجئ والستائر المُسدلة في البداية لم ألاحِظ التغيير. وعندما وضعتُ الصينية على طاولة مجاورة قفزتُ للخلف.

كان الكرسي يتحرك. هذه المرة لم يكن وهمًا.. ظلَّ يرتعش.

- سيد إكس؟

اقتربتُ ونظرت إليه، ورأيتُ الهيئة المتكدرة، وذراعه اليسرى مرفوعة فوق اليمنى بينما يلوح بهما يمينًا ويسارًا في حركة تبادلية. كانت عيناه مغمضتين، بينما هو غارق في حركاته الهادرة، منتفخًا، كالمسعور، حتى في الظلام كان هناك وريد بارز مرئي يعبر صدغه مثل علقة من الدماء المتخثرة.

-يا إلهي!، (تأوهتُ). سيد...!، أمسكت برأسه محاولةً أن أجعله يفتح فمه حتى لا يبتلع لسانه، وهو إجراء شائع جدًّا في الإسعافات الأولية لأولئك الذين يعانون مثل هذه النوبات. ليس الأمر شائعًا، غير أنني عندما أمسكتُ به توقفتِ النوبات تمامًا، ونظر إليَّ عابسَ الوجه.

- آنسة ماكيري! هل لكِ أن تتركيني أواصل عزف الكمان؟

-الكمان...؟

-إنني أتدربُ في مثل هذه الساعات يا آنسة!

-معذرة.

-أنا قبلتُ عذركِ. من فضلكِ اسمحي لي بالاستمرار.

يجب أن أقول -على الرغم من أن ذلك أثقل عليَّ الآن بعد أنْ عرفت ما كان يفعل، أو ما يعتقد أنه كان يفعله- أن تقليده كان مؤلمًا. لم أرَ أي عازفي كمان محترفين عن قُرب، لكن كان بإمكاني أن أقسم أنهم لم يتحركوا بمثل هذه الهزات. ومع ذلك... كان هناك شيءٌ ما في تمثيله الصامت، أو في التعبير المطبوع على وجهه، جعلني أنظر إليه لفترةٍ أطول بكثير مما يتطلبه المنطق السليم.

لم يسبق للصمت أنْ جعلني منتبهةً إلى هذا الحد.

وأخيرًا غادرتُ الغرفة سيرًا على أطراف أصابعي، كأنني لا أرغب في إزعاج الفنان في منتصف الحفل.

في الردهة مررت بسوزي ترينش وابتسمتُ لها.

- إنه الكمان.

- ماذا؟

- ليس نايًا ما تعتقدين أنه يعزفه، سوزي! إنه كمان.

شعرتُ في تلك اللحظة أنني في حالة أفضل. السيد إكس مجنون صِرف، وإنني ممرضته.

-8-

بقي السؤال الشائك قائمًا حول كيفية اكتشاف أمري أنا وروبرت، لكنني كنت متأكدة من أنه سيكتشف الأمر عاجلًا أم آجلًا. ثم فكرتُ في شيءٍ ما.

قال لي الدكتور بونسونبي: كوني حذِرة. بدا السيد ويدون ورفاقي متوترين. لقد وصفته السيدة موراي بـ «الساحر».

ماذا لو كانت تلك القدرة الغريبة هي ما يخشونه؟ لقد التقيتُهم بالفعل في آشرتون: مرضى يعرفون كيفية إجراء عمليات حسابية معقدة، أو قراءة صفحات كاملة من الكتاب المقدس عن ظهر قلب... بيدَ أنَّ ذلك لم يجعلهم أقل جنونًا، لكن تلك الممارسات كانت تجعلكِ ترتعدين. وإذا كانت مهارات السيد إكس هي تلك، قال الدكتور كوريدج: إنَّ قدرة السيد إكس هذه نشأتْ بسبب «تطور فراسة الدماغ الجبهي غير المعتاد» -والذي لا أعرف عنه شيئًا- ولكن على الأقل بقدر ما كنتُ أشعر بالقلق، عدتُ لحالتي الأولى.

على أي حال، كنت ممرضته قبل أي شيء. وواجبي العناية به وليس فهمه.

عدتُ إلى غرفته في تلك الليلة بعد العشاء لأعطيه عقار اللودانوم -كان بونسونبي قد وصفَ له بعض القطرات المنومة، وعلمتُ لاحقًا أنَّ هذا ما كان يفعله مع جميع النزلاء تقريبًا، يتم تجهيزهم للنوم- لم يخطر ببالي أنني سأخاطر بحياتي في كل هذا.

في الغرفة ليلًا، كان المصباح مضاءً على رفِّ الموقد، شعاع الضوء ضعيف جدًّا، لكنه يسمح لك بالتحرك دون أن تنكسر ساقاك على قطعة أثاث. حالما وضعت اللودانوم على الطاولة، توجهت إلى الستائر وسحبتها. كنت على استعداد لمواجهة الوحش، ليس من باب الشجاعة، بل من باب الشفقة، لقد كان الشخص المريض. كان عليَّ أنْ أعتني به.

- الطبيب سوف يستدعي اختصاصي الأعين ليفحصك (أخبرته). سوف أفتح النافذة قليلًا، لا بدَّ وأنْ يتجدد الهواء. (لم أتوقعْ أنْ يستجيب، بدأتُ أحرك مزلاج النافذة فيما أتحدث) هدير الأمواج سوف يساعدك على...

- احذري.

- لا بأس بكل ما تخبرني به أيها السيد!

- احذري آنسة ماكيري!

- لماذا ...؟

في تلك اللحظة سحبتُ مقبض الباب. فعلتُ ذلك بلفتة مفاجئة، لأنه بدا عالقًا، وإذا لم ألتفت على هذا النحو لأسمع ما يقوله السيد إكس، لما كنت موجودة لأحكي هذا: لسان المزلاج كان محشورًا في خُطَّاف، ولحظة الفتح دار حولي بطرفه الطويل المدبب الحاد مثل سكين صغيرة، لقد تراجعتُ على الفور إلى الوراء، وانتابني شعورٌ بالخوف أكثر من الغضب.

الكارثة تنتظرك دومًا في الأماكن التي لا تتوقعها.

صحتُ وقد استبدَّ بي الغضب: «مَن اخترع هذا الاختراع الغبي؟».

- ربما هو الشخص نفسه الذي يعتقد بأن النوافذ لا يجب أن تُفتح في مصحة للأمراض العقلية يقطن بها نزلاء مختلون -أوضح الصوت في ظهري- على الرغم من أن الحل لم يكن هو المثالي.

لقد كان ذلك تفسيرًا، أجل. الأشخاص المختلون يفكرون بشكلٍ جيد في كثيرٍ من الأحيان. تركتُ النافذة مفتوحة بينما هواء البحر يهدئ من روعي. عزيزي بحر بورتسموث. أقبلتِ الأمواج بوضوح من وراء الأشجار، في ظلمةٍ تتخللها أضواء القوارب خلْف المطر الصباحي الغزير مخلِفةً أثرًا من النضارة. كيف يمكن لهذا الرجل أنْ يعيش محبوسًا دون الاستمتاع بكل هذه المتع؟

ذهبتُ لفتح السرير له. سمعتُ صوته خلفي مرة أخرى.

- إنكِ تعاملينني بغضبٍ واضح آنسة ماكيري! كلمة «شكرًا» ليست ملزمة ولكنها محل تقدير. لقد أنقذتكِ من اللسان المدبب القاتل.

أجبته بصوتٍ فاتر، بينما أرتب وضع الوسادة: «شكرًا».

- أوه، أعتقد أنه قد أزعجتكِ الملاحظات التي أخبرتُكِ بها هذا المساء.

- مطلقًا سيدي -وبالرغم من أنني رغبتُ في عض لساني لم أتمكن، روبرت اعتاد القول: «لديكِ القوة لتبدئي بالحديث، ولكن ينقصكِ تحمُّل ما سيجلبه عليكِ ذلك»- لم تزعجني، فحضرتك لا تعرف عني شيئًا... ولكن... ولكن إن لم أكن مخطئة... فربما تحدثت إلى شخصٍ ما يعرفني.

- معنى هذا أنكِ تريدين أن اشرح لكِ كيف عرفتُ ذلك؟

- لا، شكرًا، أنا أعرف بالفعل. إنه شيءٌ خاص بالفراسة في الجزء الأمامي... ينتجه...

تنفس السيد إكس وقال: «يبدو أنَّ الأطباء قد شاركوا معلوماتهم الجاهلة معكِ بالفعل. أحيانًا يبدو لي أنني ألعب الشطرنج ضد المعارضين الذين يلعبون النرد».

- لا أفهم، سيدي!

- بالطبع لن تفهمي. هناك طلبٌ واضح على ذكائي في جميع أنحاء العالم، لذلك قررتُ بيعه. سأقدم لكِ تفسيرًا في مقابل شيئين.

كما هو الحال دائمًا، هذا الخيط الناعم والواضح من الكلمات.

سألته بحذر: «وما هما؟».

- لا تفتحي النافذة، ولا تحضري أطباء أعين.

تقريبًا فلتت مني ابتسامة. من حسن الحظ أنني كنت أجلس خلف مقعده. لم يكن ليراني وإن كانت له عينان في قفاه.

- سأغلق النافذة، لكن لا بدَّ من فحص عينك هذه.

- إنكِ عنيدة جدًّا.

- لقد بدأ كلٌّ منا يفهم الآخر.

مددتُ الفراش، وبدأت في بسط الملاءة بينما أسمع ما يقول.

- كما تحب.

بعد هنيهة من الصمت عاودتُ الحديث إليه.

- لقد منحتك النصف، بمقدورك أن تمنحني نصف التفسير.

- نصف التفسير هو التفسير كله يا آنسة ماكيري! (قال بصوته الرفيع). لكن لكي تنامي بهدوء هذه الليلة... عندما دخلتِ سمعتُ صوت احتكاك أصابعكِ على نسيج منديل صغير، في الوقت نفسه الذي بدأ يشوب صوتكِ شيءٌ من الغلظة، كأنك تعانين اختناقًا ما زالت آثاره حاضرة. فاحت رائحة طفيفة جدًّا من الرون والقطران من فستانكِ، ورائحة نبيذ مُعتق في شعرك. هل هو عشاء رفيقين؟ بمكانٍ عام؟ غير ممكن، بسبب محاولة الخنق. إذًا هو عشاء خاص. وإذا كان شخص مثلك على علاقة حميمة ببحار على هذه الشاكلة، فمدلول ذلك أن تقديره لذاتك منخفض للغاية.

تأوهتُ: «لا، من غير الممكن أن تستنتج كل هذا...».

- أرجوكِ ألا تبكي فوق السجادة.

جففتُ دموعي، وتحركتُ بعيدًا عن السجادة. أصريتُ: «لا أحد يستطيع أن... يستنتج كل هذا إذا لم يرَ الشخص بعينه».

- هل تحبين المسرح؟، سألني الرجل ذو الرأس الكبير فجأة.

- بالطبع، ومَن لا يحبه (شتتني سؤاله).

- أنا.

- لا تحب المسرح.

- لا.

- وما علاقة هذا بما نتحدث عنه؟

- لو توقفتِ عن توجيه الأسئلة لي سأشرح لك. (التزمتُ الصمتَ على مضض، وتابع هو بصوته الرفيع) في المسرح يجلس الجميع مهتمًّا بالعرض، وأنا أفعل بالمثل ولكن الشيء الذي أتابعه هو الأشخاص، أعلم أنكِ لا تفهمينني.

الحقيقة، لم أفهمه. أو ربما فقط قد تصور مأساتي بمجرد التطلع إليَّ، وهو ما جعلني أبكي من جديد.

- إذا كان هذا قد يريحكِ قليلًا، سأخبركِ أنني أنا أيضًا لا أفهم لماذا تبكي النساء على كل شيء؟ (نطق صوت الجالس على المقعد).

فكرتُ في إجابةٍ لاذعة: «لأننا لم نعتد أنْ نضرب، أو نذل الآخرين حين نغضب، أو نذكر خصوصياتهم في وجههم...».

لم يقل السيد إكس شيئًا. انتهزت الفرصة لأغلق النافذة.

- نومًا هانئًا سيد...

حين التفتُّ ونظرتُ إليه، تسمرت قدماي. كان المقعد فارغًا.

للحظة تخيلت أنه تبخَّر مثل الشبح، ولكنه كان مضطجعًا على فراشه، نائمًا على ظهره.

- أنت لم تتناول الـ لاودانو، قلتُ له بعد أنْ لمحت أنه لم يمس الكوب.

- لا أحتاج إليه، فالحديث معكِ يُسبب النعاس.

- شكرًا.

على الرغم من أنَّ حركة فمه دللت على أنه يقول ذلك على سبيل «المزاح»، لا شك أن مزاجه بدا متحسنًا لسببٍ ما.

- طابت ليلتكِ آنسة ماكيري! لا بدَّ وأن أخلد إلى النوم الآن. يجب أن أستيقظ مبكرًا غدًا.

وهذا ما كان عندما اقتربتُ منه، أخذَ يتنفس بسلام وعيناه مغمضتان. كان الأمر كما لو أنَّ شخصًا ما قد غادر الغرفة بعد إطفاء الضوء.

تركته بعد أن فعلتُ الشيء نفسه مع المصباح.

في غرفتي الصغيرة، وعلى الرغم من الانهماك الذي تملَّك مني بسبب صخب وضجيج ذلك اليوم الأول في كلارندون، جافاني النوم. يا له من شخصٍ غريب! لم يسبق لي أنْ قابلت شخصًا مثله قبلًا، سواء كان مجنونًا أم لا.

لا بدَّ أنني قد غفوت أخيرًا، لأن مسرح الأحلام بدأ على الفور، رأيت روبرت على كرسيٍّ بذراعين، والسيدة موراي بجانبه بابتسامة أبرزتْ أسنانها.

إنه ينتظر *شيئًا ما*، كررتُ لنفسي مرارًا وتكرارًا.



صحيفة بورتسموث

«بوهيميون الملك ليونتس»، مسرحية موسيقية من تأليف إي. بوجوش. مسرح سانت ماري الخيري.

تبقى الجوقة معنا: «نظفْ، نظفْ، نظفْ...! إنها مهمة القراصنة في... أعالي البحار، القراصنة والقراصنة، أغاني لا تُنسى، ولكن ليس الأطفال فقط هم مَن يستمتعون بذلك: في نسخة المايسترو بيتيروسو مع شركة كوبليوس، يستمتع الكبار أيضًا. نشاهد فتيات «القرصنة» وهنَّ يخلعن ملابسهن. الأطفال في الجمهور يصرخون ويرتجفون ويقفزون، ويرمون الأشياء مع كل قطعة ملابس يأخذونها. فرحة متفجرة لا مثيل لها، الأمر كله فاضح بنكهة طفولية. لا تقلقي سيدتي! عندما يظهر إلمر، سيجعل ابنكِ قادرًا على الصراخ حتى تخرج الرغوة من فمه، هل تشعرين بالقلق؟ نحن نحب رؤية تلك الوحوش الصغيرة ذات الأعين البرية تضحك حتى تصاب بالجنون، العظيم إلمر هاتشينز يجعلهم يزأرون،

فليباركه الرب».

دي إتش همبرت

نهاية المشهد إلمر هاتشينز

«بعض نهايات المشاهد تصيبنا بالوهن».

جيروم ك. إدواردز

موسوعة المسرح (1865).

إلمر لا يعرف أين هو. والحقيقة أنه لا يهتم بذلك.

فليكن مكانه أيًّا ما كان، المهم أن إيلا إلى جانبه.

يريدُ أن يبكي، يضحك، ينفجر في حياته التي بلغت أربعة وستين عامًا.

في البداية ظنَّ أنه كان يحلم. لكن لا، هذان الفخذان، البشرة مثل تلك الفاكهة النضرة، العضلات المشدودة، كل شيءٍ حقيقي. إنها صغيرة جدًّا، لكنها أفضل فتاة بقي معها على مدار حياته.

ذلك لا يشي بالكثير، دعنا نوضح ذلك. لأن حياة إلمر هاتشينز هي واحدة من تلك الحيوات «المُقدَّرة»، هو من قرية شمال بورتسموث، والتي ربما مُحيت من الخريطة عندما تخلى عنها إلمر، مرتحلًا إلى هذه الموانئ. لم يكن يفتقر إلى العمل، طوله ستة أقدام ونصف تقريبًا، بأكتاف عريضة لا يمكنك احتضانها بالكامل لحظة العناق، قوته مذهلة، كان مثاليًّا كعامل للشحن والتفريغ. ومع ذلك كان لطيفًا بطبيعته، وأحمق إلى حدٍّ ما، ولم تكن لديه الرغبة في الأذية. على الأرصفة، كان الرجال أقصر وأضعف منه يضربونه، فقط لأن إلمر لم يرَ أي سبب لردعهم، وتحمَّل تمامًا كل ما تلقاه. لكن آخرين ألحقوا به ضررًا أكثر سوءًا؛ عرفوه على الكحول، وأجبروه على الشراب. كان إلمر -المخمور- مثل الدب الغبي، كانت اللعبة المفضلة لعمال الرصيف هي مشاهدته -بينما يترنح- كما لو كان يرقص حتى سقط. ولم يستغرق الأمر وقتًا طويلًا لطرده من العمل. قال: «لقد أنقذوني في سانت ماري». وفي الملجأ وجد شيئًا ليفعله أو يتراجع عنه: فقد أُعطي حبلًا سميكًا، وقام مع أشخاص آخرين محرومين، باستخراج الخيوط بأصابعه الغليظة في عمل شبكة خيوط مثل العنكبوت. يمكن بعد ذلك بيع هذه الخيوط، وقد ساعدت المهمة أيضًا على إبقاء أولئك الذين هم على شاكلة إلمر، مشغولين فقط بالجزء السفلي المظلم من الزجاجات. ادَّعى إلمر أنَّ فك الحبال أنقذ حياته، ومنذ ذلك الحين حمل بعض قطع الحبل المعقودة في جيب بنطاله البالي حتى لا ينسى ذلك الوقت مطلقًا. منحه هذا حظًّا سعيدًا.

اكتشف أيضًا في المسرح الخيري قدرته على إضحاك الأطفال. جسده الكبير، ولحيته البيضاء الضخمة، وصوته الغليظ أخاف الأطفال في البداية. ثم ضحكوا حين مطاردة إلمر الكبير أو ضربه أو ركله،

وإخراجه من المشهد مثل أحمق كبير مبتسم. العرض أكثر أو أقل مثل ذاك على الأرصفة. الفرق أنه في المسرح لم يؤذه أحدٌ أذى حقيقيًّا. كان إلمر سعيدًا برؤية كيف تحولت محنته إلى متعة للأطفال. شيئًا فشيئًا بدأ يبتعد عن الكحول المخيف، الذي كان يخيم على عقله، ولم يكل أبدًا عن إخبار صديقه الصبي داني ووترز، المتلعثم بذلك. الزجاجة ليست جيدة يا داني، انظر ماذا أصاب إدوين. أخبَرهُ أن هناك طرقًا أخرى لتصير سعيدًا.

مما لا شك فيه أن الفتاة التي معه الآن تعرفهم جميعًا.

الفتاة ليست الزجاجة، بل هي الجني الذي يعيش بداخلها.

بإمكان إلمر أنْ يقسم على ذلك.

ومع كل هذا كم هو غريب؛ إلمر لا يداعبها، ولا يلمسها ولو بأطراف أصابعه.

في واقع الأمر، لقد أدرك الآن أنهما ليسا قريبين من بعضهما بعضًا.

من ناحيةٍ أخرى، إلمر يعرف أنها هناك، وأنه هناك، وهي تتحرك من أمامه ومن بين يديه. يخرج اللعاب من بين فتحات أسنانه: أنهار كثيفة مثلها مثل الخيوط التي غزلها في عمله بالأمس. كل قطرة مثل طرقة جرس، حتى تصل إلى اثنتي عشرة.

ثم يفهم، هو نفسه مصنوع من الحبال. أمعاؤه، جفناه، لحيته، خصيتاه، دماغه، كل جزء من جسده مصنوع من ألياف قوية متشابكة. اللعاب هو وسيلة سحْب نهاية إحداهما والتراجع عنها. يتفتح إلمر شيئًا فشيئًا ليُشكل حلقات على الأرض. وهذا يجعله يشعر بمتعة غامرة لدرجة أنها تتحول إلى رعب لا ينتهي تقريبًا.

عندما يريد الصراخ، فإن أحباله الصوتية -بسحبة أخيرة لطيفة- تحل نفسها وتطفو ببطء حتى تسقط في الحبل.

ومع ذلك يمكنه سماع الصوت. إنه يأتي من الظل حيث اختفت الفتاة. ساخرًا، يخلف أصداءً تصم الآذان:

إلمر ليس لديه حبل.

إلمر لم يعد عاقلًا.

إنها نهاية المشهد.

سوف يموت قريبًا.

الجُثَّة



-1-

وافتني سوزي بالأخبار في اليوم التالي. أطلَّتْ من النافذة عند منحدر درج السكان بجوار خادمة، وعندما سمعتني أصعد إلى أعلى، وجهت عينيها الجميلتين الزرقاوين نحوي.

- صباح الخير آني! هناك على الشاطئ.

انضممتُ إليهما في المراقبة. لا أعرف إنْ كنت قد وصفتُ بدقة موقع مصحة كلارندون. بالنظر من تلك النافذة، كان بوسعك أن ترى الجهة الشرقية، التي تحجبها الشمس الآن، البناء الجديد لرصيف ساوث بيريد بأعلامه الصغيرة ومقاهيه وخيامه الترفيهية، ومن بينها واحدة -كما قالت سوزي- من *الرمال* في ليالٍ معينة. إلى الغرب، على الطرف الآخر من الشاطئ، بالإمكان رؤية قلعة ساوث سي القديمة، التي كانت حتى وقت قريب مَعقلًا دفاعيًّا لجزيرتنا، وهي الآن مخصصة -في بعض الليالي- للترفيه في الهواء الطلق. إذا اقتربتُ أكثر -وبالنظر لزاوية الخط الساحلي- يمكنك رؤية جزء من شارع كلارنس، وصَفٍّ من أشجار

الصنوبر مثل هذه التي تزين حديقتنا. بجانبها كانت هناك دائرة من الناس في الرمال. ميزتُ قبعات من القش، وخوذات الشرطة، ومظلات الشمس، وشخصًا يسبح. انحنت هيتي والترز خلفي، بجذعها الممتلئ.

- أووه... جثة.

لم أتفاجأ أبدًا. كان يومي الثاني في العمل في كلارندون، وما الذي كان يظهر على بُعد حوالي مئتي ياردة من مكاني؟ جثة.

لقد اعتبرته شيئًا طبيعيًّا تقريبًا. والشيء الجيد فينا -أولئك الذين لديهم حظ سيئ دائمًا- هو أننا لا نؤمن بالخرافات.

-2-

أصبحت تلك النافذة المكان الأكثر ارتيادًا لموظفي كلارندون طوال الصباح. لم يكن الأمر غريبًا إذا أخذنا في الاعتبار أنه أفضل مكان لرؤية كل شيء، باستثناء غرف المقيمين في الطابق الأول، الجناح الغربي. كان السطح العلوي مرتفعًا جدًّا، ولم يكن لدى مكاتب ويدون وبونسونبي سوى إطلالات على الجدار المحيط بكلارندون. لذلك تناوبنا عند تلك النافذة كمتفرجين في عرضٍ لم يتوقف مطلقًا. لقد انضم إلينا السيد ويدون وجيمي بيجوت. ثم جاءت السيدة موراي بمشيتها العرجاء، بمساعدة الرئيسة برادوك. أفسحنا المجال لها لترى هي أيضًا جزءًا خاصًّا بها.

سألت بصوتها الجريء: «مَن هو؟».

مَن يعرف؟ صدر أمر، مَن كان لديه القليل ليفعله، بقي لفترةٍ أطول وشاهد وأبلغ الآخرين بالتطورات. وبهذه الطريقة تأكدت أن السيد ويدون لم يكن لديه أي شيء ليفعله، لأنني لم أره يتحرك من مكانه على

منصة المشاهدة الرسمية، وعندما اقتربنا علَّق على مستجدات الخبر شارد الذهن: «حضرَ القاضي، الطبيب.. والصحفيون هناك.. طوَّقتِ الشرطة المكان وعزلت الجميع. يبدو شيئًا. خطِرًا...».

كان خطِرًا أيضًا أننا تركنا عملنا لمتابعة تفاصيل الحدث، لكن يجب الاعتراف أنَّ هذا يحدث لي في لندن أيضًا، مع روبرت أو دونه. كان روبرت متحمسًا للنظر برعب إلى ضحية الجريمة -كان يحب عروض الرمال أيضًا- لم أكن أحب ذلك كثيرًا، لكنني لن أكذب عليكم: إذا لزم الأمر، سأقف على رؤوس أصابعي، وأنظر من فوق الأكتاف مثلي مثل أي شخصٍ آخر. لقد زرت أيضًا أماكن سرية مع روبرت. من حيث النظر فأنا أنظر. فماذا يتبقى لنا نحن الناس المحترمين؟

كانت هيتي والترز هي التي أعطتنا الأخبار المهمة التالية في منتصف الصباح. كانت هيتي تدخل وتخرج من كلارندون كثيرًا -ستتذكرون أنها هي التي استقبلتني في اليوم السابق في أثناء العاصفة- تحدثت إلى البستانيين، وإلى المارة في الشوارع. كانت حياتها هي معرفة ما يحدث في الخارج. وصلتْ تفيض منها الدموع والعواطف، مما جعل صدرها يرتعش، وتلتقط أنفاسها بين النحيب المتواصل: «آه، ياه...، أوووه».

التفتنا نحوها جميعًا.

- إنه إلمر المسكين. أوووه. إلمر... الـــ... مسكين.

لم أدركْ مَن هو إلا بعد قليل، كان الأمر يتعلق بذلك المتسول الذي من المفترض أنه أقلع عن الكحول، وعمل في جمعية سانت ماري الخيرية. أخبرتنا نيللي وورينجتون أنها كانت تُخطط لحضور أحد العروض. وبطبيعة الحال، تم إلغاء العرض. كان الأمر حزينًا، لكني لاحظت خيبة أمل واضحة على وجوه رفاقي، لأن موت المتسول ليس أمرًا فاضحًا، بل

ويمكن للمرء أن يقول: إنه مجرد حدث سوقي. في لندن يموت المتسولون بعنف كل يوم. قطبتِ الرئيسة برادوك ملامح وجهها بازدراء.

- مقتل سكير آخر، لا بدَّ من التصرف حيال هؤلاء الحيوانات.

سألتُها باستنكار: «كيف تقولين ذلك سيدة برادوك؟».

- لا أعرف، بالإمكان حبسهم جميعًا بمكانٍ ما.

- كل سكارى بورتسموث؟ سيكون الأمر مثل إحاطة المدينة بأكملها بالأسوار.

أشارت سوزي ترينش بأصبعها: «شخصٌ ما...، هناك...».

دفعنا أنفسنا للنظر. حاصرتِ الشرطة سيارة وصلت حديثًا، وتوقفتْ في شارع كلارنس. فُتح الباب، كانت هناك انحناءات وتحيات.

تكلم ويدون بثقة: «هم أفراد من سكوتلاند يارد، لا شك في ذلك».

تساءلتِ السيدة برادوك باستهجان غير مصدقة: «سكوتلاند يارد...، من أجل إلمر؟».

تساءلت سوزي متشكية دون أنْ يجيبها أحد: «وإذا وقع لأحدنا أي شيءٍ هل سيأتي سكوتلاند يارد؟».

-3-

وصول الدكتور بونسونبي كان السبب الرئيسي في تفريق المجموعات التي احتشدتْ عند النوافذ مؤقتًا. لقد اصطففنا أمامه وهو يخطب.

-لقد وقعتْ مأساة بالقُرب من مكان وجودنا. آه...، لا أقصد *القُرب* الشديد، أو أنها مأساة كبيرة...، أتصور أنكم جميعًا لديكم بالفعل بعض المعلومات...، ببساطة، قُتل سكير آخر على الشاطئ. هذا أمرٌ محزن

بلا شك، ليس أتعس شيء في العالم، ولكن... واجبنا، دعوني أخبركم، واجبنا كمسؤولين عن كلارندون هاوس...، أعتقد أنكم تعرفون...، واجبنا الأهم هو توفير الهدوء للنزلاء، ومساعدتهم في احتياجاتهم الجديدة التي قد تطرأ...، على خلفية ما حدث.

ما هي الاحتياجات الجديدة تلك؟ لقد وجدتُ أنَّها -في جميع الحالات تقريبًا- مجرد مشاهد مسرحية. كان هناك مَن طالع المشاهد بالفعل، مثل اللورد ألفريد سي -لا أعطي ألقابًا لأسباب واضحة- والتوأمين الوسيمين. وطالبهم آخرون -مثل السير ليزلي أ- بتفسيرات على الفور. في بعض الحالات، اعتمد النزيل المعنيُّ فقط على بصره، كان هناك أشخاص لم يحالفهم الحظ من الجناح الشرقي؛ طلبوا النظر من نوافذ الجناح المقابل ليروا بشكلٍ أفضل، مقابل ما دفعوه اعتبروا أنفسهم مؤهلين بالكامل لذلك -وبطبيعة الحال- رفض بونسونبي فكرة دخولهم إلى غرف النزلاء الآخرين.

ومهما كان الأمر، فقد مرَّ الصباح مفعمًا بالحيوية والبهجة بفضل ذلك. وحتى أكثر صحة. أظهر العديد من المرضى -الذين كانوا مترددين في الخروج للنزهة- رغبةً في استنشاق الهواء النقي في ذلك الوقت، خاصةً على الشاطئ، وبشكلٍ أكثر تحديدًا نحو الأماكن التي يتجمع فيها الجمهور. كان آخرون راضين عن النظر عن بُعد. الجميع استمتعوا.

باستثناء واحد فقط.

عندما دخلتُ حجرة السيد إكس، كان جالسًا في مقعده وقد انتهى من إفطاره، والستائر مغلقة. كدتُ أتعثر بإبريق الماء الذي يستخدمه في اغتساله صباحًا بمفرده كل يوم. فكرتُ أنه من غير المعقول أن شخصًا فضوليًّا ومتدخلًا مثله لم يستمتع بالعرض.

- لقد قتلوا أحد الأشخاص على الشاطئ ليلًا -أخبرته- لقد حضرت قوات الشرطة وأيضًا سكوتلاند يارد من لندن. ألا تريد أن ترى ذلك؟ وفتحت الستائر.

- هل بالإمكان أن تغلقي الستائر يا آنسة ماكيري؟

كان تعبيره جافًّا متوترًا لا علاقة له بمزاجه الرائق الليلة السابقة.

- ألا تريد أن تراه؟ إن موقع حجرتك هو الأفضل في كلارندون.

- لقد أجبت على سؤالكِ بسؤالي يا آنسة!

زفرتُ بصوتٍ مسموع وأغلقت الستائر بحركة واحدة.

- حسنًا، فلتبق محلك وتستمتع بهذا الظلام اللعين دون التلهي بشيءٍ ما يستحق...، أكثر من عزف «الكمان».

- بما أنَّكِ قد ذكرتِ ذلك الآن، فهو ما سأفعله -أجابني على الفور- لا أريد طعام الغداء اليوم، أخبريهم بذلك في المطبخ، وبالمثل نبهيهم أنني لا أريد أيَّ إزعاج اليوم.

تركته يحرك ذراعيه في الهواء والظلام، وأغلقت الباب.

-4-

انتهى بهم الأمر بأخذ الجثة بعد الظهر، يا للرجل المسكين! حملوه على نقَّالة مغطاة بملاءة، فاتني النقل لأنني في تلك اللحظة كنت أقدم الطعام للورد ألفريد سي، كان لا بدَّ من إطعامه في المواقيت المحددة لتقدمه في العمر. في الواقع -كانت هذه وظيفة سوزي ترينش- ولكن نظرًا إلى الظروف الخاصة لذلك اليوم غير المعتاد، وحقيقة أن الخادمة كانت وافدة جديدة، وافقتُ على أن تبقى سوزي عند النافذة. عندما انتهى اللورد ألفريد، جمعت الأطباق دون انتظار الخادمة. رأتني

الرئيسة برادوك في الردهة، وكلفتني بمهام جديدة للتعويض عن غياب الزملاء الذين كانوا يتفرجون. هذا هو المكان الذي كنا فيه عندما فُتح الباب الأمامي. كانت هناك هيتي والترز -بلا حراك- مرتعبة، جعلتني نظرتها المرتاعة أتذكر المرة الأولى في حياتي التي رأيتُ فيها بقرة تلِد، تجدر الإشارة إلى أنني أذكر ذلك حتى تتمكنوا من فهم الفكرة دونما أي إساءة.

تمتمت متجمدة: «لقد... رأيته...».

لم يمضِ وقت طويل حتى أصبحت المجموعة الصغيرة عند النافذة هي مجموعة هيتي الصغيرة. ومن الواضح أن ذلك اليوم لن يكون مملًّا. كانت عينا المرأة المسكينة بيضاوين مثل قبعتها. لقد أخافني وجهها كثيرًا لدرجة أنني بدأتُ أرتجف. ولا شك أنَّ ذلك كان أكثر من مجرد فضيحة.

«أه... ألـــ...، مير...»، نطقت ما بين شهقاتها.

أحطنا جميعًا بها، ونظرنا إلى بعضنا بعضًا كما لو كنا نُلقي بخوفنا من أعيننا. كان الرجل الوحيد الحاضر -باستثناء الشاب جيمي بيجوت، الذي كان لديه كل التبرير ليكون مفزوعًا مثل المرأة تقريبًا- هو السيد ويدون، لذلك شرع، فيما يتنهد، في تولِّي مسؤولية الموقف. وهو ما يعني تهدئة هيتي. لكن كان من الواضح أن هذا الدور لم يناسبه، كان عازبًا، -كما قيل لي- كانت حياته عبارة عن أرقام وتوازنات، ومسرح سري، لا عجب في ذلك. كان انزعاجه من التعامل البشري واضحًا.

- أخبريني بما رأيتِه يا آنسة والترز! (أصرَّ دون مفاجأة، ولكن بعناد) أخبرينا بما رأيتِ يا امرأة! لا تتركينا هكذا، ثم ابكي بعد ذلك إنْ أردتِ. هيا تكلمي.

على الفور حل العديد منا محله، مثلما يرغب الرجال في التصرف بشجاعة في أثناء الولادة، ولكن في نهاية الأمر يسندون المهمة إلى النساء. قام العديد منا بتهدئة هيتي من خلال احتضانها -هذه المقارنة المروعة هي ما خطرت على بالي، كنا نحاول بلطف- ولكن مرارًا وتكرارًا، كما لو أننا نضغط نوعًا ما من المثانة، حتى تتمكن من إطلاق كل قطرة أخيرة من محتوياتها.

أخيرًا تكلمت المرأة الطيبة: «لقد كنت...، هناك حين...، حملوه، لم أرَ أي شيء، لم أتمكن من العبور بين الجموع...، كان هناك أيضًا أطفال وشحاذون. لم أرَ أي شيء...، إنه أمرٌ مروع أنني لم أرَ أي شيء. قفز قلبي في صدري حين سمعتُ...، الشرطي ينطق -أخذت تقلد الشرطي: «هذا تصرف لشخص معتوه، لا تنظروا، لا تنظروا أيها الأطفال»...، أقبلوا بنقالة لتحمله إلى المشرحة في كلارنس إسبلانيد...، وقال أحدهم: «هيا، هيا بنا»، وتراجعت الجموع بينما...، (قامت بمحاكاة بذراعيها البدينتين)».

ساعدتها الرئيسة برادوك «حملوه».

- نعم، حملوه، وفي تلك اللحظة رأيتُ...، كان لديه...، آه يا إلهي.

في تلك اللحظة عينها أمطرتْ ثانيةً، فاحتضناها بشدة.

- هيتي...!

- هيا بنا.

- كان لديه الـ...، الـ...، (لم يعد الأمر ذا فائدة. المسكينة هيتي أخذت نفسًا عميقًا، وابتسمتْ وسط رهبة الألم) أبكي وأضحك في ذات الوقت، لا أعرف لماذا يحدث لي ذلك عندما أرى *أشياء*...، أبكي وأضحك.

قرع الباب في تلك اللحظة المذهلة. لقد شعرنا جميعًا بالرعب لدرجة، لكنني متأكدة من أننا شعرنا ببعض البهجة *المحظورة* أيضًا. تُظهر هذه المتعة أننا لا نريد أن نتذكر كل شيء ولا أن ننسى أبدًا.

كان السيد ويدون -الذي تمَّ انتخابه مرة أخرى بأغلبية نسائية- هو الذي فتح وأفسح الطريق أمام الرعب الجديد. دخل في عجالة عسكرية، ذُهلنا جميعًا من ذلك الزي الرسمي وذلك الرداء الذي يرفرف بخطواته. خلف المزيد من رجال الشرطة -وبمساعدة ويدون- ذهبوا إلى مكتب بونسونبي، بعد فترة وجيزة عاد الوفد الذي انضم إليه بونسونبي الآن، والذي طلب من الرئيس استدعاء جميع الموظفين على الفور. وبما أن «جميع الموظفين» كانوا هناك بالفعل -باستثناء السيدة موراي، التي عادةً ما تأخذ قيلولة- لم يكن هناك وقت طويل للانتظار.

اجتمع الطباخون والخادمات والممرضات والبستانيون حول بونسونبي، تتناوبهم مشاعر مختلفة. كان من الواضح أنه يستمتع بكونه مركز الاهتمام الجديد، لكنه في الوقت نفسه شعر بشيءٍ من الكبرياء، وبالقلق والتوتر والتشتت. نظر إلينا بدوره كأنه يبحث عن الوجه المثالي؛ تلك الملامح التي ستقدم له أخيرًا إجابة واحدة لكل هواجسه. كان يبتسم كشخصٍ يحلم بأن يصبح شهيرًا، لكنه يأسف على الوسائل التي تمكنه من تحقيق ذلك.

- السيدات والسادة في كلارندون هاوس، بناءً على...، الجريمة التي ارتكبت هذه الليلة على الشاطئ والتي جميعًا قد علمتم بها، أو أنكم بلا شك...، فإن ممثلي السلطة أخبروني أننا سوف نستقبل هنا زيارة من مفتش سكوتلاند يارد -وكان ممثلًا للشرطة المحلية- (تنحنح بونسونبي قبل أن يتابع): أخبروني أن هذا المفتش يستعد لاستجواب الموظفين في مقر إقامتنا، وخاصةً أولئك الذين أمضوا الليلة هنا. لذا،

من باب الاحترام الذي ندين به للعدالة، أطلب منكم أن تضعوا أنفسكم تحت تصرفه.

وفي ذروة تلك المقدمة الطويلة، بدأتِ الهمهمات تنتشر. لقد شطبنا، أو أضفنا أنفسنا إلى قائمة المحققين المحتملين اعتمادًا على ما إذا كنا قد قضينا الليلة في كلارندون أم لا، وحتى في الحالة الأولى، كان هناك أولئك الذين ادَّعوا أنهم لم ينتقلوا من غرفهم -مثلنا- وطلبوا مساعدة الآخرين كشهود لمثل هذه الظروف. شهود للأسف لم يكونوا موجودين، لأنهم لم ينتقلوا من غرفهم أيضًا. حاول بونسونبي وويدون -اللذان كانا سعيدين جدًّا بالنوم في منزليهما- فرض الهدوء. كان كلارندون كله في حالة اضطراب. قالت لي سوزي: «يبدو كل هذا مثل...، مثل...، أنتِ تعرفين...».

كالعادة، تركت سوزي للآخرين مهمة قول المسكوت عنه.

«يبدو ذلك مثل سرٍّ *فاضح*». قلتُ لها، بينما غطت كلانا فمها.

-5-

وصل رجال سكوتلاند يارد بعد فترة طويلة من الإخطار. كان الأمر كما لو أنهم تعمدوا إصابتنا بالتوتر بهذا الانتظار. ابتعدت الخادمة التي فتحت الباب عن العميلين، أحدهما يرتدي ملابس مدنية، والآخر يرتدي الزي الرسمي. الأول نحيف جدًّا وقصير القامة، وله شارب كثيف مجعد، وعينان نادرًا ما رأيت مثلهما، واضحتان مهيبتان ذات ثبات خارق، حيث بدا بؤبؤ العين مثل ثقوب المحاقن. سحب قبعة من اللباد على أذنيه الكبيرتين جدًّا. كان يرتدي معطفًا وبدلة بالية، ويداه في جيبيه. لكنه غرق -ولخَّص الأمر- في تلك النظرة العصبية الشرهة. كان الأمر كما لو

أن شاربه مصنوع من أشواك عالقة على شفته، وأظهرتْ تعبيرات وجهه الشجاعة التي قاوم بها الألم. وبدا كأنه يقول إنَّ القانون قد وصل.

استقبلهما الممرضات وبونسونبي وويدون مصطفين. تقدم بونسونبي إلى الأمام ومد يده إلى الرجل الصغير.

بيدَ أن هذا لم يمد يده.

- أنا المفتش أوجوستوس مرتون، من سكوتلاند يارد. الرقيب جيمسون.

ارتدى هذا الرقيب -كما ذكرتُ- زيه الرسمي، بدا كأنه مصنوع من المواد المتبقية من عملية بناء. المفتش مرتون طويل، بدين، ظريف ومبتسم، على حزام الذقن من جهة الخوذة تشكلت طبقة لدنية ثانية فوق الأولى، بشارب مثل قطة ممتلئة الجسم ولطيفة، على عكس شارب المفتش المجعد العدواني.

قال بونسونبي فيما ينحني: «نحن على أتم الاستعداد، سيدي!».

- شكرًا. لن نأخذ من وقتكم كثيرًا، دكتور!

- بإمكانكما استخدام مكتبي.

انتظرنا نحن الممرضات في الطابور، وتقرر تركي للنهاية لأنني كنت الجديدة. خرج الرفاق بعد التحقيق معهم وهم يشجعوننا: «لا شيء، سوف ترون»، همسوا. ولكن عندما جاء دوري، كانت ساقاي ترتجفان عندما دخلت.

قال بونسونبي: «تفضلي».

بدا مرتون -ولا تزال يداه في جيبيه، والقبعة فوق رأسه- جالسًا على مقعد بونسونبي، كان يتكلم. كان الرقيب جيمسون يكتب في دفتر ملاحظات، مما تسبب في انحناء الكرسي بسبب ثقله، بينما

بدا بونسونبي وويدون -الجالسان على كرسيين بجوار النافذة- مثل الجمهور المتفرج.

- لا، لا، لستُ بالغ الذكاء. (قال مرتون) لا تعتقد ذلك دكتور! لكن...

توقف وقد أفرغ شحنةً كبيرة مباغتة في كلمة «لكن».

- دائمًا ما توجد «لكن»، تمتم جيمسون، مسالمًا.

- لكن، في هذه المهنة أيها السادة! الأمور لا تعتمد على الذكاء بقدر ما تعتمد على الصبر. تُشكل الفروق الدقيقة والتفاصيل الخاصة بالجريمة نسيجًا معقدًا، ومن الضروري إزالة طبقة بعد طبقة، وطبقة بعد طبقة، وتنظيف كل شيءٍ بدقة فائقة، حتى تترك الحقيقة...، هناك، نقية، نقية، دون عوائق.

صادق الرقيب على كلامه: «صحيح تمامًا، مثل حقيقة أن أمي ولدتني..».

ربما من قبيل الصدفة البحتة أن كليهما نظرا إليَّ، الأمر الذي جعلني أحمرُّ خجلًا.

- تفضلي اجلسي يا آنسة...، (تحدث جيمسون، ودون بعض النقاط). ماكيري؟

ولحسن الحظ، تم إجراء الاستجواب من قِبل الأخير. طرح جيمسون الأسئلة ونسخ إجاباتي -التي اقتصرت على توضيح أنني ذهبتُ إلى الفراش في تلك الساعة، بعد الانتهاء من هذه المهام، ولم أرَ أي شيء على الشاطئ- بينما كان مرتون يحدق بي بتلك العينين الرهيبتين اللتين بدتا كأنهما امتصتا -مثل الإسفنج- كل القذارة -الإجرامية في العالم- التي لا يستطيع البشر العاديون التفكير بها، ثم مسحها تمامًا. لقد كانت مثل الآبار التي تؤدي إلى ذلك المكان الذي لا نهاية له تحت الأرض

والذي تنتمي إليه أشياء مثل جثة إلمر هاتشينز على الشاطئ -والتي ما زلت أجهل تفاصيلها المروعة، على الرغم من أنني سأصحح جهلي قريبًا- ومرتون، صاحب تلك الآبار، بدا كأنه يحذرني من أنني -ومن أجل مصلحتي- لن أُطيل النظر، وإلا فإنني سأفعل ذلك تحت مسؤوليتي الكاملة.

عندما أشرت إلى أن النزيل الذي كنت أرعاه موجود في الجناح الغربي من الطابق الأول، قاطعني مرتون: «ربما كان ذلك هو المكان الأفضل لرؤية كل شيء، أليس كذلك جيمسون؟».

- تمام الصحة سيدي المفتش! مثل موت أبي نفسه.

- سنحتاج إلى استجواب سُكان هذا الجناح دكتور!

تحدثَ بهذه الطريقة -بدا كأنه لا شيء- لكن بونسونبي عانى نوعًا من التشنج. وكما جرت العادة بالنسبة له، كانت المشاعر المختلفة مختلطة؛ الشعور بالواجب تجاه العدالة، والشرف تجاه سكانه. حتى إنه نهض ليتحدث.

- آه، في كلارندون نحن متعاونون مع القانون، أيها المفتش مورتون -«مرتون»، المُصحَّح المذكور آنفًا- نعم، معذرة، ولكن...، لدينا أيضًا مرضى وعائلات يجب أن نحترمها. ولا أقصد أن هذا الاحترام يفوق الاحترام الذي يستحقه القانون...، أنا فقط أطلب منك...، آه...، أن تراعي خصوصيات إقامتنا، حيث التحفظ.

وقف مرتون أيضًا وقد نفد صبره: «نعم دكتور بونسبوني!، آخذ ذلك في الاعتبار. لكن...».

علق مساعده بسرور: «دائمًا هناك «لكن» في كل ذلك».

- ولكن سكوتلاند يارد، كانت دومًا مرادفًا لــ التحفظ، سيدي!

- لا أشكك في ذلك. (التفت بونسونبي، ونظر ناحيتي وجفناه يرتعشان) سيكون لطفًا منكِ أن ترافقي السيد المفتش...، لحجرات نزلائنا في الطابق الأول، الجهة الغربية؟ لا بدَّ وأنهم تناولوا العشاء الآن. لن يتضايقوا كثيرًا.

لقد راودني الشك أنَّه اختارني -ليس فقط عن طريق الصدفة- عندما وجدني بجانبه. كنت مبتدئة، وبالتالي أقل مَن يعرف شيئًا عن حياة النزلاء وأسرارهم. معي يُحصِّل بونسونبي نسبة أعلى من التحفظ.

-6-

لديَّ خوف طبيعي من الشرطة، تقريبًا أكثر مما أشعر به من المجرمين، لأنه مع هؤلاء هناك دائمًا إمكانية اللجوء إلى الشرطة. بمعنى آخر، في مواجهة الشر، لا يزال لديَّ العزاء في أن الخير يدافع عني، ولكن مَن يستطيع أن يدافع عني ممن يمثلون الخير؟

كان مفهومًا أنَّه عندما كنت أسبقهما إلى أعلى الدرج، كان المفتش الهزيل ذو الأذنين الطويلتين يلاحقني، شعرتُ بمزيدٍ من التوتر. جريمة قتل، إنها جريمة قتل. لقد كان شيئًا خطِرًا، شيئًا حقيقيًّا. ولم تكن حتى سرية، فترتاح وتقول لنفسك: لستُ إلا الجمهور. صحيح أنني لم أكن على علاقة -ولو من بعيد- بتلك الجريمة، لكني كنت منخرطة في القضية، إلى جانب الشرطة، مشاركة دون أي احتمال للاستبعاد.

في البداية لم تكن هناك مفاجآت كبيرة. كانت الطقوس متماثلة مع الجميع. نتوقف عند الباب، أذكر اسم النزيل، أبلغهم بتفاصيله، أطرق وأدخل. ما يحدث بعد ذلك يتم بواسطة مرتون. كان ذلك فشلًا ذريعًا، أكثر من أي شيءٍ آخر، لأن مرتون قرر تجاهُل حقيقة أن الأشخاص الذين يستجوبهم كانوا مرضى. وهذا يعني أنه لم يكن يجهل ذلك، لكنه

فهمه بأكثر طريقة خاطئة ممكنة. بالنسبة له، كانوا كائنات، بسبب قصور عقولهم، لم تكن لديهم الكرامة الكافية. كان يعاملهم على أنهم «مجانين» حتى في حضوره، كما لو أن الجنون يعادل الصمم: «وهذا المجنون، ماذا يريد أنْ يقول لنا؟»، ويداه دائمًا في جيبي معطفه. كان هناك مَن كانوا صمًّا حقًّا مثل اللورد ألفريد سي، وهو في الثمانين من عمره -الذي استخدم البوق وعاش في عالم ثورات السيبوي[1]، غافلاً تمامًا عن الأحداث الأخيرة. ردًّا على سؤال مرتون حول ما حدث في الليلة السابقة، أجاب بتلك الخدع التي كنت أعرفها بالفعل لدى المرضى من أسلوبه: «ألست أنت الرائد بريجز، من لواء لانسر الرابع؟». إذا لم يكن الأمر كذلك، فاعذرني على إخبارك، لديك أخ توأم في الهند، يا صديقي...! لو كنت مكانك، كنت سأنظر في عائلتي. لن أصف النظرة التي نظر بها مرتون إليه من تحت قبعته اللبادية. كان هناك السيد كونراد إتش، الرجل العجوز المهووس بالجواسيس والمراقبة، والذي كان مقابل كل سؤال يُطرح عليه يرد زوجين أو ثلاثة -بشكلٍ محموم- مثل خصم شيطاني في لعبة التنس: «لماذا تريد أن تعرف ذلك؟»، هل يمكنني رؤية بيانات الاعتماد الخاصة بك؟ ماذا قال اسمه؟، أما السير ليزلي أ...، ماذا أقول عن السير ليزلي! كان شابًّا، يرتدي ألوانًا مسرحية، وفي عينيه بريق يبدو كأنه يعكس ليالي *فاضحة* لا تُعد ولا تُحصى في إيست إند على وهج الشموع، بين أنفاس عدد لا يُحصى من النساء، ودخان الأفيون والعروض المحرَّمة. همست لي سوزي قائلة: إن مرضه من النوع الذي لم يذكره أحد في كلارندون هاوس، ولا حتى مرتون، المصاب بهذا النوع من الحياة. يبدو أن الشيء الوحيد الذي أنقذ جين ويمبول الجميلة من المعاناة من آثامه عندما جاءت لخدمته هو -كما اعترفت لي سوزي

(1) ثورات السيبوي ضد الإنجليز في الهند عام 1857. (المترجمة)

أيضًا- أن السير ليزلي كان يحبها أكثر بكثير، ولهذا السبب لم تدخل الرئيسة برادوك ولا هيتي وول تلك الغرفة حتى بالصدفة.

وبغض النظر عن هذه الصفات اللزجة، بدا السير ليزلي نائمًا مغيبًا دائمًا في حوضٍ كبير من الشمبانيا.

- أوه، الشرطة، الشرطة...، (قال عندما دخل مرتون) إلى الأمام إلى الأمام يا شرطة، مباركة الشرطة. صديقي العزيز هي الشرطة...، لا، لم أذهب إلى أي مكان سري.

أجرى مرتون استجوابًا قصيرًا للغاية -لكنه لم ينجح- وكاد أن يهرب من الغرفة. التعليقات التي تبادلها مع مرؤوسه دون احترام حضوري، جعلتني أحمرُّ خجلًا. صحيح أنَّ السير ليزلي أثار اشمئزاز بعض الناس، لكن مَن بقادر أن يحكم على ذلك؟ لم يعجبني هذا التفوق المصحوب بشتائم مثل «شرير» أو «خنزير».

كان هناك باب أخير متبقٍّ.

لا تسألوني لماذا فعلت ذلك. أنا نفسي لستُ متأكدة. ربما لأن ذلك كان نزيلًا تحت رعايتي وشعرتُ بعدم الارتياح.

في مواجهة مجرد احتمال أن يُطلق مرتون عليه الصفات نفسها أو أسوأ منها. مرتون، ويداه في جيبيه، وقبعته لا تزال منسدلة فوق أذنيه الهائلتين، وقد أرهقه شاربه وبدا كأنه يعذبه، بدا لي أيضًا باردًا وغير إنساني كأنه سجن. السيد إكس أيضًا بارد وغير إنساني، لكن تكتنفه حساسية روحانية جعلته ينال شفقتي.

وقفتُ أمامهما وتحدثتُ وعيناي شاخصتان إلى الأرض: «معذرة أيها السيدان! ولكن هذا النزيل الأخير لن يكون ذا نفع لكما. يعيش دومًا في الظلام، والستائر مسدلة ولا يتحرك من مقعده...، إنه حتى لا اسم له...، يطلقون عليه «السيد إكس»...، أؤكد لكما أنه لم يرَ أي شيء».

فما كان من مرتون إلا أن فعل شيئًا، لا زلتُ أرتعد إذا ما تذكرته. اقترب مني بقامته القصيرة وقال: «آنسة...».

- ماكيري سيدي.

- نحن مَن يقرر هذا. والآن افتحي باب الحجرة اللعين، وابقي على جانب بصفتكِ امرأة وممرضة.

- تمام سيدي! (وبينما أمسك بالمقبض، أصريتُ) الغرفة مظلمة، الستائر مسدلة ولن ترونه لأنه جالس على المقعد.

فتحتُ. كانت الحجرة مضاءة بالعديد من المصابيح. والستائر مفتوحة. والسيد إكس واقفٌ إلى جوار النافذة.

-7-

بقينا جميعًا هادئين. وبدأ السيد إكس يتحدث دون أن يلتفت نحونا: «مساء الخيرة آنسة ماكيري! أرى أن هناك زيارة لي، مرحبًا بكما أيها السيدان، أعتذر لأن إمكانيات حجرتي الصغيرة لا تليق بكما».

بقيتُ وإلى جانبي رجلا الشرطة ساكنين عند الباب.

سأل مرتون: «مَن هذا؟».

- يُدعى السيد إكس، (كررتُ) وهو...، شخصٌ خاص.

حين دخلنا وأغلقتُ الباب، كان السيد قد عاد وجلس في كرسيه. تقدم مرتون بحذر نحوه، كما لو أنه لم يكن متأكدًا مما قد يحدث له. ولكن عندما دخل ورأى مَن يجب عليه التعامل معه ارتخت ملامحه. هذا التعبير الذي كثيرًا ما فاجأ به زوار المصحة، عندما يلاحظون مريضًا جعلهم مظهره غير الطبيعي يضعون أنفسهم على الفور في مكانٍ أعلى

منه -كما لو كان الإنسان «الطبيعي» بمنزلة ميدالية، وليس مجرد القدر- كان سببًا للاشمئزاز الحقيقي. لقد كرهت مرتون أكثر لرد الفعل هذا.

- حسنًا...، شخص «خاص». على الأقل فإن عينيه بهما شيء «خاص».

- العين اليسرى بها تجلُّط دموي سيدي!

أجبتُ وأنا حانقة أكثر من العين المصابة نفسها.

- لا تتحدثي إلا حين أطلب منكِ ذلك آنسة!

عضضتُ شفتيَّ، بيد أن السلطة الأعلى غالبًا ما كانت تجبرني على الخنوع.

- تجلط دموي أو غيره، فإن حجم العين الأخرى مؤكد أنه كاف لرؤية الكثير من الأشياء -نظر مرتون إلى مساعده الذي ابتسم له- ولكن...

نطق الرقيب كأنه يصطاد فراشات: «ودائمًا ما هناك «لكن»».

- ولكن الأمر ليس ما يمكن رؤيته، بل ما شوهد بالفعل، وما يمكن تذكره.

نطق جيمسون: «تلك حقيقة لا شك فيها».

- حسنًا يا سيد «خاص»...، (انحنى مرتون بجوار الكرسي، وبدا لي أنَّ جيمسون -بطريقته الممتلئة- كان يقلده خلفه مع دفتر الملاحظات) نريد أنْ نعرفَ إذا كنت قد رأيت أو سمعت أي شيء غريب الليلة الماضية.

نطق الصوت الصادر عن الكرسي على الفور: «لا يا سيدي المحقق! لم أرَ أو أسمع شيئًا غريبًا بين الثانية عشرة والخامسة».

- ما بين...؟ (قطب مرتون ما بين جبينه) كيف تعرف أنها الساعات الـــ...؟

- لم أعرف قبلًا يا سيدي، فقط الآن عرفت ذلك، شكرًا لك. اعتقدت أن ما حدث للسيد هاتشينز لم يعد كونه مجرد شجار، مثل الواقعتين السابقتين.

- ما هما الواقعتان السابقتان؟ هي فقط واقعة إدوين نوجز.

- أوه، إذن الحادثتان مرتبطتان.

- كيف عرفـــ...؟

- لم أعرفه، فقط اشتبهت في ذلك. وأنا الآن أيقنت ذلك. شكرًا، لكن كان تخميني مبنيًّا على ربط حالتَي الوفاة، لأنه إذا تم استدعاء سكوتلاند يارد بسبب رجل بلا مأوى، فذلك لأنه أصيب بالجروح الأربعة نفسها التي أُصيب بها الآخر.

- أي جروح؟ أربعة...؟

- ثلاثة إذن، اثنان في البطن وواحد في العنق.

- دقيقة واحدة، كيف عرفت...؟

- لم أعرف قبلًا، لكن الآن عرفت، شكرًا لك. لقد طرحت الأسئلة التي استلزمتها إجاباتي. الآن بإمكانكما الذهاب، رجاءً ألا تحدثا ضوضاء بينما تخرجان.

لقد تحدث بسرعةٍ كبيرة لدرجة أنه ذكَّرني بمشعوذِي المسرح. كان وجه مرتون مثل وجه رجل يسير بثقة في الشارع، وفجأة اشتبه في أن شخصًا ما يتبعه.

- مَن أنت أيها السيد؟

سأله وقد احمرَّ وجهه غضبًا، ثم كوَّر كفيه (الصغيرتين غير المتطابتقين) على هيئة قبضتين.

- السيد إكس لا اسم له (قلتُ)، عائلته...

- هذه هي المرة الثانية التي تقاطعينا أيتها الغبية! (قال مرتون بينما يحرك جذعه بالكامل ناحيتي، وقد احمرَّ بالكامل بوجهه ذي العظام البارزة، وانتفضتْ شعيرات شاربه كأنه يعتزم إطلاق أسهم في وجهي) اصمتي الآن وإلى الأبد.

أوشكت أن أعتذر، لكن صوت المقعد أصدر صريرًا مرة ثانية.

- أيها المفتش، لا تعتقد أن الآنسة ماكيري تُشبه تلك الممثلات والممثلين الصغار من الساحات التي ترتادها في إيست إند، الأولاد أو الفتيات الصغيرات الذين يواجهون بعضهم بعضًا في معارك فنية، يكون اهتمامهم الرئيسي هو الأزياء الرخيصة التي يرتديها الممثلون، هؤلاء الذين يُهينهم الجمهور ليستمتعوا بذلك **ليلًا**.

سال مرتون للمرة الألف، بعينيه الحولاوين: «كيف تعرف أنَّ...؟».

- لكن من المفهوم أن الأمور السرية كانت عزاءك الوحيد لسنوات، ومن هنا منشأ الأزمة الزوجية التي تمرُّ بها، ومع ذلك أراهن أن المشكلة التي تعتقد أنك تعانيها هي في رأسك فقط، والخوف من أن يُقال لك ذلك؛ ضآلة حجم ذكورتك. أتصور أنك لا تخرج يديك من جيوبك لهذا السبب. كل ذلك يقودني إلى أن أنصحك بأمرين: تحدَّثْ مع زوجتك عن الأمر من أجل إعادة بناء علاقتكما، ومعاملة الآنسة ماكيري، ممرضتي الخاصة، بأقصى قدرٍ من الاحترام. عمت مساءً.

-8-

لا زلتُ أذكر لحظات الصمت.

السيد إكس اعتاد أن يخلف لحظات الصمت هذه، مثل عنكبوت يُفرز خيوطه وينسج بساطًا خفيفًا لكنه مميت.

أمَّا مرتون. لو أن الرجل يستطيع أن يذوب واقفًا مثل تمثال الشمع، المثال الذي سيتبادر إلى ذهني طوال حياتي سيكون هو.

لم يسبق لي ورأيتُ أي شخصٍ أكثر تحولًا وانكسارًا. انقلبت الآن كل صلابة الرجل -الصغير الصخري ذي الشارب المسنن- إلى طين في انتظار تشكيله مرة أخرى. حتى شاربه بدا مائلًا، كما لو كان جزءًا من قوته خار، وتقلص الفك الذي بدا كأنه انفكَّ من مفصلاته، كان الآن معلقًا مفتوحًا في الفراغ، لم يعد الآن سوى ذكرى غامضة في ملامحه. لكنَّ العينين اللتين كانتا ذات يوم -بمنزلة نقطتين غاضبتين في شفرة مورس- هما اللتان خضعتا لأكبر تغيير، لأنهما بدتا فجأة كأنهما عادتا إلى الوراء طوال حياتهما. وأقول هذا لأن نظرته ذكَّرتني بطفلٍ ينظر إلى أب متسلط، أو لسخرية زملاء الدراسة. تجمعت الدموع المترددة على جفنيه. لم ينتبه حتى إلى الرقيب جيمسون، عندما سأل -ربما بسبب عدم ارتياحه لغياب «لكن»-: «هل أُدون هذا أيها المحقق؟».

لاح لي أنَّ مرتون على وشك أنْ ينهار، فاقتربتُ منه على الفور هامسة: «رجاءً، لا تبكِ على السجادة».

نظر إليَّ مرتون كما لو كان من عالمٍ آخر وتوجه نحو الباب. لقد شاهدته وهو يتردد قبل أن يمسك مقبض الباب بيده فائقة العناية، لكن ما تركه وراءه بدا كأنه أسوأ من الاتساخ. وعندما اختفى تبعه الرقيب ببطء، كما لو كان متشككًا بشأن عدم جدواه عندما يكون بمفرده.

لقد فهمت الرعب الذي يشعر به مرتون. نظرت إلى السيد الذي لا يزال جالسًا على الكرسي. لم يكن ينظر إليَّ، كانت عيناه -بلونيهما المختلفين- مثبتتين على النافذة حيث كان ضوء المساء ينحسر فوق البحر.

- هل كل ما قلته له... حقيقة؟

- قذيفة مبطنة بالحقيقة، والباقي رصاص خالص، لكنني أصبتُ الهدف.

- كيف...، كيف استطعت فعل ذلك؟

- لا وقت لديَّ الآن لأحكي لك شيئًا واضحًا. من الضروري أن تجيبي على سؤالي، هل تمنحيني ثقتكِ الكاملة؟ أجيبيني.

تجمدتُ ولكن ليس من الطلب.

كانت هذه المرة الأولى التي أرى فيها هذا الرجل الصغير الساكن عصبيًّا.

البرنامج

ساوث بيريد. أرينا

(هذا البرنامج يُرجى إعادته عند الخروج)

الصفار

الملائكة المحاربون

عزاء المشاهد

يسقط بول، وينهض كيفن، ويفعل بيتر ذلك،
داني يظهر سحره.... عملنا له مغزى معنوي: إنها الحياة اليومية.
أطفال يتقاتلون من أجل الغذاء أو المأوى أو شيء من هذا.
بعيدة المنال مثل الصداقة...! أوه، فرحة الأجساد المؤهلة
للزواج المنخرطة في صراعاتها المذهلة المصممة ببراعة.
إنهم لا يستسلمون، ليس حتى يسقط الخصم، أو حتى
تصفق أنت، يا عميلنا العزيز، وتطلب استراحة. أقزام جميلة،
كيوبيد بلا قوس، لكن بسهام تسحر العينين! الليلة:

بول.... بول طومسون، ذو بشرة داكنة،
عمره اثنا عشر عامًا.
بيتر.... بيتر كوركوران، أشقر، في الثالثة
عشرة من عمره.
كيفن.... كيفن كالواي، أحمر الشعر،
يبلغ من العمر اثني عشر عامًا.
دان.... داني ووترز، أشقر.

فقط على مسرح أرينا ساوث بيريد من الواحدة إلى الثالثة صباحًا.

الثقة



-1-

كان هناك ثلاثة مصابيح مضاءة في الغرفة: واحد على الطاولة المجاورة للسرير والآخر بجانب السرير، بالإضافة إلى المصباح المعتاد على رفِّ المدفأة. لا يزال بصيصٌ من الضوء عبر النافذة أكثر من الضوء اللازم لمراقبة الساكن دون عوائق. يجلس على كرسيه، جامدًا، مرتديًا ثوب النوم ونعليه. كان حاجباه الرفيعان مقوسين. فتح فمه قليلًا...

نظرتُ إليه، أعتقد أنكم ربما فعلتم الشيء نفسه بعد سماع مثل هذا الطلب.

- أثق بك؟

- لقد سمعتِني بالفعل، فرجاءً أجبينني.

سألتُ خائفة: «ماذا تريد أن تفعل؟».

- إذا كنتِ تثقين بي فليس عليَّ إجابة سؤالك، وإذا لم تكوني تثقي بي فبالمثل لا حاجة إلى الرد على سؤالك.

نظرتُ إلى عينيه الكبيرتين ذواتي اللونين المختلفين، على الرغم من عدم وجود أي تعبير خلفهما. وكنت مستعدة -أو هكذا اعتقدتُ- لأي رد.

- لا أستطيع أن أثق بك بهذه السرعة مثلما تطلب مني.

- لذا، يرجى مغادرة الغرفة على الفور، وأبلغيهم ألا يزعجني أحد، بما في ذلك المفتش مرتون، إذا كان لا يزال يريد العودة (وهو ما لا أعتقده، لكنني لا أستبعده أيضًا)، وإلا سأكتب إلى عائلتي بشكواي، أخبري الدكتور بونسونبي بذلك وغادري.

كان ازدراؤه ولا مبالاته ظاهرَين لدرجة أنني استدرتُ وتوجهت نحو الباب. لكنني فكرت في الأمر بشكلٍ أفضل. لم أستطع تركه بمفرده بعد هذا الطلب.

- أعتقد أنك أنت مَن يجب أن يثق بي أوَّلًا، (قلتُ له فيما أقترب من المقعد) أجل، ما تفكر فيه مقبول، ستجدني إلى جانبك، وسيتعين عليَّ الحكم، لكن لا تطلب مني أن أعطيك ما ستعجز أنت عن أن تمنحني إياه.

تأملتُ نظرته الزرقاء والحمراء، وشفتيه الرفيعتين تتثنيان في امتعاض.

- لقد دافعتُ عنكِ أمام الشرطيين، ألا تعتبرين ذلك دليلًا كافيًا على الثقة؟

- لم يطلب منك أحد أن تفعل، أنا ممرضتك ولستُ صديقتك، سأثق بك كل الثقة التي ستوليني مثلها.

شعرتُ وأنني أتحكم في نبضي.

- هل أنتِ...

- عنيدة، أعلم ذلك، لكنني لن أغادر حتى...

- حسنًا، افتحي النافذة.

- ماذا قلت؟

نفاد الصبر -إن جاز قول ذلك- جعله يتحدث أسرع.

- آنسة ماكيري، تريدين مبادلة الثقة بثقة وقد قبلتُ، والآن افتحي تلك النافذة في التو، واحذري صديقنا المشترك، المزلاج القاتل.

اعترفتُ بأن قواعده كانت عادلة، وأن ما طلبه مني -للمفارقة- هو ما كنت أحاول -عبثًا- أن أجعله يقبله منذ وصولي إلى كلارندون.

فتح النافذة اللعينة.

التفتُّ نحو المستطيلات المغبرة التي كشفت عن اللون الأزرق الداكن خلفها. أصبحتُ ماهرة بالفعل في فتح هذا المزلاج الرهيب.

قلتُ بينما تداعبني نسمة البحر الليلية: «حسنًا والآن...».

توقفتُ.

أقسم بأنَّه لو كنت أعاني مرضًا بالقلب لما كان لهذه القصة أن تكتب أبدًا. ذلك أن يدين ارتفعتا في الهواء من الخارج واحتميتا بحديد النافذة.

-2-

يجب القول -في حال كنت قد قدمت صورة أخرى حتى الآن في هذه الوقائع- أن العالم لم يقدم لي جانبًا اعتياديًّا، على الرغم من أنه لم يكن سعيدًا تمامًا؛ العمل: الكثير، الراحة: القليل، المشي، الصبر، البيروقراطية أفراح صغيرة، وأحزان هائلة. وبعض الأحلام دائمًا تتعلق بالشمس، لأن غيابها أو شروقها أو غروبها يجعلني أحلم. لا أعتقد أنَّ هذا هو عالم العديد من الأشخاص الآخرين. حتى تلك اللحظة، تم تحقيق كل شيء غير عادي في المسارح، باستثناءات قليلة -مثل الفراشة التي هبطت على يديَّ عندما كنت طفلة، والمرأة العجوز التي شكرتني على

رعايتي قبل وفاتها، المرة الأولى التي قبَّلني فيها روبرت ميلجرو- كانت عابرة وغير متكررة. ولكن كان من الواضح أن عالم السيد إكس لا يختلف عني وحسب، بل يختلف عن أي شخص عادي آخر. بعد ساعات قليلة من لقائنا، كان يعرف بالفعل كل أسراري، وبعد يومٍ واحد، بدأت في التعرف على أسراره.

وقفتُ ساكنةً، في حيرة من أمري عندما دخلوا.

لم يُعِقْ أحد الآخرين. وقفوا بخفة، وقفزوا إلى الداخل، بشكلٍ منظم، كما لو كانوا يمارسون طقس المجاملة عند الباب. ثم ظلوا ساكنين يراقبوننا بأعينهم الكبيرة المفتوحة الوامضة أمام الكرسي.

أعتقد أننا جميعًا رأيناهم في وقتٍ ما، وفي الوقت نفسه لم نرهم أبدًا. الأطفال الذين تؤثر عليهم الحياة بكل قسوتها -والذين يكثرون في بورتسموث كما هو الحال في شوارع لندن، بثياب رثة، قذرون- نظراتهم ثابتة وقلقة. لا يدير الناس رؤوسهم عادةً عندما يمرون في قطعان صاخبة، لكنهم يتأملونها بشغف على خشبات المسرح، سواء كانت قانونية أو سرية. إنهم مثل كائنات خيالية بالنسبة لهذا النوع من المجتمع الذي يعتقد أنَّ الطفل الحقيقي هو الذي يرتدي بدلة البحار، ويلعب بالعصا والطوق تحت أعين المربية الساهرة. لقد بدا الأمر دائمًا عكس ذلك بالنسبة لي. في كل مرة أرى طفلًا في الشارع، يذوب مئة طفل حسن المظهر من هؤلاء الذين يتمتعون بصحة جيدة مثل السكَّر.

أمامي ثلاثة نماذج غير عادية. لا يمكن أن يكون عمر أقصرهم أكثر من عشر سنوات، كان قردًا صغيرًا ذا وجه منمش، وسخام يُغطيه، وشعر أحمر متلبد. كان أطول شخص بجانبه، بشعر بلون القش، يظهر كل السكون والاستسلام الذي بدا أن الأول يفتقر إليه، بعينين نصف مغمضتين وحزن بدا كأنه هو مَن اخترعه. أما الثالث، الأشقر والقذر،

فكان الأكثر وسامة، بلا دموع -لأنه بكى في صمت مؤثر- ولا قشور الجروح ولا الخدوش على ذراعيه وساقيه -هي التي جعلتني أعتقد أنه كان يكسب رزقه في إحدى الميادين- ولم يُقلل ذلك من جماله.

للحظة لم يحدث شيء آخر. لقد نظروا إليَّ، وأنا إليهم، ولم أستطع أن أقول مَن كان أكثر دهشة أو خوفًا من الآخر. ستة أرجل نحيفة وأقدام صغيرة قذرة أمام الدكتاتور النحيل، الجالس على المقعد ذي الذراعين، الذي كسر الغيبوبة عندما تحدث.

- لا تبقوا ساكنين أمام النافذة، لقد قلت لكم اقتربوا من الفراش. لا يجب أن يراكم مَن هم بالخارج، لو تكرمتِ آنسة ماكيري! أطفئي جميع المصابيح ما عدا واحدًا، وضعي كرسيًّا خلف الباب. أشكركِ.

لقد حرصتُ على الطاعة، مع أنني لم أخفْ أنني بذلك أصبحت شريكًا في كل ما يفعله النزيل، لكن لم يخطر ببالي أي شيء آخر.

بدا أن السيد إكس قرأ ما يجول برأسي فقال: «لا شيء يدعو للقلق آنسة ماكيري! سأشرح لكِ سبب بقاء أصدقائي الثلاثة هنا، ولكن اسمحي لي أنْ أستغلَّ طيبتكِ لمعروف آخر، لأعرفكِ سريعًا عليهم، فهذا دائم الحركة يُدعى ذبابة؛ يفرك كثيرًا ولا يكف عن الكلام -بدا هذا واضحًا لا شكَّ فيه، فقد ابتسم ودفع زميله- أما زميله فاسمه العنكبوت، لأنه هادئ ويخزن جميع التفاصيل. الثالث له اسم حركي أيضًا لكنني أُفضل مناداته باسمه الحقيقي داني وونرز، أما الممرضة ماكيري فهي جديرة بالثقة تمامًا».

الابتسامات ما بين الأسنان المتباعدة التي وجهوها لي كانت لتثير شفقة هيرودس نفسه. حاولت أن أُعيد إليهم «الثقة المطلقة»، لكنني

كنت بعيدةً عن هذا الشعور. وجود هؤلاء الأطفال هنا يتعارض مع جميع قواعد كلارندون، وإذا كُشفوا، فسوف أفقد وظيفتي دون أدنى شك.

سأله السيد إكس: «هيا يا ذبابة، ماذا عندك؟».

بدا وأنَّ الشاب الأصهب كان ينتظر هذه الفرصة طوال عمره: «لقد وجدوا رجلًا ميتًا آخر على الشاطئ يا سيدي! كان اسمه هوتشوس، كان تارتا يعرفه!».

العنكبوت صحَّح الاسم بمنتهى الجدية: «هاتشينز».

أما الطفل الثالث فأحنى وجهه، واشتدَّ بكاؤه بين تنهدات تقشعر لها الأبدان. تحول وجهه الجميل إلى لون النبيذ الداكن وسط التجاعيد. احتضن نفسه كشيء ضعيف يخشى أن تمزقه عاصفةٌ ما.

قال ذبابة بلهجةٍ محببة، ولكن ليست قاسية: «تارتا كان يحب هوتشوس كثيرًا».

بالنسبة لهؤلاء الملائكة المساكين، كان ألم الفقد مجرد حكاية أخرى في الحياة اليومية. ورغم ذلك لم يتكلم أحد لحظةً واحدة بينما انفجر ذلك البكاء كأنه منبع الحزن كله. حتى السيد إكس.

- حسنًا، هذه حدوتة أخرى.

تركني هذا عاجزةً عن الكلام. اقتربتُ من الأطفال، الذين تراجعوا على الفور، بعد أن اعتادوا على الابتعاد عن أي شخصٍ بالغ. لكن، من خلال ستارة الدموع الحمراء، قبِلَ داني المسكين ذراعيَّ، لقد أحطته وشعرتُ به كطفلٍ من أطفال الطريق، لكنه الآن كان يرتجف كما لو كان ولدًا أضعف بكثير.

بينما أواسيه، رشقتُ السيد إكس بنظرة عتاب -يبدو أنه ليس لديك أدنى شعور إنساني- لم أحصل على جواب.

- هل تريد قليلًا من الماء. (سألتُ الطفل بينما أزيح خصلات شعره اللزجة من فوق مُحياه الجميل) هيا بنا، سوف أعطيك كوبًا من الماء...، وربما بعض الطعام.

وكانت صينية بقايا العشاء لا تزال موجودة بجوار المدفأة، لأن تحقيقات الشرطة أخرت عمل الخادمات. لم أكن بحاجة إلى تمديد عرضي فاقترب مني الثلاثة. لقد ملأت كوبًا عدة مرات لأنه بعد أنْ شرب داني كأسين بشراهة، قلده الذبابة والعنكبوت ولم يتركوا بقايا الشاي والطعام أيضًا؛ لقد مضغوا العظام وبقايا الخضراوات، ولعقوا الأطباق. هو مشهد يستحق الرؤية.

لقد أحزنني للغاية رؤية داني، بعد أكواب الماء، بالكاد قادر أنْ يأكل أي شيء.

قال ذبابة بينما يزدرد الطعام: «يريد الــ تارتا أن يصبح ممثلًا، والــ هتش كان يشجعه».

قال العنكبوت: «أخبره أنْ يتحدث بشكلٍ جيد إذا لم يعتقد أنه سيؤذيه».

- هذا صحيح، تارتا! قُل أي شيء. (نظر الصبي إلى الأرض، والذبابة خفض صوته) هو الآن يُمثل في خيمة مسرح الرمال فقط ولكنه يريد أن يصبح ممثلًا.

- أنا أسف داني! (قال السيد إكس بشكلٍ عفوي غير متوقع دون تركيز وواصل) يجب أن تخبروني بالمزيد إذا ما أردتم المكافأة، لا بدَّ وأنكم رأيتموه قبل أن تحمله الشرطة.

- أي يا سيدي!...، أمم...، لقد كان هناك طوال الصباح (قضم الذبابة قطعةً من الجزر بصوتٍ عالٍ).

- كم عدد الجروح الكبيرة التي أُصيب بها، عنكبوت؟

- ثلاثة يا سيدي! (قال الطويل بلهجة مثل العِلمية) اثنان في البطن وواحد في الحنجرة.

قال السيد إكس: «في الواقع مثل نوجز».

- نعم يا سيدي، تقريبًا...، مع فرق بسيط.

أعادتْ هذه التفاصيل داني إلى أنينه الحزين، فقررتُ التدخل والسؤال عن التفاصيل الفنية: «لكن الناس تقول إن موضوع نوجز كان مجرد شجار مع الرجل، السكَّر...».

- أوه آنسة ماكيري! (قاطعني السيد إكس بنعومة) الحقيقة ليست ديمقراطية أبدًا، ولا تعتمد على عدد الأشخاص الذين يؤمنون بها، بل على العكس من ذلك؛ فهي عادةً ما تكون مخصصة للأقلية اليقظة والانتقائية، ولهذا السبب تعتبر هذه السياسة فشلًا ذريعًا.

- أقترح أن أخبر الآنسة ماكيري بالتفاصيل الرائعة عن الجريمتين، (قال ذبابة).

- بإمكاني الاستغناء عن هذه القصة الرائعة.

ولكن يبدو أنه لا يوجد شيء في هذا العالم يحبه ذبابة المضطرب أكثر من رواية الأهوال. بمساعدة السيد إكس. ولا أعتقد أنني سوف أنسى ذلك أبدًا، ولهذا ألخصها هنا كما سمعتها.

قبل أسبوع، عثر صيادون كانوا متوجهين إلى الرصيف الجنوبي، على مجموعة من الملابس على الشاطئ، بجوار الثكنة الشرقية. عندما ركلوها، اكتشفوا عينين محدقتين وفمًا مليئًا بالرمال. كان لديه قطعان رأسيان في بطنه، وهو ما قد لا يكون كافيًا لقتله على الفور. لكنهم قطعوا حنجرته أيضًا. كان إدوين نوجز، والجميع يتذكرون مشاجراته

مع صديقه القديم جاري هيسكوك المُدان السابق، الذي اتهمه بالوشاية به بفترة عقوبته في السجن حتى يسلبوه أدواره المسرحية في المسرح الخيري، وهو يعمل الآن عاريًا ومغطًّى بالسكر مثل رجل السكَّر. وقد اعتقلوه في غضون ساعاتٍ قليلة. من الواضح أنَّ نظرية الشرطة تُشير إلى أن جاري قد ذهب إلى أبعد من ذلك في تلك المعركة الأخيرة.

بيدَ أنَّه بعد أسبوع واحد فقط، انهار جسد إلمر هاتشينز الضخم على الأرض، ومعه تلك الفرضية الهشة، ذلك أنَّ هاتشينز أُصيب أيضًا بجرحين رأسيين في بطنه، وقطعٍ نهائي في حلقه. ولو لم تكن تلك المصادفة كافية في حدِّ ذاتها لتدخل سكوتلاند يارد، لكانت بقية التفاصيل -تلك التي لم تتمكن هيتي المسكينة من نقلها- أكثر من كافية.

لأن القاتل... إنه أمر مرعب، أُحذر القراء ضعاف القلوب، لكنني أكتب تمامًا ما سمعته من شفاه هؤلاء الأطفال... قام بإزالة جزء من أمعاء هاتشينز من خلال القطعين في بطنه وسحبها. وربطها مثل حبل مشدود حول الرقبة، على الرغم من أنه لم يكن معروفًا ما إذا كان قبل قطع حلقه أم بعده، وكذلك الدافع الذي قد يكون لدى القاتل لارتكاب مثل هذه الفظائع. لقد تجاوزتْ تلك القسوة المهولة كل منطق أو تعاطف أو حتى مجرد شعور إنساني.

وكان هذا الوصف العنيف بالتحديد هو الذي دفع داني ووترز إلى استئناف إظهار ألمه الرهيب. هذه المرة ترجمها إلى كلمات، مثقلًا بذلك العيب الذي وصف لقبه.

- الســـ... ييبي...، د ها...، تشينز...،، ككك... اا...، ن...، طي...، بًا...

قال له السيد إكس: «أنت لست بحاجة إلى السيد هاتشينز لتكون ما ترغب به داني!».

- نعم، لتصبح ممثلًا (أصرَّ ذبابة) نعم، نعم، تارتا يريد أن يصبح ممثلًا، ولكنه لا يفعل سوى شغل العصابات -ثم أخذ يُقلد حركات العراك في الهواء- وهم عَرايا.

عاتبه العنكبوت بجدية وصرامة: «اخرس الآن».

أمَّا داني فاكتفى بخفض بصره إلى الأرض.

لم أستطعْ حتى أنْ أتخيل حياة ذلك الصبي مع المجرمين، يشق طريقه كمصارعٍ عارٍ في الساحات الصغيرة، أو بأي طريقة أخرى لا حصر لها يَستغل بها المسرح الأطفال بلا مأوى. رأيت على خشبات المسرح الصغيرة مثله، تحت عتمة الألوان التي استحضرها فنانو المسرح، مشوشة بالدخان، والصراخ. لكن تلك الأوهام المؤلمة اصطدمت بجدار جليدي لم يكن سوى السيد إكس.

- لا يجب أن نحيد عن الموضوع الرئيسي، أخبِروني، هل ظهر السلاح أيضًا هذه المرة؟

- نعم، نعم يا سيدي! (قفز ذبابة) عثر عليه أحد رجال الشرطة، كان سكينًا كبيرة، بهذا الطول...، أليس كذلك!

وفقًا لذراع ذبابة ومبالغته، فإنَّ هذا قد يكون سيفًا، لكن السيد إكس لم يلتفت إلى هذه الصغائر.

- على أي مسافة من الجسد تعتقدون؟

نشبت مناقشة صغيرة، ذلك لأنَّ أيًّا منهم لم يكن بقادرٍ على تقديم أرقام، فبحثوا عن أمثلة لذلك. وفي النهاية توصلوا إلى نتيجة.

أشار ذبابة: «مثل ما بيننا وبين هذا الإبريق».

- لا أعتقد أن الدكتور بونسونبي سيحب أن تسمي مزهرياته «أباريق»، على الرغم من أنها مجرد تقليد للخزف الصيني، ولكن

دعنا نقول حوالي ثماني خطوات، مما يجعل مجرد السؤال عن الجريمة السابقة لغزًا؛ لماذا يُترك السلاح بالقُرب من الجثث؟

لكن الكشف النهائي كان مفقودًا، فأخذ ذبابة على عاتقه الصياح به.

- لقد شاهد رجلٌ كل شيء، اسمه شاهش، هذا ما قاله رجال الشرطة.

«س.. سبنسر»، صحَّح له داني فيما يبتلع مخاطه.

قال العنكبوت: «اسمه سبنسر يا أبله. قالوا إنه كان «شاهدًا».

بدا أنَّ هذه المعلومات أثارتْ إعجاب الرجل الصغير اللحوح. بقي للحظة وعيناه ذواتا اللونين مثبتتان على نقطةٍ في الفراغ.

- أوه، ماذا كان يفعل السيد سبنسر، أيًّا مَن كان على الشاطئ، هل يعرف أحدكم؟ (انكمشتْ أكتاف الصبية الصغيرة في الوقت نفسه) هل تحبون البسكويت المقرمش ميري ويزر، من كافيتيريا جريين استريت؟

كان هذا ليثير الحماس. وكيف لا؟ سألتُ نفسي. كان المكان خاصًّا بالمدينة، وهو تجارة متواضعة موجودة منذ أن كنتُ صغيرة، وقد امتد إلى لندن. كانت أمي تحبها جدًّا. وهي بسكويت مثل العملات المعدنية الكبيرة. السيد إكس رفع يديه الصغيرتين قابضًا على المرح.

- غدًا سوف تحصلون على صندوقين من بسكويت ميري ويزر المقرمش، زوجين، أي اثنين -أكدَّ مرتين من أجل ذبابة- إضافة إلى المكافأة المعتادة، لو تمكنتم من العثور على معلومات عن المدعو سبنسر، ماذا كان يفعل عند الشاطئ؟ ماذا رأى؟ لو لديكم اتصالات استخدموها، والآن خذوا أشياءكم وارحلوا.

كانوا قد تعلموا المهمة، اتخذوا وجهتهم، ودون الحاجة إلى الحديث، عملوا بشكلٍ منتظم. أمسكوا بالإبريق الكبير وبواقي الطعام -وهو ما

اعتقدت أن السيد إكس التهمها- كأنني رأيتهم ولم أرهم في الوقت نفسه، حين هرعوا إلى النافذة حذرتهم من السقوط، بيدَ أن تحذيري ذهب هباء إلى الستائر المرتعشة وأغصان الأشجار المتزعزعة.

- هم ماهرون ومتحفظون. (أوضح السيد إكس فيما حاولت اقتفاء أثرهم في الحديقة عبر الظلام) ليس هناك أفضل من طفل من أطفال الشوارع لهذا.

- ولكن كيف تمكنت من...، ولماذا؟

أغلقتُ النافذة والستائر غير مصدقة أن أحدًا لم يكتشف هؤلاء الأطفال.

- خدمات الشاب جيمي بيجوت رائعة، ليس فقط من حيث حمل وإحضار الرسائل من النزلاء. هو يريد الزواج ويقبل الرشوة. وأضيف أيضًا أن الآنسة هارفيلد التي سبقتكِ هنا، قامت بدورها، حيث أصرت أيضًا على فتح النافذة اللعينة مثلك. بعد ظُهر أحد الأيام، سمعت هؤلاء الأطفال الصغار يلعبون على الشاطئ، فاتصلت بجيمي، وطلبت منه التحدث معهم باستخدام بضعة بنسات وحلويات، سيفوز بها أول ثلاثة يصلون إلى غرفتي على أساس أسبقية الحضور، وهكذا التقيتُ وعمدتُ ذبابة وعنكبوت، اللذين انضم إليهما داني ووترز.

- ولكنك كنت بانتظارهم. كيف علمت أنهم قادمون؟

أجاب بملل: «لقد وضعنا بعض القواعد البسيطة، إذا قمت بإغلاق الستائر وتشغيل المصابيح، فيمكنهم الصعود إلى الطابق العلوي. لقد ألقوا حصاة على نافذتي، وهكذا أعرف اللحظة المحددة التي سأتمكن فيها من فتح النافذة بنفسي ووضع الكرسي عند الباب. اليوم ألقوا الحصاة بينما سمعتُ صوت الشرطة في الردهة. وقفت عند النافذة حتى يتمكنوا من رؤيتي جيدًا، وأشرت إليهم بعدم الصعود. انتظروا مختبئين

في أغصان الأشجار. ولهذا السبب كان من الضروري بالنسبة لي طرد صديقنا مرتون سريعًا وبالتالي أفتح النافذة».

الآن فهمتُ «الأصوات» التي اعتقدت بيتي هارفيلد التي سبقتني، أنها سمعتها في غرفة السيد إكس. هي تلك الزيارة السرية لهؤلاء الخفافيش.

- ولكن ما نوع المعلومات التي تطلبها منهم؟

- أطفال الشوارع كلهم أعين وآذان. وهم ماهرون بشكلٍ خاص في ملاحظة تفاصيل الجثة قبل أنْ تسبقهم السلطات إليها.

شيءٌ ما لم يبدُ منطقيًّا بالنسبة لي. كنت أرفع بقايا العشاء وأحاول محو كل آثار الأطفال، عندما توقفت وعقدت ذراعيَّ أمام النزيل.

- ولكن...، بالنسبة لـ إدوين نوجز فقد قتلوه منذ أسبوع، وهاتشينز ظهر اليوم. تقول إنك تحدثتَ مع هؤلاء الأطفال قبل شهر...، كيف يمكنك توقع حدوث جرائم القتل هذه؟

- استباق خطوات اللعب هي الطريقة الوحيدة للفوز يا آنسة ماكيري! (وهذا جعلني أتذكر فجأة كلمات السيدة موراي: إنه ينتظر شيئًا ما) هل تسمحين لي الآن، إذا لم يكن الأمر عناء لك، أن أستسلم لألحان أرابيسك الكمان؟ لا تقلقي بشأن أقراص اللودانوم أو الذهاب إلى السرير. طاب مساؤكِ.

تركته يؤدي تمثيله الإيمائي السخيف، لكنني كنت أحسده شيئًا ما. لم يكن لديَّ أي آلة كمان، حقيقية أو غير حقيقية، في غرفتي الصغيرة، فقط الرعبَ الذي يرويه هؤلاء الأطفال، واحتمال وجود قاتل في بورتسموث يطفو في ظلام يُثقل على جفنيَّ.

-3-

استيقظتُ وأنا أشعرُ بشعور عبثي؛ هل حلمتُ بزيارة خفية من بعض الأطفال؟ لا، لقد تسلقوا *بالفعل* جدارًا وشجرة ودخلوا غرفة النزيل، كان أحدهم يبكي، كان طفلًا من مسرح الرمال.

حتى ذلك الحين، لم يكن مرضاي يختبرون سخافة عملي. السيد إكس جعل التوتر جزءًا من حياتي. وقد جعلني هذا متوترًا.

من ناحيةٍ أخرى، لم يكن للصباح أي علاقة بتوتري الداخلي. كانت شمس الفجر تحمل وعدًا رائعًا سرعان ما أوفتْ به على الشاطئ، مما أعطى المياه بريقًا مرصعًا بالجواهر. وبينما كنت أنظر من النافذة رأيتُ نشاطًا لم أره منذ أنْ غادرت بورتسموث. هذا النوع من الجنون الذي لا يمكن أن يوجد إلا في البحر. بالإضافة إلى المترددين المعتادين على الشاطئ؛ سيدات يرتدين القبعات ويسِرن على طول الشاطئ وتنوراتهنَّ بمحاذاة كواحلهن، وأطفال يتحدثون بصوتٍ عالٍ مع طيور النورس، وشباب عاطلون يرتدون قبعات من القش، وسباحون محبوسون في آلات تجرفهم من أقدامهم. لقد اندفعوا إلى الشاطئ حتى يتمكنوا من الاستمتاع بالمياه مع الحفاظ على آدابهم العامة. كانت هناك مِهن صغيرة يعمل أصحابها في الهواء الطلق في المنطقة التي عُثر فيها على إلمر هاتشينز، والذي يبدو أنه لم يعد محلَّ اهتمام الشرطة، كان بعض الباعة المتجولين يحتفلون بالجريمة. كان لديَّ انطباع بأن هاتشينز مثلتْ دوره امرأة سمينة، لكن من الممكن أن يكون فقط مجرد التناسب. كان هناك شخصٌ آخر يحمل سكينًا لامعة. صفق الناس ووضعوا العملات المعدنية في القبعة. وعلى الشاطئ مباشرةً قفز البهلوانات مثل الدلافين البرية على صوت الطبول والأبواق في غابة الصنوبر الصغيرة،

فاجأت الراقصين في الهواء الطلق. بدأتِ الأبخرة العظيمة تملأ الأفق. وأعلنت فرقة في جادة كلارنس، بأبواقها وعربتها، ما بدا كطرازٍ قوطي في قاعة تيرانس عن مسرحيتها، ولكن تعذر قراءة عنوان العمل. من وقتٍ لآخر، جال ظلٌّ شرطيٍّ في الخدمة يدور في المكان، ولم ينجح كل ذلك في محو المأساة تمامًا، لكن بورتسموث بأكملها -على الأقل ساوث سي- كانت تستعيد حيويتها وصخبها المعتاد. كان عليَّ الشك في أنَّ كل هذا لن يدوم.

في الردهة، اصطدمتُ بسوزي وهي خارجة بعد وضع الضمادات اللاصقة على قرح اللورد ألفريد.

سألتني متحمسة: «هذا يومٌ بديع آني!...، أليس كذلك؟».

في ذلك الوقت، الرئيسة برادوك أطلَّتْ من نافذة السيد كونراد هـ. كانت امرأة جافة لكنني كنت أراهن أن لديها قلبًا أيضًا.

- يوم رائع آنسة برادوك! أليس كذلك؟

أجابتني بجفاء: «الطبيب يريد أن يراكِ».

كان من الواضح أنَّ كل هذا لن يستمر.

-4-

لقد فكَّر في الأمر بينما كان ينقر بلطف على اللوحة الموجودة على باب مكتبه. *الصغار*. لقد رأوهم. أنا مفصولة.

استقبلني بونسونبي وقد أعطاني ظهره، بينما يراجع إحدى رسائله النصية. في بعض الأحيان كان لديَّ انطباع بأنه لم يبدأ في قراءة الكتب العلمية إلا عندما وصلنا ليظهر بالصورة المناسبة. ولكن هذا مجرد

انطباعي. على الطاولة انتثر المزيد من المجلدات. بدا أنَّ بعضها عبارة عن مسرح عقلي، ومن الواضح أنه أثار اهتمامه.

ومع ذلك، فإن التفاصيل الأكثر إثارة للدهشة لم تكن على الطاولة، بل بالقُرب من النافذة، كانت السيدة موراي تحيك وهي تجلس على كرسي. كان ترتدي نظارات سميكة. كنتُ أعلم أنها تظهر في الأماكن الأقل توقعًا، تعيش في مساحةٍ صغيرة بجوار الحمام الذي نشترك فيه في الطابق العلوي، لكن في بعض الأحيان كنت أتفاجأ بها في المكتب، أو في المطبخ، في أثناء قيامها بعملها. لا تلفت الانتباه، بل تلاحظ كل شيء.

تردد بونسونبي عندما قدَّمني.

«ماكيري»، ذكرته.

علَّقت السيد المسنة: «لقد تعرفنا بالفعل بونسونبي!».

دخل الطبيب في الموضوع بسرعة.

- أردتُ أنْ أراكِ. سيأتي اليوم طبيب الأعين التي حدثتكِ عنه.

- ممتاز جدًّا سيدي! (سعدتُ للغاية، لكنني خبأت مشاعري لأنَّ ملامح بونسونبي لم يبدُ وأنها حفظت لي هذا الخبر وحسب).

- بعد أن يفحصه أريد أن تقدمي لي التقرير شخصيًّا.

- وهو كذلك سيدي!

- آه، أخبريني...، (وبدا أنه عاد ليختبئ في قواريره) هل حدث شيءٌ بالأمس بعد أن استجوب البوليس السيد إكس؟

- حسنًا...، (فكرتُ على عجل لا يجب أن أخفي عنه شيئًا، وبالمثل لا أستطيع أن أحكي كل شيء) حضرتك تعلم طبيعته...، لقد بدأ...، يقول...، أشياء عن المفتش.

بونسونبي لوى لسانه وترك الكتاب على المكتب فجأة. كان مضجرًا بالفعل هذه المرة.

- هذا الرجل وقح للغاية. (تمتم) لقد نزل المفتش وهو في غاية العصبية... و... طلب مني كل المعلومات الخاصة به...، لا يوجد الكثير، أعتقد أنني أبلغتك بذلك. آه، لا أريد القول بأنه لا يوجد شيء على الإطلاق، ولكن ليس بالكثير...، وبالمثل في المصحات الأخرى ليست هناك أي دراسات أو تشخيصات لهذا الفرد. وهدد المفتش بأنه سيتولى الأمر. ترى ما هي الأشياء التي أخبره بها عديم التربية هذا؟

لقد فوجئت للغاية بهذا التغيير -فلم يعودوا نزلاء «مختارين»، بل «غير لائقين» و«وقحين»- لدرجة أنني لم أستطع التحدث للحظة، بينما السيدة موراي تلاحظ بضعفٍ شديد.

همهمتُ: «أشياء خاصة».

- هل بالإمكان أن تعطيني مثالًا؟

- لقد...، فضلتُ عدم الاستماع إليهم دكتور!

رمقني بنظرةٍ فاحصة، مرة ثانية، أصبحت موجودة بالنسبة له.

- لا تجاريه في لعبته بأي شكلٍ من الأشكال. هل تفهمينني؟

تمتمت السيدة موراي: «هذا الرجل شيطان، لقد أخبرتك بذلك، بونسونبي».

- فليكن كما يكن، لا تزيدي هوسه. اتركيه وشأنه.

- نعم سيدي!

عابسًا، بدا بونسونبي كأنه يركز على شيءٍ ما على الطاولة. زمَّ شفتيه، كما رأيته يفعل من قبل.

- لا يعجبني هذا. (قال ذلك بشكلٍ قاطع لدرجة أنني نظرتُ إلى الطاولة. ولكن لم يكن هناك شيء؛ كان هذا هو الهدف. كانت تدور في رأسه مثل وخز إبر السيدة موراي) سأخبرك شيئًا. عندما التحق السيد إكس بكلارندون منذ شهرين فإن مدير المصحة السابق في أكسفورد أرسل إليَّ خطابًا. أخبرني فيها أن المعتوه قد...، تدخَّل في تحقيقات الشرطة.

- لقد حكيت لك من قبل (حذرته السيدة موراي بتلك اللهجة التي يتحدث بها العجائز عن الماضي كأنهم يتنبؤون).

- لا أقول إنَّه بدا لي كشيءٍ خطِر...، هو مجنون و...

تحدثت السيدة موراي: «هذا الرجل ليس مجنونًا على الإطلاق، بونسونبي».

أدخلت هذه الملاحظة بونسونبي في متاهة ارتباكاته المعتادة.

- آه، لا، لا نعم...، هنا...، أنتِ مقيمة هنا، سيدة موراي! أردت فقط أن أخبركِ يا آنسة (وأشار نحوي بظهر يده المشع) وأخشى أن الشيء نفسه قد يحدث هنا. آه، لا أريد أن أقول إنه الشيء نفسه تمامًا، لكن من الممكن أن يكون شيئًا مشابهًا. لديه فكرة مَريضة بالتحقيق في الجرائم خارج السلطات. لا أستطيع...، لا يمكننا السماح بذلك في كلارندون. أي شيءٍ يقوله أو يفعله لكِ، أخبريني به على الفور(وأكَّد «على الفور»). كل شيء يجب أن يحدث من خلالي.

- نعم دكتور!

- اصرفي انتباهه. آه...، لا تدعيه يستسلم لأفكاره المَرضية. هل كنتُ واضحًا بما فيه الكفاية؟

كانت هناك لمحة من التعجب في سؤاله كما لو كان «الوضوح الكافي» هدفًا لم يحققه أبدًا.

-5-

أكثر ما آلمني هو أن بونسونبي كان على حق.

كيف أمكنني، وقد نشأت في أماكن حيث كان يُنظر إلى المجانين عقليًّا فقط على أنهم مرضى يجب أن يتلقوا العلاج والرحمة، أن أستسلم لإغراء وهْم ذلك المريض؟ عدتُ إلى مخبئه ووجدته في الظلام، ولكن على سبيل التغيير كان جالسًا أمام الطاولة، مرئيًّا تمامًا، بعد أن أنهى وجبة البسكويت والشاي.

ظُهرًا.. بدا نحيفًا لكنه كان منهكًا مثل رجل دين مبارك.

بمجرد أن رآني بدأ يتحدث: «هل جلب جيمي صناديق البسكويت آنسة ماكيري؟».

تذمرتُ: «صباح الخير سيدي!».

- يجب أن نكون على استعداد لاستقبال العصافير الصغار اليوم، سيحضرون بلا شك معلومات هامة.

واصلتُ كلامي بينما أتوجه إلى النافذة: «اليوم سيفحصك طبيب الأعين».

- حسنًا، أعتقد أنه بعد ذلك بإمكاني أن...، لا، لا تفتحي الستائر الآن.

- لن يكون هناك أي «بعد ذلك»(فتحت الستائر بحركة واحدة).

- لا تفعلي ذلك (سمعته من وراء ظهري) سيعتقد أنَّ...

غمرني شعورٌ داخلي ما بين الغضب والتعب. رأيتُ البحر ثائرًا من وراء صف الأشجار، والأمواج، والأضواء وخيمتْ أجواء المسرح الصغير. كل شيء يهتز.

أصدرتُ الأمر: «ارتدِ ملابسك».

- أرجوكِ، سامحيني؟

التفتُّ إلى ذاك الشخص الذي يرتدي الروب والخف المنزلي، والذي جلس بالفعل على الكرسي، يدًا فوق الأخرى. كان تعبيره مترددًا.

- ارتدِ ملابسك. أعتقد أنك تفهم معنى هذا. هذا ما فعله آباؤنا الأوائل بعد ارتكاب الخطيئة الكبرى: البنطلون، الصديري، الجاكت. ولا تنسَ الحذاء. لا داعيَ للقبعة، لا حاجة إليها، ولكنني لن أمنعها عنك. سأمنحك عشر دقائق، سأنتظر بالخارج.

لم يكن القلق الذي أظهره مبالغًا فيه، لكني كنتُ قد تعلمت التعرف على بعض علاماته العاطفية الطفيفة جدًّا، كان بإمكاني القسم أنه في الواقع أصبح عصبيًّا للغاية.

- ولكن آنسة ماكيري، إلى أين نحن ذاهبان، إنني لا أخرج من هنا؟

وقفتُ في طريقي ناحية الباب متقلبة المزاج.

- لقد تحملت سلسلةً من الفظائع المتعطشة للدماء، التي جعلت هؤلاء الأطفال الفقراء يروونها مقابل الطعام. هذه هي غريزتك يا سيد إكس! سأنتظرك في الخارج. إذا لم تخرج بملابسك خلال عشر دقائق، سأخبر الدكتور بونسونبي بكل ما حدث بالأمس، حتى لو طردني من العمل. بغضِّ النظر عن مدى تأثير عائلتك، فمن المحتمل أن يتم طردك من كلارندون، وربما ينتهي بك الأمر

محبوسًا في زنزانة مصفَّحة. لو كنت مكانك لارتديتُ ملابسي. لديك تسع دقائق متبقية.

خرجتُ وأغلقتُ الباب.

لكي أكون منصفةً تمامًا معه قلتُ له إنه يمكنه على الأقل ارتداء بنطال وقميص، كان يحاول إغلاق أزراره عندما عدتُ. سحبت الستائر مرة أخرى، فبدا كأنه شبح تحت غطاء أبيض. لقد فتحتها مرةً ثانيةً، بهدوءٍ شديد.

- جميل جدًّا، بهذا الشكل سوف تتلصص على خصوصياتي جميع النساء اللاتي تتنزه على الشاطئ.

- لا أحد يهتم لخصوصياتك (أجبته فيما يحاول غلق الأزرار بأصابعه النحيفة المرتعشة) منذ متى لم تخرج إلى الشارع سيد إكس؟ ربما السؤال بشكلٍ أفضل هل كان هناك ما يشبه «الشوارع» منذ أن خرجت آخر مرة، أم أنها كانت الغابات وفرسانًا يضعون الدروع؟

- احتفظي لنفسكِ بالسخرية إذا لم ترغبي في مساعدتي.

أعنته -على مضض- لارتداء الصديري والسترة التي بدا أنها تعيش براحةٍ شديدة مُعلقة في ظلام الخزانة، وأصبحت الآن عصيَّة على الاستخدام كملابس. متجاهلةً عناد الملابس وصاحبها، أغلقت أزرار قميصه المنشى فوق ياقته الممزقة، وزررت سترته، وانحنيتُ أساعده لارتداء الحذاء بطرفه مربع الشكل. كان مثل مساعدة طفل لارتداء الملابس.

- أخبرتك أنه لا حاجة بك إلى قبعة.

«أتوسل إليك أن تسمح لي على الأقل بهذه النزوة»، تمتم بهذه الكلمات.

كانت القبعة الصغيرة سخيفة، ذات ريشة، كانت ملائمة كتاج له على قمة تلك الجبهة العالية جدًّا مثل متسلق جبال وحيد وخائف على قمة ثلجية. كذلك قبض على عصا ذات مقبض من العاج.

- آوه، لو سمحت، هل تعتقد أننا ذاهبون إلى قصر باكنجهام؟ هيا بنا.

- إن اللطف ليس إحدى فضائلكِ، والتي لا تُعتبر كثيرة جدًّا، ولكنها مُرضية بشكلٍ عام، يا آنسة ماكيري!

- وهل اكتشفت ذلك الآن؟ ألست بقادر على التكهن بكل شيء. هيا بنا، أسرِع في المشي.

بشكلٍ لم أتوقعه، غرس خمس كماشات باردة حول ذراعي. لم يكن قد لمسني قط حتى تلك اللحظة. لقد فاجأتني قوته التي لم تكن في الحسبان.

- من فضلكِ، لا تتركيني وحدي. (ظهر في صوته الألم في تلك اللحظة).

لقد فقد كل سحره، هذا «الساحر» في دور رعاية المرضى المساكين العُزَّل! وضعت يدي على كتفه وتحدثت معه بهدوء.

- لا تقلق أنا إلى جانبك.

هكذا غادرنا، وهو يمسك بذراعي والعصا بيده الأخرى، ووجهه شاحب وعيناه ذواتا اللونين كبيرتان مفتوحتان وهو ينظر إلى الأمام مباشرةً. على الدرج التقينا سوزي ترينش، تصعد الدرج ومعها كومة

من الملاءات المطوية مثل كُتب من الثلج، وقد انبهرتْ عندما أدارت وجهها وشاهدتنا.

- إلى أين أنت ذاهب سيد إكس؟

- اسألي الآنسة ماكيري لو تفضلتِ.

- إلى نزهة (تجنَّبتُها).

في الردهة أمسكتُ بشالٍ لنفسي. خلع السيد ويدون -الذي كان يُعطي الخادمة تعليمات- نظارته عندما رآنا. تمتع بالرقة أو اللامبالاة في عدم قول أي شيء، لكنه تأمل خطوات السيد إكس كأنها زيارة مفاجئة من أسقف كانتربي. وقد أثرت الظهيرة المنعشة المشمسة على نظري. سرنا في توازن متذبذب، نلتفتُ نحو واجهة الشاطئ، وندخل الرمال. كان لديَّ انطباع بالذنب بأنني كنت أسير مع حيوانٍ أليف.

-6-

لم يكن هناك الكثير من الناس على الشاطئ. وبطبيعة الحال، السباحون. لقد انتهت مهزلة الجريمة منذ فترةٍ طويلة. وأشرقت الشمس، فإذا نظرت من خلال أشعتها يمكن رؤية قلعة ساوث سي. سارت العديد من الشابَّات مثلي، يدًا بيد مع السادة، وبعضهم صغيرات السن للغاية، مع حجاب *الحشمة*. ولكن كانت لا تزال هناك موسيقى الجوقة الموسيقية وسيرك على ميناء ساوث بيريد.

- يا له من خليط! (اشتكى النزيل)، الكثير من الضجيج، الكثير من المسرح! ألا يفهم أحد أنَّ هناك ما هو أهم من المشهد؟ الجميع يريد التطلع إلى الآخرين، لا أحد يريد رؤية نفسه. أستمع إلى تلك الموسيقى من الميناء، من جوبيتر، تلك الصيحات أمام أحد البهلوانات،

هذا الضجيج، أخشى أنني لا أستطيع مشاركته، صدقيني، أريد أنْ أعود إلى ظلامي وأنسى العالم.

- كان أخي يقول لي مقولة من أهل المسرح: «لا تخف من المسرح الذي له صوت الرعد أو ضوء كالبرق؛ خَف المظلم الصامت».

- هذا غاية في الشاعرية (قيم العبارة السيد إكس) ولماذا هجر مهنة التمثيل؟

لم أسأله كيف عرف أنه أراد أن يكون ممثلًا.

- لم يحب أن يكون مجرمًا خفيًّا.

تابع الفضوليون النظر إلى النزيل برفقتي، خاصةً عندما رأوه يسير إلى جوار ممرضة، لكن مظهره لم يكن لافتًا بالشكل الكافي للنظر بما يكفي لجعلهم ينظرون مرتين، وسرعان ما فقدوا الاهتمام. وصل إلينا ضجيج الصيحات والتصفيق من الميناء.

- ألم ينتقد أخوكِ هذه المتعة، هذه الجلبة المزعجة، كل هذه الضوضاء والغضب...، يجب أن نتساءل: ما حاجتنا إلى كل هذا؟

- وما السوء في المتعة؟

- لا شيء(كانت هذه هي الإجابة الجافة) *هذا* هو السوء.

كان هناك صبي يركض، أو ربما فتاة. كان عاريًا، ولكن كان لديه شيء ذهبي يلمع على رقبته وكاحله الأيسر كأنه يبحث عن كنز. فالكنوز تخرج عارية في الهواء الطلق دون فضيحة، لأنها كنوز. كان هذا الشخص هاربًا بلا شك، لأنهم عثروا عليه فيما بعد. يا لها من خيبة أمل، الآن سيتعين عليه الاختباء في مكانٍ جديد حتى يتمَّ العثور عليه مرة أخرى. كانت عمليات البحث مشهدًا مُفضلًا على الشواطئ منذ أن كنت طفلةً. وعلى الرغم من شكوى السيد إكس. فلطالما أحببتُ البحر

مثل والدي. فكرتُ في روبرت، ربما من ترابُط الأمور ببعضها بعضًا. لم أرغبْ في التفكير فيه في لحظة السلام تلك، لكن لم أستطع منع نفسي من ذلك. تساءلتُ عما إذا كان سيأتي إلى بورتسموث لرؤيتي، كما قال في رسالته الأخيرة. ماذا سأفعل لو حدث هذا؟ تبادرتْ إلى ذهني الأسئلة بإصرار الأمواج الذي لا هدف له، وهي تدور بلا انقطاع مثل تعرجات البحث عن كنز الصبي. الفتاة الفقيرة دون ملابس، ويسدُّ طريقها المستحمون المستهزئون، لمعت الشمس على ظهره الصغير ومؤخرته المستديرة.

كان هذا الكائن الصغير قد انسلَّ من خاطفيه، واختفى عن الأنظار عندما قاطعني صوت السيد إكس اللطيف.

- على الأقل...، ألا يمكننا الذهاب إلى الجانب الآخر، حيث عثرت الشرطة على جثة هاتشينز؟

تحدثَ بنبرةٍ تكاد تكون متوسلة. وقفتُ أنظرُ إليه؛ يدٌ على القبعة، والأخرى ما زالت ممسكة بالعصا، مثبتة في إبطي.

طلبتُ منه: «لو سمحت، اتركْ حوادث القتل والجثث في سلام».

بدا أن ذلك قد ضايقه. أفلت نفسه من ذراعي بسرعة. وحين استدرتُ كان قد استند مرتعشًا على عصاه، وكل جسده الهزيل يهتز.

- هل تعلمين سيدة ماكيري؟ أنتِ تفعلين ذلك لأنكِ تشفقين عليَّ -فلنخرج ليرى العالم ويستمتع بالشمس، الرجل المسكين- لكنني لا أحتاج إلى الشفقة.

- إنني لا أشفق عليك.

- وعلى الرغم من كل شيء، حياتي يمكن أن تثير بعض الشفقة فيكِ (توقف كما لو كان يفكر في كلماته التالية وحاولتُ الاستماع

بعناية ثم أضاف): لماذا تُترك السكين دائمًا على مسافة معينة من الجسد؟ هذا هو السؤال.

تنهدتُ. يبدو أنه لا توجد قوة بشرية أو منظر إلهي من شأنه أن يجعله ينسى أفكاره المَرضية.

بعض الأطفال الذين يرتدون ملابس أنيقة، والذين سبق لهم مطاردة الكنز، يقضون وقتهم كله الآن للهو والمرح بكراتٍ من الرمل مما أثار سخط مربياتهم، وعندما ركضوا بجوار السيد إكس، تقريبًا دفعوه فأسرعت لاحتضانه.

همس، مفزوعًا: «أخطار الهواء الطلق».

- لماذا من الممكن أن تثير حياتك شفقتي؟

- آه، لأنَّ...، ولكن أعطِني وعدًا أن نعود بمجرد أن أشرح لكِ.

- لا أستطيع أن أعدك بذلك.

- ما هي المادة التي صُنعتِ منها؟ من الحجر؟

- من الإنسانية. من أين أنت؟

- أخبريني بهذا على الأقل يا آنسة ماكيري! هل الأسماء مهمة لهذه الدرجة؟ اسمي إكس، ولدت في (و) وسأموت في (ز)، ورائحة الوردة ستكون هي نفسها، على الرغم من...

- هل بإمكانك أن تجيبني مرة واحدة على أسئلتي؟ (سألته متعجبة).

بدا كأنه يفكر في الأمر. عدنا لنسير معًا بينما تشبث بذراعي.

- إنني أنحدر من أسرةٍ نبيلة للغاية، لا أبالغ حين أقول إنَّ قراراتهم تؤثر على سياسة هذا البلد، ولكن للسبب نفسه، لم يتمكنوا من تحمُّل طفل مثلي، الذي كان يتحدث في عامه الأول ثلاث لغات: الفرنسية والألمانية، تعلمتهما من المربيات، لقد نسيتهما بعد ذلك

بالطبع. لكنني احتفظت بهما، إذا رغبتُ في استدعائهما يومًا ما، لكن من الضروري ترْك مساحةْ لما يهم. لقد حدث لي الشيء نفسه مع أشياء غبية أخرى؛ الجغرافيا، والتاريخ، والهندسة، والرياضيات...، لقد وجدتهم معارف مملة، لأن الإدراك الخفي والعميق للبيئة نقل لي معرفة أكثر بكثير من تلك المواضيع، ناهيك بالبشر. (نظرت إليه؛ عنيد، واصطبغ لونه باللون الأحمر، بدا شبه سعيد في تلك اللحظة. لقد أطلقَ هواء البحر لسانه، وتابع كأنه يحادث نفسه): هناك الكثير، الكثير مما يمكن تعلمه من أقل الناس شأنًا... الكثير من العمق الذي يمكن البحث فيه عن اللؤلؤ... لا يوجد علم يعادل تلك الهواية، وعندما اكتشفتها احتفظت بالباقي وكرست نفسي لذلك فقط، حتى إنني عندما كنت في الثالثة من عمري كشفت لوالدي كل أسرار الخدم، من أول كبير الخدم إلى آخر صبي في الإسطبل، واستمعوا لي في عجب. لكن عندما بلغتُ الرابعة من عمري أخبرتُ والدي بكل أسراره، ولم يعودوا مدهوشين. أنا لا ألومهم.

- أما أنا فألومهم، (قلتُ فيما ألجم غضبي) أن يرسلوك منذ أن كنتَ طفلًا إلى مصحة...، المعذرة، ولكنها بربرية.

- أوه، أمسكوا بي بالملقاط، مثل حشرةٍ سامة ذات ألوان جميلة، وحبسوني في جرة زجاجية بعد كتابة علامة إكس في مساحة اسمي، لصعوبة التصنيف. أنا شخصٌ صعب المراس، والممرضات المائة والاثنان والعشرون الذين سبقوكِ، ودور الرعاية الأربعة والثلاثون التي عشت فيها، يمكنهم إثبات ذلك. مللٌ لا نهاية له...، حتى أكسفورد، (أضاف).

التزمتُ الصمت، لكن الأمر بدا غريبًا بعض الشيء بالنسبة لكل ما فهمته عن مفهوم «عائلة».

استأنفتُ المشي، وسحبت السيد إكس برفق.

- ولم ترَ والديك منذ ذاك الحين؟

يبدو أن السؤال بدا له مسليًا. توقف أمام البحر الذي تقدم نحونا كأنه يتحدانا على أرضية مصقولة مبللة بالزبد.

- لا، لم أرَهما مرة أخرى، ولم أرَهما قط، لكن عائلتي غريبة أيضًا. ربما أنا الأغرب، لكن الجميع غريبون، على الأقل كانوا كذلك. (هزَّ حذاءه باشمئزاز) حبًّا بالرب إذا كان هناك شيء يُقرفني أكثر من الرمال الجافة فهو الرمال الرطبة...، هل من المعقول أن يأتي بشرٌ هنا للتسلية...؟ ولماذا يقتلونهم على الشاطئ...؟

واحدة من هذه التفاصيل التي ذكرها بدت لي مربكة.

- ولماذا تقول إنك لم ترَ والديك قط؟

هذه المرة أحسستُ أنَّ صبره قد نفد، هزَّ رأسه: «لكي تسأليني هذا السؤال الغبي.. سيدة ماكيري! هل انتهيتِ من شفقتك؟ أعلم أنكِ أصبحتِ ممرضة لتشفقي على الناس بشكلٍ احترافي، وتسعين إلى أن يشفق عليكِ الناس لتعود إليكِ قليلٌ من الشفقة. أنا أعيش باختصار وأشعر أنني ملك الكون، لكنكِ تعيشين في العالم وتشعرين كأنكِ دودة صغيرة في ثمرة الجوز، وهو ما يرهقني. بهذه الطريقة تعتبرين نفسكِ أقبح امرأةٍ في الخلق، ذلك الهوس بالبحث عن رجل يمنحكِ الإذن لتكوني سعيدة، مما جعلكِ تعتمدين على بحَّار مخمور مبتذَل يُكرس نفسه لإساءة معاملتكِ...».

- سيد إكس!

- ...أنتِ تتحملينه لأنكِ تعتقدين أن الألم والإساءة والوحدة اخترعت باسمكِ، وأخيرًا، تلك الطريقة في التشبث بالأمل اليائس في تخليصك، لأنكِ واحدة من هؤلاء النساء اللاتي يُعلقن سعادتهنَّ على سعادة الرجال الذين يُحيطون بهن، وينتظرونهم ليقولوا «تعالوا» لأنهم غير قادرين على قول «أنا قادم» لأنفسهم، وبالتالي ينتهي بهنَّ الأمر حزينات ومهجورات، ولديهنَّ أكثر من أسباب كافية للحصول على التعاطف، إنهنَّ يبحثن عن الكثير. سأخبركِ بشيء؛ أنتِ تعملين بجد حتى تشعري بالشفقة لدرجة أنكِ قد حققتِ ذلك بالفعل دون الشك في ذلك، مما يجعلني أشعر بالأسف عليكِ (وبعد أن قال كل هذا أضاف): يترك السكين بالقُرب من الضحايا...، بالقرب...، لماذا؟

-7-

واصل التفكير بصوتٍ عالٍ. لم أسمعه بعد ذلك. بقيتُ أنظر إلى البحر. كأن البحر التصق بعينيَّ. الرطوبة والملح.

قالت لي أمي: «انظري كم تصبحين قبيحة عندما تبكين يا ابنتي». هذا صحيح؛ أُجعد وجهي بالكامل وأنفي الكبير ينتفخ باللون الأحمر.

كل ما قاله لي كان صحيحًا. هذا ما شعرتُ به. **حقيقي**. لكن لم يسبق لأحد واجهني بهذه الحقيقة الملتهبة مثل السيد إكس، حتى إنه أعطاني القوة لأغضب على مُعذبي. كان شيئًا غريبًا. مثل مرآة مغطاة بملاءة، فجأة كشفها أمامي أحدهم بسحبها بعيدًا.

السيد إكس أبعد يده عن ذراعي بحركةٍ مباغتة.

- هل نعود الآن، لقد أتممتُ...

دون أن أجيبه، جلستُ إلى جانبه. لقد خلعت فردة حذائه ثم الثانية، وأخيرًا الجورب بعد نزاعٍ بسيط. ثم فقد توازنه، ولكيلا يسقط، كان عليه أنْ يمسك بقبعتي فمزقها. لا بدَّ أن مشهدنا كان صورة مضحكة للغاية. وفي هذه الأثناء، لم يستطع التوقُّف عن تحريك يديه بحرص.

- لكن ماذا تفعلين؟ اتركيني...، آنسة ماكيري!

لم أتوقف حتى لمستْ قدماه الصغيرتان الرمال بأصابع خجولة. كانت قدماه طبيعيتين ولكن صغيرتان. ليست قدم طفل أو قزم؛ قدم كما لو كانت بحجم أقدام الكبار.

- هيا نعود (قلتُ له، وقد اعتنيتُ بقبعته وحذائه).

- لماذا تفعلين ذلك؟ (اشتكى) هل هذا هو انتقامكِ؟

- قال والدي إذا كنت إلى جوار البحر فيجب أن تخلع نعليك احترامًا له.

- أبوكِ رجلٌ حكيم. (فرك السيد إكس أصابعه في الرمال)، من المؤسف أن علاقته لم تكن على ما يرام بأخيكِ. لا شك وأنه كان أقل شاعرية.

رفضتُ أن أسأله كيف عرف ذلك. لم يتسامح والدي أبدًا مع حقيقة أن أندرو أراد أن يصبح ممثلًا، على الرغم من أنه غيَّر رأيه فيما بعد. لكنني هززتُ كتفيَّ، وبدأت في المشي عائدةً غير قلقة بشأن ما إذا كان السيد إكس يتبعني أم لا. توقفتُ للحظة لأرتدي قبعتي. للقيام بذلك، تركتُ الأحذية في الرمال. شعرت بالغرابة. لست سعيدةً، ولكن لستُ حزينةً أو مستاءةً حقًّا أيضًا. حتى ذلك الحين، لم ينتابني هذا الشعور إلا بالصفعات التي تلقيتها؛ من والدي، من روبرت. لقد آذوني، لكنهم جعلوني أرى الأشياء بشكلٍ مختلف. لقد كان هذا شيئًا مشابِهًا، لكنه أعمق بكثير.

كلمات السيد إكس لم تصفع وجهي، بل شيئًا ما بداخلي فتضاعف صدى الألم بداخلي.

سمعتُ صوته الصغير يناديني. عندما استدرتُ، رأيته مشوشًا تمامًا، يتعثر بقدميه العاريتين مثل البطة، لكنه سعيدٌ بشكلٍ لم أتوقعه.

- آنسة ماكيري! ما فعلته هو حقًّا...، أمرٌ ذميم...، فضلًا عن قسوتكِ، دعيني أخبركِ.. قسوتكِ لا تعرف حدودًا، وعلى الرغم من ذلك...، لقد أخطأتِ هدفك، لأنني أعترف، هذا الإحساس الغريب بالرمال تحت قدميَّ...، رغم ذلك بالنسبة لي، فهو أمرٌ ممتع وأكتشف خصائص جديدة في أصابعي لم أشك في وجودها من قبل...، باختصار، لقد أسعدتِني.

- أنا سعيدة من أجلك (أجبته بجفاء).

وأمسكت بحذائي وواصلت التحرك نحو الشارع، خارج الرمال.

- أوه، أرى أنكِ غاضبة (سمعت صوته الذي كاد يضيع في مهب الريح) أنسى دائمًا أنَّ الحقيقة حادة...، ولكنني سأحاول تعويضكِ، فأخبريني ما تريدين، واسأليني عن أي شيء تريدينه عن حياتي، إذا وجدتِها مثيرة للاهتمام.

توقفتُ فأوقفتُ خطوته.

- ماذا حدث في أكسفورد؟

بالكاد تغيرتْ تعبيرات وجهه، كما لو كان يتوقع ذلك.

- أوه، لقد اشتكى صديقنا مرتون إلى الطبيب، أليس كذلك؟

- وما علاقة هذا بالموضوع؟

- هذا هو السبب المعقول الوحيد الذي جعل بونسونبي يستطيع أن يخبركِ القليل الذي يعرفه عن أكسفورد.

- لقد ذكرت ذلك بنفسك منذ لحظة (ذكَّرته) أجبني، لقد وعدت بذلك.

- في أكسفورد ساعدت صديقًا...، كان متورطًا في مشكلات خطِرة، والشرطة لم تكن كافيةً له كما يحدث عادةً، سأطلعكِ على التفاصيل في يومٍ آخر.

- هل له علاقة بقتل المتسولين؟

- لم يقل أحد إن له علاقة.

ألححت: «ولكن هل هناك علاقة؟».

- لقد وعدتُ بالإجابة على سؤالٍ واحد فقط.

هذه الخدعة جعلتني أزفر. لقد فقدت الاهتمام. وصلنا إلى طرف الشاطئ. على طول الطريق استمروا في الإعلان عن المسرحية القوطية. الآن يمكنه قراءة العنوان الموجود على اللافتة الموجودة بين الممثلين في العربة؛ بيت *المرايا الخفية*. في تيرانس. قفزوا، رقصوا، وصاحوا في الأبواق. التفتُّ مرة أخرى. السيد إكس اقترب بخطواتٍ تتمايل، لقد بدا كأنه يستمتع بشيءٍ جديد حقًّا.

- لكن ليس هذا ما كنت أعرضه عليكِ يا آنسة ماكيري! (صاح أمامي) أؤكد لكِ أن اهتمامي بجعلكِ سعيدة هو اهتمام صادق، لذا...، دعينا نُطلق العنان للخيال، أن تريني مثل الساحر أو الجني في المصباح...، ونفكر...، إذا كان بإمكاني تحقيق أمنية، ماذا أريد؟ وأقسم أنني سأحاول أن أحققه لكِ، بكل ما أوتيت من قدرات، وهي ليست بالقليلة.

هذا الهراء الطبيعي لشخصٍ مريض عقليًّا نجح في التأثير فيَّ. كنت أعلم أنه يفعل ذلك للتعويض عن الكلمات المُهينة التي وجهها

لي، لكنني بقيت صامتةً أنظر إليه. يدٌ واحدة على قبعته السويسرية الصغيرة، وأخرى على عصاه، وفمه نصف مفتوح كما لو أن هذا الحد الأدنى من التمارين كلفه جهدًا كبيرًا. ولا أعتقد أنني سأنسى صورته في تلك اللحظة.

- وهل ستمنحني هذا الشيء؟ هذه الأمنية؟

أكدَّ بجديَّة: «أقسم لكِ».

- أحب أن يكون لك اسم.

أرعش جفنيه ببطءٍ مجددًا.

تمتم بنبرةٍ خفيضة: «حسنًا».

لم نتحدث مرة أخرى. وفي الشارع ساعدته على ارتداء حذائه وعُدنا إلى كلارندون.

كان السيد ويدون ينتظرنا في القاعة وأصابعه في سترته.

- السيد إكس، هل استمتعت بالنزهة؟ أراك في أحسن حال. لقد وصل طبيب الأعين الخاص بك...، ثم تقدم من الخلف شابٌّ ذو بشرة سمراء وابتسامة مشرقة. دعني أقدمك للدكتور آرثر كونان دويل.

بورتسموث
جازيت

مسرحنا



منزل المرايا الخفية

س. بالمر. الطراز القوطي. قاعة ترانس. بورتسموث.

تدور الأحداث في قصر بلاكستون، جميع المرايا ملفوفة بجلافة بأكفان سوداء. يعيش سكانها في عالم من الأزياء الغَريبة والأثاث البالي (تصميم رائع من تصميم الآنسة جروبشر). يصل متسولٌ شاب رث الثياب... وهو الذي يُزيل الأكفان التي تغطي المرايا. وبمجرد حدوث ذلك، يتغير أفراد الأسرة، كما يتغير العالم من حولهم. تنعكس الهُويَّات، ويبدو أنَّ الطبيعة نفسَها أصبحت مضطربة. العاصفة تتأجج، وكل شيءٍ يصبح مظلمًا... ستشعر بالخوف الحقيقي مما سيحدث الآن.

ت. هيرمان

الجزء الثاني

استراحة

دقيقة للحوار، فلنسأل أنفسنا عن المستقبل.

...ارتعاشات خفيفة في الستار.

م. سي إشميدت

المسرح الأوروبي (1811)

استراحة

«الاستراحة، بحكم تعريفها: هي انقطاع الحلم».

تريفور م. تورليس

مسرح الترفيه الإنجليزي (1867).

الجمال.

مجرد رؤيتها تؤجج الرغبة المتقدة.

الشهوات الشرِهة، القادرة.

ولكن، بلفتة واحدة، يقوم الشخص الصغير على المسرح بتلطيف الأجواء.

اندهش البروفيسور العجوز من هذه الإيماءة -حوَّل الجذع نحو الجانب الآخر- كانت كافية لترويض غضبه المفاجئ. استمرَّ عزف لحن

التشيلو والبيانو حزينًا، في أثناء تأدية رقصة الفالس التي أرسلها إليه صديقه الملحن الروسي كأول مجموعة.

إنه الحنين والجمال. يعرضه الآن بأداء راقصة.

يقوم الشخص الموجود على المسرح بإدارة الكرسي، وهو الشيء الوحيد في الديكور، ويمتد فوقه وينظر إلى الأستاذ بحزن لا نهاية له في عينيه الزرقاوين الجميلتين تحت أضواء المسرح.

دورة أخرى، ولكنها الآن جانبية، مع إيماءةٍ ماهرة بساقيها الصغيرتين لتخفي بفخذها ما كان يمكن رؤيته لو لم تفعل ذلك، لأنها ليس لديها ما تخفيه.

وفي حركةٍ أخرى، هادئة مثل أمواج الموسيقى، راكعة على المقعد، تخلق الشيطانة الصغيرة عالمًا كاملًا من الرسائل المتناقضة.

أرغبُ بك.

أتظاهر بأنني أريدك.

أخشى أنك سوف تلمسني.

أتظاهر بالخوف.

بدِقَّة لا توصف، ينتهي عرض الموضوع الأول،

مثل شمسٍ صغيرة تغرب، يميل الجسد الأبيض الصغير ذو الشعر الأشقر المجعد.

دخل رجلٌ إلى المسرح الصغير، وسار بين المقاعد الفارغة باتجاه البروفيسور العجوز، المتفرج الوحيد، الجالس في الصف الأمامي.

الجزء الثاني يشبه الطيران.

يرتفع جذع الراقصة، ويتقوس ظهرها، وتغلق عينيها وتختبئ على الفور خلف جسدها مرة أخرى، وتدور،

في تلك اللحظة يتحقق ذلك الجمال.

ماذا ستعرف؟ ماذا تعرف عن الجمال الذي تثيره؟

البروفيسور العجوز يصرُّ على أسنانه،

ماذا تعرف عن عنفه؟

يرتجف من المتعة، ويشعر بشيءٍ لا يستطيع تحديده.

إنه يتجاوز أحاسيس الجسد، ويتجاوز نشوة حياته.

فجأة سخونة صخرية، من الدم الذي يضرب قلبه المتسارع ويثير جسده كله.

ما وراء الشحوب،

الأستاذ العجوز يجلس في نشوة كاملة،

الفتاة، التي تعرف السبب، تنظر إليه مثل القارب.

يمكن للضعيف أن ينتظر وصول جبل من الماء. إنها تفعل ما تعلمته؛ تخفض رأسها، وتُخفي وجهها بشعرها الأشقر، وتعقد ذراعيها على صدرها الأملس...، ثم تكشف عن نفسها مرة أخرى، وتنظر إلى الرجل بتحدٍّ.

النغمات الأخيرة من التشيلو والبيانو.

الفتاة والمعلمة القديمة، لا تزالان الآن.

تقوم بالحركة الأخيرة: تنهض من الكرسي وكاحليها معًا.

ترقد على الأرض ببطء مثل الثعبان، وتفرد ساقيها.

وتمدُّ ذراعيها الصغيرتين، وتسند وجهها على السجادة.

ضجة أو ضوضاء. اصطدام النخيل.

المزيد والمزيد. لا شيء مثل الجمال.

إلا السلطة.

هذا هو شريان الحياة للفن الحقيقي. القوة المسيطرة على تلك الشخصية التي ترقد الآن على خشبة المسرح ووجهها إلى الأسفل، وأصابع الأيدي الطفولية متباعدة، والأكفان على الأرض...

يبدو البروفيسور العجوز مجنونًا فيما يقاطع الرجل. السلطة على ذلك الشاب الذي يتنحنح من الخوف دون أن يجرؤ على النظر إليه،

الذي، التي- يسأل البروفيسور العجوز:

مدَّ يده بورقة. فأخذها،

بعد القراءة وضع الورقة في سترته، بحسم وحيوية. وأخرج منها منديلًا فمسح به العرق.

المسرح الذي كان يفكر فيه للتو، تركه خاليًا من الرغبات، ومسامه مفتوحة، ممتلئة، تفرز عرقًا يبرد في العزلة الخشبية للغرفة الصغير أنا سعيد أن كل شيء يسير على ما يرام

يقول الشاب- يبدو أنه مجرد تغيير بسيط.

- يرفض البروفيسور.

ما الذي يمكن أن يكون أقل أهمية من التغيير في شيءٍ ما؟

سراب، سحر، تحرك مستمر، تمويه.

بحكم التعريف، فإن جمال الجسد، الجمال الذي نال الإعجاب للتو، والذي يحتوي على سر الأسرار، هو تحول مستمر. قوتها الوحيدة هي صلابتها وانعكاسها في البحيرة.

الأستاذ العجوز يراقب الفتاة بلا حراك.

تلك الصلابة التي تكاد تكون عضلات حديثة الولادة، ذلك النحت، ذلك الشيء الذي خُلق من أجل بهجة الآخرين وآلام المرء، ذلك النقاء الفاسق غير المحتشم.

مجبر، ويعتقد أنه حتى إساءة استخدام براءته لا يمكن مقارنتها بمتعة هذه الإيماءة.

-يضيف الشاب وهو يرتجف- لكنني لم أرغب في إزعاجك يا سيدي!

-لا توجد مشكلة. نحن في الاستراحة

يسيرون بعيدًا في الردهة.

الفتاة على المسرح لا تتحرك بوصة واحدة

يبقى الموسيقيون بلا حراك. تبقى الأضواء مضاءة.

قضية دكتور دويل الغريبة والسيد إكس



-1-

في ذلك الوقت لم أستطعْ أن أتذكر هذا الشيء، ولكن بعد ذلك بوقتٍ طويل، فعلت ذلك لأسباب واضحة.

كانت هناك قطةٌ ما في قصة أطفال شهيرة أصبحت غير مرئية، وتركت ابتسامة في الهواء. لم أتذكر ما هي القصة ولا كاتبها. ربما تتذكرون حضراتكم.

تخيل تلك الابتسامة المعلقة الآن في الفراغ وارسم وجهًا حولها. لقد فعلت ذلك عندما رأيت ذلك الشاب. شجاع بالطبع. كان هذا آرثر كونان دويل؛ هلالٌ أبيض ملتصق بالعينين، قطة سحرية.

وبعد أن رافقتُ السيد إكس عائدًا إلى غرفته بعد الجولة، تركته ليخلع ملابسه -أخبرني بنبرة صوتٍ حزينة أنه لا يحتاج إلى مساعدتي- عدتُ مع دويل، وانتهزتُ الفرصة لأخبره عن السمات الخاصة للمريض، أنه لا اسم له، وهوسه بإسدال الستائر. التزمتُ الصمت بشأن الكمان وما

يكشفه عن خصوصيات الآخرين، فقد بدا لي أنَّ الوقت سيتاح له ليدرك ذلك بنفسه، ولم تكن هناك حاجة إلى إخافته منذ البداية. استوعب الطبيب الشاب كل شيءٍ جيدًا، وأخبرني أنه يفهم تمامًا أنه مريض عقليًّا، وأنه سيستخدم تحذيراتي بشكلٍ ملائم بينما كنا نسير في الردهة متوجهَين لغرفة السيد إكس، كان من إدنبرة، لكنه سافر بالفعل كثيرًا حول العالم. أستطيع أنْ أقسم بذلك، تلك البشرة، وسلوكه اللطيف المنفتح. ولم يجد غضاضة في الاعتراف بأنه لم يُصبح بعد متخصصًا في طب الأعين، رغم أنَّ لديه خبرة في هذا المجال ولا يستبعد أن يُصبح كذلك يومًا ما.

- عندما تريد أن تكون معروفًا لا تستبعد أي شيء، (ضحكتُ) وأكثر من ذلك إذا نويت فتح عيادة. وقد فتحتُ واحدة هذا الشهر في إلم جروف، وقضيت وقتي في مشاهدة المسارح الرائعة بهذه المدينة... أما بالنسبة لنزيلكِ، فلا تقلقي. لستُ كائنًا فضائيًّا، لكنني تعاملتُ بالفعل مع أشخاص مرضى عقليين.

من الممكن أن يكون مبتدئًا، لكن مظهره الجميل الودود بدا لي أكثر استحقاقًا للاهتمام بالسيد إكس من بونسونبي غير المبالي. اعتقدت أنه كان الطبيب المثالي للنزيل. بينما كنت أسدل الستائر -بدا لي، في الواقع، أن معركتي بأكملها في كلارندون مع ذلك الرجل يمكن تلخيصها في فتح الستائر وإغلاقها- وبعيدًا عن إغراقه بالعبارات. مثل «افتح عينيك» أو «انظر بهذه الطريقة»، أو المسارعة بوضع أدوات مهنته المسلية تحت أنفه -ملاقط، قطن، زجاجات كحول، شاش- اقتصرت على ترك قبعته وقفازاته على الطاولة قُرب النافذة.

عند هذه النقطة بالقُرب من تلك النافذة، أدركتُ أنَّ دكتور آرثر كونان دويل سيكون رجلًا مهمًّا آخر في قصتي، فمن الأفضل الخوض في وصفه بمزيدٍ من التفاصيل. واعتقدت أنه كان تقريبًا عكس السيد إكس.

كل الطاقة والنشاط والجمال الشبيه بـ أبولو والابتسامات الجذابة. في أوائل الثلاثينيات من عمره، شعره مقصوص ومصفف جيدًا، سالفان وشارب مشذب، وعينان زرقاوان صافيتان وبشرة رائقة -أعتقد أنني قلت بالفعل إنها كانت «برونزية»- إثر إقامة طويلة في بلدان الجنوب وأكثر من رحلةٍ بالقارب. كانت بدلته الرمادية مُصممة بدقة مع الاعتناء بسترته، تتدلى منها سلسلة وربطة العنق الفاخرة، وأطراف ياقة قميصه المنشاة بعناية. ربما كان لا تزال لديه خزانة ملابس صغيرة، ولم تكن فاخرة، لكنه كان يعرف كيفية استخدامها لتقديم نفسه في المجتمع.

علَّق فيما يتأمل الشاطئ عبر زجاج النافذة: «ليس المشهد سيئًا من هنا، ولكنني سأعترف لك أيها السيد أنه في بعض الأوقات يطيب لي أنا أيضًا إسدال الستائر والتمتع بشيءٍ من الخصوصية. فالمناظر هنا لن تتحرك، ويستطيع المرء التطلع إليها. هي مثل اللوحات؛ لا يجب النظر إليها إذا لم تعجبنا».

- أوافقك الرأي. (أجاب السيد إكس بلهجةٍ خالية من السخرية، وهو ما بدا انتصارًا يُحسب لـ دويل) بالإمكان غلقها الآن.

- أولًا اسمح لي أنْ أفحص عينيك دقيقة واحدة سيدي! (في تلك اللحظة قرَّب الشاب الكرسي أمام مقعد السيد، وجلس قبالته كيلا يعيق ضوء الشمس من النافذة).

- هي هكذا منذ الولادة سيدي، (بيدَ أن دويل كان يميل جهتي في تلك اللحظة).

- أوه، إذن فستكون معتادًا على ذلك. لا تتحرك.

أوه، دكتور دويل، لقد ذكَّرني بأفضل الأوقات التي قضيتها مع المتخصصين في آشرتون. كان من عادة الطبيب الجيد أنْ يكون أكثر صبرًا من المريض نفسه.

لقد وضع إبهامه برفق على الجفن السفلي، لينظر إليه بعمق عندما أدار السيد إكس رأسه.

- معذرةً، أشعر بحرقة بجفني.

- أنا آسف سيدي، منذ متى؟

- أسابيع قليلة. عادةً ما يساعدني الماء الدافئ.

ولم أسمعه قط يشتكي من عينه. لقد اندهشت.

هذا كل شيء، لقد اعتبرته نجاحًا آخر لدويل العظيم، وبعض المزايا من جهتي، بمهارته وإصراري تمكنًا -أوه نعم- من إقناع السيد إكس ذي القبضة الحديدية بالاعتراف بألمه. وعندما طلب مني دويل إحضار الماء الدافئ والشاش والمَلاقِط، أسرعت إلى المطبخ بحماسٍ شديد.

أحيانًا يدفعك الشيطان للقيام بواجبك.

جعلتُ أُفكر في الأمر في أثناء انتظار غليان الماء. لماذا اشتكى من عينه للتو؟

انتابني شعور سيء، فجمعتُ بسرعة كل ما طلبه مني دويل، ووضعته على صينية، ثم عدتُ وأنا أشعرُ أنه مع كل خطوة أخطوها، تتزايد هواجسي المشؤومة. هل أراد أن يأخذني بعيدًا ليكون وحده مع الطبيب الشاب؟ وإلى أي حد؟ لا يمكن أن يكون الأمر سوى إخباره بشيءٍ استحوذ عليه ببصيرته الخارقة للطبيعة، وعليه طرده إلى الأبد. هل سيفعل ذلك؟ لم ينتابني شك. إذا كان قد تمكَّن من فعل ذلك مع المفتش المقتدر المجنون مرتون، فما الذي لن يستطع فعله مع الطبيب الشاب الرؤوف؟ كنتُ أركض تقريبًا في الردهة. سعيتُ إلى الوصول في أسرع وقتٍ ممكن ومنع وقوع الكارثة.

وصلتُ أخيرًا إلى الباب الأخير. عمَّ هناك صمتٌ مطبق. وهذا ما أزعجني، صحيح أنَّ السيد إكس كان يتحدث بصوتٍ منخفض، لكن صوت دويل كان عاليًا. ألا يجب أن أستمع إليه؟ وبينما كنت أفكر في ذلك بلا حراك والصينية في يدي، سمعت صوت الطبيب.

كان ينطق اسمي.

قال بلهجةٍ تنمُّ عن عدم اليقين.

هنا أعترف بأنني كسرتُ كل القواعد، وبدلًا من الإعلان عن حضوري، انحنيتُ بتكتم ووخزتُ أذني. كنت أسمع رد النزيل.

- تمامًا يا دكتور! يجب ألا تعرف الآنسة ماكيري.

-2-

ودون إضاعة الوقت لتقييم ما سمعته، والتكهن بما لم أسمعه، قررت ألا أؤجل عودتي أكثر من ذلك، فأحدثت ضجة بحذائي وطرقت الباب، فتح الدكتور دويل لي لكنه بدا كأنه آخر.

غمرته عاطفة جديدة. كانت عيناه تتلألآن، ويبتسم بطريقةٍ مرتبكة. كان يرتدي كمَّي قميصه، ويحمل أحد تلك الأجهزة التي يفحص بها الأطباء الأعين، أشبه بنظارات مكبرة سوداء كبيرة ذات عجلات مسننة وأرقام، مأخوذة بلا شك من علبةٍ ذات خط أحمر فُتحت على السرير، ولكن إذا حكمنا من خلال مظهره كان من الممكن القول إنه مثل قابلة منحتِ العالم حياةً للتو. استنتجتُ أنَّ السم الغريب للسيد إكس يسري في عروقه.

- آنسة ماكيري! مرحبًا، سأخبركِ أنني أجريتُ محادثة ممتعة مع طبيبنا، أحسبُ أنَّها جلبتْ لك القليل من المتعة، أيها الطبيب العزيز!

صاح دويل بحماس: «بالتأكيد.. ألوم نفسي لأنني لم أقابلك من قبل يا سيدي».

- أنا ألوم نفسي أيضًا يا دكتور!

لقد عاتبتُ نفسي لأنني كنت في غاية الحماقة، لدرجة أنني سمحتُ لشخصٍ مثل دويل الساذج أن يُترك بمفرده تحت تأثير الطاغية على المقعد ذي الذراعين.

- سوف تستمتعين بالصدفة يا آنسة! لكن الطبيب أيضًا مهتم بالأحداث الإجرامية، وقد اعترف لي...، وأفترض أنني لا أرتكب حماقةً إذا ذكرت ذلك يا دكتور!

أشار دويل بعد الضحك: «لا، على الإطلاق يا سيدي! لم يبقَ إلَّا هذا».

- لقد اعترف لي بأنه يتفرغ للكتابة في أوقات فراغه. إنه يكتب أعمالًا عن الجريمة، ولهذا السبب فهو مهتمٌّ جدًّا بالجرائم الحقيقية، لقد أدركتُ بالفعل قدراته الأدبية.

قال متأثرًا: «الحقيقة لا أعرفُ كيف أُدرك ذلك».

- لغتك ليست لغة طبيب يا دكتور! أنت عاشق للمفردات، وهو ما أعتبره همهمات البدايات لكاتبٍ شاب ما زال متحيرًا لترْك كل شيء، والذهاب في الطريق الذي يستهويه. وسمحتُ لنفسي أنْ أقول له إنه إذا ما وجد نفسه مضطرًّا إلى الاختيار ما بين مهنتين، فإن مهنة الكاتب هي الأكثر ملاءمة له، حين يظل طبيبًا ستتحسن

حياة كثيرين آخرين، لكن ككاتب سيمنحهم السعادة، ولا شيء، لا شيء يهمنا في هذا العالم أكثر من السعادة.

بدا دويل سعيدًا بالفعل دون الحاجة إلى أي كاتب أو طبيب من تحسين مزاجه. حالته تشبه حالة زجاجة بها سائل رغوي بعد رجِّها. لاح الفخر في عينيه الواسعتين. وأشار بجهاز الأعين.

- سيد إكس! لقد نجحت في -ولا أُدرك كيف- أن تجد بداخلي...، قصاصات تنمُّ عن ولعي بالكتابة، وعليَّ الاعتراف بأنني لا أصرح بذلك لقناعتي بأن الأشياء التي تستهوينا بحق نادرًا ما يستوعبها الناس حولنا على عكس أقراننا.

أَضِفْ الإيماءات والتعبيرات إلى مثل هذا النثر، وسيكون لديك بالتأكيد انطباعٌ عما كان الشاب يعنيه في تلك اللحظة.

- نعم، يجب أن أعترف أنه في هذا الطريق الطويل الذي يمثل مسيرتي الأدبية، أجد نفسي في ربيع يضطرم، ولكن لا يزال في البشائر...، الشيء المذهل هو أنَّ هذا السيد قد أدرك ما يعتمل بداخلي. إنه شيء تنقصني الكلمات لأعبر عنه.

كنت ممتنة تقريبًا لأنه كان يفتقر إلى الكلمات، لكن مريضه قدَّم الكلمات المفقودة.

- لم أتفاعل إلا مع نشاطك يا دكتور! لقد بدأتَ بفحص عيني المحمرَّة بهذا الجهاز، مما سمح لي أن أفعل الشيء نفسه مع ظلام حدقتَي عينيك. لقد كان تبادلًا للتدقيق، مثل تبادل الرسامَين ذوي الخبرة في مواجهة بعضهما بعضًا، محاولَين التقاط نغمة ولون في الآخر، وهكذا، بينما جعلتني.. دعنا نقول، «دراسة في اللون القرمزي»، قمت أنا بدراسة «اللون الأسود».

- عبارات جميلة، اسمحوا لي أن أُدوِّنها.

أخرج دويل دفتر ملاحظات، وحاول بعصبيةٍ الكتابة بجهاز طبيب الأعين، على الرغم من أنه صحح الخطأ بسرعة والتقط قلم رصاص.

- من فضلك يا دكتور! اجعلها لك، ولكن قبل كل شيء دعنا نستأنف نقاشنا المثمر...، لأنك أخبرتني أنك تابعت قضية قتل المتسولين في الصحف المحلية.

- كلٌّ من عين بورتسموث وبورتسموث جورنال، قد أفردتا معلومات غزيرة عن الموضوع.

قاطعته بخجل: «بالحديث عن الأعين...، لقد أحضرتُ كل ما...».

نظر دويل إلى الصينية كما لو كانت قطعةً أثرية، وظيفتها لم تُعرف حتى الآن.

- أوه، نعم لقد غسلتُ عينه بنفسي بالفعل. شكرًا، سأشرح على الفور. (خاطب السيد إكس مجددًا) بالطبع، منذ وقوع جريمة إلمر هاتشيز علمتُ أننا نواجه قاتلًا بمواصفات خاصة، لكن ترك سلاح الجريمة بجوار الجثث هو أمرٌ جديد بالنسبة لي. ولم يُذكر ذلك في الصحف.

- ليس «بجوار»، يا دكتور! اسمح لي أن أصنف «قريب».

عضَّ دويل القلم الرصاص وهو جالس على كرسيه: «هل يمكنك التوضيح، أين ترى أهمية هذا الاختلاف؟».

فجأة فهمت ما كان يحدث. قبل ثانيةٍ من مغادرتي تلك الغرفة، كان هناك شخصان التقيا للتو. بعد ثانية من عودتهما، كانا رجلين يتشاركان الهواية نفسها.

لا يوجد شيءٌ آخر يُرضي الشخصية الذكورية. والإنسانة التي تكتب هذه الكلمات استطاعت أن تتحقق من ذلك مع رجال على اختلاف

أنواعهم وأحوالهم؛ أبي، أخي، روبرت. أمام المرأة يمكنهم التحدث متأثرين بالعاطفة، لكن فقط أمام الرجال الآخرين يتحدثون عن الأشياء التي تُحركهم. شعرت كما لو أنَّ مسودة قد ظهرت وأنني ورقة. لم يعد هناك ثلاثة أشخاص، لقد كنتُ أنا واثنين منهم.

عندما أتحدث عن «المشاركة» لا أقصد أنَّ شخصياتهم كانت متشابهة، أو حتى متماثلة. بل كانوا على العكس من ذلك. لقد لاحظت هذا شيئًا فشيئًا؛ السيد إكس منطوٍ على نفسه وعلى العكس منه دويل الذي يكشف كل شيء يعرفه، وبينما كان الأول يحتقر ما لا يعرفه، كان الطبيب الشاب يبدو أنه يهتم كثيرًا لكل ما يعرفه، ويسعى إلى طلب المعلومات لتعلم أشياءَ جديدة. وأخيرًا، كانت هناك هذه المفارقة، التي قالها السيد. إذا كان السيد إكس مسرحية درامية ذات فتراتِ صمتٍ طويلة، فيمكن مقارنة دكتور دويل بمسرحية موسيقية ملونة.

ومع ذلك، عندما يتعلق الأمر بالألغاز، بدا كأنهما صديقان مدى الحياة.

- دعنا نتجاهل الدافع الآن يا دكتور! ربما هو الانتقام، أو الجنون، الحقيقة أنه يرتكب الجريمة بسكين مختلفة في كل مرة ويتركها بالقرب من الجثة.

- قد يكون الأمر بمنزلة نوعٍ من التحدي. (جادل دويل قائلًا، وأجبر على رمي شيءٍ ما أدرك في الوقت المناسب أنه كان يحمل قلمَ رصاص) «اعتقلني إذا استطعت،» ألا تعتقد ذلك؟

- ولكن لماذا يتركون السكين بالقرب من الضحايا وليس بجانبهم؟

- لا أفهم الفرق تمامًا، معذرة.

- دائمًا على بُعد خطوات قليلة، وليس إلى جانب الجثة.

فكَّر دويل وهو يمسح على شاربه.

- لا يريدونهم أن يجدوها، لكن لا يريدون أن يأخذها أحدهم أيضًا.

- ولكن يا عزيزي الطبيب! إذا كان الأمر كذلك، فلماذا لا يُخفيها؟ أو يدفنها في الرمال. لماذا يتركها قريبة ومرئية؟ هذا هو اللغز الأكبر على الإطلاق!

- حسنًا، هناك تفاصيل أخرى غريبة. لقد صادفتُ البعضَ بنفسي.

لا يمكن أنْ يكون هناك طُعم أفضل إذا أراد شخصٌ ما جذْب انتباه السيد إكس.

- ربما الأيام والجروح يا دكتور!

- الأيام؟

- سبعة أيام بين الحادثتين، ثلاث إصابات خطِرة، لا أكثر ولا أقل.

- مصادفة؟

- إنه الاسم المستعار للأسباب غير المعروفة يا دكتور!

افترضتُ أنَّ الطرق على الباب في تلك اللحظة سيشكل جزءًا من سببٍ غير معروف، على الرغم من أنَّ التأثير النهائي كان يعذبني، لأنني عندما فتحته ظهر الوجه باللون العنَّابي لجيمي بيجوت الخجول وهو يحمل حقيبةً كبيرة. وعندما رأى أنَّ هناك زائرًا خافَ ونظر حوله ليتأكد من عدم وجود أحد.

- عفوًا آنسة ماكيري! هذه «مراسلات» السيد إكس.

كنت أعرفُ جيدًا ما كان عليه. استلمتُ الصناديق من ميري ويزر في صمتٍ متواطئ. تمَّ التبادل، وأكَّد جيمي المسكين أنه سيعود لاحقًا للحصول على «مكافأته» حتى لا يزعجه، واختفى مع الحقيبة الفارغة. وضعتُ الصناديق في الخزانة دون مقاطعة المتحاورَين في المحادثة.

- أعترف بذلك يا سيدي! ولكن هناك تفصيلًا آخر أكثر غرابة.

- إنني أحترق من نفاد الصبر يا دكتور!

- المكان. دعنا نتخيل، نوجز؛ مثل الطائر، سكير (ناهيك بما يشربه أيضًا)، وممثل من الدرجة الثالثة، ووفقًا للشائعات، تاجر ممثلين من الأطفال الصغار للمسارح، والذي في الواقع يمكنك العثور عليه في إحدى الليالي في النُّزل، وآخر في أحضان باخوس على الأرصفة. ولكن ماذا عن إلمر هاتشينز؟ عرفه الكثيرون في بورتسموث. كانت له عاداته. كان ينام دائمًا في أماكن ثابتة. ماذا كانا يفعلان على الشاطئ في ذلك الوقت؟ هل ساقهما القاتل إلى هناك؟ هل ذهبا في موعدٍ مع حاصد الأرواح دون أن يعرفا ذلك؟

- أعترف أن المكان ليس لغزًا مملًّا يا دكتور!

توقفتُ عن الاهتمام بلعبة المبارزة تلك. لقد شعرت بالحزن عندما رأيت أن الدكتور دويل يبدو بالفعل الطبيب *المثالي* للسيد إكس. لكن ليس للأسباب التي تمنيتُها.

-3-

قاطع حديثهم العشاء مرة أخرى -ولكن فقط للحظةٍ وجيزة وضعتْ فيها الخادمة الصينية على الطاولة. بعد بعض المجاملات المعتادة- بدأ السيد إكس في تناول طعامه بشهية بينما يواصل النقاش. من جانبي واصلتُ النظر إلى المناظر الطبيعية من خلال النافذة. لقد أحببت بشكلٍ خاص ساعات الشفق تلك في الصيف، مع مشهد السماء ترسل آخر أشعتها لتضيء البحر منذ أنْ كنتُ طفلة، تلك الأعجوبة جعلتني أحلم دون الحاجة إلى المسرح.

الشاطئ، الشاطئ، نعم، لماذا؟ نطقتِ الأصوات خلفي.

وفي لحظةٍ ما، تدخَّل صوتٌ آخر. كان صوتي: «ربما كانوا يحبون الشاطئ في الليل».

قال السيد إكس: «هل تسمحين لي؟».

- تتحدثان عما كان يفعله المتسولان على الشاطئ ليلًا. ربما لأنهما أحبَّا البحر في ذلك الوقت.

بدا الازدراء خلفي لما أقول كأنه لكمة في ظهري.

- الآنسة ماكيري التي قد تحب البحر في الظلام، من فضلك...

كنت سأجيب «أنا» عندما رمشتُ. لقد رأيت شيئًا ما يتحرك في حديقة المسكن القاتمة، محاطًا بالجدار ومرصعًا بمستطيلات الضوء القليلة القادمة من النوافذ. ربما كان طائرًا، لكنني لم أكن متأكدة. مشيتُ نحو المصباح الموجود على الرف بينما دويل والسيد إكس يواصلان الحديث.

- من غير المحتمل أنهما سيستمتعان بالمناظر الطبيعية.

- بالطبع لا يا دكتور! لكن الآنسة ماكيري تتحدث عن نفسها، حيث إن هوسها الخاص هو الهواء النقي والمناظر الطبيعية وفتح النافذة.

كنت أشعل المصباح -بينما أحاول تجاهُل السيد إكس- لقد أذهلنا الضجيج، مثل صوت النقر العالي. طراخ. قفز الدكتور دويل، وتراجعتُ خوفًا... حتى أدركتُ ما هو مصدره. لكن ردَّ الفعل الأقوى كان من السيد إكس.

- لا تفتحي النافذة.

-4-

اقتربتُ من الزجاج والمصباح مضاء، وما رأيته أفزعني. زوج، لا، اثنان، ثلاثة وحتى أربعة أزواج من الأيدي الصغيرة تتشبث بالحاجز. والسيد إكس كنت أعتبره وحشًا، بالنسبة له كانت تلك الأفواه الجائعة مجرد منتجين للمعلومات. الأوراق التي كان يتصفحها عندما كان مهتمًّا، والتي يمكنه وضعها جانبًا أو رميها في سلة المهملات بطريقةٍ أخرى.

- هيا. (صحتُ وأنا أسحب المزلاج القاتل بالعناية المعتادة إلى فوق) ادخل بسرعة، سوف تسقط، يا إلهي!

صحيح أنني كنت أتوقع الثلاثة المعتادين فقط. وبالفعل، كان ذبابة وعنكبوت وداني ووترز أول مَن قفز. ولكن بعدهم صعدوا أكثر. دون مساعدة بعضهم بعضًا، مع خفة الحركة التي يتمتع بها المتسلقون. طوال القامة، قصيرون، هزيلون، ممتلئو الجسم، دخلوا ووقفوا خلف ثلاثي المحاربين القدامى، الذين بدوا غير مرتاحين لوجودهم، لكنهم لم يقرروا طردهم. قلت لنفسي لا بدَّ أن علب بسكويت ميري ويزر تسحبهم من مسافةٍ بعيدة. «نحن سعداء لأننا نأكل ميري ويزر»، تذكرت العبارة الموجودة بين الحروف الأرابيسك المائلة على الصناديق.

- ولكن... ما كل هذا سيد إكس؟ كم عددكم...؟

- ما رأيكِ...؟ الكرسي يا آنسة ماكيري!

كنت قد ركضتُ بالفعل قبل أن يخبرني -مستفيدةً من وقوف دويل- ظهر الكرسي عند الباب. عندها لاحظت تعبير الطبيب المذهول، الذي بدا أننا جميعًا قد نسيناه، وأردتُ أن أشرح له شيئًا ما.

- إنهم... أصدقاء السيد إكس.

- حسنًا، إنه يتمتع بشعبية.

لقد هدأتني الابتسامة الوليدة التي ظهرتْ على وجهه.

انتصارٌ آخر لدويل، بدأ الشاب يعترف بالحياة الغريبة للسيد إكس دون أيِّ حُكم مسبق.

لكن يبدو أن الأخير لم يستمتع بأي شيء في تلك اللحظة. كان بيتريو متشبثًا بالكرسي بكلتا يديه، كما لو كان يخشى أن يسرقوه، كان وجهه ملتويًا مثل وثن شيطاني من ثقافةٍ ما بدائية. في الحقيقة كانت مجموعة الأطفال تتزايد بمعدل مثير للقلق. حاول داني ووترز منع الجُدد من المرور، لكنهم دفعوه. كانت هناك ضجة حاولتُ التوسط فيها. لن أنسى أبدًا إحساس الطفل المتلعثم، ونداءه وقد اغرورقت عيناه بالدموع.

- لقد تمت متا تا بععععع تتتتنا، آن...، سسسس...، ة، لا لا لم أردْ...!

حاولتُ تهدئته لكن الضجيج لم يقف -أنتِ، اتركيني، فلتذهبوا، لا...- وبدا لي من غير الممكن السيطرة على الموقف دون إحداث جلبةٍ أكبر. هذا إذا لم يكونوا قد لاحظوا من قبل -داخل كلارندون، أو من خارجها- تسلُّق تلك الفئران الكبيرة الممزقة فوق جذوع الأشجار، حيث إنها لم تكن قد أظلمت تمامًا بعد.

الحل جاء من دويل، وهو سببٌ آخر للإعجاب به؛ قدرته على التكيف مع المواقف الطارئة. وقف أمام الجيش المغولي في وضعٍ عسكري: «اخرجوا جميعًا...، أو سأتصل بـ البوليس».

أعطى أوامره والحقيقة الواضحة للجميع، والمتمثلة في أنه رجل نبيل غير معروف -لم يتوقعه أيٌّ من صغار الغزاة- لتدخله والمصداقية اللازمة. وعاد الجُدد من حيث أتوا، مانعين مرور هؤلاء الذين لم يصعدوا بعد. أحدث الخروج أصواتًا أعلى من الوصول إلى أرض الميعاد. تمايلت الشجرة المتضررة وارتفع صوت احتكاك الفروع. أخيرًا سمعتُ، ما أثار رعبي، صوت اللورد ألفريد المبجل من نافذة غرفته وهو يصرخ قائلًا

إن هناك جنودًا متربصين في الحديقة. أغلقتُ النافذة، ولكن كل شيءٍ كان بالفعل كارثيًّا. والأسوأ من ذلك، المناقشة التي دارت بين ذبابة وعنكبوت وداني، فتبادلوا إلقاء اللوم على بعضهم بعضًا فيما حدث، لقد أحضرتهم، لقد قلت للتو إن بإمكانهم القدوم والانتظار في الطابق السفلي...، أنا...، لا أفعل...

همهمة تحذير من السيد إكس كانت كافية لإسكاتهم.

- أخبروني عما لديكم على الفور، وأدعو السماء أن يكون خيرًا.

بالنسبة لذبابة كان كل شيءٍ ممتعًا. كان يعرف كيف يجد الضحك في كل الأحوال، لكنه كان متحمسًا للغاية. الشاهد، الشاهد، هوارد سبنسر، صحَّحه عنكبوت. داني ووترز، الصبي المسكين، أراد أيضًا أن يدلو بدلوه. كانوا يتحدثون عن شخصٍ يُدعى سويت ويلي، وعن ضابط شرطة وممثلة طفلة، وشاركهم السيد إكس الحديث: «ماذا كان يفعل السيد سبنسر...؟ هل تريدون التحدث...؟».

قررتُ التدخل. ليست المسألة أن أعطي نفسي الفضل، ولكن لا شخص آخر مثل الممرضة قادر على تهدئة الآخرين والممرضات أنفسهن. وبعد أن تعاملت مع أرواح خرجت في ثوانٍ، ودماء تتدفق من أجساد مثل فوران زجاجات الخمر، أستطيع القول إنني إذا كنت أعرف شيئًا، فهو التصدِّي للكرب حتى لا أواجهه كله في جرعةٍ واحدة. لذلك جثوت أمام الأطفال الثلاثة: «دعنا نرى. يريد السيد إكس فقط أن يعرف ما كان يفعله السيد سبنسر تلك الليلة على الشاطئ. أجِب أوَّلًا، عنكبوت، ثم أنت داني، وأنت يا ذبابة، أضيفا ما تعتقدان أنه بقي لعنكبوت ليقوله...».

- شيءٌ لا يُصدق. (سمعتُ تعليق دويل، وهو أول وصفٍ من بين العديد من صفات الدهشة التي عبَّر عنها بنفسه منذ ذلك الحين) باهر.

نجحت الخطة. الترتيب بشكلٍ عام يفلح دائمًا. سرعان ما فهمت القصة؛ كان سويت ويلي ممثلًا طفلًا من المتخنثين في المسرح، كان أيضًا صديقًا لشرطيٍّ من مركز شرطة هاي ستريت. لم أرغب في التفكير في نوع «الصداقة» التي جمعتْهُما، سأترك الأمر لأخلاق كل واحدٍ منكم. ومن خلاله تمكنوا من معرفة أن هوارد سبنسر -شقيق ممثلة طفلة تُدعى سالي تعمل في المؤسسة الخيرية، وتحديدًا مع إلمر هاتشينز في الملك ليونيت والبوهيميون- كان على الشاطئ ليلًا وقد رأى «كل شيء تقريبًا».

في هذه المرحلة نظروا إلى بعضهم بعضًا محاولين تحديد مَن سيتكلم أوَّلًا. تمتم العنكبوت بلهجةٍ جدية: «أخبر سبنسر الشرطة أن هاتشينز قُتل على يد شبح».

-5-

لا أتذكرُ ردَّ الفعل الذي ربما أحدثته هذه الكلمات، لأنني في تلك اللحظة سمعت أصواتًا في الردهة. اعتقدتُ أنها الرئيسة برادوك، كان اللورد ألفريد وجنوده قد نبهوها. لقد ضاع كل شيء. هرب الأطفال «معاقبين» من قِبل السيد إكس الذي لا يرحم، وحرمهم من صناديق البسكويت حتى يعودوا بمزيدٍ من المعلومات. وهذا أغضبني بشكلٍ خاص. أنتِ عنيدة كالثور، كما اعتاد روبرت أن يقول لي.

عندما اختفوا عبر النافذة، ركضتُ إلى الخزانة، وأمسكتُ بالصندوقَين وألقيتهما في الظلام. يبدو كأن الأيدي أخذت تنمو من الأشجار للإمساك بهما.

همستُ: «عودوا للمزيد وقتما تشاءون».

سمعتُ الصوت خلفي: «آنسة ماكيري! هذا السلوك..».

أرعبتنا طرقات الباب. وهنا -سببٌ آخر- مشى الدكتور دويل، الذي كان لا يزال يرتدي كمَّي قميصه، ممسكًا بجهاز الأعين، إلى المدخل وواجه بقوة علامات الاتهام على وجه الرئيسة برادوك.

- نعم أيتها الممرضة، سمعنا الضجة...، ماذا ستقولين لي؟ بعض العفاريت يلعبون على الشاطئ، بالقرب من الجدار...، الأطفال كالحشرات الصغيرة، كما تعلمون: يطنون هنا وهناك ويزعجون، ولكن لا شك أنهم دائمًا علامات رائعة للحياة...، لا تقلقي، لم يمروا من هنا.

بدا أنَّ برادوك استمعت إلى نص كلماته وهي مفتونة. وبعد أن ألقت بنظرتها المريبة بيني وبين الكرسي بذراعين، كبحت الرغبة في مواصلة الاستجواب وغادرت. كان دويل سعيدًا -«غير عادي»، «رائع»- لكنه بدا في عجلة من أمره ليغادر. كان متأخرًا، تحدث وهو يعيد الجهاز إلى حقيبته: «لقد كانت مقابلتك أيها السيد تجربة رائعة، سأخبرك بما سأفعله. أعتقد أنني قد أكتشف شيئًا عن هذا الرجل سبنسر...، لديَّ زملاء يعملون مع الشرطة...، سأخبرهم. سيصبح هذا مثيرًا للاهتمام، لقد كان من دواعي سروري الحقيقي يا سيدي! لقد تفكر بشيءٍ ما...».

لقد بدا مكتئبًا بعض الشيء، ربما بسبب قراري بإعطاء هؤلاء الملائكة المساكين صندوقي ميري ويزر، بدا كما لو كان يفكر في شيء آخر: «هناك جزءٌ مفقود في هذا الأمر يا عزيزي الطبيب!».

- قطعة؟ أي قطعة؟

- من هذا النوع الذي إذا وضع في الحلقة التالية يُشكل سلسلة.

قيم الطبيب العبارة، وفجأة سمعت شيئًا كالضحكة. كما لو أنها انطلقت خطأً، تضرج وجه دويل احمرارًا خجلًا: «عفوًا يا سيد إكس!

ولكن عندما تتحدث بهذه الطريقة...، كنت أفكر خلال فترة الظهيرة أنه عندما تتكلم...(توقف وقام بإيماءة غامضة) إنه أمرٌ تافه، لا يهم».

- رغم كل شيء، أخبرني به يا دكتور! فأنا أحب التفاهات.

- حسنًا: عندما تتحدث بهذه الطريقة...، تُذكرني...، بشخصية من اختراعي...، أعرف أن الأمر يبدو غبيًّا (احمرَّ دويل خجلًا وبادر بإحكام سترته) إنه محقق. بالكاد كتبت بضع صفحات حول هذا الموضوع، لكن الفكرة واضحة جدًّا في ذهني. ويا للعجب، أنت تُذكرني به، مسارات غريبة اختارتها الصدفة.

لم ينزل هذا التعليق منزلة حسنة في نفس السيد إكس، ولو لذرة واحدة.

- دكتور دويل! أنت تعلم أن الواقع يفوق الخيال دائمًا.

- بالطبع يا صديقي! مسودة شخصيتي ضبابية وبسيطة. أنت هنا بكل كيانك، هذا ليس خيالًا، وليس مسرحًا. إنه أنت.

تبادلنا التحيات والانحناءات، ووصف دويل بعض قطرات العين -كان «الالتهاب» «سطحيًّا»، كما قال، وحدد: «الملتحمة، وليست القرنية»- ثم رافقته للتحدث مع بونسونبي وإعطائه التقرير الكامل بخصوصية. لقد كانت مقابلة قصيرة. عندما غادرت كلارندون مع دويل، أرغمنا الليل على التمسك بالقبعات. كان دويل لا يزال مدهوشًا. أظهر لي ابتسامة صبي كبير جميل.

- إنه مريضٌ فريد من نوعه. نجم. ماذا أقول عنه: عبقري... «دراسة قرمزية» و«دراسة سوداء»، (ضحك). لم أقابل أحدًا مثله قط، تلك القدرة على الإدراك...، قد تكون متلازمة دماغية نادرة. وهي حالة تستحق أن يدرسها الخبراء.

لقد منحته بعض التبرير العلمي من هذا النوع. لكنني لم أنسَ تفاصيل أخرى. توقفت عن التفكير في الأمر وأنا أنظر في عينيه، هل يجب أن أسأله دون مواربة؟ فهذا ما أجيده. لا أعرف كيف أكون ماكرة، كما يفترض أن يكون الأشخاص من نفس جنسي -ماكرين وخبثاء- فأنا أكذب بشكلٍ سيء، وأتوارى بشكلٍ أسوأ، على الرغم من أنه لا يمكن لأحد أن يصل إلى عمري هذا في لندن دون أن يكون قد تدرب قليلًا في كلتا الصفتين. لذلك اخترت مزيجًا من الفجاجة المُهذبة.

- هل لديك أي شيء آخر لتخبرني به يا دكتور؟

- عمَّ؟

- عن مريضي. أي شيء أعرفه عنه يخصني. أنا ممرضته الخاصة.

«أوه»، نطق دويل ثم فكر طويلًا أكثر من عربة بطيئة، حيث يتثاءب المدرب والحصان في انسجام تام قبل المرور عبر البوابة. شيء آخر بدا واضحًا بالنسبة لي؛ لقد تظاهر بشكلٍ سيء للغاية. ارتعشت زوايا فمه وتقوس حاجباه، ليبدو كأنه يتخطى شيئًا ما بذاكرته، لكن من الواضح أنه كان يعرف ما كنت أتحدث عنه.

يميل جميع الرجال بشكل عام إلى الاعتقاد بأننا غبيات، لكن الشباب يعتقدون أيضًا أنهم أذكياء لأبعد حد.

- لا. لا شيء أتذكره. فقط اعتني به يا آنسة ماكيري! هذا الرجل مثل الذهب.

شاهدته وهو يسير مبتعدًا في الشارع، وهو لا يزال يحمل قبعته، وحقيبته في يده الأخرى.

يجب ألا تعرف الآنسة ماكيري.

على الرغم من أنني أجهدت ذهني هناك، عند البوابة، ولاحقًا، في غرفتي وحدي، فإنني لم أتمكن حتى من تخيُّل سبب هذا الأمر. كما أنني لم أدركْ هل ينبغي عليَّ الشعور بالقلق أو السعادة بشأن جهلي.

-6-

ألهمني السيد إكس شعورًا غريبًا، تساءلتُ أحيانًا عمَّا إذا كنتُ أنا فقط، أم أنَّ الأمر نفسه قد يحدث مع أي شخصٍ عادي. كنتُ أتمنى بشدة لو أنكم -بينما تقرأون هذا الآن- قد قابلتموه لتخبروني بانطباعاتكم. دعونا نعترف أن دماغه كان عبارة عن عشٍّ من الأفكار العصيَّة عن الوصول إليها والتعقيد غير العادي، ولكن سلوكياته، كان من الممكن أن يقلدها ابن أخي، وهو في الخامسة من عمره. شكاوى، توبيخ على كل شيء، مَطالب، هوس مثير للسخرية بالتأخير، الالتزام بمواعيد الوجبات، أدنى ضجيج... ما هي الممرضة التي لا تشعر أحيانًا بأنها لا تحتاج إلى أطفال لتشعر كأنها أم لصغار متقلبين أشقياء؟ إنها أنا، مع السيد إكس.

ساعاتٌ من عزف الكمان غير المرئي الصامت.

قطرات العين التي وصفها دويل جاءت قبل دويل نفسه. كان ذلك في اليوم الثاني عندما سكبت القطرات الأولى في تلك الجوهرة الحمراء. لقد بدا هامدًا، كما لو كان مُسلَّمًا للتضحية. مصلوبًا على الكرسي ذي الذراعين، ناظرًا بكل خضوع نحو القطارة.

- اقتليني يا آنسة ماكيري! افعلي معي ما تريدين.

- الآن، سأضع هذه القطرات في عينيك يا سيدي! أتوسل إليك ألا ترمش.

انسكبت اللؤلؤة في عالم الدماء هذا.

- ما الذي يهمني بشأن قطراتكِ اللعينة يا آنسة ماكيري!

بووم، القطرة الثانية.

- الآن ستخفف الحرقان يا سيدي!

وهكذا بنبرة مقصودة، حتى أعلم أنه لم يخدعني بهذا العذر الفظ. سواء أكان لسعة حقًا أم لا، الآن عليه أن يتحمل القطرات.

مسحتُ بالشاش تلك الدمعة المراوغة، وتساءلتُ عما إذا كانت هناك أي طريقة أخرى لجعل هذا الرجل يبكي. بصلة واحدة ربما؟

كان يتجاذب أطراف الحديث وحده في هذه الأثناء: «أنا غارق في الحيرة...، سبعة، ثلاثة...، لست مخطئًا، حدسي يقول لي ذلك، لكن الحدس ليس مخطئًا أبدًا، لأن الحدس الزائف ليس حدسًا، بل تفكير خاطئ مموه».

أجبته، نصف منتبه وأنا أجفف عينيه جيدًا: «بالتأكيد».

- الحدس الطبيعي والعفوي لا يخطئ أبدًا، لأنه يأتي من عالم لم يعرف فيه الرجال بعد كيفية إضافة اثنين واثنين، لكنهم أحبوا بالفعل، وآمنوا بالآلهة وعانوا الرؤى، لذا أحتاج إلى معرفة ما رآه ذلك الرجل في الشاطئ، وما مشكلة دويل الذي لن يأتي.

شعرتُ بالإغواء للرد بأن دويل كان بلا شك شخصًا عاديًا، لكن كان لديه أشياء أخرى كثيرة للقيام بها، غير زيارة أحد النزلاء في مصحة عقلية خاصة، لكنني أغلقتُ شفتيَّ كما فعلت مع قطرات العين.

- وتلك الوحوش الأنانية التي كافأتها في ذلك اليوم دون أن تستحقها حقًا، بماذا يمكن أن تجذبها الآن؟ دع جيمي يشتري المزيد من ميري ويزر. وهو أمرٌ عاجل، ثلاثة جروح. رقم غريب. ذُكر فقط

في عين بورتسموث، وهي التي تقدم أكبر قدرٍ من المعلومات، في الواقع، ولكن...

توقفتُ فجأة. في تلك اللحظة.

تساءلت متى يقرأ هذا الرجل الصحف، ولم يسبق لي أن رأيتُ عينة واحدة في غرفته؟ وماذا كان يبدو ذلك مثل «عين بورتسموث هي التي تُقدم أكبر قدر من المعلومات»؟ هل قالها دويل؟ لا، لم يقل **ذلك**.

-7-

اجتماع ممرضات الشاي. سوزي ترينش تتحدث عن جرائم القتل: «إذا كنتم تريدون معرفة كل شيء، فإن صحيفة عين بورتسموث هي التي تقدم أكبر قدرٍ من المعلومات».

-8-

التففتُ حول الأريكة لأنظرَ إلى وجهه من كثب.

غير قابل للتغيير كما هو الحال دائمًا تقريبًا. هل ابتسم؟

- سأعترف قبل أن تسأليني أيَّ شيء يا آنسة ماكيري! الملك: لقد أرسلتُ جيمي بيجوت كجاسوس إلى اجتماع مَن تسميهم «ممرضات الشاي».

- يا إلهي! (بدا لي ذلك أمرًا لا يمكن تصوره) منذ متى؟

- أوه، لفترةٍ طويلة، ولا يخطر ببالكِ أي انحرافات، من فضلك.

كان هذا ما كنت أتخيله تمامًا؛ جيمي يختبئ في الظلام تحت قبعة.

- إنه خطأ السيدة جيليسبي.

- الطباخة؟

- وهل تعرفين سيدة جيليسبي أخرى؟ بالطبع الطاهية؛ إنها تخبز بعض المعجنات اللذيذة، ووجد جيمي أنه من السهل رشوتها لتصنع المزيد له، فتتركها على طبق، ويذهب جيمي إلى المطبخ، ومن هناك يتعلق الأمر كله بقدرته على السمع، ورهافة باب الخزانة القديم. وأحب أن أضيف أنكم أفضل بكثيرٍ من أي صحيفة.

احمرَّ وجهي خجلًا. احترقتُ في محرقة. أقسم أنني حتى ذلك الحين لم أكن غاضبةً منه أبدًا. بالكاد استطعت النطق ببعض الكلمات. كأنني في الحمام، وفُتح الباب. شيء...، غير لائق.

- هل تتجسس...، على...، اجتماعاتنا؟

- أنا فقط أُثرثر عما تثرثرون به، سرقة لص، مئة عام من الاعتذار يا آنسة ماكيري! الصحف التي يلخصها لي العجوز الطيب جيمي لا تغطي كل شيء.

- أنت...، أنت...، سيء السمعة!

- لا: أنا مهتم فقط بالأشياء سيئة السمعة.

- أنت...، مجنون.

قلت له ذلك أخيرًا. كيف يمكنني أن أقول ذلك؟ لا أعرف، لم يكن أنا أبدًا.

لم أخبر أحدًا في حياتي قط، ولا حتى العقلاء. شعرت بالكدر. لا يبدو أن ذلك أثر عليه، لقد رأيته يبتسم بضعف.

- أخبريني بشيءٍ لا أعرفه يا آنسة ماكيري!

- أنا آسفة.

- لا، أنا مَن أشعر بذلك، وأتفهم غضبكِ من صديقي ومن تلصصي المستهجن، ولكن أريد أن أعرف، أعرف...

قاطعته: «ما الذي تريد أن تعرفه وأنت لا تعرفه بالفعل».

- كيفية منع متسول آخر من الظهور خلال ثلاثة أيام. لقد قُتل على شواطئ بورتسموث بثلاثة جروح خطِرة... (نظر إليَّ بهدوء أزرق وأحمر) لأنه حتى لو كانوا مجرد متسولين، كما تسميهم الآنسة برادوك «النفايات الاجتماعية»، فليس من الضروري التعجيل بموتهم أو التسبب لهم في معاناة أكثر من اللازم.

- لماذا يهمك المتسولون؟

- لا شيء على الإطلاق، كنت أقصدكِ.

- أنا؟

- أنتِ امرأة ذات قلب طيب، لذلك ينبغي عليكِ أن تهتمي بهؤلاء الفقراء أكثر من اهتمامكِ بجريمة التجسس على مجتمعكِ الخاص، لكن الأخلاق تثير أحيانًا ألعاب التعامل المزدوج هذه، ولهذا السبب أفضل ترك الأمر جانبًا. ما هي الأخلاق إن لم تكن محاولة بناء الإنسان الفاسد؟ أنت شغوفة بالأعمال، وأنا أهتم أكثر بالمهندس المعماري.

لقد هدأت عندما تذكرت -بعد بحثٍ مضنٍ- أنني لم أتحدث عنه بالسوء مطلقًا في أي اجتماع. على الأقل أنا. لقد فعلها آخرون.

ومع ذلك، لم يفارقني إحساس الغضب. لقد تركته هناك ولم أعد حتى يأتي دويل.

كان العذر هو فحص العين، لكن هيا، لقد كان عذرًا واضحًا بمجرد إغلاق الباب.

لقد كان منتشيًا جدًّا لدرجة أنه لم يتظاهر حتى بأنه مهتم بمشكلة العين. راكعًا على الأرض -هكذا، كما لو كان يعلن حبه لفتاة صغيرة- بجوار الكرسي، ولا يزال يرتدي قبعته.

- صديقي آه يا صديقي! الأخبار التي أقدمها لك ستكون رحيقًا شهيًّا لك ولأذنيك.

قال السيد: «إنه يكاد يلسعني».

بدا دويل مرتبكًا حتى نظر إليَّ وفهم.

- أوه، لا، لا، هذه المرة ستبقى الآنسة ماكيري، هذه الحقائق تستحق آذانًا عديدة وليس القليل من العقول. يعني إذا كنتِ ترغبين في ذلك، يا آنسة!

قلت: «بالطبع. أنا أحب *النميمة* حول ما تتحدثان عنه، هل تعلم؟».

كان هناك صمت مطبق على الكرسي. ابتسم دويل في حيرة. ولكن عندما يكون المرء حريصًا على مشاركة المفاجآت مثل الطبيب الشاب، فإنه لا يلاحظ المفارقة الساخرة.

- استعد لما لا يُصدق!

كنتُ أشك في أنَّ هناك أيَّ شيءٍ أكثر روعة من هذين الرجلين، لكنني استمتعتُ أيضًا بالبقاء على المسرح بجوار الكرسي ذي الذراعين، كما لو كنتُ أرافق السيد إكس، والذي لا شك وأن حضوري لن يكون على هواه بناءً على محادثتنا في الصباح. فَلْنَرَ كم هو جيد بالنسبة له أن أحشر أنفي في *موضوعاته*.

دويل الذي كان مدركًا لجذب انتباه الجمهور فيما يحكي شيئًا، عقد ذراعيه وظهره إلى النافذة -الستائر مُسدَلة، والسيد إكس يتلهف لعودة الثلاثي- بدا أنيقًا لهذه المناسبة؛ سترة بنية طويلة بأزرار كبيرة،

وصديري داكن وربطة عنق مع دبوس بارز على الياقة كما لو كانت مصنوعة من الثلج. لقد ترك قبعته وقفازاته وحقيبته على الطاولة. كان يبتسم تحت شاربه المصقول. كانت عيناه مثل عينَي قط نبيل تنظران إلينا بالتناوب، كما لو أنهما تحكمان على التأثير الذي ستحدثه فينا قصته. صورة رجل نبيل يستطيع، ويرغب، ويفتن.

- أيها الأصدقاء! لو كنت أشك في أن القدر سيجلب لنا مثل هذا اللغز، ولو كنت قد فكرت في مثل هذا الاحتمال، لكنت أتيت إلى بورتسموث قبل شهر فقط لمقابلتكما في الوقت المناسب. لا، لم تكن مخطئًا بشأن أي شيءٍ يا سيد!

- دكتور دويل! ككاتب ستعرف أن المقدمة يجب أن تكون مختصرة.

جعل ذلك الطبيب يضحك، وأزال ما قد يكون ذرة غبار من على كمه.

- صديقي العزيز! لا تنزع الكلام من الكتاب وإلا ستتركنا بلا دفاع. اسمح لي بتفسيرٍ واحد على الأقل. وكما أعتقد أنني أخبرتكم، فقد وصلتُ إلى بورتسموث قبل شهر وافتتحتُ عيادةً في ساوث سي. قد أكون جديدًا في المدينة، لكنني لست جديدًا على الحياة. أعلم أنني إذا بقيت في إلم جروف في انتظار قدوم المرضى، قد أرزح تحت عبء الديون. لذا لم يستغرق الأمر وقتًا طويلًا للانتقال من هنا إلى هناك، والسفر حاملًا البطاقة في يدي وألتقي الناس. يجب أن أعترف أنني لستُ لاعب شطرنج سيئًا، وأعتبر نفسي متذوقًا جيدًا للمسرح، وهما هوايتان مثاليتان لمشاركتهما مع الغرباء...، وكل شيءٍ يعتمد على إضافة أسماء إلى قائمة، بالإضافة إلى ذلك، لديَّ التبصُّر في تدوين مواقفهم، وكذلك الخدمات التي ندين بها لبعضنا بعضًا. ولم يكن من الصعب عليَّ بهذه الطريقة أن أجد الزميل الذي حدثتكم عنه ذات يوم، وهو الذي يعد تقارير الخبراء

للشرطة...، وتبين أنه قرأ إفادة السيد سبنسر. سأحذف اسمه -إذا سمحت لي- وأسماء كل مَن له علاقة بهذا الحادث غير الشريف، وأركز على المعلومات.

- بالطبع يا دكتور!

- دعنا نوضح نقطة أوَّلًا يا سيد إكس! أصدقاؤك مذهلون، وفكرة الاستعانة بهم للبحث والتقصِّي لحسابك تبدو لي رائعة، ولكن بالنسبة لنتائجها...، هل سيكون من الصعب تعريفها على أنها...، دعنا نقول: غير منتظمة؟ إنه أمرٌ طبيعي، من ناحية أخرى. إنهم أطفال ويرون ما يرونه. في البداية اسم شاهدنا ليس هوارد، بل كوينتين. هوارد هو اسم الشرطي الذي كان يحرسه، والذي بدوره أخبر كل شيءٍ للشرطي الآخر الذي هو صديق ويلي. صحيح أن كوينتين سبنسر هو الأخ الأكبر لسالي، الممثلة الطفلة التي عملت في آخر مسرحية موسيقية ظهر فيها إلمر هاتشينز. يكسب كوينتين رزقه كموظف في رصيف الميناء البحري، ومن الصحيح أيضًا أنه كان حاضرًا قبل أربع ليالٍ على الشاطئ، بالقُرب من المكان الذي قُتل فيه هاتشينز. لكن...، قبل أن نشك في صحة روايته، سأشير إلى أنه كان هناك شاهد آخر. شاهد على الشاهد مثل الدمى الروسية. والآن أدعوكم لتخيل الشاب كوينتين سبنسر.

أشار دويل إلى جانب الغرفة وهناك رأيت كوينتين سبنسر.

مَن الذي يفتقر إلى الخيال لدرجة عدم تخيل شخصٍ ما؟ محرومون من المسرح كما نحن خلال ساعات العمل، ما الذي يوفر لنا الراحة أيضًا؟ أستسلم لخيالاتي بسهولة. كان هناك كوينتين، نعم، يشبه والدي -وهو أيضًا كاتب في الرصيف البحري- بشارب، ونظارات واقية، وأكمام موظف مكتب، ونظرة حالمة، وكما قال الدكتور دويل: «وظيفة

أتاحت له كسب لقمة العيش على حساب استمتاعه بالكثير من المرح. ووسط تلك اللوحة الرمادية، من فضلك قم بتقديم شخصية ملونة لسيدة كبيرة بما يكفي، لتكون متزوجة من ضابط بحري نبيل من أولئك الذين يكثرون في بورتسموث، وصغيرة بما يكفي، لتكون مرغوبة في عينَي شاب كاتب يبلغ من العمر اثنين وعشرين عامًا. وفي يومٍ ممطر واحد من هذه الأيام العديدة من الشتاء الماضي.

وهناك دخلت مع زوجها إلى مكتب الكاتب. تلاقت نظراتهم، واندلع لهب. كان من السهل أن نتصور ذلك، لقد كانت -تراجيديًّا- رائعة، حتى لو كانت خيالية...، حتى سمعت الصوت الخافت من الأريكة».

- إذا سمحت لي بطلب يا دكتور! أودُّ أن أتطرق إلى الجريمة الآن.

هنا واجهه دويل. وكم أحببت ذلكِ لاحقًا، رفع يدًا واحدة، والسبابة، وبصوتٍ عالٍ.

- ليس قبل تهيئة البيئة المناسبة يا سيدي! أعلم أنك تسبقنا بأميال، لكن دعنا كمجرد بشر نفهم الأمور خطوة وراء خطوة.

كانت موافقتي بالغة لدرجة أن فقراتي أحدثت صريرًا.

لقد أثرت فيَّ قصة ذلك الحب الناري اليائس؛ لم يرَ أحدهم الآخر مرة أخرى حتى أقيم حفل اجتماعي في نادي الضباط على الرصيف، وهو نوعٌ من المأدبة حيث تتم دعوة المرؤوسين والموظفين المدنيين أيضًا. وأجل، رآها تدخل متأبطة ذراع زوجها الغافل، (يجب أن تعكس الموسيقى ذلك). ينظر إليها كوينتين فتشعر أنها محل نظر. الكلمات التحريضية تُقال بحذر عندما يصبح الزوج أكثر انشغالًا، ويتحدث مع زملائه ويترك زوجته بمفردها. لم أتمكن من نسيانك منذ ذلك اليوم. وربما هي، ولا أنا، «مثل سهمٍ عاد إلى القوس الذي أطلقه»، قال دويل حرفيًّا -دونته لاحقًا-. أرجوك أيها الرب المبارك! كيف لا نفهمها، وفي

الوقت نفسه، نوبخها ونُشفق عليها؟ وأخيرًا...، شفة مرتعشة تقترب من أذن مثل صدف اللؤلؤ. موعد سري على الشاطئ ليلًا، يا إلهي! تتحول الأذن إلى اللون الأحمر، كان ورد الشفاه قد صبغها.

- اختصِرْ (تذمَّر السيد إكس)، سبنسر كان على الشاطئ في الثانية عشرة في هذه الليلة ليرى السيدة زوجة ضابط البحرية، هذا منطقي.

لقد بدا لي مذهلًا أن هذا الحَجَر عديم المشاعر دمَّر مثل هذه القصة المثيرة. حتى دويل احمرَّ خجلًا وهز رأسه.

- إذا قررت أن تحكي حياتك يا سيد إكس! اجعلني أنا مَن يكتبها.

- هذا يفسر الزمان والمكان الذي سيختبئان فيه، ولكن ليس بعيدًا عن الشاطئ، ليس فقط لتجنب اتساخ ملابس السيدة، ولكن لتسهيل الهروب بسهولة إلى الشارع حيث -بلا شك- ستكون عربة مجهولة في انتظارها، مما يدل على أنه لن يتمكن القاتل ولا المجني عليه من رؤيتهما بسهولة من الشاطئ. لكن الشاطئ -على عكس البستان- لا يتمتع بالحماية نفسها.

- مرة أخرى أنت لست مخطئًا يا سيدي! يمكنني الاستمرار؟ شكرًا. تخيل المشهد، وكلاهما بين الأشجار يرتكبان خطيئة جديدة، ولكنها قديمة قدم الإنسانية، تسربل ضوء القمر على...

سأل السيد إكس: «وماذا رأى كلاهما؟».

أجاب دويل بجفاء: «كل شيء».

- الجميع؟ جريمة قتل هاتشينز؟ قاتله؟

- كان هذا هو الملخص يا سيدي! أليس هذا ما تريد؟

لقد كانا هناك، ورأيا كل شيء.

- إذا كنت تريد المزيد، اسمحوا لي أن أقول ذلك بطريقتي.

غمز دويل في وجهي. كان ذلك لذيذًا، لكن الأهم من ذلك أن ترى طاغية العرش يخفض رأسه -تلك الجبهة الضخمة- ويتنهد في إذلال. واحد إلى صفر، دكتور دويل!

سطعَ القمرُ منعكسًا على صفحة البحر، نعم، كان ذلك مهمًّا، لأنه تحت ضوء الهلال، كانت هي دائمًا أكثر حرصًا منه بالطبع، كانت قادرة على ملاحظة حركة من زاوية عينها. كانت تقول نحن لسنا وحدنا، وهي تضغط ذراع كوينتين، يا إلهي! وتغرس أظافرها فيها. منزعجةً، كان كوينتين يتطلع أيضًا نحو الشاطئ. لكنه تعرف على الشخصية الممزقة على الفور؛ في الواقع، تعمل أخته سالي معه في المؤسسة الخيرية، وهي تلعب دور القراصنة، والملابس الممزقة والفاضحة لفتاة في مسرحية موسيقية. إنه قرصان عظيم، بعينٍ واحدة، بحذاء...، إنه إلمر، إلمر هاتشينز الطيب السكير، ويخبر تمايله سبنسر أنه قد مارس للتو هوايته المفضلة، حتى إنه يحمل الزجاجة في يده. من المؤكد أن هذا يريح عقل الصديق كوينتين، إنه مجرد ذلك العجوز السكير، لا يجب أن تخاف، هي أكثر هدوءًا، وهو أيضًا بما يكفي لاستئناف لقائهم. وفجأة...، متى؟ متى كان ذلك؟ في أي لحظة من الأهواء الأبدية يمكن القول إنه كان هناك شيءٌ ما، وإن شيئًا ما تمت ملاحظته؟ (تنهيدة أخرى من السيد) ومع ذلك، يشعر كوينتين وشريكته ببرد مفاجئ. مختلف تمامًا عن الحر السابق، وشيء آخر. (قال: ظل، ضحكة. القلب في قبضة. تمسكتُ بملابسي؛ لأنني كنت أغرق في الخوف. لقد كنت دائمًا خائفةً من كل ما يتعلق بالأرواح). ينظران نحو الشاطئ ولم يعودا يريان هاتشينز. لكن...، ما تلك الكتلة الغامضة على الرمال؟ يودع أحدهما الآخر هناك. ليس من الحكمة مرافقتها في الرجوع. تغادر وهو يقترب. في البداية،

اعتقد أنَّ هاتشينز بين ذراعي مورفيوس، أو باخوس، لكنه بعد ذلك رأى الدماء وعيناه مفتوحتان مذعورتان، وأحشاؤه تتدلَّى، مشدودة حول رقبته. ارتعبَ. لم يرَ شيئًا واحدًا، لقد رأى *كل شيء*، شيء لا يمكن أن يكون إنسانيًّا، شيء غير مرئي، ارتُكِبت جريمة فظيعة، ركض إلى مركز الشرطة كمواطن صالح. وهذه هي النهاية.

لقد تحول الرعب بفضل الدكتور دويل إلى الحب ينتصر. كوينتن يستنكر الجريمة البشعة لكنه يرفض...، يجب أن نفعلها مرة أخرى، يرفض أن يشي بحبيبته. للشرطة -مرتون ذو الشارب الشوكي- لا يمكننا إلا أن نتخيل الوقت السيئ. لقد أنقذه الحظ الواهن، في حالة إدوين نوجز، لديه عذر، لأنه كان يلعب الورق مع رفاقه في تلك الليلة، دون المال للذهاب إلى المسارح. إذًا إما أن شخصًا ما قتل نوجز، وآخر هو مَن قتل هاتشينز، وإما أن كوينتين يقول الحقيقة. إن رفاقه على وجه التحديد هم الذين يخونون السيدة وكوينتين ويريدون إنقاذه، انهمرت الدموع في عينيَّ عندما اختتم دويل حديثه.

وغنيٌّ عن القول: إنَّ *الفضيحة* قد تبلورت وصارت بشعة وحقيقية.

- أشعر بأسف للسيدة (قال دويل بحزن) يا لها من فوضى أوقع روميو وجولييت المتوتران نفسيهما فيها. وبطبيعة الحال، قام الزوجان بالفعل بحزم حقائبهما لمغادرة بورتسموث في أقرب وقتٍ ممكن. الطلاق سيأتي لاحقًا.

سأل السيد: «والسيد كوينتين سبنسر؟».

- لا يزال رهن الاحتجاز، لكن ذلك منحه عذرًا جيدًا. هي مسألة أيام قبل أن يطلقوا سراحه. والذي قد يُعتبر خطأً. (أشعل غليونه).

- فلنأمل من أجله ألا يطلقوا سراحه قبل ثلاثة أيام.

- ثلاثة...؟ ماذا...؟

نفخ السيد إكس صدره تحت ردائه: «ليس لديَّ أدنى شك: في غضون ثلاثة أيام سيكون هناك متسولٌ آخر ميت».

ابتسم دويل وهو يطلق زفرات عميقة: «التماثُل دائمًا، صحيح يا سيد إكس! هذا ما يعجبك».

- ليس الأمر أنه يعجبني ذلك، بل الطريقة التي تتم بها الأشياء؛ سبعة أيام، ستة جروح إجمالًا، متسولان، والآن: أربعة عشر يومًا، تسعة جروح، ثلاثة متسولين...

زفر دويل الدخان كثيف الرائحة: «أيها النمر! أيها النمر! المتوهج الساطع...، أي يد أو عين خالدة يمكنها أن تُحدد سميتريتك المخيفة؟ ولكن بُقرت أمعاء هاتشينز...، وتلك الضحكة الغامضة، والبرد...».

- الهاء.

- ماذا؟

- نمرنا، يستخدم استعارتك يا دكتور! هو مجرد قطة مرحة.

النمر، يريد تشتيت الانتباه ويشير إلى مكانٍ ما حتى ننظر هناك، لكن يتوجب أن تكون الأشياء على نظافة قبل أن ترتبط ببعضها بعضًا، سبعة أيام، ثلاثة جروح، متسولان، هذا هو الواضح.

حفَّ دويل شاربه: «فائدة نظريتك يا سيد إكس! أنه فقط باستطاعتنا الانتظار لنتيقن منها».

-9-

الانتظار.

بالنسبة للبشر العاديين، يصعب علينا امتلاك هذه القوة للانتظار.

تخيل كائن مثل السيد إكس، ينتظر.

قالت السيدة موراي: *انتظر شيئًا*. ولكن صبرها نفد الآن.

بناءً على ما قيل لي عنه، ربما يجعلكم تحبونه أو تكرهونه، لكن ليست لديكم أدنى فكرة عما كان التعامل عليه مع هذا الرجل عندما ينفد صبره. بدأت أفهم -قليلًا- تلك الكائنات عديمة الشعور التي أزاحته بالمكنسة عندما كان في الرابعة من عمره. أعلم أنني قاسية، لكن ماذا سأستفيد إذا أخفيت الحقائق هنا في هذا التاريخ؟ المفترض أنه حدث في ذلك الصيف الاستثنائي والرهيب عام 1882 في بورتسموث، بكل مآسيه. كانت الحقيقة الرئيسية في تلك الأيام هي: السيد إكس.

أمضى يومين يرد بكلمات أحادية المقطع -وليس بأفضل نغمة- فيما يعزف على كمانه السخيف. لقد طالب بالمزيد من اللودانوم، والمزيد من العزلة، وعدد مرات أقل لفتح الستائر.

عندما سألته عن أحواله، أعطاني فرصة واحدة فقط في اليوم، إذا تكرر السؤال بعد بضع ساعات، كان ينبح في وجهي قائلًا: «جيد، شكرًا لكِ» لقد فهمت جزئيًّا ما كان يحدث له. كان وحيدًا جدًّا، كان الرب وحده يعلم نوع الملجأ الذي أسعفه به عقله، رغم ما كان عليه من جنون، مثل قيمة سوق الأوراق المالية، ترتفع أو تنخفض أمام عينيَّ مع كل سلوك.

ربما كان مجنونًا، ربما كان عبقريًّا، ربما كان مجرد غريب الأطوار.

بدا أنَّ دويل يعرفه، لكن دويل اختفى مرة أخرى.

ودون أدنى قدرٍ من الانزعاج، التقيت ثانيةً في إحدى فترات ما بعد الظهر مع ممرضات الشاي. بعد كل ما عرفته، كنت حذِرةً للغاية بشأن التحدث.

رشقتني الرئيسة برادوك بنظراتٍ مريبة، وأثارت موضوع الأطفال المتسولين.

- هناك الكثير منهم أكثر من أي وقتٍ مضى، يلعبون بجوار الحائط كل صباح...، وأتساءل ما الذي يجذبهم.

قالت سوزي ترينش (التي عاشت في عالم تحكمه السلطات والنظام): «كان علينا أن نتصل...، حسنًا...».

تركت، كما هو الحال دائمًا، هذا الفراغ لترمي إلى شيءٍ ما.

وافقت برادوك: «نعم، الشرطة لقد فكرت في ذلك أيضًا. سأتحدث مع الطبيب».

قالت نيللي ورينجتون: «أشعر بالأسف تجاههم».

أضافت جين ويمبول، التي كانت تحتمي بقناعها الجميل: «بشكلٍ عام، أشعر بالأسف تجاه المتسولين، سواء كانوا أطفالًا أو بالغين».

أقرَّتْ نيللي ورينجتون على ذلك: «لهذا السبب فإن ما يفعلونه في المؤسسة الخيرية يحظى بتقديرٍ كبير، الأعمال الخيرية فكرة عظيمة».

تمتمتِ السيدة موراي وهي جالسة في زاويتها المظلمة: «المؤسسة الخيرية هي الطريقة الوحيدة لغسل وجوهنا دون النظر إلى المرآة، مرري لي الكعك».

- أعتقد أنها فكرة عظيمة، على الرغم من كل شيء. لا أستطيع شراء أي تذاكر لتلك العروض بالطبع، لكن أموال القادرين على ذلك يتم توزيعها على البائسين.

قالت سوزي ترينش وضحكت: «قولي نعم، نيللي! نحن سعداء؛ لأننا نأكل ميري ويزر، إنها الشركة الراعية».

أضافت نيللي: «لقد كانت فكرة عظيمة».

همستْ برادوك: «خاصةً بالنسبة للشركة».

- إنهم يخسرون المال يا آنسة برادوك!

- كم أنتِ ساذجة يا نيللي!

قالت محتجة: «أنا لا أحب المتسولين».

قالت السيدة موراي -وهي تلقي نظرةً فاحصة على طبق الحلوى الخاص بها-: «هناك شخصٌ يحبهم أكثر من غيره، وأخشى أن يكون لدينا قريبًا واحدٌ آخر على الشاطئ...».

- فلتنقذنا السماء...، القليل الذي رأيته من جين ويمبول كان شحوبها.

أصرَّت برادوك -وهي تمسح على ملامحها الملتوية بازدراء-: «ما زلت أعتقد أنه شجار في حالة سُكر، كان والدي يكرههم. كان يخاف أن يصبح مثلهم...، علمني وإخوتي أن نخاف منهم. وقال: «يمكنك أن تتوقع أيَّ شيء من الفشل». كان يكره الفقر. لقد كرهه مثل المرض. لكنه كان المرض الوحيد الذي يكون صاحبه مذنبًا، كما كان يقول».

لقد تُركنا في صمت. خفَّت ملامحه الضيقة في ضوء المصباح. سوزي أنقذتنا من تلك الفترة المريرة: «هل تعتقد حقًّا أن شخصًا ما...، كما تعلم...، هو...، عند...، المتسولين؟».

علقت السيدة موراي: «من الواضح يا سوزي ترينش!».

أضافت الرئيسة: «يقولون إن السيد إكس متوتر للغاية بشأن هذه الوفيات».

ابتسمت لي سوزي: «بالمناسبة، آني.! كيف حالكِ...، معه؟».

جاء دوري ورفعت صوتي فجأة: «السيد. إنه الرجل الأكثر غباءً، وتقلبًا وعجرفةً في كل الرجال الذين عرفتهم من قبل، ناهيك أنه يتورط دائمًا في أشياء ليست من اختصاصه».

فجأة نظروا إليَّ في صمت. حتى السيدة موراي توقفت عن الأكل، وتركت فمها معلقًا فوق الوعاء. ثم كانت هناك ضحكات محيرة.

قالت الرئيسة موبخةً: «ليس عليكِ أن تصرخي لتقولي ذلك يا آني!».

قالت جين ويمبول: «لقد اكتفيتِ، هاه؟».

هللتْ نيللي ورينجتون: «لكن آني مصنوعة من الحديد، من الواضح أنها تقاوم ذلك!».

تحدثنا أكثر قليلًا. كانت نيللي حزينة؛ لقد حصلت على تذاكر مجانية لعرض فرقة كوبيلوس على المسرح الخيري، عن طريق السحب بفضل شراء عدة صناديق من بسكويت ميري ويزر، ولكن مع مَن ستذهب؟ لقد كانت إجازة نصف يوم لجين ويمبول واحتفظت بها. لكن العرض لم يكن أخلاقيًّا تمامًا. هل ستحصل على إذن ؟ ابتسمت الرئيسة برادوك بغموض.

مثلما قال الطبيب. في تلك الليلة، انتابني شعور بالرضاء، في أثناء تحضير فراش السيد إكس، انتظرت أيَّ رد فعل. استغرق الأمر بعض الوقت، لكنني سمعت أخيرًا صوته الخافت.

- كيف كان حفل شاي الممرضات بعد ظُهر هذا اليوم يا آنسة ماكيري؟ شعرتُ بالكسل وقررتُ عدم إرسال جيمي.

صحتُ به: «حسنًا، شكرًا لك».

قد يكون مجنونًا، لكنه كان خبيثًا بشدة.

• • • • •

شركة كوبيلوس

• • • • •

مسرح سانت ماري الخيري



شركة كوبيلوس الإيطالية جاءت إلى بورتسموث لدينا قبل أربع سنوات بفضل المايسترو سلفاتوري بيتيروسو، وقررتِ البقاء.... بلا شك لمصلحتنا ومصلحة الكثير من المحتاجين في مدينتنا! لأنه من خلال هذه المهام الخيرية الجديدة التي يقومون بها، تذهب الأموال المُجمَّعة إلى ملجأ سانت ماري.

كل الشكر لرعاية رجال عظماء مثل السير جورج إيربنجال، الذي لولا جهوده لما كان هذا ممكنًا.

هذا العرض برعاية ميري ويزر،

شكرًا لك يا سيد جورج!

«نحن سعداء لأننا نأكل ميري ويزر».



فاصل إعلاني:
نحن سعداء لأننا نأكل ميري ويزر.

حبسَ السير جورج إيربنجال نفسه في مكتبه ونظر بارتياب بطرف عينه إلى الساعة مبتسمًا لقلقه السخيف؛ في الليلة السابقة حلم أنه سيموت اليوم، عند حلول منتصف الليل. ما هذا الهراء. الساعة هي ساعة أصلية من تصميم هنري مارك، مصنوعة على هيئة درقة السلحفاة مع جرس موسيقي، هدية من بناته الثلاث بمناسبة عيد ميلاده الخامس والخمسين. في منتصف الشكل نصف الدائري تظهر ثقوب ما بين الرقائق الذهبية، وطبقًا للعقرب الدقيق، فإن الساعة تفصلنا عن منتصف الليل بست دقائق.

لا يعرف السير جورج لماذا يُزعجه هذا الحلم السخيف كثيرًا، وعلى عكس عاداته الروتينية، جعل خدمه يغادرون، وأغلق مكتبه الفاخر في قصر العائلة بالقُرب من ميدان كافنديش بلندن. وهناك نجده في مكتبه

الفخم، بخوف لا مبرر له لرجل مُترف، ينتظر بعبثية عقربَي الساعة ليعلنا ساعته المميتة.

كم أنا غبي. لقد اشتد بي القلق. ومن المعروف مسبقًا أنك تخبر نفسك بعدم رغبتك في النظر إلى شيءٍ ما، وذلك حين يستبد بك النظر إليه أكثر من أي شيءٍ آخر. تخبر نفسك أنه لن يصيبك شيء، وعندها تشعر بالعرق البارد يكسو بشرتك تريد أن تفكر في شيءٍ آخر. والفكر عبارة عن بالون هيليوم يطير من تلقاء نفسه نحو أرض لا تريد أن تفكر فيها أيضًا.

لماذا لا تعترف بذلك يا جورج؟ أنت تؤمن بالخرافات. وهذا ما ستقوله لك زوجتك لو كانت حاضرة في المكتب، ولو أخبرتها بما يحدث لك. لكن الليدي سوزان تنام في طابق واحد، جاهلة ومسالمة، بينما يجلس السير جورج على مكتبه مرتديًا ثوبه وخُفَّيه، وشاربه الأبيض يؤطر وجهًا تصلب بسبب الإحباط والصلع، ونظارته فوق أنفه كما لو كان يراجع الميزانية العمومية أو التوقيع على سند إذني. لكنه ينتظر فقط، متفاجئًا إلى حدٍّ ما من نفسه.

نعم أنا. لكن أخبروني أيها الملائكة الصغار، مَن هو رجل الأعمال في هذا البلد الذي لا يؤمن بالخرافات قليلًا؟ وبماذا نؤمن بغير الرب وجلاله، والمصير المجيد الذي لا شكَّ فيه لعرش الملوك هذا وجزيرة الصولجانات هذه؟ ما أكثر أو أقل شيء من هذا نحتاج لنلجأ إليه؟ بعض الخطوط في اليد، أوراق امرأة غجرية، عرَّاف. وترك المسرح الذي نذهب إليه جميعًا. أخبروني إنْ لم يكن الأمر كذلك، أيها الملائكة الصغار.

تبقى لك خمس دقائق الآن، جورج.

ركز على النظر إلى الملصق الكبير المؤطر الموجود على الحائط فوق المدفأة؛ الإعلان الأكثر شهرة لبسكويت ميري ويزر، وهو عبارة

عن إكليل ممتد من طرفٍ إلى آخر يحمل في المنتصف قطعة بسكويت، يحيط بها وجها طفلين ذوي بشرة حمراء. وتحت الإكليل حروف مطولة بشكلٍ حلزوني متناغم:

نحن سعداء لأننا نأكل بسكويت ميري ويزر.

ينظر إليه الأطفال بأعينهم الزرقاء الكبيرة وخدودهم الممتلئة. ولكن خرافات، لا شك في ذلك. يتخيل السير جورج أحيانًا أن «الملائكة الصغار» -كما يسميهم- يصادقون على قراراته التجارية. ينظر إليهم، وعلى الرغم من أنه لم يسمعهم أبدًا، فإنه يمكنه تخيل ذلك؛ جورج، نحن ذاهبون لنعطيك خبرًا جديدًا.

منذ أقل من عام بقليل كان هو والملائكة الصغار سعداء بتناول ميري ويزر. خالطَ جورج مقامري أسكوت، وحضر عروضًا للمسرح السري باهظة الثمن لا يمكن تكرارها في كثيرٍ من الأحيان مع الممثلة نفسها. لكن بعض الاستثمارات المؤسفة في سوق أوراق البورصة، والمنافسة الشرسة مع شركات الحلوى الأخرى، أدت إلى كسر الكعكة الكبيرة التي تقوم عليها الأعمال التي تم شراؤها قبل -عقدين من الزمن- من عائلة ميري ويزر في بورتسموث.

دعونا لا نتحدث عن تلك الكلمة المخيفة.

لا، ليس بعد.

لن نقول «الخراب». لا يا جورج. لا يزال بعيدًا عن ذلك. يا إلهي. دقيقتان.

من الممكن أن يحدث، ليس مستحيلًا. لن تكون هذه هي الحالة الأولى. رجلٌ معروف من عائلة مثل عائلتك، والتي قرأتها فجأة على قائمة الحظر في صحيفة لندن جازيت. الإفلاس في إنجلترا جريمة. ممنوع أن يكون لديك حظٌّ سيئ، خرافة؟ ممنوع أن تفشل. العديد من المفلسين يذهبون إلى السجن. لقد أصبحت مجرمًا مصابًا بالجزام. سيحاول كل شيء قبل أن يحدث ذلك.

كل شيء، هل تسمعونني، أيتها الملائكة الصغار؟ الجميع.

تيك تاك.

بدأت الخسائر تُثير القلق، السير جورج يجفف قطرة عرق بمنديله، ولكن لا شيء يستعصى تحسينه من خلال الدوران المفاجئ للدفة. لقد كانت الاستثمارات كارثية، ولا يوجد علاج لذلك (الوقت الحالي أفضل لي أيتها الملائكة الصغار!). ولا تزال أمامه احتمالات أخرى قبل أن يغرق في الهاوية؛ بيع الشركة، وبيع هذا القصر في ساحة كافنديش، والذهاب للعيش في أقدم منزل عائلي على مشارف بورتسموث (وهو ما يعني بالطبع إفلاسه متخفيًا). لن يصبح من بين المدعوين إلى الحفلات، ويتوقف عن كونه السير جورج، ويصبح «ذلك الـ إيربنجال الذي كان عليه أن يبيع كل شيء»، وعلى الرغم من أنه لن يذهب إلى السجن بتهمة التخلُّف عن السداد، فإن اسمه سيُمسح من القائمة الذهبية للمشاهير. اللامع، جورج إيربنجال، العصامي، خطوة بخطوة من أصول قريته، سيصبح منسيًّا في أسوأ السنوات؛ الأخيرة، شتاء بؤسه وأخيرًا، بيع... بيع، حتى...

دقيقة واحدة. دقيقة واحدة حتى تدق الأجراس اللعينة ويتمكن من النوم بسلام. وإذا مات ماذا؟ حسنًا، إلى الجحيم.

لا شيء سيحدث.

كان مجرد حلم. كابوس لأحد المخمورين في عربة.

يعتقد أنه يعرف السبب؛ في تلك الليلة تناول العشاء في نادٍ خاص جدًّا، بيشوبجيت مع فناني المسرح السري. السير جورج هو راعٍ شهير للفرق الفنية -مَن يشك في ذلك؟ انظر كيف ساهم في قيام شركة كوبيلوس في بورتسموث بعروض خيرية- وهذا ما فتح أبواب عروض المسرح السرية. على وجه الخصوص، أولئك الذين يشترون ويبيعون الممثلين.

وفي تلك الليلة في بيشوبجيت أراد أن يعرف، كما لو كان عابرًا، المبلغ الذي سيعطونه له مقابل بيع إحدى بناته.

سيحاول **كل شيء**، أيها الملائكة الصغار. وسوف يبيعكم أيضًا إذا لزم الأمر.

كل ذلك حتى لا يجر اسمه واسم عائلته في الوحل.

لقد كان موضوعًا غيرَ سارٍّ لأبعد الحدود. قام رجال المسرح بسحب أبناء العائلات المتصدعة. أخبروه أن هناك طلبًا من الأجانب الذين دفعوا مبالغ كبيرة، لرؤية فتيات عائلة أرستقراطية إنجليزية عريقة الآن في أحطِّ الأحوال يشاركن في عروض الدمى، أو الساحات أو اللهو أو الفودفيل. أو ما هو أسوأ من ذلك، عروض «اليوم الواحد فقط» ويطلقون عليها أودو. ندم السير جورج على سؤاله عن سبب الاسم. وأوضح له أحد العاملين في المسرح أنه بعد أودو، لا يمكن استخدام الممثلة مرة أخرى. ولكن بحلول ذلك اليوم فقط سيصبح ثريًّا إذا باع، على سبيل المثال، أصغر فتاة -ويندي إيربنجال، البالغة من العمر اثني عشر عامًا- والتي تشبه إلى حدٍّ كبير تلك التي ظهرت في تلك اللحظة على المسرح السري حيث ذهب السير جورج. القائم على المسرح جهز الحسابات، فعرض أودو مع ابنته ويندي سيسمح له بالتغلب على العاصفة دون الحاجة إلى أي شيءٍ آخر

تقريبًا. لن يراها مرة أخرى، لكن... المآسي تحدث دائمًا، وهذه المآسي ستجعلك ثريًّا، جورج. فيكتوريا البالغة من العمر 22 عامًا سوف تخفف مشكلاتك في وقت أقل... على الرغم من أن الأمر سيكون أسهل عليها؛ لقد أرادت دائمًا أن تصبح ممثلة. الخيار الأخير، هارييت، أكثر تعقيدًا؛ فهي متزوجة وأنجبت له حفيدين جميلين. وقد ألمح أحد رجال المسرح إلى أن اختيار هارييت -بما في ذلك الأحفاد- سيكون أكثر حظًّا منه مع ويندي. سيكون ضربة حظ. وسوف يصبح غنيًّا مرة أخرى. المبلغ الذي سمعه معلق في الهواء، الأسود في المقصورة. تفاحة تانتالوس، مرغوبة ولكنها مستحيلة -نعم، من المستحيل، أيها الملائكة الصغار- أن تنالوها.

على الأقل حتى هذه اللحظة.

لم يكن هناك شيءٌ غريب، بعد تلك المحادثة -التي كانت للإخبار وحسب- عاد إلى المنزل في حالة سُكر وفي ساعة غير عادية، بعد أن نام في العربة. كان ذلك عندما حلم بمشهدٍ به ستائر سوداء يتحرك فيها شخص غريب جميل... كما لو كان يرقص. والصوت الذي -من أين أتى؟ من المسرح؟- أعلن: «جورج، سنمدك ببعض الأخبار، مساء الغد، الساعة الثانية عشرة، مع الجرس الأخير...». الأخيرة أم الأولى؟

بووووم.

يبدؤون.

المرة الأولى لم يعد من الممكن، ها ها، أيها الملائكة الصغار.

إن هنري مارك الجالس على مكتبه المصنوع من خشب الماهوجني، يجعل مسرحياته الموسيقية يتردد صداها.

أجراس صغيرة الأول أم الأخير؟ لا يتذكر ذلك. لقد كان مجرد حلم. يبدو أيضًا أنَّ الملائكة الصغار ينتظرون بأعينهم الكبيرة جورج! ونحن سوف. نعطيك. شيئًا جديدًا. شايًا. تعال. جورج! تعال. للمرة...، الأخيرة.

الحادية عشرة...، الأخيرة.

بوووووم.

يبدو أن الوقت يتوقف. نبضات القلب. التنفس.

حتى يسعل السير جورج أخيرًا.

وأفلتتْ منه ضحكة مكتومة.

يضحك لفترةٍ طويلة وعيناه ضبابيتان. هل يؤمن بالخرافات؟ بالطبع! هو سانج. الضحك يُحسن حالتك المزاجية. يتنفس بعمق. يهدأ. لقد مرت الساعة المصيرية. ليس اليوم. لم يحن الوقت اليوم. كل الشكوك تلاشتْ. بالطبع تبقتْ مسألة الخراب، لكن حتى ذلك سيكون له حل، أليس كذلك أيها الملائكة الصغار؟ لن تضطر إلى الذهاب إلى ذاك الحد. لن يبيع أبدًا أيًّا من (بناته) المحبوبات. أبدًا، لن يتجاوز هذا الحد.

سير جورج، يمكنك الذهاب إلى الفراش الآن. لقد مرت الساعة ولم يحدث شيء.

بابتسامة الرضا لكونه على قيد الحياة، السير جورج إيربينجال ينهض من المقعد. لا تزال النظرة الكبيرة الثابتة لأطفال الملصق مثبتة عليه، كما لو كانت تنتظر. تبدو أفواههم الوردية الصغيرة -التي لن يبيعها لأحد أبدًا- مليئة بالأسنان. كما لو كانوا يصرخون عليه بجنون؛ سنخبرك ببعض الأخبار، جورج:

نحن سعداء لأنك ميت بالفعل وما زلت لا تعرف ذلك!

روبرت



-1-

كان يومًا غائمًا. وإلا فلن يكون هناك فرقٌ بينه وبين السابقين. حسنًا، نعم، هو. لأن السيد إكس ذلك اليوم كان أسوأ من الأيام السابقة. وعندما دخلتُ غرفته في الصباح، جعلني الضوء أرمش.

الستائر مفتوحة. وهذه هي التفصيلة الغريبة الأولى. الثانية؛ هو نفسه، تشبث بمسندي المقعد البالِيين.

مقاعد الكرسي، أمام إطارات النافذة المستطيلة التي تحجبها كما لو كانت تحت لوح من المربعات البيضاء. كان حاجباه معقوفين بعمق، والعينان غارقتان في الظلال. لم يجب على تحيتي أو على أسئلتي المهذبة عن حاله. بدلًا من ذلك، سألني: «لا شيء حتى الآن؟».

- آسفة يا سيدي!

- جثة.

وتذكرتُ. لقد مرَّت ثلاثة أيام منذ آخر زيارة لـ دويل، كان هذا الصباح الذي تنبأ به السيد. ولهذا السبب قام بسحب الستائر. كان يأمل أن تجلب له قنافذه ميتًا ما، فأجبته بأنه لا يوجد شيء جديد، ولا شيء ميت. عاد إلى الصمت، لكن مزاجه ساء مع مرور الساعات. وجدته نائمًا، وذقنه مدفونة في صدره. في بعض الأحيان كان تنفسه يرتفع في تنهدات هائلة جعلت جسده كله يرتجف. أنا آسفة، ولكن ماذا تقول لرجل مثل هذا؟ «لا تقلق، سيظهر قريبًا مشردٌ آخر منزوع الأحشاء».

الكلمات القليلة التي وجهها لي كانت لطلب -توسل- أن يأتي جيمي بيجوت. جاء جيمي، ورحل جيمي. وعلمت لاحقًا من السيد إكس نفسه أنه أمره بتفقد صحف فترة ما بعد الظهر.

لا شيء -هذا ما قاله السيد إكس حين دخلتُ- لا أحد، أو نعم، وفاة أحدهم بسبب مرض السل، حادث. لا يوجد متسول واحد.

أخبرته أنه من الممكن أن يظهر في اليوم التالي. قاطعني بهذه الطريقة في الحديث عنه، على الرغم من أنه، للمرة الأولى، تخلل نبرته شيء من التردد: «الآنسة ماكيري...، (بدا كأنه يتحلى بالصبر عندما استخدم تلك النبرة). سبعة أيام، ثلاثة جروح، متسول...، أربعة عشر يومًا، ستة جروح...، من الواضح أن القاتل يريد منا أن نعرف، إنها طريقته في التحدث إلينا، رسالته، رموزه. لا أستطيع أن أكون مخطئًا. الأشياء لها تماثُل، حتى لو لم نعرف أيَّ واحد منها أو لماذا...».

- عفوًا، هذا أمرٌ عبثي. الحياة لا تسير على هذا النحو.

هل كنت أواجه سيادة مخابرات الكرسي لأول مرة؟ حسنًا إذن. لقد رأيته يُدير رأسه كالدمية.

- اعذريني.

- ليس كل شيء في هذه الحياة يعتمد على اثنين زائد اثنين. فنحن البشر، على سبيل المثال، نفعل أشياء غير متوقعة.

- أو نتجاهل سبب أشياء معينة لم نتوقعها.

أوقفت سباقه السريع نحو الهدف ليُجبرني على الصمت، كما يفعل عادة.

- أنا فقط أقول إنه قد لا يكون الأمر كما تقول.

- لا، ليس هذا ما تقولينه، أنتِ تقولين إن الأمر سخيف، وإن الأمور لا تسير على هذا النحو. أنا مَن يقرر ذلك يا آنسة ماكيري! إذا سمحتِ لي أن أعطيكِ مثالًا: فالأمر يشبه عندما نخز أنفسنا ثم نسحب ذراعنا. السبب والنتيجة. ماذا لو كان كل سلوك من سلوكياتنا هو استجابتنا الخاصة لوخزٍ بعينه؟

كان كل هذا عميقًا جدًّا بالنسبة لي.

- يبدو لي أنك تكرس جهدك لتعقيد كل شيء.

- ربما هذا هو ردُّ فعلي على الوخز.

- لا، هذا ما يعجبك وحسب. قد يعجبك شيءٌ آخر سيد إكس! مثل رؤية البحر في الليل مثلًا.

- لكنني أحب هذا على وجه الخصوص، وأتخيل أنكِ تحبين أشياءَ مماثلة ولا تعرفين السبب.

لقد نصب لي فخًّا خفيًّا لم أمانع الوقوع فيه: «نعم، ولكن يمكنني أن أغير رأيي»، وهنا توقفت، لأن عقلي ذهب إلى شخصٍ تعرفونه بالفعل، البحَّار القديم. صحيح أنه في بعض الأحيان...، أحيانًا نريد شيئًا ما، أو شخصًا ما، دون سبب و...، لكن يمكننا التوقف عن الرغبة في ذلك.

- هل توافقينني الرأي؟

انتابني إحساس مفاجئ بالغضب. كنتُ ألتقطُ قطارة العين والنظارة الليلية، وتركتُ كل شيء على الطاولة.

- أنا لا أعرف حتى لماذا أتجادل معك، أعرف مَن أنا وما أنا، أعرف ما أحب ولماذا، وأعلم أنه يمكنني تغيير الأشياء بنفسي وقتما أريد. أنت لا تحاول سوى إرباكي.

قاطعني وهو يستعيد تلك الهسهسة السريعة: «أنا فقط أتطلع إلى حل اللغز الذي قد لا يكون له علاقة بالمتسولين، ولكن بنا جميعًا، كل واحد منا. ولكن هناك شيء واحد صحيح».

- هل ستجعل مني مثالًا؟

لم تعجبه مزحتي الصغيرة.

- نعم، هل تسمحين لي بذلك؟ شكرًا. هناك شيءٌ واحد مؤكد؛ كل ما يبدو أنه فوضى، له نظام داخلي. في قصص قبائل الغرب الأمريكي، ما قد يعتبره راعي البقر نارًا بالنسبة للهندي هو إشارات الدخان. أؤكد لكِ أن هناك لغة خفية في كل ما نقوم به.

كنت أشعر بالدوار. إذا كانت هناك لغة مخفية في كل ما نفعله، فقد استخدمتُ كلمة «غباء» كثيرًا، على ما أعتقد. أمَّا بالنسبة للسيد إكس فكانت كلمة «جنون».

أظهر دويل ابتسامته الرائعة في تلك اللحظة، وهو يحمل القبعة في يده.

- هل أقاطع شيئًا؟

كان الأمر أشبه بمشاهدة شروق الشمس عبر السحب الداكنة. لقد انحنى أمامي بكل احترام -فتضرج وجهي بالدماء خجلًا- وضغط كتف السيد إكس بمودة. لكنه جلب معه الأخبار «السيئة» نفسها والتي

كانت ستبدو جيدة لأي شخصٍ آخر طبيعي. كشف عنها بينما يفحص عين مريضه كشفًا سطحيًّا. لا شيء في أي مكان. لقد تفقدتُ صحيفة بورتسموث، وبورتسموث جورنال، وساوث سي داي...، (عين دويل مقابل عين السيد إكس) زيارات جلالة الملك، حادث سير في رصيف الميناء، وفاة طبيعية، انتحار رجل أعمال في لندن، سرقة في حانة...، هذه العين تحسنتْ بشكلٍ كبير.

- شكرًا لك دكتور!

- يجب ألا يصيبنا الإحباط سيد إكس! ربما يظهر شيءٌ ما غدًا.

- ربما.

آه، لذا...، إذا قال ذلك عزيزك الدكتور دويل، فـ «ربما» ذات مغزى. كان بينهما القليل من الأسرار والثقات والاعترافات. أمَّا وظيفتي فهي الخدمة. والجدال.

حاولتُ -ليس كثيرًا- عدم السماح لغضبي بالظهور: «لا تقلق، أنا متأكدة من أن ذلك المتسول المطعون الذي تريده بشدة سيظهر قريبًا. وفي أثناء انتظارك، هل يمكنني أن أحضر لك الشاي يا دكتور؟».

ضحك دويل وهو يعدِّل كمَّي معطفه الذي لا تشوبه شائبة: «صحيح أنَّ أولئك المتحمسين منا للأسرار الإجرامية يبدون كأنهم طيور نذير شؤم، يا آنسة ماكيري! شكرًا على الشاي، ولكن يجب أن أرى مرضى آخرين. في الوقت الراهن، الخبر السار هو أن السيد إكس لم تسؤْ حالته، بل إنه قد تحسن قليلًا».

لم أشعر بهذا التحسن، لكنني لم أرغب في معارضته. ومن بين أمور أخرى، لا يبدو أن الطرف المعني مُهتم بعينه. فقد أغلق كليهما بينما يتحدث.

- دكتور دويل! يجب أن نجد أي شيء، وليكن «أيًّا ما يكون».

- «أيًّا ما يكون»؟

- سواء ارتكبنا خطأً أم لا، «مهما كان الأمر»، فماذا بقي لنا؟ دكتور!

- حالتا وفاة في أسبوعين. اثنان من المتسولين.

- تمامًا. لذلك لا بدَّ من الفصل بينهما، والتعرف عليهما. بالنظر إلى كلٍّ منهم على انفراد، نكتشف كيف ولماذا تم اختيار نوجز وهاتشينز من قِبل مجرمنا، وما الذي جعلهما متماثلَين، ومدى اختلافهما، وما سبب التماثل بينهما، بصرف النظر عن وضعهما كمتسولين، لأنه إذا حاول قاتل المتسولين هذا الأسبوع -لقد انقطع إيقاعه، ولن يكون ذلك بسبب نقص المواد الخام في هذه المدينة الساحلية الحزينة.

بالطبع لا يا صديقي العزيز!

تحدث دويل، فيما يبرم شاربه: «لذلك دعونا نحاول معرفة المزيد عن هؤلاء الرجال».

- حسنًا، زبائني ليسوا بالضبط من المحرومين، هناك أشخاص عاشوا في بورتسموث طوال حياتهم، وربما يعرفون شيئًا عن هاتشينز. والأكثر من ذلك، لقد دعوني لحضور الحفل الخيري لجمعية سانت ماري الخيرية يوم الجمعة، كانوا يعرفونه جيدًا هناك. أنا متأكد من أنني أستطيع الحصول على المعلومات.

- سيكون ذلك رائعًا يا دكتور! والآن -إذا سمحت لي- أحتاج إلى العزلة لأعزف على الكمان وأفكر. أغلقي الستارة يا سيدة ماكيري! لن يكون هناك المزيد من الأخبار اليوم.

على الرغم من أن دويل قال: وداعًا باللهجة الساحرة نفسها -«سعيد لرؤيتك، أراك قريبًا»- عندما غادر الغرفة التفت إليَّ باهتمام أظهر جاذبيته.

- ماذا قال إنه سيلعب؟

- الكمان، إنه يبدأ بتحريك ذراعيه بهذه الطريقة.

حاكيتُ حركاته.

- أوه.

- نعم.

بدا أنَّ الطبيب الشاب يزن الأخبار، مثل شخصٍ يكتشف بقعة على لوحة زيتية كلاسيكية كانت تسعده دائمًا.

- لم أكن أعلم ذلك...، هل يفعل ذلك بشكلٍ متكرر؟

أوضحتُ: «إنه هوس.. إنَّه رجل مريض، كما تعلم».

- نعم، من الواضح أنَّ عقله به...، بعض الثغرات.

- ربما كان بعض...، (فكرتُ، لكنني لم أقل هذا هو سبب وجودك في كلارندون يا دكتور! يعتقد اللورد ألفريد أنه لا يزال يعيش في زمن التمرد في الهند، والسيد هاربر يشكُّ في الجميع، والسير ليزلي يعاني مرضَ الزهري. والسيد إكس يعتقد أنه يعزف على كمانٍ غير حقيقي، ويغضب إذا لم تظهر إحدى جثث الشحاذين نهاية كل أسبوع، كمَن ينتظر ثمرة الكمأة بعد هطول المطر، «ثغرات». إن عقله مثل قطعة جبن. لكنني لم أقل شيئًا، لأن حماس دويل بدا غير قابل للكسر).

- ومع ذلك فهو يتمتع بعقلٍ مميز للغاية، وما زلتُ أثق به، ماذا عنكِ؟

كنت سأجيب. لا أعرف ماذا، لكننا كنا ننزل الدرج، وفي تلك اللحظة التقينا جيمي بيجوت الذي كان قادمًا.

حذرته: «لا يمكن إزعاجه يا جيمي!».

- أعلم، إنني لا أبحث عن السيد إكس آنسة ماكيري! (نظر إليَّ بطرف عينه ونطق بتلعثم خجل، بينما يضع يده في جيب سترته). إنها لكِ.

- لأجلي؟

وقد أحضر المظروف من شاب. كان اسمي عليه. لقد شعرتُ بالتوتر حقًّا. اعتذر دويل وجيمي على الفور، مشيرين إلى بعض الالتزامات، ليتيحا لي الخصوصية التي أحتاج إليها، على الرغم من أن ذلك جعلني أرتعش تقريبًا. وضعتُ الظرف في جيب مئزري وفتحته بأصابع مرتعشة في غرفتي، وأنا جالسة على السرير أمام المرآة المغطاة بالضباب. أغمض عينيَّ، ولا أزال أرى نفسي أنظر إلى تلك المرآة بعد قراءة فحوى الرسالة القصيرة.

ملقتي، ملقة البحار في بورتسموص،

أرغب لك يوم الخميز،

اطركي رسالة لتفل المزتودع كوتريل،

قبتانك باتا دي بالو[1]

(1) ملكتي، ملكة البحار في بورتسموث، أرغب في رؤيتك يوم الخميس، اتركي رسالة لطفل مستودع كوتريل، قبطانك باتا دي بالو. (المترجمة)

-2-

لم يكن خط يده، لم يكن كذلك أبدًا -لقد قلتُ ذلك بالفعل- ولكنه بالفعل خط يده، لأن روبرت كانت لديه طريقة خاصة في جعل الآخرين يكتبون لي لو أراد. كان أول ما خطر في بالي هو كيف تمكن من ذلك، هل «البائس ناكر الجميل» هذا في لندن، أتى بالفعل من هناك؟ أو في بورتسموث؟ والحقيقة هي أنه كان هنا. لكن لم يكن بإمكاني الحصول على نصف يوم إجازة بعد، وحتى لو تمكنت من رفع مناوبتي، لم أعرف إذا رغبتُ بالفعل في رؤية روبرت.

حسنًا، *اعتقدت* أنني أعرف؛ لم أرغب في ذلك.

وهنا الشيء المضحك في الأمر. لأنه كان على وشك تمزيق الورق الملطخ بدهن شخصٍ ما -فتى مستودع كوتريل؟ روبرت؟- ولكنني وضعته مرة أخرى في المئزر. لم أرغب في طلب معروف من أحد، لكنني غادرتُ غرفتي، وطلبت من سوزي ترينش أن تُغير إجازتها من الخميس إلى إجازتي يوم السبت على حساب القيام بالأعمال المنزلية الإضافية، مثل تحميم اللورد ألفريد أو وضع اللصقات على قرحه. ولما حلَّ الليل قلت في نفسي لن أجيبه. لكنني جلست على السرير ومعي الورق والحبر، وأكدت الموعد وأضفتُ المكان والزمان.

وكل هذا، هل فعلتُ ذلك كما لو أنني تلقيت ثقبًا؟

لا أعرف، لقد قررتُ للتو أنَّ كلينا يستحق فرصةً أخرى. لقد منحني روبرت السعادة، بالقليل أو الكثير الذي أملكه في هذا العالم. المرارة أيضًا، نعم، ولكنها مشتقة بشكلٍ حصري تقريبًا من الزجاجة.

لقد قلتُ ذلك بالفعل في هذه الوقائع، وفي تلك الليلة أكدتُ ذلك مرة أخرى؛ إذا تمكنت من العيش معه، فسأمنعه من الشرب. سيساعده ذلك ليكون روبرت ميلجرو رجل المُثل العليا الذي انضم إلى البحرية في شبابه. ولتحقيق ذلك، كان بحاجة إلى منزل يمكنه الاعتناء به، وبعض المدخرات.

تخيلته في منزلنا المستقبلي، ممتنعًا عن شرب الكحول، وكنت أراقب حياته باستمرار. نذهب إلى المسرح، ونذهب للتنزه، وربما يمكننا السفر إلى مكانٍ ما معًا. سنكون سعداء جدًّا، كنت متأكدةً من ذلك. لقد كانت رغبتي الأكثر حميمية.

في اليوم التالي أعطيتُ جيمي إجابتي لصبي مستودع كوتريل. التفتُّ مرة أخرى إلى سوزي، التي أوصتني بأماكن عشاء سرية في رويال وارف، وسط همسات المراهقين، طالبتْ بالمقابل: «مَن هذا؟ أوه، آني! مَن؟ آني! آني! أخبريني». قلتُ: «أحد معارفي القدامى». من خلال تعبيراتي، كان من الممكن أن يكون الشخص كاتب عدل سيقرأ لي وصيةً ما. حسنًا، لم تخبرني بمَن كانت تواعد أيضًا، لم أرغب في التفكير في الأمر أو حتى التفكير فيما سأرتديه. وفكرت في الأمر حتى شعرت بالدوار، كانت الخيارات هي: 1. استعارة الملابس من سوزي، أو ربما من جين (ذات قامة أقصر)، 2. استخدام ما أحضرته بعد مغادرتي المتسرعة من لندن. وفي النهاية اخترت الفستان البنفسجي الذي أتيت به، والذي كان روبرت يعرفه بالفعل وأشاد به كثيرًا. لماذا هذا الفستان بالتحديد يا آنسة! «أنا هي أنا» ماكيري؟ كان هناك شيءٌ ما يجذبني، من الواضح شيءٌ ما كان يناديني نحوه، سواء كان ثقبًا أم لا، شيءٌ جعلني أرغب في أن يحبني، على الأقل لأخبره أن الأمور يمكن القيام بها بشكلٍ

مختلف، وأنه يمكننا إيجاد حلٍّ بيننا. إنني أحببته وحلمت بأن نعيش معًا.

ومرت الأيام على هذا الهراء. لم يعد دويل في ذلك الوقت، ولم يرفع مريضي رأسه من النعاس الغارق الذي وجد نفسه فيه، لم يكن لدى أي متسول من الحساسية ما يسمح بترك نفسه يُقتل على يد شبحٍ ليليٍّ مخيف. بحلول يوم الخميس، كان السيد ويدون لطيفًا بما يكفي ليقدم لي راتب نصف شهر، وفي وقت الغداء قمت بزيارة السيد إكس.

لكنني لم أتمكن من قول أي شيء.

فتحت الباب دون أن أطرقه، خشية أن يزعجه الهواء، ومرة أخرى امتد ظلي -مثل المرة الأولى- على السجادة نحو الجزء الخلفي من كرسيه في الغرفة المظلمة. أقسم أنني كنتُ سأقول له شيئًا. انفصلت شفتاي، كان لساني يحمل الكلمات -سأراك غدًا يا سيد! - لكنني استسلمت في حضور ذلك الكرسي. ماذا كنت سأقول له؟ الشيء نفسه بالنسبة لأمي في لندن: «يجب أن أخرج يا أمي».

وبينما كنت أفكر في ذلك، سمعت الصوت يطفو مثل الدخان: «كوني حذِرةً معه يا آنسة ماكيري! إنه ليس من النوع الذي يزكيه أحد».

لم أُجبْ ولم يتكلمْ مرة أخرى.

-3-

ستفهمون ذلك أم لا، لكن بعد أن تزينتُ، اعتمرتُ القبعة ووضعتُ القفاز والفستان الأرجواني وشالًا خفيفًا فوقه، وملامح وجهي شاحبة إلى حدٍّ ما، بعد الوداع؛ أتمنى لكِ وقتًا ممتعًا آني! ودعتني واحدة من الصديقات...، لففت حول كلارندون حتى وصلت إلى الواجهة الخلفية،

كان حذائي النظيف يغوص في الرمال. ومن ذلك المكان استطعتُ رؤية نوافذ النزلاء.

كل شيء مفتوح، والستائر مُسدلة. عدا واحدًا.

ظللت أنظر إلى هذا الاستثناء.

وأعجبتني.

شعرت بالارتياح، بطريقةٍ أو بأخرى. حسنًا، لقد كرهتُه في بعض الأحيان، عندما أساء إلى روبرت أو «نصحني» بتركه. لكني أحببت رؤية تلك النافذة الوحيدة مثل الجفن المغلق بين العديد من النظرات المفتوحة والمشتركة. كان استثناء لاستثناء آخر. ربما نحن جميعًا استثنائيون، لكنْ قليلون هم مَن يجرؤون على إظهار ذلك، أو ربما لا يوجد سوى ستارة واحدة مغلقة من بين عشرين ستارة مفتوحة في كل مكان.

مهما كان الأمر فإنني معجبة به، فكرتُ على هذا النحو.

تابعتُ خطواتي واتجهتُ إلى شارع كلارنس مستعدة لمواجهة أي شيء. مع التشجيع، أعتقد أنه يمكنني دائمًا العودة إلى ستارتي المغلقة.

-4-

- انظروا إلى ما لدينا هنا. ملكتي، ملكة الجزر العذراء، ملكة البحار.

انحنى روبرت وقبل القفاز الذي أرتديه في يدي.

واو! كان على حاله، بالرغم من أنني لم أتوقع أي تغيير، فلم يمر سوى القليل من الوقت. لقد رأيته عند زاوية شارع فراتون حيث التقينا. كانت فترة ما بعد الظهر جميلة، كانت هناك رياح بحرية تكسر السحب في سماء زرقاء مملة. وها هو ذا، محزونًا، في الزاوية. لقد كان دائمًا يصل قبلي في المواعيد -ليس من الجيد إبقاء سيدة تنتظر أيتها الملكة-

وعندما رآني لم يتحرك. لقد كنتُ أنا التي عليها الاقتراب. في معظم الأوقات كنتُ أراه يبتسم عندما اقتربتُ بما فيه الكفاية. أتذكرُ أنه كان جادًّا مرة واحدة فقط. لكنني لم أتمكن من معرفة ذلك سوى عن قُرب، لأنه من مسافة بعيدة، مع قبعته البالية ذات الحواف الطويلة وتلك اللحية، لم يقل عبوسه شيئًا.

هذه المرة ابتسم. فتح يديه الكبيرتين الحمراوين، كما لو كان يتوقع أن أعانقه، لكنني مددتُ له يدي -كنا في مكانٍ عام- لقد قبَّلها، ودفعته بعيدًا.

قلت: «روبرت».

– أنا سعيد جدًّا برؤيتكِ.

– دعنا لا نتحدث هنا. أعرف مكانًا، يمكننا الذهاب لتناول العشاء فيه.

– أنا مفلس يا عزيزتي!

اكتفيتُ بالابتسام. لقد كان يعرف بالفعل أنني سأدعوه.

- ها، هل يمكنني مرافقتكِ يا سيدتي؟

ضحكته كانت مثل مجموعة من ضحكات الآخرين. في بعض الأحيان كنت أخلط بينها وبين السعال، أو ربما يبدأ بالضحك والسعال معًا. لكنه لمس ذراعي وشعرتُ بقشعريرة. حسنًا، حسنًا، إذا كنتِ لا تريدين التحدث، على الأقل أبحري...، أنتِ على رأس الدفَّة.

لقد جعلتني هذه القشعريرة أفكر وأشعر أن قراري كان هو القرار الصحيح. لم أقل شيئًا، فقط حافظت على الأمل: سأعمل قدر استطاعتي، سأقوم بأي وردية، سأدخر. سوف نعيش معًا. بدأنا السير. كان هذا أكثر ما كنا نفعله في لندن. يمدُّ ساقيه مثل بحار اعتاد على التوازن

على الأسطح. لقد جاء بعد أن اغتسل لكنه ظلَّ غير نظيف، يرتدي قبعة صوفية طويلة وصلت لرقبته -كنت أعرف تلك القبعة جيدًا: لقد حاكتها له امرأة «أحببتها قبلكِ» كما قال لي- وسترة مرقعة وسروالًا واسعًا قذرًا مع حذاء برقبة. هو أحد هؤلاء الرجال الذين -عندما تراهم من جانبهم- لا يبدو لك مثلما يبدون من الأمام. رؤيته من الجانب كسرتْ تعويذتي، وتساءلت ما الذي جعلني أحبه، وأرغب في ذلك الوجه المشدود الحقود، مع الاحمرار الذي يحرق خديه. لم يكن وسيمًا من الجانب أو من الأمام. أنفه المنتفخ، واللحية التي تُخفي شفتيه، والعينان الصغيرتان المضحكتان الغائرتان بين التجاعيد. بالتأكيد ليس مثل الدكتور دويل، ولا شابًّا رائعًا. لكن بالنسبة للنساء مثلي، فإن الرجال على شاكلة دويل كانوا مثل نجوم في السماء نشاهدهم فيما نستلقي على العشب. لم يكن روبرت ميلجرو وسيمًا، أو أنيقًا، أو مثقفًا، لكنه كان يستدير وينظر إليَّ.

نظر إليَّ -كما هو الحال الآن- ورأيته عاجزًا. محتاجًا إليَّ كما أنا محتاجة لأسباب مجهولة. لم أكن شيئًا... لكنه رجل فقير. كم أردت أن أهتم.

سألَ عندما عبرنا المحطة سيرًا على الأقدام: «هل تأخذينني إلى مكانٍ للأغنياء؟».

- لا، إنه ليس مكانًا للأغنياء ياروبرت!

- آهه.

أردتُ أن أنظر إليه قبل أن يلمس ذقني، لكنني تأخرت قبل أن أبعد وجهي. فما كان منه إلا أن أدار رأسي بلطفٍ غريب، ماذا جرى؟

- فلنجلس لنتناول العشاء ونتحدث.

ترك ذقني، لكنه كان جادًّا في تلك اللحظة: «هشش ماذا دهاكِ».

في الواقع -كان هو الذي كان يملك الدفة في يده- هذه المدينة تُعيد لي الذكريات.

- لقد أخبرتك بالفعل ألا تعود.

- أجل لقد أخبرتِني.

مرَّت السحابة السوداء. في الأماكن العامة، يصير الأكثر خجلًا بين الجميع.

كانت لي اليد العليا إلى أنْ يتوفر لنا شيءٌ من الخصوصية مثل زقاق أو غرفة، يشعر روبرت بالقلق حين يكون محاطًا بالناس، كأنه مذنب بشيءٍ ما، إنه ليس جبانًا. إذا ما هاجمه أحدهم، فلكمته نافذة. كان باستطاعته أن يقاتل دبًّا إذا لزم الأمر. لكن أمام الناس، الناس العاديين، والنظرات البريئة يرتبك.

اخترت الشوارع المزدحمة للوصول إلى فندق ساوث ستار، في بورتسموث القديمة، بالقُرب من رويال دوك، والذي كان لحسن الحظ مفتوحًا ولديهم طاولة شاغرة -شكرًا، سوزي- لقد أعطونا مكانًا بجوار النافذة، ولكن كان هناك آخرون يجلسون حولنا. أراد روبرت واحدةً تحت الدرج، كما لو كنا سنختفي عن الأعين، لكنه وافق على الجلوس هناك. على الجانب ستائر حمراء، وشمعة تشبه «الصاري» -كما قال روبرت- تسكب شمعها السائل في زجاجة. أوصى نادل قوي البنية بطبق الريش الطازجة، وأضاف روبرت زجاجةً من النبيذ، -بالطبع، لكنه لن يقذفها على رأسي هنا، هذا ما قلته لنفسي- نظرنا إلى بعضنا بعضًا على ضوء شُعلة الشمعة المستقيمة. تتابعت نبضات قلبي بسرعة هائلة. من جانبه قدَّر سعادتي. كنت أعلم أنه إذا رآني سعيدة فسيصبح جديًّا، والعكس صحيح.

حدثتُ نفسي: سأعطيك دومًا ما لا تملكه.

لم يكن يعرف بأيٍّ هيئة سيكون هذه المرة.

سألته: «كيف تمكنت من الوصول إلى هنا؟».

نظر بعيدًا: «استغرقني الطريق بضعة أيام».

- هل أمكنك أن تفعل ذلك؟

- لقد فعلتُ ذلك بالفعل، أليس كذلك؟ أحضرت لكِ شيئًا.

لم أتمكن حتى من رؤية ما جلبه، لقد شاهدت وجهه وتعبيراته. شاهدتُ يده الحمراء الكبيرة على مفرش المائدة. وبينما كان يبتعد، كان هناك نوعٌ من...، شيء ما مثل ميدالية، وهي عبارة عن حجر أسود محفور عليه مرساة بشكلٍ غير متقن. لقد التقطتها، كانت ثقيلة، قلت له -جميلة- لقد كانت قبيحة جدًّا. ومن الغريب أنها قبيحة جدًّا لدرجة أنها بدتْ لي جميلة. وفي المرة الثانية أثنيتُ عليها فصدقني: «إنها جميلة، شكرًا لك يا روبرت».

أقل ما يمكن أن يقال عن ذلك. شعرت بالأسف على تلك المرساة القبيحة. قلت شيئًا آخر وأنا أحملها في راحة يدي: «إنها مرساة».

- لا، إنه حجر منقوش عليه مرساة. لا تمزحي.

- من أين أحضرتها؟

- من كاليس.

- هل تعبر القناة الآن فقط؟ (في بعض الأحيان كان يتحدث معي عن أماكن بعيدة غريبة) لا تذهب أبعد من ذلك؟

انكمشت كتفاه.

- انظر لحالك. هل سبق لك أن زرت فرنسا قبلًا أيتها الذكية؟

- لا أبدًا، (ألقيتُ نظرةً حالمة، وأنا على علم بأنني أرتكبُ خطأً. كان من الصعب السير على هذا الجليد الهش). يجب أن تكون...، رائعة. فرنسا، أعتقد ذلك.

- إنها مثل إنجلترا. كل شيءٍ يُشبه إنجلترا.

كان روبرت يحدثني عن البحار الجنوبية عندما التقيته. لقد تركني عاجزةً عن الكلام. كنت أعرف أنها موجودة في مكانٍ ما -بلا شك في الجنوب- لكنني بالكاد أصدق أنه يوجد مكانٌ مثل هذا على الأرض. شيء مثل الهند، ولكن أجمل وأصغر. جزرٌ مشرقة، كأنه سراب ولكن حقيقي. لقد رأيت أشياء مماثلة فقط في المسرح. ولم يرهم روبرت مرة أخرى أيضًا، فقط في المسرح. لقد روى لي حياته مُجزَّأة، يومًا، ويومًا آخر، وأعدت بدوري بناءها. في سن الخامسة عشرة تم قبوله في البحرية الملكية (هـ م س) جابيوتا دي ألبا. وفقًا لروبرت، فقد أبحروا إلى عدن، حيث لم يعد آدم وحواء موجودَين هناك، ولكن الحيَّة بقيت. بعد أربع سنوات من العمل كصبي مقصورة، تم طرده بسبب معركة دامية بسبب الشراب، ومنذ ذلك الحين -وعلى الرغم من أنه عمل على متن السفن- فإنه لم تطأ قدمه مطلقًا سطح سفينة تابعة للبحرية. لقد كان على متن سفينة الشحن التجارية إنجراتو، منذ أن عرفنا بعضنا بعضًا.

- على أي حال، لا أشعر بأنني على ما يرام على متن القارب، (لقد أحضروا النبيذ، وشرب الكأس الأولى قبل أن يشرب في نخبي، كما لو كان يحتسي براندي). لقد قاموا بترقية شخصٍ يتبع الأوامر بحذافيرها، يرتجف مثل امرأة سمينة في ليلة الزفاف. كلارك. كلارك، كان هو الربان من الدرجة الثانية.

- اخفِض صوتك من فضلك، (لقد أثار نداءه الثاني على «كلارك» الرؤوس من حولنا. وأسوأ شيء هو أنني اعتقدتُ أنني أتذكر تلك القصة). ألم تخبرني بتلك القصة قبلًا بالفعل؟

- كلارك...، (كرر نداءه متجاهلًا ما أقول). بحار من الدرجة الثانية، والآن قائد الدفة من الدرجة الثانية. ولكن، كما نقول في البحر: «أنا أيضًا معي كتاب صلواتي».

- لا تقلق بشأن ذلك. سينتهي بهم الأمر بمعرفة قيمتك في *إنجراتو*.

- لستُ قلِقًا (نظر إليَّ). تبدين بحالة جيدة. مظهركِ جيد. إنه هواء البحر.

ابتسمتُ وأنا أضع تلك الصخرة في حقيبتي. عندها فقط تذكرت ما فعله بي في المرة الأخيرة. لم تكن هناك علامات متبقية على رقبتي. لم يعد هناك بعد الآن.

- لا يجب أن تشرب كثيرًا.

- في خدمتكِ أيتها الممرضة! (أفرغ الكأس، لكنه بعد ذلك دفعها بعيدًا عنه بحركة متعجرفة) أستطيع أن أتوقف عن الشرب إذا أردتِ، أستطيع أن أشرب إذا أردتِ. أنتِ تعرفين ذلك.

- لهذا السبب أقول ألا تفعل.

- ولهذا السبب لا أريدكِ أن تخبريني. أشرب أم لا. أستطيع أن أرقص رقصتي بنفسي. وقد نفد الوقت لأرقص.

- لماذا تقول ذلك؟

- لم يعد سني كما كان قبلًا.

ابتسم لكنه بدا مكتئبًا. لقد داعبتُ يده الخشنة برقة.

- لا يوجد أحد بقادر على البقاء على سنه دون تغيير. أنت بخير تمامًا. فقط...، عليك...، يجب أن تحاول ألا تشرب كثيرًا. وشيئًا فشيئًا ستحقق ذلك. عندما نعيش معًا، أنا...

لقد خلع قبعته التي كانت معلقة على الكرسي، وأظهر أخدودًا دقيقًا على جبهته يحمل بصمة صوف الغنم. وضع يده هناك، كأنها قناع.

- ماذا أرى؟ العتاب على الجانب الآخر من السفينة.

- لا، ليس عتابًا...، أنا أعلم أنك قادر على أشياء كثيرة. من بين كل مَن تريد.

- بالطبع يا ملكة البحار! أنا قادر على الحصول عليكِ. (ثم صاح فجأة) مهلًا، هل صحيح أن هناك رجلًا مجنونًا طليقًا يقتل المتسولين؟

- هل يمكنك التحدث بهدوءٍ أكثر، من فضلك؟

- لقد قرأت ذلك في الصحف، (قال، كان ذلك يبرر نبرة صوته) ينتزع أحشاءهم على الشاطئ مثل الخنازير. وأنتِ الذي أردت مغادرة لندن لتعيشي في مدينتكِ الصغيرة الهادئة...

ضحكتُ في صمت.

- لا، ليس هذا. لم أكن أريد.

أحضروا لنا طبق الضلوع الساخن وهجم روبرت على الطبق بنفاد صبر، كما كانت عادته. كان الأمر مثل طفلٍ يعرف أنه لا يمكن أن يكون شديد التلهف، لأن طبقه سيؤخذ منه إذا تأخر في تناوله. لكنني رأيته يأكل بمفرده، وأدركتُ ما تعنيه تلك الوجبة الساخنة بالنسبة له. لقد سلم نفسه لها إلى حدِّ التزام الصمت المطبق. حتى إنه توقف عن الشرب للحظات.

لقد كان الوقت المناسب لإخباره بذلك، حتى يفهم.

لهذا السبب -بالكاد تناولتُ لقمة، على الرغم من أنني تظاهرت بالأكل- بدأتُ اللعب بقطعة، لقد كسرتها إلى قسمين. حركتها في فمي. أخذتُ رشفة. لماذا شعرت بعاطفة؟ يا إلهي! لم أرغب في تركه. قلت: «تعرف؟ أشعر أنني بحالة جيدة جدًّا هنا. معك. (تقدمتُ خطوة أخرى) وفي كلارندون وجدتُ الوظيفة التي طالما أردتها».

نظرَ إليَّ بعد أن نظر إلى اللحم -لكنه قضى وقتًا أطول بكثير في تناول اللحم، فيما يُلقي عليَّ نظرات عابرة- أخبرته عن زميلاتي الرائعات، ومديري الرائع (كان رجلًا)، وعن مريضي الطبيب (رجل آخر). عدت على الفور إلى رفيقاتي الرائعات. و*الراتب* الرائع. لقد ترك روبرت ثلاث عظام بعد التهام لحم الضلوع وتذمَّر: «لقد حصلتِ على ذلك من قبل».

- ولكن هذا راتبٌ *ثابت*، هل يمكنك أن تتخيل؟ يمكننا...

- حتى يطردوكِ.

- لا، لن يفعلوا ذلك، لقد وقعت عقدًا.

كان في منتصف الجرعة. كاد أن يبصقها.

- أنتِ...، وقعتِ...، ماذا؟

مادت الأرض تحت قدميَّ. وهذا ما يحدث لي دائمًا. سمح لي بالتحدث، تنازل وانسحب حتى قلتُ فجأة: «لقد قابلت رجلًا لطيفًا للغاية» أو «لقد قررت مغادرة لندن». ثم كان السهم.

- ماذا؟ هل وقع...؟

في تلك اللحظة، جلجل باب المطعم.

وصلت العطور أوَّلًا.

رائحة آسرة عطرة مجهولة المصدر.

حتى روبرت توقف عن النظر إليَّ، وأدار رأسه.

لقد كان مشهدًا رائعًا؛ قاد العرض رجل قصير القامة ذو سوالف سوداء مصقولة، وسترة حمراء طويلة وصديري لامع. في الخلف شخص نحيف نحيف، وجهه مجهد، وقبعة مخروطية محلاة بشريط أرجواني، وسترة سوداء بوهيمية. وتذيلت الموكب الصاخب، فتاة بالكاد أستطيع النظر إليها، لم تكن إنجليزية، ولم تكن تشبهه، ولم تكن تنتمي إلى العالم العادي، إلى عالم *الحشمة* والأخلاق الحميدة والأرصفة والشيلان. لا أستطيع أن أصف ما كانت ترتديه -شيء أحمر- لكنني كنت أعلم أنه لا توجد امرأة عادية ترتدي مثل هذا. لم تمشِ؛ كانت ترقص دون موسيقى. كان شعرها قصيرًا كما لا ينبغي لأي امرأةٍ أن تكون.

ساد صمت مطبق. خرج المالك مُبجلًا منحنيًا، واستقبلهم باللغة الإيطالية، وفتح باب حجرة خاصة. فكرت في شركة كوبيلوس، مؤسسة الخير. حين نظرتُ مرةً أخرى، غاصت الصورة الظلية المتموجة في الظلام وأُغلق الباب. شيءٌ مثل الألعاب النارية. الأضواء والألوان والروائح. لم يكونوا إنجليز.

استأنف رواد المطعم حياتهم، كما لو كانوا محبوسين في صور من صور كاميرا داجيري.

قال روبرت دون اكتراث: «المسرحيون».

ركزتُ عينيَّ على اللوحة المشهدية. لم أستأْ لرؤية أهل المسرح، في لندن ينزلقون في كل مكانٍ على نحو غريب، لكنهم يثيرون دهشتي. لقد كانوا كأنهم من عالمٍ آخر وعادوا إليه. كان أخي يريد أن يكون مثلهم، لكنه في النهاية استعاد عقله.

عندما رأيتُ فناني المسرح، تبادرت إلى ذهني ذكريات؛ آندي عندما كان مراهقًا، المسرح الذهني للدكتور كوريدج. كل ما لم نكنه في الواقع كنا نراه أمامنا على المسرح. لقد كان مشهدًا مريرًا وحلوًا في الوقت نفسه. لقد جعلني أفكر أنه على الرغم من كل شيء، كنت أنا وروبرت محظوظين وسيئي الحظ. أن تكون ممثلًا مسرحيًّا لهو أمرٌ فظيع، وفاضح، أن تظهر نفسك للعالم ليراك، سواء كنت تتظاهر بذلك أم لا.

لكن كونك شهيرًا يجعلك ترغب في أن تصبح ممثلًا مسرحيًّا.

اقترح روبرت: «يمكننا الذهاب لرؤيتهم، هل تعرفين أين يعملون؟».

- أعتقد في مؤسسة سانت ماري للأعمال الخيرية. هناك عرض غدًا.

لحسن الحظ، كان روبرت قد نسي العقد. لسوء الحظ، لم ينسَ أفكاره الخاصة.

- أوه، إذن لا يمكننا ذلك. سنكون في طريقنا إلى لندن، (أخذتُ أنظر إليه شاحبة اللون) هل وجدتِ ثريًّا من أثرياء لندن لتعتني به بعد، أيتها الممرضة؟ إذا اعتنيتِ به جيدًا، فقد يترك لكِ شيئًا عندما يرحل.

تصنعتُ الابتسام. كان لا يزال على حماسه لرؤية فرقة المسرح.

- كلارندون مكان جيد جدًّا يا روبرت، لقد أخبرتك بذلك بالفعل.

- عليكِ ترك هذه الوظيفة غدًا، وبلا جدال.

قلتُ وقد شحب لوني: «هكذا بهذه البساطة».

-5-

خلَّفتِ الفرقة المسرحية بريقًا لامعًا في أعقاب رحيلها.

أو هكذا بدا لي فجأة.

أدهشتنا السترات الرمادية على أكتاف الفرسان الرمادية، وحلقات الشعر المجعدة باهظة الثمن للسيدات والقبعات الصغيرة، وحجاب الحشمة للسيدات الشابات الجذابات.

لقد كان كل شيء يشع ألقًا وبهرجةً مع انعكاسات أضواء، فوق كل شيء، عالم المطاعم والأحاديث بأصواتٍ مهذبة ومحترمة.

حتى أنا وروبرت شعرنا بأثر كل هذا علينا. لقد ومض فوق هذا البريق فوق بؤسنا، بؤسنا الصغير وعلى الكائنات التعيسة الاعتيادية.

- صغيرتي! لقد اشتقتُ إليكِ كثيرًا...، أحتاج إليكِ كثيرًا...، لقد اكتشفتُ أنني لا شيء دونكِ. مجرد بحار عجوز دون قارب. (توقفتُ عن الحديث قبل أن أخبره أن لديه قاربًا، كان يعلم أنه يكره إنجراتو) أصرَّ قائلًا: «أنا لا شيء دونكِ».

اختفى البريق مثل جمر النار في برد الشتاء. بعثوا البهجة قليلًا بيننا بنكهة الاحتفال. والآن نحن هناك، كلانا، وكنت أتساءل كم من الناس مثلنا -من «المتفرجين»، جمهور حظيرة الدجاج- عليهم أن يدفعوا ليكونوا سعداء.

فركتُ أصابعي أمامه، لكنني لم أعرف كيف أرد بطريقة أخرى.

- سنعود إلى لندن، وسيكون كل شيءٍ كما كان من قبل، يا ملكة البحار! أفضل من ذي قبل، لأنكِ الآن وحيدة. (وبعد ذلك ذاب

وجهه المتشقق مثل الطين)، أنتِ فرصتي الأخيرة يا عزيزتي! لم يعد لديَّ المزيد. أنتِ آخر وأفضل شيء حصلت عليه في حياتي.

جعل الصمت يحل بيننا.

كان بمنزلة دعوة.

لم أكن أعرف كيفية ملئه.

في ذلك الصمت رأيت غرفة مظلمة، كرسيًّا مجنحًا.

وبعض الستائر المغلقة.

قلتُ: «روبرت...، دعني أفكر في الأمر، لقد بدأت للتو».

سحب يده. كما لو أنه تلقى وخزة.

- أنتِ لا تعرفين، لقد جئت من أجلكِ، لا يعجبني هذا بالنسبة لكِ يا ملكة، أنتِ تستحقين شيئًا أفضل. استمعي، أعلم جيدًا أنني آذيتكِ في لندن. (كانت عيناه ضبابيتين ورطبتين، كما لو كان قد احتفظ بضباب العاصمة فيهما) شعرتُ بالضرر الشديد بعد ذلك...، لكن الأمر هو...، لقد جعلني ذلك غاضبًا لأنك أردتِ المغادرة من هناك، الآن -أخيرًا كما تعلمين- أنتِ وحيدة...، من الأسهل بالنسبة لي أن أراكِ هناك. (لقد استمعتُ دون النظر إليه، دون أن أتناول الطعام)، وهذا الكوخ ما هو؟ نصف يوم إجازة كل أسبوعين هذا هراء. متى سنرى بعضنا بعضًا؟ لم نتمكن حتى من الذهاب إلى المسرح.

- بإمكاننا أن...، (تلعثمتُ)، ممكن ألا يري أحدنا الآخر لفترة. (أردتُ أن أقول له ذلك لكنني تراجعتُ)، من الممكن أن أدخر روبرت، لأشتري بيتًا...، يمكننا... ترددت. (أردت أن أقول: «يمكننا أن

نحاول ألا نرى بعضنا بعضًا لفترةٍ من الوقت»، لكنني غيرت ذلك). يمكنني الادخار يا روبرت لشراء ما...

- البيت اللعين (انفجر ثم تمالك نفسه). لا يا ملكة! في بلدة الصيد القذرة هذه، ليس لديكِ ما تفعلينه. لندن، هناك أخوكِ المصرفي، أليس كذلك؟ سيساعدك. هو يعرف القطط السمان الغنية. ستكونين ممرضة خاصة لواحد من هذه القطط السمان. سيكون لديكِ وقت فراغ. يمكنك استئجار شيء. وعندما أذهب، سيكون لديَّ مكان لرسو قاربي.

- من فضلك يا روبرت...، بحق أغلى ما عندك.

مرَّ الناس خلف النافذة. نظروا إلينا محاطين بالستائر الحمراء، ونجمة الجنوب تحت قوس الاسم. كما هو الحال في مسرح الألعاب.

- الحياة في لندن غالية كثيرًا. (نظرتُ إليه في عينيه. وأجاب بشيء ما، لكن النظر في عينيه -ومعاودة الشعور بيديه تضغطان رقبتي مرة أخرى- منحني قوة لا بأس بها. واصلتُ دون أن أسمعه): هنا أكسب أكثر، وأعتقد، حقًّا، أعتقد أنني يجب أن...

- ما الأمر يا ملكة! هل فاز الطبيب بقلبكِ؟ أو شخص معتوه؟

أصابني ما سمعتُ بالجنون. أطلق الغضب لساني: «لا نستطيع العيش بخمسة عشر شلنًا في الأسبوع، وهو ما تكسبه. لم نتمكن من ذلك أبدًا، وأنت تعلم ذلك كما أعلمه. أنت تعيش بعيدًا عني، (ماذا أقول، حدثتُ نفسي -منزعجةً- مَن أنا، يا إلهي! لكن الوقت قد فات بالفعل). أعني، لا أهتم، أنا حقًّا لا أهتم روبرت! أريد أن أعمل...، أعني، أريد أن نعيش...، لنكون...، سعداء...، من فضلك، أنا فقط أطلب منك...».

لم أعد أعرف إلى أين أذهب أو إلى أين أريد الوصول. خلال فترة الاستراحة، استقرت الأجواء المبهجة في المقصورة بشكلٍ مريح. ومن

هنا جاء اللون -الأحمر المسرحي- والرائحة والبريق. كان روبرت هو الظلام بعينه.

- جيد جدًّا. حسنًا، ادفعي؛ لأنكِ غنية. (لم يسبق لي أنْ رأيته بمثل هذا الغضب المكبوت) هيا ادفعي.

- روبرت! أعطني بضعة أيام...، (ارتدى قبعته ونهض) روبرت...!

- سأنتظركِ بالخارج.

بينما أضعُ العملات المعدنية للحساب، أردت شيئًا، أردتُ أن أكون تلك الفتاة المسرحية ذات الشعر القصير غير المحتشمة، الفتاة أو المرأة، لم أكن أعرف، لكنني أردت أن أكون هي، أن تكون لي سلطة على مَن ينظر نحوي. قوة حمراء، لكن عندما خرجت ورأيت روبرت عند الزاوية، متجهمًا تحت ضوء الشارع المضاء، شعرتُ بالوحدة وأنني بلا قيمة. كنت أعلم أنه لا يزال يتعين عليَّ دفع المزيد. لقد فعل ما اعتاد أن يفعله: مشى لكي أتبعه. دون أن ينتظرني. مكافأتي أن ينتظرني. الآن هو لا يستحق. سرعت وتيرتي، لكنني لم أتمكن من مجاراة خطواته الطويلة. كنت أمضي بلا هدف. سقط الجزء السفلي من فستاني في وحل بركة عندما ناديته -روبرت! روبرت! روبرت!- في المرة الثالثة كنتُ حزينة، توقفت، لقد كان ظلًّا.

كنت ألهث عندما اقتربتُ أخيرًا بما يكفي لرؤية وجهه.

ابتسم، كان ذلك أسوأ.

دفعني بكل قوته على الحائط. شعرت بقوته الرهيبة التي لا تقل عن قوة الجدار الذي اصطدمت به. ليس الألم، لا. فقط الخوف. لكن ليس الخوف من أي أذى جسدي، بل من الوحدة. كان هذا هو الأمر؛ الخوف من أن يغادر ويتركني هناك وحدي.

- غدًا. (لمس صدري بإصبعه) لديكِ حتى الغد لتصفية الحسابات مع هذه المصحة، بمجرد الانتهاء من ذلك، ستغادرين معي. هل فهمتِني؟

- أجل، روبرت!

- لا تتحدثي معي بهذه الطريقة مرة أخرى في حياتكِ. أبدًا، أنتِ لا تزيدين شيئًا عني. نحن واحد. (أطلق بعض الفواق. الأنين، بكى) أنا أحبكِ، هل تفهمين؟

- أجل، روبرت!

وبدا أنه يهدأ.

- سوف نعود إلى لندن معًا. هل أخوكِ هناك؟ سيساعدكِ. (أصبح الإصبع خمسة، يدًا، همس في أذني). لا أحد يعرفكِ مثلي يا ملكة البحار! أعرف ماذا أعطيكِ. أعرف ماذا أعطي لهذا الجسد. أعلم أنكِ تحبينني.

عندما أطلقني، سمعتُ ضوضاء مثل فتح زجاجة. تنفستُ وفمي مفتوح، سقطت الدموع فيه. ثم ابتلعتها، دموعي. كان وجهه كبيرًا مثل القمر في الخسوف. كانت تفوح منه رائحة النبيذ.

- أنا أعرف ما يعجبكِ.

عاد وقبَّلني، ولم أكن أعرف حقًّا ما إذا أحببتُ ذلك أم لا. لم أعرف أي شيء. سلوك مهذب لا عيب فيه. وهو ما قام به.

وأخيرًا تحرك بعيدًا.

- إنكِ مثل يوم صافٍ مع رياح ناعمة، تعالي أيتها الملكة! لنذهب في نزهة على الأقدام. ربما يمكننا أن نشاهد عرضًا ما.

-6-

كانت ذا بوينت هي أقصى مكان غربي في بورتسموث القديمة: أزقة الحانات، الأجواء الضبابية في الشتاء -كريهة الرائحة في الصيف والشتاء أيضًا- بيوت الدعارة، الغرف السرية، الأرصفة المحيطة بكل شيء، الموانئ الأقدم في المدينة، من كل هذا اكتسبتْ بورتسموث شخصيتها وأهميتها. كان لديك شعور -وأنت تمشي بين هياكل السفن الضخمة، والحبال المغطاة بالقطران، وتفوح منها رائحة خليط من الدخان والسمك الزنخ والزيت- أن المدينة هناك تقول لك: «ها أنت هنا، أخيرًا، فيما هذا هو حالي الآن». وكل مَن جاء وذهب عرف ذلك، وهو سبب وجود بورتسموث. إنه المكان المثالي للبحارة، مما يعني أنه كان المكان المناسب لزوجات البحارة بالمثل. ولكن ليس لمَن هنَّ على شاكلتي، تأوين البحَّار في منازلهنَّ في الميناء، ولكن لأولئك اللاتي تستطعن أن تتعلقن بأذرع الرجال، أو حتى بأذرع نساء أخريات مثلهن. الزيارات الوحيدة التي تذكرت أنني قمتُ بها إلى بوينت طوال حياتي كانت مثل زيارات قزم إلى بلاد العمالقة. مجرد فتاة يدًا بيد مع والدي، كان عليه الذهاب إلى الأرصفة من أجل وظيفته كموظف، وفي أحيان أخرى أراد فقط أن يريني القوارب. كانوا في وضح النهار، ومع ذلك سجلتهم في ذاكرتي بشظايا من الرعب؛ وجوه مشوهة، وأطراف مبتورة، والرجال، الحلوى الذين لم أستطع تجربة بضاعتهم، ورجال المسرح الذين عرضوا على والدي أحد العروض. أعجبني البحر، وليس الرصيف، وهي الطريقة التي يمد بها الرجل يده إلى الشخص الأول الذي لم يمدها أبدًا، فقد سمح بأن تُلمس.

لم أكن أرغب في الذهاب إلى بوينت ليلًا، لكن ماذا يمكنني أن أفعل مع روبرت؟ قمنا بجولة في الميناء بينما كان ينظر إلى تلك الوحوش التي تتمايل في المياه بأعين مفتونة، كما لو أنه لم يسبق له ورآها. ثم دخلنا الأزقة عبر بوابة سانت جيمس. كان مكانًا خطِرًا، لكن روبرت كان مولعًا بهذا النوع من الأماكن، فهناك يمكنه أن ينظر وجهًا لوجه لرجال آخرين مثله. في الواقع، لاحظتُ أنه بدأ يسترخي أمام تلك الوجوه الكئيبة، وخيالات الظل التي بالكاد أمكن رؤيتها. ظلَّ يثرثر طوال الوقت، أنه حين يكبر في السن -كثيرًا- سيترك الـ *إنجراتو* ويعيش معي. ولن أضطر إلى الاعتناء به لأنه -على مر السنين- تعلم القيام بكل شيء. ميزة عظيمة. كان يعرف الخياطة، منذ أن كان طفلًا استخدم الإبرة، كانت أول شيء علموه إياه في البحرية، «هل تصدقين ذلك أيتها الملكة؟ هل يمكنكِ تصديق ذلك؟».

وفي أحلك الشوارع وأكثرها وحدة، قبَّلني مرة أخرى.

اعتقدت أنهم سيطردونني في كلارندون إذا اكتشفوا أنني كنت هناك، لكن ما أهمية ذلك؟ ألم أستسلم بالفعل؟ وتحقق إغراء روبرت بالعروض، من منزل إلى منزل، ومن غرفة إلى غرفة، واختار مسرحية *أليسيا والملكة محطمة القلوب*، نظرًا لأن بطل الرواية كان أكبر سنًّا وأكثر ذوقًا واحترامًا. عرضوا عليَّ حجابًا عند المدخل، مثل النساء القلائل اللاتي يذهبن إلى المسرح الخفي. رقصتْ بطلة الرواية، وروتْ قصتها في مجموعة صغيرة جدًّا تحاكي مملكةً من العصور الوسطى مع وجود قلعة في الخلفية. لم أفهم الكثير بسبب الضجة العارمة. أسدل الستار. كان العمل *فاضحًا*، ليس فقط بسبب العري، بل بسبب النص وعباراته المثيرة جدًّا، إضافةً إلى الكلمات الوقحة التي تجعل جسد

المراهق يتصبب عرقًا ويسيل لعابه. لكن ذلك ساعد روبرت ألا يفعل أي شيء آخر في تلك الليلة، ومع ذلك اعتقد أنه فعل كل شيء.

كانت العودة مرهقة، حتى وصلنا أخيرًا إلى متنزه كلارنس، هناك اعتقد روبرت أنه يمكنه أن يتركني وشأني.

- سأحتاج إلى المال. لقد دفعت ثمن الرحلة لرؤيتكِ ولديَّ نفقات أخرى.

- نعم بالطبع.

فتحت حقيبتي لأخرج ما تبقى من أجر كلارندون، بعد أن دفعتُ ثمن العشاء والمسرح، لكنه بحث عنه بنفسه وأخرجه كله. لم نقلْ وداعًا؛ أخبرني أنه سيمر عليَّ في فترة ما بعد الظهر وغادر في صمت -على غير هدى- محملًا بالكحول وما خفي. استدرت وواصلت طريقي على طول الجادة المطلة على البحر حتى رأيت كلارندون.

بدا لي أنني أتنفس لأول مرة.

لكن التنفس كان مؤلمًا.

المسرح السري في بورتسموث

أليسيا والملكة محطمة القلوب،

عرض هزلي على مسرح ساوث بوينت السري.

ماذا يمكننا أن نقول عن أليسيا، الدمية (جوان سيلفستري، عشرين عامًا) التي ألقتها على الأرض فتاة ولا يريد أحد أن يلعب بها؟ الأمر الذي يثير بلا شك الضحك بين السادة، لأنها بينما تغني مصحوبة بموسيقى الأكورديون، ترمي أزياءها الرائعة للجمهور قطعة قطعة، وتصبح الدعوة للعزف أكثر وضوحًا، فالعبرة بالنهاية، الملكة فقط محطمة القلوب (الشخصية التي لا تظهر أبدًا) وهي التي تستحوذ على اهتمام الأطفال. حتى مع كل سحرها، لا يمكن لدمية أليسيا (القلادة، القفازات، تصفيف الشعر الصاخب، الجوارب) أن تنافس الحب. وهكذا تتعلم الدمية كسر القلوب، والآن دون ملابس، تغني أغنية حب حزينة.

ر. وارشاسكي

الخطة الخطِرة

-1-

عندما عدتُ إلى غرفتي في كلارندون ذلك الصباح جافاني النوم.

كنت أرتجف. لم أعرف إذا كان الجو باردًا أم هو الخوف أو الحب.

حسنًا، لقد استبعدت الحب -أنْ تحب، أو ما يقال عن الحب- لا ينبغي أن يكون كذلك. ربما كان الشغف شيئًا تشعر به في كل أنحاء جسدك ونادرًا ما تختبره، وغالبًا ما يكون ذلك على خشبة المسرح. شيءٌ ما يجبرك ويسحبك وراءه. لقد علق المسرح السري في عينيَّ وأعصابي، وشعرت بجسدي كله يرتعش كأن يدًا خفية تداعبني، أعرف أن ما أقوله *فاضح*. أخيرًا سقطتُ منهكةً، أتذكر أنني حلمتُ بنفقٍ طويل ومظلم، ضيق جدًّا لدرجة أنني لم أتمكن سوى من التقدم للأمام، كان من المستحيل أن أدور فيه. خنقني الإحساس، والأدهى أنني لم أكن وحدي، رغم أنني لم أعلم إن كان مَن يرافقني أمامي أم خلفي. كان الحل الوحيد المتاح أمامي هو المضي قدمًا.

هو حلمٌ على كل حال. ولكن عندما استيقظتُ في الظلام، اتضحتِ الأمور بالنسبة لي. مَن أحبكِ مثل روبرت؟ مَن؟ من جعلكِ تعرفين العالم أيتها الملكة؟ بحر الجنوب والشرق والغرب؟

لقد غمرني شعور مرير بالذنب بينما أرتدي زيي، وهو الشعور الذي ينتابك عندما لا تعرف ما فعلته تحديدًا لتشعر بذلك. ليست هناك مغفرة لهذا الذنب، كل ما عليك فعله هو الاستسلام والتكفير عنه. أنا أستسلم، أستسلم، هذا ما فكرتُ به بينما أسيرُ في سكون عبر ممرات كلارندون الصامتة المفروشة بالسجاد.

سأذهب، سوف أتحدث إلى ويدون والدكتور بونسونبي، سأستقيل، وسأعود إلى لندن مع روبرت. سأكون سعيدةً بعد كل شيء. لن أواجه أي مشكلات، لأن ممرضات السيد إكس الأخريات استسلمن أيضًا. يمكنني حتى إلقاء اللوم عليه.

لكن لا. السيد إكس لم يكن مسؤولًا عن قراري، ولا يجدر بي استغلاله كذريعة. في الواقع، كان الاهتمام بهذا الشخص المثير للفضول لمدة أسبوعين تقريبًا هو الشيء الوحيد الذي سأندم على خسارته. هو، واهتمامه بجرائم قتل المتسولين، وكمانه. قررتُ أن يكون أول مَن أودعه.

كانت الغرفة مظلمةً، كما هو الحال دائمًا.

أغلقتُ الباب وتحدثتُ فيما أنظرُ نحو الجزء الخلفي من المقعد: «صباح الخير يا سيد إكس! هذه أنا مرةً أخرى. أنا متأكدة أنك لم تفتقدني بالأمس. يجب أن أخبرك أن الشعور متبادل. لقد أمضيتُ اثنتي عشرة ساعة دون أن أتحدث عن الجثث المطعونة، وهو أمرٌ محل تقدير. (لكن المزحة ظلت عالقة في حلقي، كانت اللحظة خطِرة. ذات قيمة. ويبدو أن صمته العنيد يتطلب ذلك) على الرغم من أنني لا أعرف لماذا أتحدث معك؟ أنت بقدراتك تعرف كل شيء بالفعل، أليس كذلك؟ فما

الداعي لذلك...؟ بالإمكان أن نجلس هنا لساعات وساعات، بينما تقول لي إنني من ذلك الطراز من النساء الذي يُنتظر أن يقول لشخصٍ ما «تعال» لأنه لا يستطيع أن يقول «أنا ذاهب». لقد كنت على حق. لقد أخبروني الآن مرة أخرى و...، لا، لن تفهم، أنت تكتشف الأشياء فقط، لكنك لا تفهمها، ولا يهمك عدم الفهم، شيء مثل الوخزة؛ بإمكانك أن تسميه هكذا. على ذلك سأغادر يا سيدي! أترك كلارندون. لكن يجب أن أخبرك أنَّه... بعد أن التقيته...، تملكتْ مني عاطفة (لم أكن أقصد ذلك. لكن ما قلته كان الحقيقة نفسها، فتابعت): معرفتك بالنسبة لي...، أنت غريب، نعم، ولكن...، تستحق (أحسستُ بحرقان في حلقي وعينيَّ وروحي، هذه الأشياء التي لا يمكنك أن تتحكم بها) عفوًا...، لماذا لا تتحدث معي...؟».

أصابتني رجفة مفاجئة.

بدا هادئًا جدًّا. فكرت مذعورةً: «لقد حدث له شيءٌ ما».

ناديته بغضب وأنا أمسح دموعي وأقترب منه: «سيد إكس!».

لا بدَّ أنه كان هناك روب الحمام، الخفان معًا، ويد فوق الأخرى.

ولكن لم يكن هناك أحد. فراغٌ أمام الممرضة القلقة.

تخيلته في أماكن سخيفة؛ مختبئًا في الخزانة، متدليًا من السقف، مختبئًا تحت السرير، في مرحاض المرضى آخر الردهة؟ ربما، رغم أنَّ ذلك سيكون مخالفًا لكل العادات، لأنني كنت أتفقده في وقتٍ مبكر جدًّا كل صباح. لقد حدث له شيء.

لا أعرف لماذا قررتُ فتح الستار والنظر صوب الشاطئ.

-2-

هذا الرجل مجنون، هذا ما خطر ببالي.

بالطبع، فهذا هو بيت القصيد.

أدركتُ ذلك عندما غادرتُ كلارندون على عجل، وأخذت أدور حول المبنى. لقد كان مجنونًا وكنتُ ممرضته، هذا هو كل شيء، كان ذلك عالميًّا، انتابني إحساس بالسعادة بينما حذائي يغوص في الرمال، وهي عادة منذ أن كنت في آشرتون -بينما ألوح بذراعي لتحية دويل- اعتنيتُ بالمرضى العقليين لأنهم بحاجة إلى رعايتي. أشخاصٌ مرضى كانوا يسدلون الستائر في الصباح، ويخرجون في ساعات غير معتادة برفقة آخرين كانوا أقل جنونًا، ردَّ دويل على تحياتي وانتظر السيد إكس حتى اقتربتُ.

- مرحبًا يا آنسة ماكيري! أرجوكِ أن تسامحي الدكتور دويل لأنه استعار بعضًا من سلطتكِ، ولكن في النهاية الخطأ خطؤكِ في كل هذا يا آنسة! (أضاف الرجل الصغير).

مما جعل دويل يبتسم.

- خطئي؟

- نعم، لأن إجباري على السير حافي القدمين على الرمال ذاك اليوم كشف لي عن عالمٍ من الأحاسيس غير العادية. وعندما زارني الطبيب في وقتٍ مبكر جدًّا هذا الصباح وأطلعني على أخبار مثيرة، طلبت منه تجربة الأمر مرة أخرى. وبالرغم من كل شيء فقد امتثلنا للائحة، فقد طلب الطبيب الإذن من الآنسة سوزان ترينش قبل الخروج للتنزه. لا توبيخ لي من فضلك.

أجبتُ متظاهرةً بالتفكير في الأمر: «حسنًا. أنت تُفسده يا دكتور دويل!».

- ولم يكلفني الأمرُ شيئًا.

انكشف دويل أمامي، بدا كأنه يريد معاقبة نفسه ضربًا بالحذاء.

كان عليَّ أن أبتسم. وقفا على الرمال بالقرب من الشاطئ. مثل الأب والابن. دويل يمد ذراعه للسيد إكس مثل اثنين من الحجاج يتعرضان للرياح ذهابًا وإيابًا، وعلى وجههما ابتسامة تلميذ. فتحل البركة على دكتور دويل. غير أنني تظاهرتُ بالصرامة.

- سيد إكس! أتمنى ألا تكون المغامرة المتوحشة بالسير حافيًا على الرمال قد أعجبتك كثيرًا، هيا بنا يكفيك ما قمت به اليوم. متأكد أنك لم تعانِ من الكثير من المتاعب مع أهوائه يا دكتور!

- على العكس من ذلك، صحبة السيد إكس دائمًا مدعاة لسروري.

أجاب المذكور: «هذا لا يُقارن بأخبارك يا دكتور!».

- أوه، من فضلك...، إن أخباري المتواضعة على الرغم من أنها قد تبدو مثيرة للاهتمام بالنسبة لك، لم تصل للأسف حتى إلى نصف ما...

وهكذا تركتهما للحظة مثل رجلين حكيمين يجامل كلٌّ منهما الآخر. بينما لم أكن حتى مثل طالب، استمعت دون أن أنصت. ملأني الشاطئ بالنشاط، وأعطاني القوة والإرادة. كانت الأمواج قوية لكن ليست لدرجة الخطر، تبحث عني، تخطو خطوة نحوي حتى أتمكن من اتخاذ الأخرى، كأنها تلهو لتغريني. احتفلت طيور النورس بالصراخ، كل شيء بدا سعيدًا ومشرقًا مقابل الليلة السابقة المظلمة الحزينة، أم السبب رؤيتي

للمريض الذي أرعاه مرة أخرى والتأكد من أنه بخير؟ أخيرًا قلت: «لا أريد أنْ أقاطعكم أيها السادة! ولكن أعتقد أننا يجب أن نعود...».

- يا آنسة ماكيري! أنتِ مثل ألم الضرس: بغضِّ النظر عما نفعله أو كيف نفعله، فإنكِ تزعجيننا دائمًا.

اعترض دويل: «سيد إكس! لقد قللت من أهميتها، كأنك مستمتع بذلك».

- لقد اعتدتُ وقاحته يا دكتور! لا تقلق.

السيد إكس متأبطًا ذراع دويل، وبدا أنه تعلق بذراعي من الناحية الثانية دون أن ألحظ. ما هي الرسالة التي بدا أنَّ حاجبَي دويل المرتفعين يعكسانها فيما ينظر إليَّ؟

وها أنا ذا مرة أخرى في الغرفة -هل تصدقون ذلك؟- وقد فتحتُ الستائر، منخرطةً في اللغز، ودويل يحمل دفتره في يده. هل بوسعي إضافة أنه بدا جذابًا للغاية؟ ولم لا؟ الورق عبارة عن مرآة تعكس حمرة الحميمية. لقد كان كذلك دائمًا، لكنه كان يضيف كل يوم لمسة شخصية، ريشة أخرى إلى جناحه متعدد الألوان: بدلة بنية مع ساعة بسلسلة ذهبية، وشارب مصقول مبروم لدرجة أنني اعتقدتُ أنه سيخزني...، لستُ سوى متفرجة على القصة، لم أتذكر أنه قبل ساعة أردتُ أن أقول وداعًا. كنت دائمًا هكذا، ريشة تميل في أيِّ ريح.

- طوال هذه الأيام كنت مثل شخص يطارد الفريسة. لدينا نوجز وهاتشينز...، أراد السيد إكس أن يعرف فيما يتشارك كلاهما. سؤال متعدد الجوانب، مثل حجر الألماس. البؤس والشراب، نعم. لكن في الوقت نفسه لا شيء.

قال الرجل الجالس على الكرسي، مرتديًا الروب وخفَّي المنزل مرة أخرى: «واستنتاجاتك...».

- اسمح لي يا سيد إكس! بالإمكان وضع الآنسة ماكيري في الطريق الصحيح ليصبح بالإمكان إرشادها بعد ذلك. ذهبتُ إلى دار إيواء سانت ماري، وتحدثت مع المدير، ومع بعض زملاء الضحايا. نوجز شاب مشاكس يعمل نجارًا، كان ممثلًا من الدرجة الثالثة وتاجرًا معروفًا للممثلين الأطفال في المسارح السرية. إذن فقد احتكم على المال، على عكس هاتشينز، كان يقضي لياليه بين المشاجرات والزجاجات والنساء في شوارع الميناء. كان مكروهًا من الجميع وليس فقط من جاري هيسكوك؛ إديث كيندل ممثلة الميلودراما في مسرح فكتوري، *لوسي المضحية*، اشتكتْ من أنَّ نوجز ضربها بشدة في أحد المشاهد...، لقد كان رجلًا قاسيًا بالطبع، وقد كشف هيسكوك سجله الإجرامي ليحتفظ بأوراقه، مما أجبره على العمل كرجل الحلوى، بالطبع، عندما قُتل نوجز، قاموا بحبس هيسكوك على الفور، واستجوبوا الممثلة التي كانت تكرهه.

أجاب السيد إكس: «منطقي تمامًا، ولكنني أعتقد أنَّ مقتل هاتشينز قد استبعدهما من دائرة الشك».

أومأ دويل برأسه وأشار إلى أماكن في الغرفة: «حقيقي، ولكن دعنا نضع نوجز هناك، وعلى هذا الجانب الآخر نضع هاتشينز».

رأيتهما. لم يسبق لي أن رأيت هاتشينز من قبل، لكنه كان هناك، وبحضورٍ مكثف أكبر بكثير من العرض السري المسرحي الليلة الماضية، ولم تنقص تفصيلة واحدة؛ لحية كثة، ومظهر لطيف ولكنه مخمور ويرتدي أسمالًا بالية.

- رئيس التشريفات في ذلك المسرح، روح ساذجة، لا يختلف في أي شيءٍ عن نوجز، هذا النوع من الفقراء ليس لديهم الكثير من

الذكاء، لكن جسدهم كبير وقلبهم أيضًا. كان عامل رصيف في الميناء، لكنه فقد وظيفته بسبب ممارسته الرذيلة. في سانت ماري تبنوه. كان ملتزمًا بفك الحبال لبيعها في حزم من الخيوط. قال إن ذلك منعه من شرب الخمر، لكنه انتكس -للأسف- قبل بضع سنوات. نأى بنفسه مرة أخرى عن ذلك السوء، وذلك بفضل وظيفته؛ ممثل في عروض الأطفال في المسرح الخيري. الأطفال يعشقونه. كان أخرق، لكنه كان متناغمًا مع حاله على هذا النحو. كان مغنيًا جيدًا، لكن من الواضح أنَّ الكلمة الأخيرة كانت للشيطان، فقد استمر في الشرب سرًّا، لأن الليلة التي رآه فيها سبنسر كان مخمورًا، كما حدث بالفـ...

سأل السيد إكس بهدوء: «ماذا كان يشرب؟».

- رجاءً اعذرني؟

كان من الواضح أن دويل لا يحب المقاطعة، لكن هذا شتت انتباهه. كان من المضحك رؤيته وهو يعبس في وجه الرجل الجالس على الأريكة.

- أسألك ماذا شرب هاتشينز يا دكتور؟

- ماذا كان يشرب؟

- نعم يا عزيزي الطبيب! ماذا كان يشرب السيد هاتشينز؟

- هل هذا مهم؟

- قطعًا.

- أعتقد...، جين، رون...، (رشقني دويل بنظرةٍ مترددة) ما مدى أهمية ذلك يا سيد إكس؟

- لقد أخبرتك بالفعل.

- سأحاول...، أن أعرف.

- افعل ذلك من فضلك.

كان من الجميل جدًّا رؤية دويل في حيرةٍ من أمره، ومع ذلك، كان بداخله رجل خبرَ العالم يستطيع أن يتقبل هذا التعليق دون غضاضة تمس كبرياءه. احمراره خجلًا لم يكن مماثلًا لجيمي بيجوت؛ فكل شيء بداخله كان ذا معنى وقوة راسخة. لم يكن دويل مضطربًا للأنباء التي حملها، ولكن على عكس السيد إكس ذي الجلد العاجي الشفاف، فهو يبذل أقصى جهده ليريح جميع الأشخاص من حوله -النساء تحديدًا- مثلي، ومرة أخرى غمز لي غمزة متواطئة مفادها: «إذا قال العبقري شيئًا، فسيمضي الأمر على هذا النحو».

وقلب صفحةً من دفتره.

- لقد تحدثت عن نوجز وهاتشينز، هاتشينز ونوجز. هل تولدت لديكِ فكرة يا آنسة ماكيري؟

أيدتُ الرأي: «لا يمكن أن يكون هناك شخصان مختلفان على هذا النحو».

- جيد جدًّا، ولكن الآن سننتقل إلى شطب المظاهر الخارجية والإبقاء على أوجه التشابه. هل شاركا النُّزل نفسه؟ كلا (قام بالإشارة، ثم شطب الكلمة في الهواء) كان هاتشينز على اتصالٍ بهم أكثر من نوجز. هل كان بينهم أصدقاء، أو أعداء مشتركون؟ لا، العمر؟ التشابه الجسدي؟ لا، الشراب؟ نعم.

أصر الصوت الصادر من المقعد: «لكن من المثير للاهتمام معرفة ما شربه هاتشينز».

- حسنًا. دعونا نضع الشراب جانبًا. ماذا بقي لنا؟

بدا أنَّ السؤال موجهٌ لي، أدركتُ ذلك على الفور: «كان نوجز ممثلًا ...، مثل هاتشينز كان يمثل في المسرح الخيري».

- هذا هو. (فتح دويل ذراعيه). يجب أن تكوني قائدة المناضلات بحق المرأة في التصويت.

أجبته: «لكن نوجز لم يمثل في أي عرض في المسرح الخيري».

- كان نجارًا. يساعد في أعمال الديكور. ومرة ظهر في مسرحية لشركة كوبيلوس كممثل صامت.

قلب دويل صفحة أخرى في دفتره، كان هناك عمود أيسر من الأسماء، وعمود أيمن من الأرقام بترتيب متقارب.

- لا علاقة بين المسرح الخيري والنُّزل الذي يأويهما، على الرغم من أنه يقوم بجميع مهامه تقريبًا مع الأشخاص المحتاجين. تُدفع بضعة بنسات لهم وتذهب العائدات إلى الأعمال الخيرية. وقد أداره لسنواتٍ الإيطالي الذي يعيش في المدينة، سلفاتوري بيتيروسو.

- أوه، نعم، أعتقد أنني رأيت ذلك.

وهنا جاء دوري، وسردتُ دخول ذلك الثلاثي من المسرحيات الباذخة إلى المطعم دون أن أذكر تفاصيل عن أمسيتي. عندما وصفت الرجل ذا المعطف الأحمر، أومأ دويل برأسه، هذا بيتيروسو. يمكن أن يكون الآخران مساعدَيه، المجري -على ما أعتقد- وراقصة من الفرقة. أنا أحب عروضهم. ولكن هنا هو الشيء الأكثر غرابة. لقد اهتممتُ بمعرفة الجدول الزمني للوظائف في فرقة العمل الخيري. قاموا بعروض خيرية لمدة شهرين. وتزامن اثنان منهم مع عشية الأيام التي تمَّ فيها العثور على جُثتَي نوجز وهاتشينز. وكلاهما أدى في هذين العرضين.

صفقتُ بينما أصيح: «كل شيءٍ يُكمل بعضه الآن».

كنتُ أصفق بمفردي.

قال السيد إكس: «هذا مثير للاهتمام إلى حدٍّ ما».

هذا جدير بالنظر بشكلٍ عام، لكن التفاصيل لا تزال هامشية.

بدا دويل مهزومًا، لكنني -معجبته المخلصة- رفعتُ معنوياته بالأسئلة التي طرحتها.

- هل تعتقد أنه من الممكن أن يكون شخصًا ما من المسرح...؟

- على أي حال، أعتقد أنه سيكون من المثير للاهتمام حضور العرض غدًا وإلقاء نظرة. يلتقي هناك مجتمع بورتسموث النبيل بأكمله من جهة، والأكثر احتياجًا من جهة أخرى. إنه مكانٌ جيد لجمع الناس. سوف أقدم نفسي إلى بيتيروسو وممثليه...، (مسح خطوط شاربه الطويلة) لكن...، الدعوة لشخصين. أعرف سيدات قد يقبلن، على الرغم من...، (ولن أنسى أبدًا عندما وجه عينيه نحوي في تلك اللحظة...) الوحيدة التي تعرف السبب الحقيقي وراء ذهابي...

- سأذهب معك (قلت دون تفكير) سيكون شرفًا لي يا دكتور!

- الشرف سيكون لي بالكامل يا آنسة!

في تلك السحابة من السعادة صاح السيد إكس بصوتٍ كالرعد: «لا، لا، هذا غير وارد. الآنسة ماكيري لن تذهب. ليس لدينا أيُّ دليل يا دكتور! لا شيء، حتى حضورك غدًا لا فائدة منه...».

سأل دويل، متضايقًا بعض الشيء: «هل لي أن أعرف السبب يا سيدي؟».

- إلا إذا كان الهدف معرفة ما شربه السيد هاتشينز، وهو أمرٌ ضروري، فإن الذهاب إلى المسرح لن يُجدي نفعًا، ناهيك بأنه إذا كنت على حق وكان أحد الأشخاص من الفرقة متورطًا، فقد يكون الأمر ذا خطر على الآنسة ماكيري!

قال دويل: «في هذا الشأن، أعترف أنك على حق».

لم يسعفني الوقت لأتدخل.

- أوه، ممتنة لاهتمامكما أيها السيدان! لكن يجب أنْ أقول إنه بعد ما يقرب من أسبوعين في كلارندون للعناية بالسيد إكس، فإن المخاطرة بأن أروح ضحيةً للقتل لم تعد بالشيء الذي قد يُخيفني.

جاهد دويل ليمنع نفسه من الضحك. من ناحية أخرى، فإن مريضي بدا جادًّا.

- من فضلكِ، آنسة ماكيري!

- سأذهب، سأذهب. على الرغم من أنني سأحتاج إلى إذن الدكتور بونسونبي.

قال دويل: «يمكنني التأثير عليه».

شعرتُ بالسعادة، تلك المغامرة كانت ضرورية، واهتمام السيد إكس مثير للغاية. هل يشعر بالغيرة؟ تساءل شيءٌ ما بداخلي، صححتُ نفسي على الفور؛ لا، إنه هوسه المريض.

- سأحاول أن أجعل زميلة لي تحل محلي، أعتقد أنني أستطيع سؤالها.

بدأتُ في وضع الخطط، وتساءلتُ عن رؤيتي مع شخصٍ مثل دويل في مسرحٍ عام، كيف سينظرون لذلك في كلارندون؟ ماذا ستقول ممرضات الشاي عني؟ لكن ألم أسرْ تحت الجحيم في بوينت تلك الليلة؟

لا زلتُ أستشعر الهواء اللزج في رصيف الميناء على بشرتي وانعكاسات التهديد في عينيَّ. كان الحل سهلًا؛ سأقول ذلك بنفسي، الدكتور آرثر دويل وافدٌ جديد إلى بورتسموث، وتمت دعوته إلى المسرح، واصطحبني من باب المجاملة. النميمة تفقد قوتها إذا لم يكن لها أساس. كنتُ سعيدةً جدًّا لدرجة أنني ابتسمتُ بخبث تقريبًا عندما قال السيد إكس: «آنسة ماكيري! يبدو سيئًا للغاية أنْ يحاول شراءكِ بهذا...».

تلك النغمة الجديدة جعلتني أقترب من الكرسي. بدا شاحبًا متصلبًا مثل تمثال رخامي، ويده تبحث في جيب روبه: «من أجلك».

سلمني ورقة مطوية. نظرت إلى دويل الذي كان بلا شك على علم بالأمر، لأنه كان يبتسم الآن بغرابة. أحببتُ المفاجآت، لكن هذه المفاجأة -مهما كانت- فاقت أيَّ احتمال كنت أتخيله. هل يمكن أن يكون هذا هو السر الصغير الذي تشاركا فيه؟ فتحتُ الورقة وقرأتها في حيرة.

قلت دون أن أفهم: «إنها... إنها وصفة دكتور دويل لقطرات العين...».

طلب مني سيد إكس: «اقرئي اسم المريض».

قطبتُ ما بين حاجبي. أعلاه، كتب دويل: عناية السيد إكس، غير أن أحدهم شطب حرف السين، ووُضِع اسمٌ آخر كُتب بخط واضح، بدا الخط لدويل، كان القرار قد اتُخِذ بشيءٍ من الوجل، اسم مذيل بلقبه هو، بدا ذلك غريبًا.

واصل دويل الابتسام.

سألتُ دون أن أفهم شيئًا: «مَن هو شير...، شيرلوك هولمز؟».

قال دويل: «إنه...، اسم المحقق الذي اخترعته، الشخص الذي أخبرتك أنه يشبه السيد إكس. لقد أخبرته هذا الصباح و...، حسنًا، لقد

أعجبه ذلك. طلب الإذن مني لاستخدامه على انفراد معكِ فقط. والحقيقة أنني أحب الفكرة أيضًا...، (حكَّ رأسه). حتى إنني كنت أفكر هذه الأيام أن هولمز يمكنه العمل مع طبيب...، (مشيرًا نحو نفسه). ولديَّ...، لا أعرف...، ربما مدبرة منزل. (وأشار إليَّ، كما لو كانت لعبة. ابتسمنا).

بدت على السيد إكس علامات الجدية، التفتُّ إليه بجدية أيضًا.

- ماذا يعني كل هذا يا سيد؟

- هذا ما أردتِه يا آنسة ماكري!

- ماذا أردت؟

- بعد الظهر على الشاطئ، أتتذكرين، عندما وعدتكِ؟ لقد طلبتِ مني أن أحصل على اسم. ها هو ذا.

كنت منشغلةً بالورقة التي في يدي.

اسمه، فكرتُ.

لم يسبق أن أعطاني أحد هدية كهذه. شعرتُ بصعوبة في التنفس، نظرتُ إلى الشخص الذي كان جالسًا على الكرسي بذراعين، يدًا فوق الأخرى، مرتديًا روبًا وخفًّا منزليًّا. دمية، هكذا بدا لي في المرة الأولى. ولكن الآن رأيت الأمر بشكلٍ مختلف، غمرني دفءٌ غريب.

قلت: «شكرًا لك. شكرًا سيد إكس!».

صحَّح كلامه بشيءٍ من الفخر: «سيد شيرلوك هولمز».

- أوه، لن أدعوك بهذا الاسم السخيف أبدًا. (وبعد أنْ شعرت بالتأثير اللاإرادي الذي أحدثته في دويل) أضفت: «أوه، عفوًا».

قال دويل: «لا، لا تقلقي. لا يعجبني ذلك كثيرًا أيضًا. ربما سأدعوه... هيريبرت ليكوك؟ الأسماء الفرنسية موضة حاليًّا...».

حفظتُ الورقة، محاوِلةً إخفاء مدى السعادة التي شعرتُ بها في صوتي.

- إذن، موعدنا غدًا يا دكتور! في أيٍّ ساعة؟

-3-

شيرلوك هولمز.

في نفس ذاك اليوم -بعد زيارة دويل وفي أثناء ساعة غداء المرضى- حبستُ نفسي في غرفتي بينما أفكر في الأمر. ما زلت لا يُعجبني الاسم، لكنه ليس الاسم، بل هديته. احتفظتُ بها في حقيبتي. لقد بحثت في تلك اللحظة وأخرجتها، صلبة، ثابتة، داكنة، ثقيلة. المرساة المنقوشة. حملتها في يدي بينما أفكر؛ *شيرلوك هولمز.*

هدية جعلتني أغوص، والأخرى تركتني أطفو.

طلبتُ من جيمي قلمًا وورقة، جلستُ على السرير مع الهديتين، نحيتُ الحجر جانبًا، وبدأتُ الكتابة:

عزيزي روبرت!

قبل أي شيء. أعتذر لك عن الطريقة التي كلمتك بها ليلة أمس. إنني وحيدة في هذا العمل الجديد، وهو ما يجعلني عصبية. لكنني أرجوك باسم حبنا أن تمنحني بضعة أيام أخرى لأتخذ قراري. إذا ما قررت أن تبقى إلى أن أتخذ قراري فسيكون هذا مدعاة لسروري. كل ما أرغب فيه هو السعادة لكلينا. وهو ما كان دومًا.

وبالوصول إلى هذه الجملة، لم أعرفْ ماذا بإمكاني أنْ أُضيف. ارتعشتْ نبضاتي.

أمسكتُ بالحجر في كفيَّ وجعلتُ أتأمله، كان ثقيلًا حقًّا. ولكنه على شكل مرساة، المرساة تقيد فيما يتحرك كل شيء من حولها.

-4-

تمكنتُ من رؤية وجهي في تلك المرآة الضبابية وأنا على الفراش. وجهي ويداي تحملان الرسالة التي كتبتها للتو إلى الشخص الذي كان شريكي على مدى السنوات الأربع الماضية،

تساءلتُ عمَّا إذا كانت ملامحي قد وشت بهذا التغيير. هل كنت أكثر سعادة؟ هل صار بوجهي المزيد من التجاعيد؟ أربع سنوات منذ أنْ رأيته لأول مرة. قبل عامٍ تُوفِّي والدي، وسافرتُ أنا وأخي إلى بورتسموث لدفنه، واصطحاب والدتي إلى لندن بعد بيع منزل العائلة. يجب أن أقول إن الحياة مع أمي كانت بمنزلة محطة ننتظر فيها وصول قطار المأساة. كنت أستيقظ كل يوم وأقول: اليوم سيكون هو اليوم. لقد جعلها غياب والدي منهكة من كل شيء وعصبية المزاج. لكن بما أنَّ أخي متزوج ولديه أطفال، لم أستطعْ أن أطلبَ منه الاهتمام بها أو أي مساعدة مالية منه، لذلك قبلتُ أيَّ وظيفة. أسهل شيءٍ هو رعاية كبار السن أصحاب المدخرات. في ذلك الوقت كنت أعمل لدى السيد جروسبورو. كان صغيرًا بشرته صفراء، وحين يبتسم تظهر أسنانه الحادة. لم يكن رأسه الأصلع مجردًّا من الشعر تمامًا، كانت بعض خصلات الشعر عالقة هنا وهناك مثل الجمجمة. على الرغم من أنه حقق ثروة من إيجار المتاجر على أرصفة الميناء، فإنه عاش أقلَّ بكثير من إمكانياته في الطرف الشرقي من المدينة. كان يخرج قليلًا، كان أرملًا، ومصابًا بالسكري، ويعاني

تقرحاتٍ في القدم، وتوجب الاعتناء به في المنزل. في بعض الأحيان كانت إحدى خصيتيه تنتفخ إلى أقصى حدٍّ بشكل مثير للسخرية، كان يستمتع عندما أركع بإخلاص بجانبه وأضع عليها كمادات ساخنة. وفي هذه الأثناء يتحدث معي، ولا زلتُ أذكر رائحة أنفاسه الكريهة.

- افعلي ذلك بشكلٍ أفضل، أيهتا القبيحة، لأنني أخشى أن تكون هذه هي المرة الوحيدة في حياتك التي تلمسين فيها *أشياء* رجل عن قُرب.

اعتاد أن يقول لي أشياء *جميلة*، مثل هذه، لكنني أؤكد أنه لم يخدعني أبدًا. عندما وظفني، أخبرني أنه كان يشتريني، «بشكلٍ قبيح للغاية»، ليس لكي يتملقني أو يعاملني كشخص، بل كشيء. كان يدفع لي ما هو منصوص عليه وبعض الإكراميات، لكنه كان يسمح لنفسه بأي تعليقات عني. لم يلمسني قط، قال هذا أيضًا. وأنا قبلت كل هذا. في بعض الأحيان كان ينظر إليَّ وينفجر بالضحك. لقد كان مستمتعًا بوجهي وأنفي «الساحر» وذقني الغائرة وعينيَّ الصغيرتين. يجب أن أقول إن الضحك ينتقل بالعدوى؛ عندما رأيته يضحك ويتحول إلى اللون الأحمر مثل الطماطم، انتابتني أيضًا ضحكات غبية خارجة عن السيطرة.

لكنني لم أكن دائمًا في مزاجٍ جيد، وفي أحد الأيام عندما أساء إليَّ بشكل خاص، أخبرته أنني لن أسمح له بفعل ذلك مرة أخرى. لقد نفخ شفتيه الزرقاوين بازدراء وهو يُفتش في جيبه وقال:

«هل ترغبين في المغادرة؟ حسنًا، هذا هو الباب، إنكِ قبيحة جدًّا. وهنا...، (وألقى لي جنيهًا ذهبيًّا على الأرض)...، إليكِ هذا. إذا رحلتِ فلا تعودي. إذا أخذت هذا المال فتحملي. هذا أمرٌ عادلٌ، ألا تعتقدين ذلك؟».

لقد اخترت الرحيل.

ما أحسن أن أكتب هذا جيدًا، ولكنه **كذب** أيضًا.

ربما مثل بطلة من روايات الحب، فقيرة لكنها جديرة بالاحترام، فتتصرف على هذا النحو، لكنني لم أكن هذه البطلة. لقد كنتُ من لحمٍ ودم، عشت في لندن واعتنيت بوالدتي، ودفعت الإيجار وجلست القرفصاء، بينما كان السيد جروسبورو يضحك بشدة. والبكاء كان يضاعف من قبحي. لم أبكِ بسبب الإهانات، بل لأنه بدا لي أن خسة ذلك الرجل العجوز تتمثل فقط أنه يصرح بما يعتقده كثيرون عني.

في أحد الأيام، بينما كنت أغادر منزل السيد جروسبورو، توقفت أمام أحد عروض السيرك. لقد كانت إحدى الفرق الصغيرة التي تعمل على طول نهر التِمز لتتلقى العملات المعدنية الضئيلة من الجمهور، لكنها كانت مذهلة. حسنًا، كل هذه الأشياء نجدها اليوم، لكن هذه كانت مميزة بشكلٍ خاص؛ لقد عزفوا على الأبواق المقوسة التي بدت كأنها تطلق صراخًا، بينما كان هناك رجل يرتدي معطفًا مبلَّلًا -السيد ستورم كما كُتب على اللافتة المعلقة حول رقبته- يهز دلوًا مهولًا شفافًا مملوءًا بالماء بارتفاع منطقة الركوب في عربةٍ ما تقريبًا. داخل الدلو، بدتْ فتاة شاحبة عارية تداعب ذراعيها بينما غطى جسدها فقط كلمة «ثقة» مرسومة على فخذها الأيسر -تذكرت الأخبار الأخيرة عن غرق سفينة في أمريكا ولها الاسم نفسه- لم يكسُ جسدها شيء، حتى الشعر على ساق النساء مثلنا جميعًا. كان الأطفال المطليون باللون الأبيض بمنزلة البرق عندما يتقافزون، الطبول تحاكي الرعد، والتفت السيد ستورم نحوي بجفنيه الحمراوين فضاعف حجم عينيه وخديه المحتقنين.

واصل الغناء: «قد انهارت الثقة، بمَن نثق الآن؟».

أخذ يهز الدلو، ويقفز الأطفال ببذاءة، ونظرت كل الرؤوس إلى الفتاة في الدلو كأنهم مجذوبون تحت تأثير المغناطيس. الجميع ما عدا واحدًا.

- لقد واجهت عواصف في أعالي البحار. (أتذكر أنه قال لي بعد ذلك بوقتٍ طويل) ولم أرَ واحدة بمثل هذا الغباء، صدقيني.

أحببتُ روبرت ميلجرو منذ تلك اللحظة تحديدًا، عندما ابتعدتِ الفرقة نظر إليَّ وخلع قبعته ليقدم نفسه. لأكون صادقةً، كان يحمل عددًا من كؤوس الشراب، لكنه كان مهذبًا، وبدا جسده مفتولًا كأنه منحوت في الصخر. بدأنا الحديث عن مسرح الشارع، ثم عن المسرح بشكلٍ عام، وأخيرًا عن أنفسنا، شيءٌ واحد أسعدني، أنه لم يكذب أبدًا بشأن جاذبيتي المفترضة. لقد رآني وسط الناس وأعجب بي، ولم يكن بحاجة إلى تملقي لذلك. هذا هو. هجرته زوجته الأخيرة للتو، وهذا ما جعله -كما أخبرني- يشرب بكثرة. روبرت ميلجرو، بالطبع أحببته. لقد كان أول رجل أراد أن أكون له كما رآني في عينيه.

بدأنا نتواعد قبل نوبات دوامي أو بعدها. يبدو أنه كان يحظى بكل وقت العالم «لم يغادر الـ إنجراتو بعد» قال «نحن البحارة، يا عزيزتي، لا فائدة لنا على الأرض». عندما أخبرته عن عملي، كانت مسألة وقت قبل أن أترك جروسبورو. حاول روبرت أن يُثنيني عن تركه دون جدوى، غضب عندما قلت له: نعم، أنا أكرهه، ولا، لن أتركه. لم أكن أريد ذلك، نعم أردت ذلك. بدا الأمر كريهًا بالنسبة إليَّ، لكنها كانت وظيفتي. لم أكن ممرضة لأعثر على السعادة. كانت وظيفتي الرعاية، ولو كان بإمكاني الاعتناء بمَن يستحقون ذلك لبقيت في المنزل أخيط. أخبرته بكل هذا، لكن روبرت أشار لي بغضب: «اتركي هذا الشخص».

في أحد الأيام، جاء دوري في فترةٍ ما بعد الظهر، كان من الصعب جدًّا بالنسبة لي أن أفصل نفسي عنه -فقد رافقني إلى منزل الرجل العجوز- لدرجة أنه عندما كنا نقول وداعًا، ظهر السيد جروسبورو

عند الباب حاملًا عصاه، وقدماه ملفوفتان في ضمادات، ويضع رداءه المنزلي. نظر إليَّ وهو غاضب.

- هل ما تزالين هنا أيتها الحمقاء؟ هل أنتِ غبية بالإضافة إلى كونكِ قبيحة؟ هل هذا ما أدفع لك مقابله؟ أنتِ متأخرة، ادخلي الآن.

عندما اعتذرت ودخلت المنزل سمعت روبرت يعود ويواجهه. تحدث بعناية، كما لو أنَّ الأمر لا يهمه تقريبًا، لكن، لأنني أعرف أن هذه هي شخصيته عندما يكون غاضبًا للغاية، ويرتعد.

- لا أعتقد أن الآنسة تستحق هذه الكلمات. أعتقد أنه يجب عليك سحبها والاعتذار لها.

- وأعتقد أنه يجب عليكما الخروج أيها الحثالة، رائحتك كريهة من الكحول على بُعد عشرة ياردات، ارحل من هنا وإلا سأطلب الشرطة.

ثم هدأ روبرت تمامًا. هذا جعلني أعرف -مرعوبةً- أن غضبه كان بلا حدود. لقد أوضح لي ذات يوم: «مثل الأعاصير، يا ملكة، المركز خامل، والسطح جحيم». كان يكفيه أن ينصب كتفيه ويُقلص قبضتيه.

- هل تعرف شيئًا يا سيدي؟ لقد أخبرتني السيدة الشابة كثيرًا عنك، والآن أعترف أنك كما تخيلت تقريبًا، لكنها نسيت تفصيلًا واحدًا. لديه أذنا فأر هولندي...، هل تعلم كيف نعاقب أمثالك على السفن؟ لا جلد ولا عصي على الأقدام، ولا ألواح لرميها على أسماك القرش. نحن نعلقهم من الأذنين. لقد رأيت رجالًا معلقين من آذانهم وهم يصرخون مطالبين بالقتل. ليسوا ضعفاء مثلك، بل بحارة. لقد رأيت ما يحدث لهم، في البداية كانوا خائفين من فقدانها، لكن الوقت يمر و...، حسنًا، إنهم أكثر خوفًا من أن تلك الأجنحة الممزقة تقريبًا لا تزال صامدة. إنهم يصابون بالجنون

وهم يهزون أنفسهم ليتحرروا، نعم يا سيدي، وكلما تحركوا أكثر كلما زاد عويلهم، أو ضحكوا بشكلٍ جنوني من الألم. بالحكم على ما أراه، ستصمد لساعتين... هذا إذا لم أقطعهما أوَّلًا.

تمتم السيد جروسبورو بشفتيه الزرقاوين: «أيها السيد...».

- أنا لست سيدًا. (قال روبرت) لكنها هي السيدة. ادفع لها ما تدين به لها، وأضِف لها تعويضًا جيدًا للإساءة التي لحقت بها. (والتفت إليَّ متجاهلًا محاولاتي لاسترضائه) لن تعملي هنا بعد الآن.

أنقذ جروسبورو كرامته -وربما أذنيه- بأن أضاف بازدراء، وهو يدفع لي: «سوف أجد شخصًا أفضل قريبًا» لكنه دفع. دفع لكل شيء. المرساة.

لفترةٍ من الوقت كان ذلك كافيًا بالنسبة لي. تلك القوة، وهذا الأمان. الآن لم أكن متأكدة من ذلك. غضبه المستمر، طريقته في الحضور والذهاب سريعًا بعد أن يطلب مني المال، آلاف المرات التي أقسم فيها على التوقف عن الشرب...، أحيانًا كان لديَّ انطباع بأنه يكذب عليَّ، وأنه يُخفي سرًّا ما لن يخبرني به. لم أهتم به إلى أنْ يحين الوقت. لم أعد أشعر معه بالأمان. لكنني لم أستطع التخلِّي عنه أيضًا. ببساطة لم أستطع إلحاق أي أذى به. كان يحتاج إليَّ تقريبًا أكثر مما كنت بحاجة إليه.

توقفت عن النظر في المرآة وبقيتْ الذكريات هناك. لم أستطع التفكير فيما أكتبه في الرسالة، لذلك قمت بطيِّها غير مكتملة ووضعتها في مئزري.

كنت بحاجة إلى رؤية الرجل الذي أعطاني الهدية الأخرى.

-5-

عندما طرقتُ باب منزله سمعت ضجيجًا. تعجبتُ من ذلك، حركتُ المقبض. كانت هناك الغرفة المظلمة والكرسي مثل جدار مرتفع ومتهالك.

ومع ذلك، كان هناك شيء آخر. لم أستطع تحديده، رائحة جديدة، ربما حركة سريعة للظلال. ومع ذلك، بدا صوته كما هو الحال دائمًا: «آنسة ماكيري! ادخلي (لم يكن بحاجة إلى رؤيتي ليعرف مَن أنا). كيف حالكِ في هذه المساء، هذا اليوم الرائع؟».

- رائع جدًّا. (أجبته مبتسمةً ثم أغلقت الباب) وأنت يا سيد إكس!

حذَّر قائلًا: «سيد هولمز، اسمي شيرلوك هولمز».

- على أي حال أخبرني بما تشعر به، أيًّا كان.

- أنا كما كنت من قبل، وأشعر أنني على نفس الحال طيبًا كان أم سيئًا. في هذه الأيام القليلة الماضية المُخيبة للآمال، الشيء الوحيد الذي تغير هو اسمي، يا آنسة!

- أرى ذلك (هززتُ كتفيَّ) على أي حال أنا أقدر التفاصيل.

- أنتِ مَن طلب ذلك.

- ولهذا أُقدر ذلك.

- لطفٌ شديد من جانبكِ.

لقد كان صحيحًا. فماذا لو أراد أن يُدعى هولمز أو هاملت أو شيء من هذا القبيل؟

التقيت في آشرتون ثلاثة نابليون، وخمسة قياصرة، واثني عشر جلادستون، وتشارلز ديكنز هناك عدد أقل بكثير من القرَّاء المجانين. لقد كانت هديته هي التي أثارت تعاطفي.

- ولكن إذا كنت تعتقد أنك بهذا ستشتريني لأستمر في الظلام...، هل قاطعتك وأنت تعزف على كمانك؟

توجهت نحو الستائر.

- لا.

استوقفني الرد القصير.

- أوه، إذن أنت تفكر في حوادث القتل.

- الحقيقة هي لا، آنسة ماكيري! لم أكن أتحدث أيضًا.

نظرت إليه عابسةً؛ في وضعيته المعتادة، وإحدى يديه فوق الأخرى، عينان مفتوحتان بلونين مختلفين. اعتقدتُ أنَّ هذه خطوة جديدة نحو الانحدار إلى الجنون.

- أوه، من فضلك، سيد إكس!

- هولمز، رجاءً.

- كما تحب. هل كنت تتحدث مع شخصٍ غير مرئي؟

ابتسم على الفور: «نحن جميعًا نتحدث مع أشخاص غير حقيقيين، يا آنسة ماكيري!».

أعتقد أنك تتساءل عما إذا كنت في حوارٍ مع شخص غير واقعي، وعلى الرغم من أن الإجابة قد تعتمد أيضًا على الظروف والتعريفات، بالطبع، في هذه الحالة، حتى أكثر الكائنات الفضائية تدينًا سيوافقون على أن محاوري يستوفي جميع الخصائص المطلوبة في عالم العقلاء، ليُبرهن على وجود الأشياء بسداداته.

كنتُ على وشك أنْ أقول له إنني لم أفهم شيئًا عندما أضاف: «أوه، هيا. اخرجي».

سمعت ضجيجًا خلفي. التفتُّ. كان حجم الستارة آخذ في الازدياد.

-6-

كانت واحدة من تلك اللحظات في حياة السيد إكس المجنونة.

واحدة أخرى.

هناك -وقد تحققتُ من ذلك- عقد في الدماغ، كما في المعدة. أحيانًا نجد صعوبة في البلع وأحيانًا في التفكير، لأسباب مماثلة، تتشابك بعض الأشياء مع أشياء أخرى وتكون النتيجة اكتظاظًا. رأيت تلك الستارة يزيد حجمها ولا أعرف حتى ما الذي تخيلته.

القاتل.

المزلاج يأخذ الشكل.

ولكن سرعان ما عاد توازني إلى وضعه. حتى قبل أن يُنهي تحيته.

أهـ- أهـ أهلا، سي سي سيدة.

-7-

كان داني ووترز يبتسم من الأذن إلى الأذن، لكن عينيه أظهرتا خوفًا باديًا. هكذا أتذكرها الآن بينما أكتب.

ابتسم، وأعلن بتلك الابتسامة أنَّ هناك عالمًا أفضل محفوظًا للجميع، حتى للأطفال مثله، لكن الآن علينا الاكتفاء بالعيش في وادي ظلال نظرته، وندع الشمس التي تجلب بعض الابتسامات تختفي. كلانا قال «أنا آسف». لقد كان -كما أتذكر الآن- مشهدًا كوميديًّا إلى حدٍّ ما، رغم أنني وصفته بطريقة مزعجة. داني وأسماله، شعره الذهبي ووجهه المغبر، الخدوش على ساقيه، الهالات السوداء تحت عينيه من التعب

والجوع، ولكن فوق كل شيء، تلك الابتسامة التي تقول: «هذا أنا يا آنسة ماكيري! ليس هناك ما يستدعي خوفكِ».

أدركتُ أنه هو الذي سمعته وهو يتسلل بعيدًا عندما اتصلت.

- أين...، أين أصدقاؤك؟

وضعت يدي على صدري، دائمًا ما نفعل ذلك، كأننا نخشى أن يهرب القلب من هناك، وما زلت أحاول أن أهدأ. أسوأ ما في الأمر هو رؤية داني خائفًا من خوفي.

قال السيد إكس: «لم يأتوا، لقد نبهتُ داني وحسب».

- نبهته، الآن تنبههم؟

- في حالات استثنائية أعرف كيفية العثور عليه. جيمي بيجوت ليس عليه الذهاب بعيدًا ليتحدث مع الأطفال الذين يتشاجرون على الرمال ويجعلهم يحضرون.

- لقد خاطرت كثيرًا بقدومك في هذه الساعة، في الواقع ما زال هناك ضوء الظهيرة. أدركت أن الكرسي لم يوضع خلف الباب.

- لقد جاء في هذا الوقت لأن لديه عرضًا الليلة و...، نعم، شكرًا لكِ آنسة ماكيري! أنتِ على حق في ضبط منبهنا الصغير بالكرسي، والآن دعونا نستمع إلى داني، الذي كان يُخبرني عن صداقته مع إلمر هاتشينز هل يمكنك تقديم ملخص للسيدة، داني؟

لقد اقترحت أشياء أخرى.

- هل تريد أن تشرب كوبًا من الماء أولًا يا داني؟ تأكل شيئًا؟

- آنسة ماكيري! ليس لدينا وقت لـ...

- من فضلك يا سيدي!

بينما كنت أعانق الطفل البائس، وأقوده إلى الطاولة مع صينية شاي بعد الظهيرة وبعض المعجنات، رشقتُ السيد إكس بنظرة نافذة. لقد كان ذكيًّا جدًّا لكنه لم ينتبه كيف انتقلتْ عينا مخبره المسكين منه إلى الصينية ومنها إليَّ، خاضعًا لثلاثة إغراءات لن يخبرنا بأولويتها صاحب المصلحة نفسه؟

- تناول ما تريد يا داني! وهنا لديك الماء والشاي.

سقط السيد إكس في صمته المعارض، ولكنه صمت ذكي نوعًا ما، داني يزدرد الطعام -الصغير المسكين- ويشرب، ولكن بشكلٍ متسارع، يشعر بالوحدة والانزعاج في هذه الغرفة الصامتة. ومع ذلك، حاولتُ أن أكون بمنزلة نقطة توازن بتقديم المزيد له وترك مساحة لإجاباته الصادقة.

وأخيرًا صار جاهزًا. وعندما وقف أمامنا وبدأ يروي قصته، فهمت شيئًا عن داني ووترز.

لقد ذكرت جماله من قبل، ولكن كان هناك شيءٌ آخر، شيء لم يلاحظه أحد عندما تحوم الذبابة ونسيج العنكبوت حولها، وبالتالي أصبحا بطلَين لا إراديين. لكن الآن، وحدي، أدركتُ أن داني كان فتًى مختلفًا عنهم. من الممكن أن يكون أصدقاؤه من أطفال الشوارع، لا أعني أنَّ حياة داني كانت أفضل، لكن عندما تولى المسؤولية، كما هو الحال الآن، وعلى الرغم من تلعثمه، أصبح مركز اهتمامٍ فريد ومُنتقًى للغاية.

كان داني طفلًا مسرحيًا.

جسده، وتحمله. كيف أشرح ذلك؟ إذا رأيتم رجال المسرح -وأظن أنكم رأيتموهم في وقتٍ ما، بغض النظر عن المكان الذي أتيتم منه وفي أي عصر قرأتم هذه القصة الخرقاء- فسوف تفهمونني. لم يكن

داني طويلًا جدًّا، لكن هيئته متناسقة. وحتى الأوساخ على جسده لم تبدُ أكثر من مجرد زيٍّ مثل العديد من الأزياء الأخرى التي يستخدمها فنانو المسرح، وليس فقط على المسرح. لقد بدا هشًّا وقويًّا، وضعيفًا وصحيًّا، وعاطفيًّا وباردًا، متشبثًا برأيه قبل أي شيء. عندما تركته بمفرده -تقريبًا- أدركتُ أنَّ تلك الإرادة كانت تشقُّ طريقها تحت كل مقطع لفظي ينطقه، مع هيئته، وتناغم ذراعيه، وساقيه، وإيماءاته، كل ذلك تمثَّل في عينيه. لقد ظننتُ أنني استنتجتُ ذلك حين رأيته لأول مرة، أنه يقاتل في الساحات بسبب «الخدوش في ساقيه»، لكن يا له من انطباعٍ أحمق ومتسرع، تُرى أي طفل شارع يخلو منهم، ما أدركته -في الواقع- كان على العكس من ذلك تمامًا؛ قدرته لمواجهة أي جرح جسدي، تناغم وتناسق جماله الأخَّاذ مع شعره الأشقر المقصوص على طراز أطفال دور الرعاية. باختصار...، فنه.

كان داني يعمل في المسرح. ليس بإمكاني تجاهل ذلك. يعرف كيف يظهر وكيف يعجب الآخرين. ومع ذلك، فإن الدراما التي يؤديها كانت ساحقة.

بدأت القصة بالظهور، رأيت أحداثها تصطف أمام عينيَّ على فتراتٍ متفاوتة كمَن ينتظر بهدوء مرور موكب من الخيول العجوزة.

لقد التقى بهاتشينز في المؤسسة الخيرية، لكن أدواره هناك اقتصرت على الظهور في أداء صامت. لذلك كان عليه أن يكسب رزقه مثل كثيرين آخرين في المسارح السرية، وفي الساحات دائمًا تقريبًا. لم تكن وظيفة حقيرة كما كان يُعتقد. المعارك في الساحات ليست كذلك، يتم التدرب عليها، فهي «فنية»، ويبدو الكثير منها كأنها رقصات غامضة تظهر فيها أجساد الأولاد والبنات أو المراهقين، المغطاة بقطع ملابس صغيرة، أو في كثيرٍ من الأحيان، أجساد عارية، في أوضاع وإيماءات

خاصَّة، باختصار، هي عروض مثيرة للتأمل بالنسبة لنوعٍ معين من الجمهور، بسبب *الفضيحة* التي تُثيرها هذه الفرائس، ذلك الباليه من الجلد المتشابك حيث، يقع ضرر حقيقي أحيانًا عن طريق الصدفة...، أو للمزيد من المال.

كان داني ممثلًا على الساحة. عالمٌ خلف الكواليس، يتألف من عوالم أخرى مختلفة وحتى أكثر قتامة. فأيُّ طفل من الأطفال ممثلي الساحة لم يفعل كل شيء؟ لكن حلمه -يا إلهي! حلم ذلك الطفل الفقير، الذي يستقبل الشروق بعناء، مثل الشمس في الشتاء، يُذكرني كثيرًا بأخي- كان يريد أن يصبح ممثلًا. في الكوميديا والتراجيديا، وهنا حدث نوع من المعجزة، لأن هذه العبارة خرجت منه دون تلعثم، في سطرٍ واحد، وبينما قالها قلبَ وجهه بالتعبيرين. ابتسم من الأذن إلى الأذن عندما قال «كوميديا»، وأدار زاويتَي فمه إلى الأسفل عندما قال «تراجيديا»، وظننت أنها ربما خدعة لمعالجة ثقل لسانه، وبالتالي التحدث بشكلٍ طبيعي. لم أكن مخطئةً، على الفور، بعد أن قال الكلمتين، قال جملة واحدة طويلة دون انقطاع: «أخبرني السيد هاتشينز أنه يمكنني التحدث جيدًا دون التفكير كثيرًا».

لقد علمه هاتشينز ذلك، أجل.

كان أسوأ يومٍ في حياته، وأفضله. حدث ذلك خلال بروفة شارك فيها كلاهما. أدّى إلحاح الصبي بيتيروسو إلى منحه دورًا قصيرًا جدًّا كخادمة في مسرحية للأطفال. كل ما كان عليه فعله هو الرد على طرق الباب وفتحه والقول: «لقد خرجت السيدة». فقط هذا. فقط. كان بإمكانه أن يؤدي تلك العبارة، كررها كثيرًا في الأيام التي سبقت العرض لدرجة أنه نام بينما يقول: لقد خرجت السيدة.. لقد خرجت السيدة..

وصلتِ اللحظة المخيفة، لكنها مرتقبة للغاية. أمره بيتيروسو بالحضور، كان هناك داني؛ تخيلته متصلبًا للغاية، متوترًا لأبعد حد، وهو يسير عبر المشهد نحو الباب الزائف، تراقبه مئة عين متحمسة تمنت بلا شك لو أنه أخطأ، واثنان فقط من الأشخاص الطيبين الذين لم يلاحظوا وجوده من قبل في ذلك اليوم، والآن يشجعانه في صمت.

تحدث داني. لكنه لم ينجح في القيام بذلك.

الـــ...، سي...، دة...، سي...، سي...، دة...،

في هذه المناسبة، ظلَّ يُكرر بعض المقاطع من تلك العبارة الأبدية، لولا قسطنطين مساعد بيتيروسو الذي -وفقًا للوصف الذي سمعته- كان من الممكن أن يكون الرجل الهزيل الذي يرتدي القبعة المخروطية الذي رأيته في المطعم، والذي أوقف الأداء بصفعةٍ هائلة. شعر داني، بألم داخلي فاق بمراحل ألم خده، وتدرَّج وجهه احمرارًا من الخجل أكثر من الصفعات الضربات، هرب من المسرح تلاحقه ضحكات الصبية الآخرين ولعنات بيتيروسو، ولم يكن ليتوقف عن الركض وإن كان إلى مركز الأرض، كان سيجد الطريق، لو لم تمسكه أوَّلًا يدٌ كبيرة هائلة، وذراع ضخمة ورجل ضخم ذو لحية ثلجية نظر إليه بحسن نية.

أخبره إلمر هاتشينز ألَّا يقلق بشأن أي شيء، وأنَّه تحدث بشكلٍ جيد، وفقط عليه أن يحب ما يفعل وأنْ يبحث عن حيلهم.

- لقد رأيتك هناك يا فتى، لديك مقومات ممثل النص الجيد، صدقني.

أخبره إلمر هاتشينز أن يوليوس قيصر كان متلعثمًا.

أخبره إلمر هاتشينز أن نابليون كان يتلعثم أيضًا.

عندما نفى داني معرفته بتلك الأسماء، أخبره إلمر هاتشينز أن جلالة الملكة كانت تتلعثم أيضًا. أثار هذا الأمر اهتمام داني أكثر، على الرغم

من أنه لم يسمع الملكة تتحدث أبدًا، لكنه أيضًا لم يسمع أحدًا يقول إنها كانت متلعثمة. وكيف تمكنت من التغلب على هذا الخلل؟ بقوة الإرادة، وفقًا لما ذكره إلمر. والتفكير في شيءٍ آخر.

- إذا توقفت عن التفكير في مدى السوء الذي تؤدي به شيئًا ما، فسوف تفعله لاحقًا بشكلٍ صحيح. لم يقتنع داني، ثم كشف إلمر سره: «لقد كنت غبيًّا يا داني! قالوا لي: «اشرب يا إلمر!»، وشربت. قالوا لي: «انتظر يا إلمر!»، وتحملت كل ما أعطوني إياه، وانتهى بي الحال في هذا النزل. هناك جعلوني مع الحبال. إنها وظيفة مملة للغاية، لدرجة أنك عندما تقوم بها لمدة نصف يوم تنسى حتى اسمك... إنها مثل الحياة يا داني! تمر الأيام، وهكذا حتى تقول واو، هذه هي الحياة. هذه المعيشة. لم أنسَ الاسم، لكني غفلتُ عن التفكير بأنني غبي، وهنا فقط أصبحت أكثر ذكاءً يا داني!».

بدا ذلك كالسحر بالنسبة لداني ووترز. علَّمه إلمر ذلك وأن يصنع تعبيرات لينسى أنه كان متلعثمًا. كوميديًّا وتراجيديًّا، أن يحترم نفسه وألا يقبل أبدًا ما يخالفه. لم تكن الساحات هدفه، لكن لم يكن فيها شيء حقيقي يظهر حركاته، حتى لو كان يتظاهر بأنه يواجه صبيًّا آخر مثله في الحادية عشرة من عمره، يمسك به ويتقلب في حركاتٍ متناغمة، فقد أصبح كل ذلك يعجبه نظرًا للتقنيات التي تعلَّمها، لكنه لم يقبل أبدًا أشياء مثل إحراجه بشكلٍ واقعي.

كان هناك واحد في قمرة لاندبورت مع عائلة مدمرة بأكملها تدعى ويسلي، كما أخبرنا بعنوان *بقايا العائلة*، كان الأمر أكثر من مجرد عرض سري؛ كان محظورًا، تم تنفيذه من وراء القانون، لكننا نعلم جميعًا أن المحظورات تُعرض، وما دامت سرية، فإن القانون لا يهتم. عُرض على

داني أن يفعل أشياءَ مع رجل أو امرأة العائلة، لبضع دقائق بمفرده، توفر له الطعام لعدة أشهر، لكنه لم يقبل. قال إنَّ السيد هاتشينز كان سيفخر به، وقد أعاقه البكاء الآن أكثر من التأتأة. لم يكن الأمر أنه لم يفعل هذه الأشياء من قبل، أو ما هو أسوأ من ذلك، ولكن في كل مرة كان يرفض فيها شيئًا كان يشعر كأنه قد تغلب على خطوة أخرى في السباق الطويل الذي اقترحه هاتشينز نحو كرامته.

«سوف تكون ممثلًا عظيمًا يا داني! أؤكد لك ذلك (قال له) سيحدث ذلك في يومٍ ما. لكنني لن أراه».

قفز داني على الفور: «كوميديا، تراجيديا... نعم يا سيد هاتشينز!».

قال هاتشينز وهو يضحك معه: «حسنًا، ربما أكون هناك، لأنني لنْ أفوِّت ذلك اليوم مقابل أي شيء ولو كان الكنز الملكي... أينما كنت، سأكون هناك يا داني، أُصفق لك في الصف الأمامي».

- وسأراك يا سيد هاتشينز!

قال هذا الشيء الأخير دون تلعثم ودون تدريبات سابقة، مع تحول سريع الأثر في هاتشينز، بلا شك، كما حدث معي. ولكن بعد ذلك انهار كل شيءٍ بالنسبة له، وتبدى ألم ذكرى صديقه في تجعيدات وجهه.

- و...، آه...، الآن...

قلتُ بحزن للسيد إكس بينما أحتضن الطفل: «دعه يذهب الآن...، لقد حكى لك كل ما أردت معرفته».

- على العكس من ذلك، هو لم يقلْ أي شيءٍ يا آنسة ماكيري! لقد كانت هذه مجرد مقدمة عاطفية، عديمة الفائدة بالنسبة لي، لأن الشيء الوحيد الذي يهمني هو معرفة ما شربه السيد هاتش.

-8-

حدث ذلك حين...

نعم.. حدث في ذاك الحين.

أصابتنا الصرخة بالشلل للحظة. تردد صدى في جميع أنحاء الغرفة، يصم الآذان: «اصمت الآن».

كنتُ أنا مَن صرخت.

أنا لست فنانةً مسرحية، كما تعلمون بالفعل، ولهذا السبب لا أصرخ أبدًا، وفي المرات القليلة التي أفعل فيها ذلك تنطلق الصرخة بشكلٍ سيء. داني -على سبيل المثال- يبكي ويرتعش بأداء مذهل. لكن الصرخة خرجت مني، كشيء لا يتكرر ولا يُقلد، حطمت كل شيء، الانسجام، الأدب، جمال المشهد. وقد كان -احمررتُ خجلًا، ولكن في الوقت نفسه شعرت بالسعادة- شيئًا غير محتشم *وفاضحًا*.

والأسوأ من ذلك أنني عندما أصرخ -في مناسبات نادرة، ليس في وجه رجل حتى ذلك الحين، ودائمًا تقريبًا في وجه أمي- كعادتي المؤسفة أُبرر نفسي. إنه مثل تمزيق لوحةٍ ما ثم رمي القطع.

- لا أستطيع أن أتحملك، أنت وهواجسك، لا أستطيع، لا أستطيع.

التفتُّ بعيدًا بينما أرتجف. وبعد صمتٍ قصير، عاد الصوت من الكرسي.

- حسنًا داني، هل تسمعني...؟ داني! لا تقلق بشأن الآنسة ماكيري، إنها امرأة، ستتعرف عليها...، أخبرني، هل تسمعني؟

- ن...، ع...، م يا سي...، دي.

- انتبه جيدًا للإجابة على هذا السؤال، متى كانت آخر مرة رأيت فيها إلمر هاتشينز حيًّا؟

- من...، ذ، أسبو...، عين، سييي...، دي.

- وماذا كان يشرب في ذاك الوقت؟ ماذا شرب إلمر هاتشينز؟

السؤال حوَّل عينَي داني ووترز الجميلتين إلى دائرتين مثاليتين مثل فمه المدهوش.

- ماذا شر...؟

- نعم. ماذا شرب؟ رون؟ نبيذ؟ جعة؟

حاول الصبي أن يتمالك نفسه ليُجيب على هذا السؤال السخيف، سؤال لا يمكن تصوره. فكيف نحذره من أن هذا الشخص ليس في كامل قواه العقلية؟ تأجج تلعثمه مرة أخرى في منتصف الرحلة ولم تتحرك المقاطع المنفصلة.

- كوميديا، ترجيديا، داني. (نطق ذلك الطاغية قبل أن أتمكن من التدخل) كوميديا، تراجيديا، من فضلك داني! هيا.

حاول داني تطويع قسمات وجهه وطريقة نطقه مع الكلمات.

- كوميديا، تراجيديا، لا شيء كالشرب.

- لا شيء؟

- لا شيء.

تجنب داني التلعثم من خلال نُطق «لا شيء» بمنتهى التأثر.

- إنه أمر مهمٌّ للغاية يا داني! (أصرَّ الرجل المهووس قائلًا) لا شيء.

- لا...، لا...، لا شيء.

التقى داني به بعد أنْ أقلع عن الشراب بالفعل. لم يشرب الخمر مرة أخرى. أقسم له على ذلك.

في تلك اللحظة كنت أتكئ على جانب الكرسي، وأمكنني ملاحظة التغيير غير المحسوس تقريبًا الذي أحدثه هذا لدى السيد إكس، كان سعالًا خفيفًا. لكن الممرضة كانت تعالجه منذ أسبوعين، وصدِّق أو لا تصدق، لم تسمعه قط يسعل، ولا، على حدِّ علمها، يعطس، أو يصدر غطيطًا، أو يصدر أي ضجيج آخر بجسده غير كلماته الحريرية. كنت خائفة تقريبًا.

- داني! شكرًا لك، لقد كنت مفيدًا للغاية...، أمم...، ستكون الآنسة ماكيري لطيفة للغاية وستقوم بإفراغ محتويات البراد وإعطائها لك، هناك ملفات تعريف الارتباط والمال...، أمم...، أريدك هنا في غضون يومين إذا ظهرتْ جثة جديدة.

عندما أغلقتُ النافذة كان الظلام قد حلَّ بالفعل. ربما كان ذلك عندما أضاء المصباح الموجود على الموقد، لكن الحقيقة هي أنَّ وجه السيد إكس كأنه مغطًّى بقناع من الشمع.

-9-

لقد اعتذرتُ عن الصراخ. فحرَّك رأسه.

- لا عليكِ آنسة ماكيري! الأمر مفهوم مع الأخذ في الاعتبار عاطفتكِ الغزيرة، وسعلَ مرة أخرى.

- هل تشعر بألم؟

- لا. يحدث هذا عادةً لي عندما أقوم بحل مشكلةٍ ما صعبة.

- هل تصاب بالبرد عندما تفكر؟

- لا، على العكس من ذلك، أنتِ دائمًا تفهمين الأمور بشكلٍ عكسي، أُصاب بالبرد عندما أتوقف عن التفكير لفترةٍ وجيزة، في حالة

طرح مشكلة محيرة كنت أفكر فيها لأيام وليالٍ. يختفي التوترُ من جسدي، وهذا يتركني ضعيفًا وأعزلًا أمام أي إزعاج.

- وهل حللت شيئًا؟

- كما ترين، هذا هو الحال. والآن، هل يمكنني الاستمرار في السعال لفترة أطول قليلًا؟ شكرًا.

شعرت بالذنب بسبب انفعالاتي دون مبرر. صرختُ في وجهه، لكن كان ذلك بطريقةٍ ما، غير عادل وقاسٍ مثل خطئه المفترض. سواء كان شخصًا راقيًا أو متدنيًا، فالحقيقة هي أنَّ ذلك الشخص الجالس على الكرسي الأبدي كان مخلوقًا من مادة لم تكن شائعة الاستخدام في خلق أقرانه. ألم تقل السيدة موراي ذلك بمجرد أن رأته؟ كم كانت على حق.

لقد كان مميزًا. ضئيلًا. ذا رأس كبير خاص.

كررتُ كلامي: «أنا آسفة لأنني صرختُ».

- أعرف ذلك جيدًا. إحم إحم.

إجابته تركتني وحيدة. اكتفيتُ بالنظر إلى النافذة التي طار من خلالها ممثلنا الصغير. كان البحر مظلمًا بالفعل، في المسافة. سفن عديدة كما لو كانت تغلق الأفق، كل شيءٍ جميل وقبيح في الوقت نفسه.

فكرتُ لسنوات طويلة على مدار الحياة، لأدرك أنَّ أخي الأصغر العاقل كان في الواقع على حق، وأنَّ الفرص قد ولَّت بالفعل، ولا يسعنا إلا أنْ نبتهج بالحصاد الجيد أو السيئ الذي نحصل عليه، لأنه لم يعد بإمكاننا أن نزرع مرة أخرى. ذلك الأمان، ذلك اليقين الراسخ كالبحر. روبرت كان حياتي، سيئة كانت أم جيدة، استوعبتُ فجأة؛ مرساته، وليس تلك الهدية الأخرى، ذلك الاسم الوهمي، سراب الرجل الجالس على الكرسي. ولا شيء يسمح لنا بتجنب الحياة أو تغييرها إلى حياة أخرى. لقد سمحتُ

له بالدخول فيها -كان هذا هو الخطأ؛ الاختيار- تمامًا كما أغلق أخي أندرو الباب في وجه فكرة أن يصير ممثلًا. والآن قمنا بجمع المحصلة. ومع ذلك، وهذا ما تم إملاؤه منذ قرون وقرون، كان علينا التعايش معه، لأنه ليس لدينا أي شيء أفضل، بالرغم من أنه يمكننا الاعتماد على شيء أسوأ دائمًا.

- ومع ذلك، يمكنك التغيير.

قلتُ له: «لا أعتقد ذلك».

عندها فقط أدركتُ أنني كنت أتحدث مع شخصٍ وليس مع نفسي.

التفتُّ عندما قال السيد: «إذا كنتِ لا تعتقدين بشيء، فلن تتمكني من تحقيقه».

وواصل السعال بشدة.

لم أسأله كيف عرف، ولم أطلب منه ذلك بعد الآن.

ومن ناحيةٍ أخرى، كان ذلك السعال المفاجئ يقلقني.

- اسمح لي. قد يكون لديك حمى.

وضعتُ يدي على جبهته الضخمة، لكنني لم ألاحظ أن الجو حار جدًّا. أخرجت ساعة التمريض المقيدة بسلسلة على المئزر، وبحثت عن معصمه الأيسر الصغير. للحظة بحثت بإصبعي السبابة دون جدوى، مثل ضيفٍ جديد يتجول بحذر في منزلٍ مجهول، لكنني وجدتُ أخيرًا شيئًا يبدو أنه ينبض مثل نقر طائر الحياة البهي في بطن كفي. انتظرتُ حوالي خمس عشرة ثانية فقط وضربتُ في أربعة لحساب معدل ضربات قلبه. كانت قوية.

سألته: «هل أنت عطِش؟».

- سوف تتخذين القرار الصحيح.

- معذرة؟

لم تنظر إليَّ عيناه ذواتا اللونين المختلفين. *ثمانية وستون.*

- المشكلةُ أنكِ سمحتِ لنفسك بالتأثر برأي الآخرين طوال حياتك، سيدة ماكيري!

اثنان وسبعون.

- لكن...، دعيني أخبركِ بهذا...، لا أرى أي مشكلة في أن تجدي شخصًا يحبكِ حقًّا وبالطريقة التي تستحقينها، لأنكِ جميلة.

خمسة وسبعون. ثمانون.

- جميلة وشجاعة، رغم أنكِ لست سعيدة...، (الآن كان ينظر إليَّ، باللونين الأحمر والأزرق)،. ولكن فقط لأنكِ لم تريدي أن تكوني كذلك، يا آنسة ماكيري!

وثمانون...، عندها أدركتُ مصدومةً أن النبض الذي شعرت به في طرف سبابتي كان نبضي. تحت تلك المطرقة القوية، بالكاد كان صدى مطرقته، مثل قناة تحت الأرض، بطيئة جدًّا، شبه قاحلة.

بدا أن ذلك الرجل لا حياة له، ربما لأنه كان يسلمها لمَن معه.

تركتُ يده الصغيرة معلقة في الهواء، لا أعرف ماذا أقول.

- لا تقلقي بشأن أي شيء. (قال السيد مبعدًا نظره عني) دور البرد الذي أعانيه لا يستحق الاهتمام، إنه الألم المادي لأعثر على الحقيقة، وهو شيءٌ مكلف دائمًا لكنه يستحق قليلًا من العناء، وما أخبرتكِ إياه هو جزء من هذه الحقيقة، لأنني حذرتكِ بالفعل من أن سرَّ المتسولين هذا يهمنا جميعًا، ولا أستثنيكِ من ذلك. لذا، لا تتسرعي في الاستنتاجات يا آنسة ماكيري! لأنكِ بلا شك -بصفتك امرأة- تتخيلين نفسكِ في مشهد رومانسي، لكنكِ ستطالبين

ببعض الاستنتاجات أيضًا...، لكن القول بأنكِ جميلة وشجاعة لا يتعدى كونه إقرارًا للحقيقة بشكلٍ موضوعي.

وأخيرًا ساد صمتٌ مُطبق بعد أن داهمه سعال شديد ارتجتْ له قصبته الهوائية. لم أكتشفْ شيئًا، وما زلت غارقة في الحيرة، والساعة في يدي تعمل بشكلٍ عقيم، لأن الزمن -على العكس من الساعة- لم يعد موجودًا، ولكن، كما هو الحال دائمًا آخر مَن يعلم بهذا الأمر هو الساعات نفسها.

جميلة.

قلتُ له أنا: «سأحضر لك منقوع المنثول، يا سيد إكس!».

صحَّح لي: «هولمز...، ممم».

قبل أن أغادر سمعت ذلك مرة أخرى: «كوني حذِرة في المسرح...، ممم...، سوف يقع هناك شيءٌ خطِر».

ولم يعاود الحديثَ مرةً أخرى. وحين رجعتُ لأجلب له الشراب الساخن، كان يعزف على الكمان.



مسرح الواقع المخجل
مسرح الغرفة السرية
لاندبورت، بورتسموث

(يُعاد هذا البرنامج مرة أخرى عند الخروج من المسرح)

ثلاث فتيات، صبي، الأم، الأب. رقصات، استعراضات ضاحكة، نكات، ثلاث سيدات صغيرات، ورجل نبيل، سادة المنزل. سيُغطّى وجه الوالدين بقناعين لكبير الخدم والخادمة على التوالي، وسيقومان بتلبية طلبات الجمهور لتناول المشروبات. سيتبعهما أصغر الأطفال بزيّ آدم وحواء. وتقوم الأختان الأكبر سنًا بألعاب السيرك، والألعاب البهلوانية، ومسابقات التحمّل، واختبارات المصارعة والفروسية، مرتديتين جوارب راقصة الباليه في البداية. على الرغم من أنه يمكننا أن نؤكد لك أنه قبل النهاية بوقتٍ طويل، لن تختلف ملابسهم بأي حالٍ من الأحوال عن ملابس أشقائهم الصغيرة أو أمنا حواء الأولى في الجنة. ثماني ساعات واستراحة مع عائلة دبليو. مَن سيبقى واقفًا بعد مباراة الكرسي؟ مَن سيشرب الشاي مع سيدة المنزل أو يحول الابنة الكبرى إلى مهر صغير؟ عائلة حقيقية، بنسبٍ حقيقي، هل تعتقد أنك تعرف نفسك جيدًا؟ لن تعرف نفسك حتى تنظر في مرآتنا.

تبقى العائلة، العمل الواقعي لهذه السنة.

السيد: أشقر، طويل.... في الثانية والأربعين من عمره.

السيدة: شعر أحمر، عينان خضراوان.... عمرها تسعة وثلاثون عامًا.

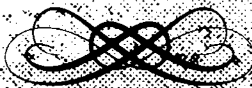
الابنة الكبرى: شقراء، نحيفة.... في العشرين من عمرها.

الابنة الوسطى: شعر أحمر، عينان خضراوان.... عمرها خمسة عشر عامًا.

الابنة الصغرى: شقراء، نحيفة.... عمرها عشر سنوات.

الابن: أشقر، عينان زرقاوان.... عمره خمس سنوات.

الجلادون والسكرتير والمساعدون.



الجريمة الوشيكة



-1-

في صباح اليوم التالي بحثتُ عن نيللي ورينجتون. لقد كانت أفضل شخص ليحل محلي في فترةٍ ما بعد الظهر، فلديها خبرة طويلة للتعامل مع أهواء السيد إكس.

أعتقد أنني ذكرتُ ذلك، كانت طويلة، نحيفة، جادة للغاية. بالنسبة لي، كانت بمنزلة جسر وسَطِي بين جدار الرئيسة برادوك ومرح سوزي وجين. امرأة متوازنة، ولها خبرة في علاج المرضى من الناحية الجسدية والعقلية، تدربت في مستشفى بورتسموث الملكي الكبير. كان رد فعل نيللي كما توقعتُ؛ لم تكن هناك مشكلة في أن تحل محلي، ولكن فيما يتعلق بالعمل مع الطبيب الذي لم يكن من كلارندون، تتطلب الأمر أن تتشاور مع رئيستها. كانت برادوك مشغولة في ذلك الوقت، لذا تركت لها الإشعار وعدت إلى غرفتي قبل أن يبدأ اليوم بالكامل. وهناك أخذت رسالة روبرت من المئزر ومزقتها إربًا. سحبتُ ورقة.

عزيزي روبرت!

أحتاج إلى بضعة أيام لتجهيز كل شيء حتى نهاية الأسبوع المقبل أو ربما أكثر قليلًا، لا شكَّ في أنك ستتفهم.

توقفتُ، أعدتُ قراءتها ومزقتها وأضفت قطعها الصغيرة إلى المجموعة السابقة، مثل رقاقات الثلج القذرة. شكلوا هرمًا على الكرسي الذي كان بمنزلة منضدة بجوار حجر المرساة. لديَّ ذقن صغير -لقد قلت ذلك بالفعل- لكنني رفعته كأفضل ما أستطيع، وأطبقتُ أسناني. الورقة الثالثة:

روبرت!

أحتاج إلى بضعة أيام لأفكر في الأمر. هذا قرارٌ بالغ الأهمية بالنسبة لي وأريد التأكد منه. إذا لم تستطع انتظاري بإمكانك العودة إلى لندن.

كانت هذه أفضل. أكثر تحديدًا وقاطعة. راجعتها وأضفتُ:

إذا ما كنت تعتقد أنَّ قراري بالضرورة يجب أن يطيعك، فعليَّ إخبارك -بألم شديد- أن ما كان بيننا قد... سوف أحتفظُ في ذاكرتي باللحظات السعيدة منه. شكرًا على كل شيء.

آني.

انتظرتُ بتردد في المساحة البيضاء خلف «قد». الطرف المحبر فوق ذلك الفراغ، كما لو كنت أستعد للتوقيع على جملة عقد نهائي بمستقبل جديد. ثم أنزلت القلم وكتبت الكلمة الأخيرة. هذا، أجل، كل شيء سينتهي. لماذا تنتهي الأشياء؟ جميعها تنتهي. لقد ولدنا ونحن نعتقد أننا خالدون، ولكن انظر، كل شيءٍ صغير أو كبير تكتب فوقه كلمة «النهاية». لقد أعطاني روبرت ميلجرين شيئًا ما -الضربات والسعادة، كانت تعتمد على اللحظة- ولكن مهما كان الأمر، فقد استنفد بئره بالفعل. هل كان ذلك عندما قذفني بالزجاجة في لندن؟ أو عندما حاول خنقي؟ أو في بورتسموث، قبل يومين، عندما أصرَّ على أنْ أتخلى عن وظيفتي؟ لم أكن أعرف، لا يهم. تحدث الأشياء، وعندما تحدث، تسقط في جراب الأحلام وتمكث هناك، وعندما ننظر داخل ذلك الجراب، من الأفضل أن نرى السعادة وحسب.

كنت أمسك بالخطاب حين سمعتُ طرْقًا على الباب. لقد كانتا عينَي سوزي ترينش الزرقاوين الواسعتين، صوتها حاد أكثر من المعتاد: «آني! أنتِ لم تخبريني بأي شيء، هل هو؟ هل هو؟».

كنتُ أعلم إلى ما تشير إليه. سوزي هي التي لم تقل أي شيء أبدًا. كانت لديها قدرة نادرة عليَّ لتجعلنا جميعًا نُخبرها بكل شيءٍ دون أن تطلق هي كلمة واحدة. كانت حيلتها عبارة عن جُمل غير مكتملة: «إذن أنت ستفعل...؟»، أعتقد أنني بالفعل...، أفهمك...، أعتقد...، كما تعلم...»، ثم نقوم جميعًا بتركيبها معًا -مرة واحدة على الأقل- لملء الفراغات.

في هذه المرة لم أرغبْ في الوقوع في هذا الفخ البريء.

قلتُ لها: «أنتِ تعنين...؟».

لم يتجاوب مع الدواء الخاص به.

- تقصدينه...؟

- هو...؟

قالتْ بصوتٍ هامس: «دكتور دويل».

ثم أفسحت المجال أخيرًا. لقد أخرجت الفكرة من رأسها؛ كان لدى دويل تذكرتان لمسرح كاريداد الخيري بعد ظُهر ذلك اليوم، وطلب مني مرافقته بشكل استثنائي. طبعًا بسبب الزيارات التي قام بها للسيد إكس. ما هو الخطأ في ذلك؟ «لا شيء» قالت سوزي -بسرعة بينما كانت تهبط الدرج-: ما كان يحدث أنني كنت...، أعرف بالفعل...

ما «أعرفه بالفعل» كان ينتظرني وذراعاي السمينتان متقاطعتان عند أسفل درج الخدمة.

- لقد أخبروني بخطتكِ يا آني! لا يوجد ما يتعارض مع تغيير الورديات قبل إجازتكِ القادمة. أما بالنسبة للعمل وصحبة الرجال فلا أدري كيف خطر في بالكِ أنني سآذن لكِ.

كان من الصعب معرفة ما إذا كانت الرئيسة برادوك مبتسمةً أم ساخطة بالنظر إلى وجهها. لقد سبق وذكرتُ: إنَّ ملامحها كانت مضغوطة في وسط وجهها المكتنز، حيث تتعايش السعادة والمرارة والسخرية والغضب دون أدنى مشكلة. ولم يبدُ أي رد فعل لها عندما كانت تأمرنا بشيءٍ أو تنهانا عنه. وفي هذه الحالة، تشعر *بالفضيحة* صراحة. تساءلتُ عمَّا إذا كان رفضها سببه نوعية العرض أم صحبة رجل. وفي هذه الحالة الأخيرة...، هل كانت الغيرة؟

لا أريد أن أتحدث بالسوء عن ماري برادوك، لكنني رأيت بالفعل نظرات إخلاص منها موجهة للشاب دويل.

ومع ذلك، كان هناك تفصيل واحد لم تكن هي نفسها على علمٍ به.

- من فضلكِ يا آنسة برادوك! هل يمكنني استشارة الدكتور بونسونبي، هذا كل ما أطلبه.

ضيقت عينيها في وجهي -كانت تلك نظرة قاسية عليها- لكنها أضافتْ أنها لا ترى أيَّ ضرر. بدتْ لهجتها متعجرفة، كما لو أن تلميذة في المدرسة طلبت من زميل آخر أن يسمح لها باطلاع المعلم الأكثر رعبًا على ما هو محظور.

رافقتها عبر ردهة المكتب وتوقفت فقط لتسليم المظروف الخاص بروبرت إلى جيمي بيجوت، المخصص للصبي في مستودع كوتيريل. أقسم أنني شعرتُ براحةٍ بالغة، كان تلك الرسالة حملتْ معها آخر ذكرياتي، وشكوكي، وحيرتي. كان دويل قد أبلغ بونسونبي -والشكر للرب- بشكلٍ كامل، كما أخبرني أنه سيفعل، وهو الأمر الذي -كما تخيلتُ- لم تكن الرئيسة على علمٍ به تمامًا.

- أوه، إنها مؤسسة خيرية. (قال بونسونبي جالسًا في مكتبه) ليست هناك مشكلة في حضوركِ يا آنسة! لا أقول إن هذا هو الحال دائمًا، لكن الدكتور دويل صحبة جيدة. بالمناسبة، آه، هو والسيد إكس علاقتهما جيدة...، على ما سمعت.

صادقتُ بنبرة مفعمة بالحيوية ولكنها لا تخلو من حذر: «أعتقد ذلك يا دكتور!».

نظرت إليَّ برادوك -أو شعرت أنها فعلت ذلك- بجدية وصمت.

- ما الهوايات التي تتشاركان فيها؟

انتظر بونسونبي الإجابة، وهو يجعِّد وجهه بالكامل، كما يفعل عادة، خاصةً عندما يعتمد استقرار الدعامة الذي تسند كلارندون على الإجابة المذكورة. لم أفكر للحظة في إخباره بالحقيقة، أنهما كانا يحققان في جرائم التسول، قلتُ: «كل شيء، الفضول العلمي». لقد أسعده ذلك.

- أتوقع مستقبلًا عظيمًا لذلك الرجل دويل...، آه، لا أريد أن أقول إنني متأكد من ذلك، ولكن هناك احتمالات...، إنه رجلٌ متعلم وحازم ومحترف عظيم. أحب ذلك.

اكتشفتُ في نظرته أنه ينسب لي الأمر إلى حدٍّ كبير مما جعله يُضيف: «استمتعي بالمسرح يا آنسة!».

وفي طريق الخروج، اقتربت مني برادوك: «أريدكِ هنا لاحقًا يا آني! تذكري أنه ليس يوم إجازتكِ».

لم تكن امرأة سيئة -كما ذكرتُ- كانت وحيدة، غارقة في عالمها المعزول، كأنها وصية جيدة على كلارندون.

بدا كل شيء مثاليًّا.

باستثنائه هو، مثل شوكة في مخلب الأسد، كنت آمل أن ينصحني مرة أخرى بعدم الذهاب. لم يفعل، على الأقل وثقتُ به للتحدث عمَّا قاله لي بعد ظُهر اليوم السابق.

جميلة.

لكنه ظلَّ منغمسًا في حزن غرفته في الظلام وعزف كمانه غير الحقيقي. لم يعد يسعل، على الأقل، ومع ذلك كنت سعيدة. كان كل شيء يسير على ما يرام قدر الإمكان. صعدتُ إلى غرفتي وأنا على يقين من أنَّ لديَّ بالفعل ما أقوله...، حسنًا، لأبناء أخي عندما أصبح كبيرةً في السن. أو مَن يدري ربما الأحفاد؟ في وقت متأخر بالنسبة لي، ربما، ولكن أبناء الزوج، طبعًا ممكن أيضًا، ولماذا المرآة في غرفتي لم تكن ضبابية؟ كل شيءٍ كان يلمع في كل مكان، بطريقةٍ سحرية...، حسنًا، أعترف أنه لم يكن يلمع، الحقيقة أنني رأيتُ الأشياء بشكلٍ أكثر وضوحًا وحسب، يمكنني التمييز بشكلٍ أفضل بين تلك الزوايا التي لم أرغبْ أبدًا في النظر إليها في وجهي. استعرتُ قبعة من سوزي ترينش تناسبت مع فستاني

البسيط. وهل كنتِ تفعلين كل هذا يا آني لأنكِ ستخرجين إلى المسرح برفقة رجل وسيم حتى لو كان في مهمة تحقيق؟ لا، لقد فعلتِ ذلك يا آني! اعترفي بذلك، لأن رجلًا مريضًا قصير القامة وعنيدًا -ولكن يتمتع بمواهب لا يمكن إنكارها في معرفة الناس- أخبركِ بصدق أنه رآكِ وأنكِ كنتِ جميلة وشجاعة.

لقد شعرتُ -نعم، دعنا نقول ذلك- بشكلٍ جيد للغاية.

جميلة.

- لقد جاء...، آني، لقد جاء، هو تحت...

صرخات سوزي المكبوتة سبقتني. يا له من موقف، شعرتُ كأنني سأتزوج، والأدهى من ذلك أنَّ هيتي والترز نفسها، كانت تتجسس -أووه- من سلالم السكان بينما كنت أضبطُ تنورتي ونيللي وسوزي وجين خلفي، كحاشية، نزلتُ على سلالم الخدم. كانت هيتي تبكي وتضحك، مثلما فعلت عندما رأت جثة هاتشينز. ظننت أنني أستطيع أن ألمح بطرف عيني وجه الرئيسة برادوك -المستدير الشاحب والمتجعد- من مدخل المكتب. شعرت بالأسى من أجلها.

كانت ردهة كلارندون أكثر إشراقًا، وهذا صحيح. وصل دويل في الموعد المحدد كما هو الحال دائمًا، وهو يلوح بقبعةٍ عالية، ويرتدي معطف الأمير الصباحي ذا اللون الأزرق الداكن وحتى عصًا، ثم انحنى لي، وكما لو أنَّ هذه المشاعر غير كافية، فقد امتدح مظهري أيضًا.

- دعيني أخبركِ أنكِ تبدين جميلةً جدًّا.

إنه مهذب وليس عميقًا، على عكس السيد إكس، نوعٌ آخر من الحلوى.

غادرنا، لكنني لم أغادر تمامًا. كان ذهني لا يزال هناك، في تلك الغرفة المظلمة، أرى عينيه الكبيرتين، المختلفتين، نفس العينين، ينظر إليَّ ويراني جميلة.

-2-

سألني دويل: «هل ذهبتِ إلى المسرح كثيرًا يا آنسة ماكيري؟».

أجبتُ بشيءٍ مثل: «ليس كثيرًا، لكن بشكلٍ كافٍ». مشينا على طول طريق فراتون وسط فوضى من الغبار والسيارات، والأزواج الذين يسيرون ببطء، وفتيات ترتدين فساتين محتشمة وحجاب *الأدب*، وعمال هادئين، وأطفال حفاة الأقدام، وأصحاب متاجر يرتدون مآزر طويلة يتطلعون لرؤية كل ما كان يحدث. أتذكرها باعتبارها فترة ما بعد الظهيرة الرائعة، مع النسيم والغيوم. أتأبط ذراع الطبيب الشاب، الذي ترك نفسه ينجرف بدافع الموضوع الخاص.

- المسرح هو العالم الآخر يا سيدتي! وفي بريطانيا نحتاج إليه بقدر حاجتنا إلى الأحلام. انظري حولكِ. راقبي ذهاب وإياب الناس، العمال المجتهدين، ضباط البحرية، الباعة المتجولين، أجزاء صغيرة من الكل، العمال في الخلية الاجتماعية النهارية والحالمين في الليل. ماذا نريد؟ ماذا وراء تلك الوجوه الصادقة ظاهرياًّ؟ والسؤال الأكثر إثارة للاهتمام: إلى أين نحن ذاهبون؟

أجبتُ على سبيل المزاح: «إلى المسرح».

استقبل مزحتي بشكلٍ جيد، فالطبيب لم يكن السيد إكس.

- هذا حقيقي. (ضحك ضحكته البلورية)، لكنني كنت أسأل بشكلٍ عام.

- أعلم أنها كانت مزحة غبية، آسفة.

- النكات السخيفة هي سمة من سمات الأشخاص الأذكياء.

خجلتُ، لم يعبأ كثيرًا بـ «شكري» الدمث. تساءلتُ عمَّا إذا كانت الجنية قد باركتني ليلًا. نلتُ الكثير من المجاملات في الأيام الأخيرة.

- كنتُ أتحدث عن المستقبل يا سيدة ماكيري! هل أنتِ متفائلة؟

- أنا أكون، أعتقد أننا نعيش أفضل مما عشناه في أي وقتٍ مضى...، نحن نعرف أشياء كثيرة...، كل شيء جميل للغاية؛ المدن، الحقول...، المستقبل سيكون مشرقًا.

- احتمال. لكن لسوء الحظ، لديَّ ثقة أقل فيما حققناه.

- هذا غريب يا دكتور! مع كونك عالمًا.

- لهذا السبب تحديدًا. انظري هذه المرة بعينيَّ يا آنسة ماكيري! ماذا نفعل؟ نحن نرتدي ملابسنا من الرأس إلى أخمص القدمين حتى حين نغتسل، ولكن في المسرح نخلع كل شيء.

صححتُ له مفزوعة: «ليس نحن، إنهم ممثلو المسرح».

- آه، ولكن ما هي «المسارح»؟ نحن نسميها ذلك، ولكن ما هي؟

أجبت: «هؤلاء الـ...، الملتزمون بالعمل في المسرح».

لكن الطبيب نفى.

- لا يا آنسة ماكيري! نحن أنفسنا نستخدم الآخرين.

وبدأ في سرد الدراما، والكوميديا، والمسرحيات الموسيقية، والسخرية، والميلودراما، والأوبريتات، والمهرجانات، والسحر، واللوحات الحية، وألعاب الشطرنج ولعبة السيدة الحية، والسيرك، والبحث عن الكنوز، والساحات، ومسرحيات الواقع المخجل...، ألا تعلمين؟ هل تدركين؟

أنا، التي تذكرت داني ووترز، نظرتُ إليه.

- عن ماذا يا دكتور؟

- أننا حصرنا الوحشية، والرعب، والرغبة، *والفُحش والفضيحة* باختصار، في المسارح، حيث يذل الأقل ثراءً أنفسهم حتى نتمكن من تحمل الحياة...، لكن ذات يوم...، آه يا آنسة ماكيري! يومًا ما سيخرج المسرح من محبسه. ذات يوم سيخرج ذلك العملاق القديم، المليء بالرذائل والفجور الذي خلقناه، ينفث نارًا من أنفه ويبحث عن الضحايا.

تمتمتُ منزعجة بصدق: «يا إلهي! أنت تخيفني».

لكن ابتسامته السحرية ومضتْ مرة أخرى.

- آنستي العزيزة! حاشا لي أن أقلقكِ...، بالعكس، إنها أخبار جيدة. فحين يحدث ذلك، نعرف حدودنا. هذا ما تبقى لنا لنعرفه، قال كوبرنيكوس: إننا لسنا مركز الكون، كما قال البروفيسور داروين: إننا مجرد حيوانٍ آخر...، ماذا تبقى لنا؟ إنه التعرف على دواخلنا. صدقيني عندماً أقول لكِ، يا آنسة ماكيري! في القرن القادم، سوف يخرج المسرح إلى الشوارع بكل عنفوانه، سيكون مذهلًا وفظيعًا. لكنه سيكون كاشفًا لأبعد الحدود.

- لا أعلم إن كنت أوافقك الرأي يا دكتور! يجب أن يبقى المسرح في مكانه.

- نعم، بالتأكيد. (كان يتكلم بطريقةٍ علمية) على أي حال، يبقى المسرح حيث هو، حتى السري منه. ولا تنظري لي على هذا النحو. هل ستخبرينني أنكِ لم تذهبي إلى مسرح سري من قبل؟ آه...، اعذريني على السؤال.

- لا عليك. (ابتسمت) فعلتُ، لكني لم أحبه.

لقد كان هذا كذبًا، ولكن أي امرأة متعلمة بمقدورها أن تعترف بخلاف ذلك لرجل نبيل؟

- إذا لم يعجبكِ فأنتِ استثناء.

قلت بعد أن فكرت في الأمر: «أعرف واحدًا آخر».

ضحك على الفور دويل المستعد دائمًا الملتزم دائمًا -صديقنا المشترك، نعم، لكنه استثناء، كما نعرف- وبعد هنيهة أضاف: «سأجعله أكثر إنسانية».

- معذرةً؟

- المحقق الخاص بي. شيرلوك هولمز. رغم أن الاسم لم يعجبكِ...

- نعم، يعجبني (قلتُ على الفور) لا بأس، إنه رنان أيضًا.

- شكرًا لكِ. الحق أن السيد إكس كان مصدرًا للإلهام بالنسبة لي. لقد ابتكرت شخصيةً مشابهة لمعلمي في أثناء دراستي للطب، وهو ملاحظ عظيم، الدكتور جون بيل. لكن السيد إكس هو نوعٌ الشخصية التي أحتاج إليها. مسألة الكمان هذه مذهلة. أطفال الشوارع الذين يساعدونه...، مَن يخطر ذلك بباله؟ عليَّ فقط أن أجعله أكثر *إنسانية*. أكثر... هل أنت بخير؟ ربما أزعجتك؟

- لا، إطلاقًا يا دكتور!

- أوه، هيا يا آنسة ماكيري! أنا لا أتنبأ بنفس قدرة «مُخبرنا»، لكن لا يزال بإمكاني رؤية رد فعلكِ على كلماتي منذ لحظة.

تضايقتُ لأنني أخفيتُ إحساسي عنه، لكنني لم أرغب في إيذائه أيضًا. فكرتُ في إجابتي وحسب.

- أعتقد...، أعتقد أن السيد إكس إنسان يا دكتور!

- فلتمنعني السماء من قول ما هو عكس ذلك. أردت فقط أنْ...

- أعرف ما تعنيه، ولكني أعتقد بصدق أن لديه قلبًا، مثلي ومثلك، لكن حياته كانت مزعجة للغاية، منعزلًا عن كل شيء، بلا حب، بلا فهم...، كان عليه بناء حصنٍ ما للمقاومة.

ربت دويل على ذراعي وهو يبتسم.

- آنستي العزيزة! كما ترين، بقولي «أكثر إنسانية»، كنت أقصد أنَّ الشخصية التي ابتكرتُها لن تكون سلبية إلى هذا الحد. سأعطيك مثالًا؛ المسرح.

العودة إلى المسرح. لقد كان شيئًا حاضرًا لم يختفِ أبدًا في أي محادثة تقريبًا. لكن دويل تحدث بشكلٍ جيد لدرجة أنني استمعت إليه باقتناع.

- يا آنسة! نحن متفرجون أو ممثلون. ليس هناك مجال لأي شيء آخر في الحياة. المشاهدون يشاهدون، والممثلون يؤدون. يبقى البعض ساكنًا بينما يتحرك البعض الآخر. لهذا السبب أقول إنَّ شخصيتي ستكون أكثر نشاطًا قليلًا...، المزيد من كيان الممثل.

كان كل هذا عميقًا جدًّا بالنسبة لي. في العادة لم أكن لأجيب، لكن شيئًا ما طرأ على ذهني فجأة.

- إنه ينظر إلينا.

توقف دويل في منتصف الكلمة: «معذرة؟».

- السيد إكس، لقد أخبرني ذات مرة أنَّه لا يجلس ليشاهد العمل المسرحي، بل...، لينظر لنا، للآخرين، فالعمل المسرحي بالنسبة له هو نحن أنفسنا.

أثار هذا في دويل التعجب والتفكُّر. لقد أدركتُ ذلك.

بدا لي...، مجرد حدس، في الحقيقة لم أرَ شيئًا. أو ربما ليس بشكلٍ مباشر. ولكن من زاوية عيني، أمام الرصيف الذي كنا نسير عليه، خلتُ أنني رأيت ظلًّا يتراجع.

-3-

كان الأمر كما لو أنَّ شخصًا ما لم يرغبْ أنْ يكشفه أحدٌ عندما حركتُ رأسي في هذا الاتجاه. نظرتُ.

عربات القطار. المارة المتفرقون. أطفال يركضون.

بالطبع كانوا ينظرون إلينا. مَن في بورتسموث لا ينظر إلى الآخرين، وبالتالي ينظر إليه؟ ذهبتُ إلى هناك، يدًا بيد مع ذلك الشاب الوسيم، تحيطنا هالة من الحميمية. كانت هناك نظرات، وكلَّما بادلتها بمثلها حصلتُ على المزيد. كما يقول دويل: متفرجون أو ممثلون.

لكن هذا لم يكن ما اعتقدت أنني أدركته تمامًا.

سأل دويل، وهو شخصٌ منتبهٌ طوال الوقت: «ماذا يحدث هنا؟».

بحثتُ مرةً أخرى، دون جدوى. ربما كان محض خيال.

- لا، لا شيء...، (أجبته) إنني متوترة قليلًا، بالتأكيد.

- أنا أيضًا، قليلًا. ربما لأنَّ الأمر سيكتمل غدًا.

- ما الذي سيكتمل؟

- يكون قد مرَّ أسبوعٌ كامل.

«أوه».. فهمتُ ما كان يقصده وارتعدت. لكن السابق لم يكن...

- صحيح، لم يكن هناك ضحية، ولكن غدًا، مَن يدري. نتمنى ذلك، لكن على الرغم أنني لا أحب نظرية التناظر التي طرحها صديقنا، فربما لم يتمكن القاتل من ارتكاب الجريمة السابقة لسببٍ ما، وهو ما لا يمنعه من ارتكاب الجريمة التالية.

- إذن تعتقد أن الجريمة وشيكة.

- كما أخبرتك، أنا أثق بالسيد إكس.

- وما رأيك في...، «الشبح»؟

نظر إليَّ بما يشبه السخرية.

- إنني طبيب في القرن التاسع عشر يا آنسة ماكيري! الأشباح ليست إلا مادة للقصص أو المسرح. وبالمناسبة، أوشكنا على الوصول إلى مسرح كاريداد الخيري. يجب أن ننتبه إلى كل شيء. نوجز وهاتشينز شاركا في مسرحيات فرقة كابيلوس، لا شك في ذلك. في الاستراحات ما بين فصول العمل، سنقدم أنفسنا للسيد بيتيروسو، يجب أن نكون حذرين من أي تفاصيل قد تثير الشبهة.

تُرى هل يتبعوننا، على سبيل المثال؟ نظرتُ إلى الوراء مرة أخرى، وقد تملَّك مني الذعر.

-4-

لماذا الطراز المعماري للمؤسسات الخيرية حزين دائمًا؟ كأننا بنيناها لنحاكي سوءة ساكنيها. أو ربما حتى كيلا يشعروا بالحسد على ما لا يستطيعون امتلاكه. «نحن ندعوكم -يقولون لهم-: نُرحب بكم، ونوفر لكم المأوى والماء والطعام، ولا تتوقعوا منا أن نبهج أعينكم بمسراتٍ أيضًا. لأن هذا ليس لكم، بل هو مجرد قرض، وسيكون دائمًا قصرًا بالنسبة لك مقارنة بحياتك المشردة. لم يكن مبنى النزل استثناءً؛ فهو رمادي اللون مع نوافذ صغيرة وفناء مرصوف. ومن ناحيةٍ أخرى، تمَّ تجديد مسرح كاريداد الخيري، ولا يبدو أنه مرتبط بالعمل الخيري. كان يقع على بُعد بابين من النزل، وزُينت واجهته المرتفعة بدائرة زودياك. لقد انضممنا إلى صفوف أهل بورتسموث الطيبين، الذين يتألف معظمهم من رجال العسكرية البحرية. السيدات -في رأيي- كنَّ يحاولن تقليد الموضة اللندنية؛ ارتدت أصغرهنَّ وأجملهن الفساتين اللائقة النموذجية للعاصمة. من جهةٍ أخرى راقبت الشرطة المشردين، وفتيات الزهور، والنساء مع الأطفال الرضع والأطفال الذين يمدون

أذرعهم بأيدٍ مفتوحة من جميع الأحجام، بعضهم بيد مبتورة الأصابع الخمسة، والبعض الآخر بما يصل إلى ستة أصابع، وأحيانًا جذوع فقط، الخير في العمل الخيري. والسلطات تُراقب ما بين صخب الطلب والعطاء. أخرج دويل بعض العملات المعدنية، أُغلقت الأيدي وانفرجت بعض الأفواه بامتنان.

كان الملصق الضخم للمسرحية مثبتًا على حامل ذي أربع أرجل، يسدُّ الطريق تقريبًا. وقفت أنظر إليه بينما كنا ننتظر العرض.



مسرح

سانت ماري الخيري

فرقة

كابيلوس

في

مسرح الرعب

محاكاة ساخرة، وفنون مسرحية

(تقليد، رقص، موسيقى، أغاني)

التراجيديا العظيمة

يوليوس قيصر

و. شكسبير

صياغة السيد س. بيتيروسو



كان هناك أدنى الإعلان إشارة على لافتةٍ صغيرة أخرى، كما لو تمَّ لصقها في اللحظة الأخيرة: «تخليدًا لذكرى السير جورج إيربنجال (1820-1882).

علَّق دويل: «من الواضح أننا لن نشعر بالملل».

كان هذا آخر شيءٍ يمكن أن يقوله لي على انفراد.

كانت هناك طاولة في الردهة، ووقفت امرأة في منتصف العمر، قام رجل كبير في السن -متطوعون بلا شك- بتقاضي ثمن البطاقات بعد كشف الدعوة. في تلك اللحظة، رأيتُ الشهرة التي كان يتمتع بها الطبيب الشاب بالفعل. كان المسؤولون عن مداخل القاعات يعرفونه، إضافةً إلى ما لا يقل عن ثُلث الجمهور المتجمع عند الباب. «دكتور دويل» أو «دكتور» أو «مرحبًا دويل» في كل مكان، وعلى الرغم من أنني لم أعرف أبدًا كيف حصل على تلك الشعبية، فإن الطبيب الشاب تمكن من الرد على كل تحية كأنه سياسي بارز شهير. في البداية، ويُحسب له ذلك، كانت هناك محاولة لتقديمي. «ممرضتي ومساعدتي». لكن سرعان ما تجاوزت الأيدي والابتسامات والمراسم قدرته على أن يأخذوني في الاعتبار. هذا أفضل بالنسبة لي.

لا شيء يُضاهي التحيات الاجتماعية حتى لا يلاحظها الناس العاديون.

ألقيت نظرةً أخرى وراء ظهري. جاء المزيد من الناس، لكنني لم أعد أشعر أنهم يراقبونني. بيدَ أنَّ دويل لم ينسني تمامًا. أمسك ذراعي بيده. عبرنا مثل موسى في وسط بحر مموج بالمجاملات.

همستُ «أنت شهير».

- مضطرٌّ إلى ذلك.

الصالة التي دخلناها كانت أصغر مما تخيلتُ، كل هذا الحشد أمام الستار الأحمر على خشبة المسرح نصف الدائرية. رائحة الخشب والتبغ الزنخ وأهل البحر ذوو السوالف الطويلة والغليونات المقوسة. أعتقدُ أننا قطعنا الطريق وسط نصف أهل بورتسموث للوصول إلى أماكننا، ولم يتمكن دويل من مقاومة سيل التحيات الجديدة -السيد هامرسميث، والكابتن تريلاوني- والتي لم تكن أكثر من مجرد صراع بينما نحاول الوصول. أكثر ما جذب الانتباه؛ كاهن كاثوليكي ذو شعر أبيض نقي وثوب أسود للغاية يُحرك جسده المتقزم مبتسمًا بكل بشرته الحمراء. حيَّاه دويل: «أيها الأب فيليبوتس! يا لها من مفاجأةٍ سارَّة».

- حسنًا، ولي أيضًا. (ضحكا، لكن علامات الجدية كستْ وجه القس على الفور) الأب إيفانز كان على وشك الحضور، لكنه لم يتحسن. وعندما رفضتُ الدعوة نيابةً عنه، دعتني مؤسسة كاريداد الخيرية. لم أستطع أن أقول لا. (عاد إلى مرحه بعد اللحظة الجدية) هل ما زلت تحاول النيل مني يا دكتور؟

- دائمًا يا أبي!

- سأنتقم منك في إحدى المباريات هذا الثلاثاء، حوالي الساعة الرابعة.

- سيكون ذلك من دواعي سروري.

ابتسمت بينما كنت عالقة بين الرجلين. لم يكن لدى دويل خيار سوى تقديمي. إنه الأب تشارلز فيليبوتس، الذي يمثل تهديدًا للفريق الأبيض. ليس كثيرًا إذا كان مع الفريق الأسود -ضحكا. كان حاجبا الأب فيليبوتس الكثيفان يشبهان القطن المندوف حين يرفعهما.

- نحن خصمان لا يرحم أحدهما الآخر، لكن فقط في لعبة الشطرنج. ثم يمكننا تناول الشاي معًا والدردشة كأصدقاء.

كانت هناك أصوات خلف الستار. قال دويل: وداعًا، «أنا سعيد أنك حضرت. سأذهب يوم الثلاثاء وأُلقي نظرة على الأب إيفانز. اسمحْ لنا...».

أفسح لنا الكاهن الطريق، كان ينتظرنا مقعدان خاليان. جلسنا على الفور لحظة بدء العرض تقريبًا.

-5-

أقول هذا لأنَّ الستارة رُفعتْ وحسب. حافظ المكان على عادة إبقاء الصالة مضاءة. ومن ناحيةٍ أخرى، كانت الأضواء تعمل بالغاز، وليست الأقواس الكهربائية التي كانت رائجة بالفعل في فندق سافوي أو هايماركت في لندن. مثل هذه الابتكارات لم تصل إلى بورتسموث بعد، أو على الأقل إلى المؤسسة الخيرية. يُضاف إلى ذلك أنَّ الجمهور لم يتوقف عن الحديث بصوتٍ عالٍ، رغم أن هذا حدث أيضًا في العديد من الصالات في العاصمة. دخل رجلان متسولان، نعم متسولان، ودفعني دويل بطرف كوعه قرع الطبل -بوم، بوم، بورمبوم- آخرون، المزيد من المتسولين يرتدون أثمال الخيش وقرعت الأبواق بوو، بوو، بوو.

كان الديكور عبارة عن الجزء الداخلي لسيارة قطار. مُصممًا بشكل جيد جدًّا، كان المشهد يتحرك من وراء النافذة، احتفل الجمهور به –أوه، آآآه– اصطفت المقصورات على كلا الجانبين، بإضاءة مركزية. المقاعد التي يستلقي فيها الممثلون مثل الدمى. ومنهم رجل سمين. تعرفت عليه على الفور، على الرغم من أنه كان ذا لحية سوداء وقبعة أرجوانية ومعطف. لقد كان الرجل من المطعم، السيد بيتيروسون، يجلس بجانب رجلين يرتديان ملابس رمادية. وإلى جانبه حقيبة كبيرة جدًّا موضوعة على الأرض، كُتب عليها: «**فرقة كوبيلوس**».

كان السيد بيتيروسو ممثلًا صامتًا ماهرًا، يتمدد على بطنه، مما يعني ضمنيًّا «أنا نعسان»، «أنا نائم». كان كل شيء مليئًا بالدخان. هل حلم بيتيروسو مدير الفرقة؟ بيكولو استبدل الطبول ثم...

لا أعرف إذا كنت قرأت هذا، وهو أمرٌ معتاد في المفاجآت المسرحية. هذه كانت فكرة جيدة، فتحت الحقيبة وخرج منها *أشخاص*. كان هذا مستحيلًا، لأن الفراغ الداخلي، على الرغم من كبره، لا يتسع إلا لطفل أو قزم، في البداية كان لونه أحمر دمويًّا، ثم الريش والحجاب من اللون نفسه. وخلفهم كانت هناك شخصيات مثل الأشباح يحيط بها الدخان الذي ملأ كل شيء في تلك اللحظة. تشبثت بذراع الطبيب بخوف، ظهر رجل وفتاة صغيرة جدًّا. كان يرتدي زيًّ كاهن غريب، سترة حمراء، متبرجًا بمساحيق الزينة وله لحية أيضًا، لكن بدا لي -بسبب بشرته- أنه يمكن أن يكون رفيق الرجل الجيفي الذي كان يرتدي القبعة المخروطية مع بيتيروسو. وهو...، أعتقد أنكم خمنتم ذلك أيضًا. كان من الصعب معرفة ما كان يرتديه -إن كان يرتدي شيئًا على الإطلاق- قطع ضيقة من الشيفون على جسم أبيض يتحرك بإيماءاتٍ أفعوانية. وخلفهم المهرجون الذين ذكروني بالسيرك. مشاهد عجيبة، وأذرع ذكورية كثيرة متشابكة مع أيادٍ أنثوية.

الفتاة لم تكن ترقص. كانت تتلوى في الدخان كما لو أن المساحة ضيقة جدًّا بالنسبة لها. كان المشهد كأنه تنويم مغناطيسي. لم يبدُ أنَّ الطبول والمزامير تتبع الرقص، بل كان لها إيقاعها الخاص، لا أعرف إذا كان ذلك خطأً، لكنه ساهم في تفاقم الفوضى.

كنت خائفةً. لكن الدكتور دويل. استمتع بالعرض.

- المسرح...، (أشعلَ غليونًا فيما يعقد ساقيه وهو يطلق أنفاسًا كثيفة من الدخان). هل رأيتِ؟ وُلد كطقوس دينية وعربدة...، وبعد

غموض القرون الوسطى عادت في عصر النهضة...، وأصبحت عظيمة في بلادنا. لا بدَّ أنَّ هذه هي الملكة إليزابيث.

لقد توجوا الفتاة بشعرٍ مستعار. أحاط الراقصون بالرجل الهزيل الذي كان يرتدي الآن ثوبًا مزدوجًا وبنطلونًا أسودَ ممسكًا بجمجمة في يده، مما أثار ضحك الجمهور، حيث فهمنا شيئًا ما أخيرًا. كان شكسبير يكتب مسرحيات مبنية على تلك الرقصات والطقوس السحيقة.

حتى دويل نفسه اضطرَّ إلى التزام الصمت عندما تسارعت الطبول في الإيقاع، وضاعت في ضجيج الألوان، ولم يعد هناك قطار. أصبح الديكور في تلك اللحظة خياليًّا، بأرضية مُبلطة باللونين الأحمر والأبيض، كانت الفتاة ترتدي ملابس أفعى من الريش الأحمر، وتدور بينما تحولت الفرقة إلى رجال من العصر الحديث، يتقافزون في المقاعد، وعبر النوافذ بجنون، ثم تدفقت المناظر الطبيعية مرة أخرى، ثم صارتْ شيطانية. الفلوت والطبول قدموا كل ما لديهم. واندلعت الجوقة:

العالم مشهد مسرحي،
الرجال والنساء، الممثلون،
يصولون، ويجولون وراء الكواليس،
هو ***مسرح الرعب.***

أخفتِ الدائرة الراقصة، تطاير الريش الأحمر كما لو أن دائرة الرجال ينتزعونه منها. ولكن عندما توقفوا أخيرًا وابتعدوا، كان ما كان في وسط الدائرة هو الرجل المختبئ خلف قناع شيطاني؛ رفيقه النحيل. كررت الجوقة صيحاتها المدويَّة. وفي الوقت نفسه، بدا أن عربة القطار المفترضة توقفت. وتوقفتْ أيضًا المناظر الطبيعية في حلقة لا نهاية لها.

ألعاب نارية تصم الآذان، انزلق خلالها بعض الراقصين وأحد المتسولين يضرب على طبل -مرتعدًا من الخوف- مما تسبب في ضحك عصبي. وفي النافذة، علامة «بورتسموث». بقي الممثلون الذين ظهروا في البداية، واستيقظ بيتيروسو. كان القطار قد وصل إلى المدينة بجنونه الهمجي، تمامًا كما فعلت شركة كوبيلوس وبيتيروسو قبل سنوات.

أُسدلَ الستار.

علَّق دويل على العرض: «مدهش. إنه تاريخ الفرقة، رحلتها للوصول إلى بورتسموث، لكنه في الوقت نفسه، تاريخ المسرح حتى عصرنا هذا...، عجيب جدًّا».

«هل أعجبكِ ذلك؟»، سألني بينما نصفق.

- لا أعرف ماذا أقول.

لقد كنتُ أهتز، نعم ولكن كيف أقول رأيي في كل ذلك؟ لم أكن أُجيد إبداء الآراء حول الفن. ومن ناحيةٍ أخرى، بدا دويل سعيدًا. ودعاني لمرافقته. كما ظهر الأب فيليبوتس وهو يهز رأسه.

- رائع. رائع. عظيم. لكنني لم أفهم أي شيء.

نظر إليه دويل بضحكته البلورية وقدم ذراعه لي.

- تعالي معي. سوف نعرف دواخل الوحش.

قادني نحو باب جانبي صغير يؤدي إلى ما وراء الكواليس. لم أرَ ذلك قط، كانت مساحة كبيرة مظلمة تفوح منها رائحة الخشب والحديد، والبكرات والسقالات والروافع والإطارات. يمكن سماع أصوات فريدة من هذه الأشياء، ولكن أيضًا أصوات أخرى أكثر غرابة. على سبيل المثال، بكاء طفل أرضعته امرأة كبيرة جالسة في زاوية مظلمة. كان هناك متسولون، وبعض المقعدين، كانوا مشغولين بتغيير شريط منظر

العربة لديكور مشهد أخر. ضغطتُ ذراع دويل الذي بدا مستمتعًا. لم يكن الأمر ممتعًا بالنسبة لي على الإطلاق. يمكن أن يكون السحر فظيعًا، لكنه قد يكون رائعًا أيضًا. الحيلة -من ناحيةٍ أخرى- فظيعة. بالنسبة لي، كان الأمر بمنزلة اكتشاف أن السعادة الضئيلة في حياتك، عندما تنظر إليها من الخلف، تحتوي على حبال وبكرات وألواح تحمل جدارًا زائفًا وحسب.

لقد رأينا بيتيروسو على الفور. لم تعد له لحية بعد الآن، يرتدي سترته القرمزية، وبرفقته إحدى الراقصات، لكنها ابتعدت عندما اقتربنا. قال دويل وهو يقدمنا: «تهانينا أستاذ!». انتفخ صدر بيتيروسو. كانت عيناه مغروستين في كيسين منتفخين مكتنزين، ولكن خلف هذين الجفنين المزدوجين نظرة ثاقبة. لامبينيو، بدا غريبًا عن العالم والأشياء، لكنه في الوقت نفسه أكثر واقعية. لقد وجدت أنَّ الشعور المزعج الذي يأتي من النظر إلى المسرح من الخلف يشمل أيضًا الناس. مددت يدًا مرتجفةً، لقد فعل شيئًا غير متوقع؛ وضع يده على يدي، ولفها بالكامل بالآخر مغلقًا أي فراغات. كانت يداه سميكتين مثل الإسفنج تقريبًا.

- إذن أيتها الممرضة...، (كانت نبرة صوته هامسة ولكنها جادة، مثل نغمة الترومبون. لغته الإنجليزية غريبة ولكنها مفهومة). رائع. ألم الإنسان. الرحمة. هل أعجبكِ عملنا الأول؟

«نعم،» أسرعت لأجيبه محاوِلة جذب يدي اليمنى الأسيرة. وواصل احتجازها كرهينة، كان يقول نعم لأي شيء يريده.

وأخيرًا سمح لها بالإفلات. ظلَّ ينظر إليَّ -لم يسبق لي أن رأيت ممثلًا محترفًا عن قُرب- أكدَّ لي أخي -الذي اعتاد طلب التوقيعات من ماكريدي وهنري إيرفينج- أنهما شخصان من نوعٍ مختلف. لقد خطوا خطوة إلى عالم المجهول، كما أخبرني، كانوا لا يشبهون أي إنسان آخر.

لكنني اعتقدت أنه كان يبالغ. كان بيتيروسو -بكل بساطة- رجلًا متين البنية.

- نحن فرقة صغيرة، لكننا وجدنا عُشّنا هنا...، في البداية كنا في القطار.

سألته: «في القطار؟».

استدرك دويل: «يقصد متجولين».

هذا ما كان يشير إليه، القطار. ومن هنا أتى ديكور المنظر الذي رأيناه، قال بيتيروسو إنها كانت في الوقت نفسه قصة فرقته المتجولة وقصة «الفن المقدس» -هذا ما أسماه دائمًا من مكانٍ إلى آخر- هذا هو أكثر ما أحبوه في إنجلترا، القطار. أعتقد أنه قال نحن نحب هذا البلد لأنه يضم العديد من البلدان. وفي مؤسسة كاريداد الخيرية أعطوا العمل للمحتاجين. الفائدة لحقت بالجميع.

حدَّد دويل -بينما يرفع حاجبه- «مثل هذين المسكينين هاتشينز ونوجز؟».

كستْ موجة من الحزن اللامتناهي تعبيرات وجه بيتيروسو لهذه الذكرى.

- نعم، يا للتعيسين! مَن بإمكانه أن يكون بهذه القسوة معهما؟

أجاب دويل: «هذا ما يتساءل عنه كل سكان بورتسموث».

«أتمنى أن يقبضوا على هذا الشقي الذي فعل *بهما* هذا». لم يكن يتحدث الإنجليزية بشكلٍ مثالي، ولكن كانت لديه طريقة معبِّرة كثيرًا، كانت يداه منطبقتين في قبضتين عندما قال ذلك.

قادنا عبر السقيفة -أنا على اليسار، ودويل على اليمين- ونزلنا إلى الطابق السفلي حيث أظهر لنا كيف جعلوا الناس يخرجون من الحقيبة

باستخدام منصة ذات رافعات، ترتفع لأعلى ولأسفل. شيءٌ باهر، لكن كان من المستحيل التنفس في هذا المكان، وكنتُ ممتنَّةً للعودة إلى الطابق الأول. ثم لفت انتباهي شيءٌ ما: غرفة خشبية صغيرة بارزة من الجدار، لقد خرج شخصٌ ما من باب حجرة ولم يبدُ أقل خوفًا مني. لقد كان المساعد والممثل -الذي يبدو كجثة- صاحب القبعة المخروطية، المجري. قلت لنفسي -أوحتْ لي صلابته ونظرته المتوهجة وتكشيرته-: ماذا تفعل هنا؟ وسرعان ما أغلق الباب الذي تركه. لكن الفتاة خرجت من خلفه. قال لها الرجل شيئًا، فنظرتْ إليَّ وأغلقت الباب فجأة. لقد حدث لها شيءٌ ما. وعندما لاحظت الرجل النحيف بشكلٍ أفضل، ظهر ذلك عليها، ولكن بدرجةٍ أقل.

دعاهما بيتيروسو. قال: «قسطنطين». كلاهما اقترب.

- د. آرثر دويل وممرضته ومساعدته الآنسة آني ماكيري. هما، قسطنطين وأبيجيل. (ذكر لقبَي العائلة، لكنني لم أتمكن من تذكرهما، ويخامرني الشك أنه كان قادرًا على نطقها في ذلك الوقت) يأتون من وسط أوروبا.

لقد اندهشتُ للغاية لدرجة أنني بالكاد أستطيع أن أومئ برأسي.

على المسرح كان أمير الموت وراقصي الطقوس المحرَّمة، والأداء في المطعم كان أيضًا جذابًا ومغريًا.

لكن الآن، هناك، أمامي، قريب جدًّا لدرجة أنني أستطيع لمسهم...، لقد كانوا صبية بالغي النحافة...، وفتاة شابة سقيمة، شعرها قصير، وتبدو مثل عاملة مصابة بالسل من عاملات مصانع النسيج، ولم تكن لتسترعي انتباهي فأعاود النظر إليها.

كانت صبية شاحبة البشرة إلى حدٍّ ما، وتعاني حبَّ الشباب. تُرى أينَ ذهب «الرجل ذو القبعة المخروطية» و«الراقصة ذات الرداء الأحمر»؟

من غير الممكن أن يحدث هذا.

سأل بيتيروسو رافعًا حاجبيه: «هل يزعجكِ شيءٌ ما آنسة ماكيري؟».

- لم أتخيل الأشياء على هذا النحو.

جلجلتْ ضحكة عالية -وهو ما جعلني أشعر بالخجل- وشارك بها دويل.

قال دويل معتذرًا: «إنها المرة الأولى التي تلتقين فيها أشخاصًا من المسرح خارج المسرح».

- أوه فهمت. (وترجم بيتيروسو بلغة غير مفهومة للشابين اللذين ضحكا مرةً أخرى) المسرح يُغيرنا يا *مدام*!

تجاوزت هيئتها المتحولة كل ما أستطيع فهمه. هذا الشعر القصير بدا مثل...، غريب جدًّا الآن. كانت منحنيات جسدها -وهي تتثنى وتتموج عندما تمشي بالكاد- ملحوظة على جسدها الصغير، ارتدت ثوبًا أبيض بسيطًا، أبرز جسدها المسطح -دون تفاصيل- تشريحية ملحوظة، مما جعل المرء يظن أنها لم تتجاوز ثلاثة عشر عامًا. ومع ذلك -الشيء الأكثر إثارة للاهتمام- فكرتُ في الأمر لاحقًا، ما الذي دفعني لأدرك -دون أدنى شك- *أنها* هي فتاة المطعم والرقصات؟ هل هي النظرة مثل نظرة بيتيروسو أو قسطنطين، والتي ظلَّت ثابتة ومشرقة؟

تمتمتُ: «عذرًا، أشعر كأنني رأيت أشباحًا».

قال دويل: «لقد رأيتِ أشباحًا بالفعل...، ما كان على المسرح مجرد أشباح خلقتِها أنتِ نفسك. (استمع بيتيروسو ورفاقه وأومأوا برؤوسهم موافقين)، يظن الناس -خطأً- أن رؤية الخدعة أو مقابلة الفنان المسرحي دون مكياج يُريح الضمير، والعكس هو الصحيح. إن معرفة سر الغموض -الذي يعتمد على خلفيات مزدوجة، أو أشخاص عاديين-

يزعجنا بشكلٍ يتجاوز ما يمكن احتماله، ذلك لأنه يوضح لنا أنَّ كل كائن وكل شخص لديه مسرح في داخله. الأمر لا يتطلب سوى قطعة خشب مطلية أو لافتة لتحدث المعجزة».

وسط الإيماءاتِ والتعليقات حول رأي دويل، أشرتُ إلى الباب الصغير الذي خرج منه قسطنطين وأبيجيل. سألتُ بنبرةٍ عادية: «ماذا يوجد هناك في الداخل؟».

- سيستأنفون العرض، (أعتقد، قال بيتيروسو على عجل، دون أنْ يُبدي أي إشارة إلى أنَّه سمع ما قلته)

جذب يدي مرةً أخرى: «إنها يد ممرضة. هل أنتِ قابلة؟».

- ممرضة في مصحة.

ترك يدي: «أوه».

فيما نغادر المكان ألقيت نظرة إلى الوراء؛ كان المساعد النحيف يراقبنا. فالعرض التالي أطول وأكثر سخونة، ولكنه أكثر قابلية للفهم.

كان للقيصر لحية، ولم أجد أي سبب يمنعه من إطلاق لحيته. أحاطت به جوقة الممثلين في لحظةٍ ما وهم يحملون السكاكين. ومع كل طعنة سكين تقرع الطبول. وبشكلٍ غريزي، لم يسعني سوى التشبث بيدي المرتعشتين بذراع دويل القوية. *سبعة أيام، وستة جروح، ومتسولان؛* هذا ما رددته لي ذاكرتي عندما سقط الرجل ذو اللحية، ورداؤه مليء بالجروح.

عرفتُ النهاية. يموت قيصر، وبروتوس، وكاسيوس أيضًا، أنطونيوس الذكي، لا يموت.

في طريق العودة إلى المصحة، أخذت نفسًا عميقًا من نسمات الليل البحري. شعرت بالدوار وأردتُ القيام بجولة. تردد صدى خطواتنا في

الشارع المهجور. وطقطقة عصا دويل، الذي كان انتابه القلق عندما رآني قلقةً.

- نحن الذين نعرف الرعب الحقيقي لمسرح الحياة، المستشفى. لماذا يجب أن نهتم حتى بعالم أضواء الغاز والأزياء؟

سألتُ كما أنني أوجه السؤال لنفسي: «ماذا سيكون خلف هذا الباب؟».

- أي باب؟

أخبرتُ دويل عن مظهر الرجل الهزيل والفتاة العارضة، وسرعتها الغريبة في إغلاق ذلك الباب حين رأتني.

- غرفة حمام الرجال. (ضحك دويل بمفرده على المزحة التي أطلقها) اغفري لي الدعابة غير اللائقة، بالتأكيد، شخصٌ سري.

- هل هناك أشخاص سريون في مؤسسة كاريداد الخيرية؟

- إنهم موجودون في كل مكان. نحن الإنجليز نحتاج إليهم أكثر من أي شخصٍ آخر. ولكن إذا كنتِ ترغبين في معرفة ذلك، سأبحث في هذا الأمر مرة أخرى. بالتأكيد يحصلون من خلاله على الفوائد التي لا تمنحهم إياها الصدقة. على أي حال، لا يبدو لي أن بيتيروسو أبدى أي قلق عند ذكر اسمَي نوجز وهاتشينز.

استمعت بنصف ذهن إلى مناقشات الطبيب، لأنني التفتُّ لأمعن النظر في الأزقة المنعزلة. عاودني الهاجس بأن هناك مَن يتبعنا بإصرار.

ظلٌّ، جلبة، أرجعت ذلك إلى المشهد الذي رأيناه، واختفى عندما وصلنا إلى المنطقة المضيئة في متنزه كلارنس. من جهةٍ القلعة الغامضة، ومن ناحيةٍ أخرى، الرصيف، وبينهما أسطح كلارندون الهولندية. كان دويل لطيفًا بما يكفي ليرافقني إلى هناك. افترقنا عند البوابة، وودعنا -ليلة لا

تُنسى، أنت لطيف جدًّا يا دكتور!- ثم رأيته يعبر الشارع ويختفي أثره على طول طريق النصر.

كانت الليلة باردة ورطبة، والبحر هائج كما لو كان يحشد طاقاته لهجومٍ ما. بيدَ أنني لم أستطعِ الذهاب إلى السرير في تلك اللحظة. احتشدتْ كل تلك المشاعر معًا، وأيضًا في خاتمة المسرحية...، لأنكم ستتذكرون أنَّ ذلك كان اليوم الذي قلتُ فيه وداعًا إلى الأبد لروبرت ميلجرو -في تلك الأثناء كان قد قرأ رسالتي بالفعل- كان ذلك لم يكن كافيًا، فقد حضر عرض كوبيلوس واكتشف بابًا مخفيًّا وغامضًا، والتقى ممثلين بلا جسد من أشباح المسرحية. كل تلك المشاعر مجتمعة.

وفي النهاية، ولا يقلُّ ذلك أهمية.

جميلة.

هل هذا هو ما قاله لي؟ أردتُ ان أتذكر الكلمات نفسها، مثل طفلة تتذوق طعم بسكويت ميري ويزر اللذيذ، وتحاول الإبقاء على مذاقه الحلو أطول وقتٍ ممكن في فمها.

-6-

فعلتُ ما اعتدتُ فعله. كانت هذه عادةٌ في داخلي بالفعل. تجوَّلتُ حول جدار كلارندون، ثم دخلت الشاطئ، ودفنت حذائي في الرمال. يشبه البحر في الليل الوحش المظلم المزين بهالة من اللون الأبيض. كان الجو باردًا تقريبًا، لكن الطبيعة كانت تعوِّض أجواء المسرح الضبابية وثرثرته. نظرت نحو الواجهة الخلفية.

النوافذ مفتوحة وبعضها الآخر لا. لكن الوحيد الذي أسدلت ستائره كاملةً هو ذاك الجفن الوحيد المغلق.

إنها مجاملة خالصة، آني!

لا، هو ليس بالرجل المعتاد على المجاملات. هكذا *رآني*. الدهشة كانت واضحة على ابن عرس هذا، فعيناه الصغيرتان لا يمكن أن تكونا صغيرتين إلى هذا الحد بعد كل شيء. ذقنه غائر، نعم، لكن الأمر برمته يمكن أن يكون ممتعًا. والبكاء لم يجعلني أبدو قبيحة، البكاء أحزن من قدر شخصي.

لم أكن مثل تلك التي علموني أن أكونها -كما قال الآخرون دائمًا عني- نحن لسنا كذلك أبدًا.

تغيرت حياتي في غضون أسبوعين في كلارندون. رافقتُ شابًّا جذابًا وأنيقًا جدًّا إلى المسرح، ورجلًا آخر -ذكيًّا جدًّا مجنونًا- يعاني مشكلاتٍ عقلية، نعم، لكن *الأكثر* ذكاءً على الإطلاق المجنون، لكنه امتدح هيئتي. وتعاونتُ أيضًا في التحقيق في بعض الجرائم، لا ينبغي أنْ ننسى ذلك.

كانت تلك الليلة، كان من المفترض أنَّه إذا استمرتِ الدورة، فسيكون هناك موتٌ آخر في تلك الليلة.

التفتُّ ورأيتُ المكان الذي كان من المفترض أن يختبئ فيه كوينتين سبنسر وحبيبته الآثمة، وشاهدا منه هاتشينز في حالة سُكر، سمعا وشعرا بأشياء غريبة. حجبتِ الأشجار الرؤية واكتمل القمر تقريبًا فيما تحيط تيجان الأشجار بالفضة. طريق مثل مرآة على الأرض يُفضي إلى هناك.

أثارَ كل ذلك اهتمامي، مَن قتله، أو لماذا قتله، ولم يترك أي أثر سوى ضحكة وبرد طفيف، وألقى السكين بالقرب من الجثة؟ كيف كان بالإمكان ألا يرى سبنسر ولا سيدته أي شيء؟

لقد بدا شيئًا خارقًا للطبيعة بحق.

اقتربتُ ورفعتُ حافة تنورتي. تذكرتُ موقع الجثة، كما لمحتها من كلارندون، لا بدَّ أنها كانت هناك. زاوية وحيدة في ذلك الوقت. فكيف يتخيل القاتل أنْ يكون هناك شاهدان بالقُرب منه بين الأشجار؟ لكن حتى هما لم يريا شيئًا، هاتشينز حيًّا، وهاتشينز ميتًا. لأن...؟ كيف كان ذلك ممكنًا؟ لقد كانت خدعة، ظاهرها غير باطنها. والسيد إكس المسكين -الذي تسلَّط عليه الهوس أن يدعوه شيرلوك هولمز، وأن يعرف حقيقة ما إذا هاتشينز احتسى الشراب (يا إلهي!) -لم يذكر حتى هذا الاحتمال. كما لو كان يؤمن بالأشباح الحقيقية. ولكن لا بدَّ أنَّ هناك خدعةً ما.

شيء إذا نظرنا إليه عن قُرب سيكون غير مفهوم مثل قسطنطين وأبيجيل. لا بدَّ أن السركان شائعًا، ولكن ما هو؟

استحوذت عليَّ الرغبات الاستقصائية للسيد إكس -أو شيرلوك هولمز- ولجتُ وسط مجموعة الأشجار الصغيرة القريبة من الشارع. مكان جيد للاختباء، حيث كان باستطاعتي رؤية الشاطئ تتخلله جذوع الأشجار. ربما القاتل كان مختبئًا في...

أحسستُ بحركةٍ في جذع الشجرة موجودة على يساري.

انتفض قلبي.

لم يكن هناك شيء، مجرد أشجار ساكنة وصنوبر، بينهم كتلة مبنى كلارندون عن بُعد.

ومع ذلك، لم أهدأ. حاولوا أن تكونوا في مكانٍ ما مظلم وغير مأهول على ما يبدو، وسوف ترون أن مجرد التفكير في الاحتمال البسيط -لوجود شخصٍ ما هناك- يمكن أن يتحول إلى رعبٍ خالص. وفجأة

تتوقف الأشجار عن كونها أشجارًا. مثل قسطنطين وأبيجيل؛ أشياء بدت مختلفة من بعيد. كانت الأشجار مثل ممثلين على المسرح، الآن كانوا يغادرون، انتقلوا، لقد خلعوا أزياءهم مع أصواتِ حفيف. لم تعد أشجارًا بل أشياء أخري.

رجعت خطوات إلى الوراء وأنا أقول لنفسي: أنا متوترة.

هذا كل شيء.

كانت كلارندون على بُعد حوالي مئتي ياردة. ومن السهل الوصول إليها هناك.

سلكتُ طريقًا مختصرًا على طول الجادة بدلًا من السير على طول الرمال. على الجادة، كان هناك المزيد من الضوء. حين غيرت الاتجاه، اندفع شيءٌ ما نحوي، وبقوة الدفع المروعة، جعلني أسقط على ظهري. وقد حال الرب دون أن تكون هناك شجرة تصيبني في مؤخرة رأسي. لم أجد سوى الرمال الناعمة والشجيرات، ولكن بحلول الوقت -الذي عرفت فيه ما كان يحدث- كان الأوان قد فات.

-7-

من فوقي، على مسافةٍ لا نهائية، بساقين متباعدتين، انتظرني أن أستيقظ.

- فلننتهِ من كل هذا. (قال بصوتٍ أجش) خذي حقيبتك. سنغادر الآن.

كان يلهثُ أكثر بكثير من المعتاد، حتى أكثر مما كان عليه عندما كنَّا في علاقةٍ حميمة، لكنني شككتُ في أن مرجل الكحول الناري يحرقه في الداخل. بدا الأمر كأن حنجرته متفحمة.

نظرتُ حولي بينما وقفتُ ممسكةً بقبعة سوزي. كنا بمفردنا. لم يكن أحد يرانا، لن يأتي أحد، لن يسمعني أحد إذا صرخت. روبرت وجيرنسي[1] القديمة، وجهه يتوهج بالمجد الجهنمي إثر احتساء البراندي، لوسيفر السكارى. وجهه بالهيئة نفسها عندما يستحوذ عليه الخمر، نظر إليَّ بعينين منحرفتين، وظهرت شفتاه من خلال شعر لحيته الكثيف. كأنه يقول لي: انظري كم يمكن أن أكون فظيعًا.

جذبني من صدر فستاني وفي تلك المرة صرختُ: بروووو...، حملَ البحرُ صرختي بينما يدفعني نحو جذع شجرة.

- لم أصدق...، رسالتكِ...، أنتِ يا...، ملكة البحار (شهقَ) لم أصدق...، ماذا...، وكنت على حق. لم يكن أنتِ. إنه السيد الشاب أنيق، وسيم. هل هو...، لهذا السبب تريدين البقاء. لهذا السبب ركلتني.

فكرتُ، لا بدَّ أنَّه كان يلاحقنا. لقد كان مزروعًا في كلارندون -كنت أعرفه جيدًا- ورآني أخرج مع دويل. لا بدَّ وأنَّه قضى فترة ما بعد الظهر بأكملها في متابعتنا وجمع الفحم للمرجل الكبير. كاد فواقه المتتالي أن يرفعه عن الأرض، رفعتني يده القابضة على صدري ورفعتني.

- انظري كيف أنا، من ناحيةٍ أخرى، أيتها الملكة...، أنا أسامحكِ. على كل شيء. اذهبي الآن لتجمعي الأغراض الخاصة بك.

- هل...، كنت تتبعني؟

أطلقتُ السؤال الواضح للحصول على الإجابة الواضحة. وقد أصابتني أنفاسه بالدوار.

---

(1) إحدى الجزر القديمة. (المترجمة)

- بالطبع لقد تبعتكِ أيتها العاهرة! لقد جئت إلى كلارندون لرؤيتكِ، وماذا وجدتُ عند الباب؟ أنتِ، على ذراع ذلك الرجل، لقد اتخذت الخطوة، *الخطوة*، وهذا ليس سيئًا، هه؟ من بحّار من الدرجة الثانية إلى قائد الدفة من الدرجة الثانية. الرجل العجوز الفقير روبرت ميلجرو لا علاقة له بالطفل الصغير آرثر كونور دويل -لم يهتم بأنه كان مخطئًا، ولم أصحح له- آه...، هل أثير دهشتكِ الآن؟ هل ظننتِ أنني لن أعرف مَن كان يأخذ حبي على ذراعه؟ في البحر نقول: «وأنا أيضًا معي كتاب صلواتي»، أيتها الملكة! لقد كان سهلًا، الجميع في بورتسموث يعرف هذا الرجل.

- إنه مجرد صديق.

- صديق ذهبتِ معه إلى المسرح بعد أن قلتِ لي: روبرت! ارحلْ.

- لا تصرخ.

- ماذا؟

- لا تصرخ.

لكنني اعتقدت أن ما قلته كان غبيًّا. أو اصرخ كما شئت.

يا إلهي!

- لن أصرخ. اذهبي لجمع الأشياء الخاصة بكِ. إذا لم تخرج في...

- لا.

سيطر عليه الهدوء العظيم، عين الإعصار. أكتافه بدت كأنها أنزلتِ الأشرعة للتو.

- عفوًا أيتها الممرضة! هل يمكنكِ تكرار ما قلته؟

اقترب. رائحته كادت تسكرني. كنت خائفة منه بالطبع، أجل. الشيء الوحيد الذي تغير هو العلاقة التي شعرتُ بها ما بين الخوف وقراراتي. الخوف المضاف إلى روبرت لم يعد يعادل الطاعة.

- من فضلك.

- هذا أفضل يا ملكة! «من. فضلك». تابعي.

- لا أريد أن أترك هذه الوظيفة، يمكننا أن نتحدث عنها في يومٍ آخر.

- واو، لقد لمس الطفل الصغير قلبكِ.

- لا. لا ليس كذلك.

توقفتُ في منتصف الطريق. الرعب من المعرفة -ربما وبشكلٍ غير مباشر- معرفة السيد إكس منعني من الاستمرار. في الواقع لقد ارتجلت. جميعنا ممثلون رائعون عندما يتطلب الوضع ذلك، نظرتُ إليه في عينيه: «نعم، هو *أفضل* منك!».

لم أرغب في توريط دويل، الذي لم يكن محل لوم بأي حال من الأحوال، لكن رعبي المتجمد جعل كل شيءٍ ينزلق بشكل خطِر نحو السيد إكس. إذا اكتشف روبرت أي شيءٍ عن ذلك المخلوق البائس الهزيل الذي لا يزال جالسًا على الكرسي، فسوف يصرخ ويقتله. لا يمكن.

لقد تركت غيرته تشتعل. من تلك المسافة كدت أسمع صوت شرارة الإشعال.

بدا هادئًا. نظرة ساكنة. ابتسامة بسيطة.

- الوسيم، هاه؟ هذا الطبيب الشاب الذي وصل مؤخرًا إلى بورتسموث. هل تعتقدين أن لديه مشاعر تجاهكِ أيتها الملكة؟ رجل بهذا المنصب، شاب في عنفوانه وجذاب؟ هل تعتقدين أن ممرضة عجوزًا ذات وجه

مثل وجهكِ يمكن أن تهمه؟ إنه يستخدمكِ للتعرف على المدينة، انزلي من السحابة أيتها الممرضة ماكيري! أنا أسدي لكِ معروفًا أيضًا بموقفي هذا.

هل أبكي -سواء بدوتُ قبيحةً أم لا؟- بكيتُ. لكن ليس بسبب الإهانات، ربما كنتُ أستحقها، لكن ذكره الحقيقة لم يهنِّي، ولكن بكذبي أنا مَن يهينه. بالتأكيد، هو في كفة وأنا في أخرى، كنت الأكثر ذنبًا. لم يحدث وشعرت بتعاطف معه أكثر من ذاك الحين. شعرت حقًّا كأنني عاهرة. وعرفتُ طريقي للتكفير عن ذلك.

بالكاد كانت هناك مسافة بينه وبين الشجرة، لكنني ركعتُ قدر استطاعتي. تشبثتُ بأطراف بنطاله. حذاؤه القذر الذي يصل إلى منتصف الساق، حيث التصقت به جبهتي.

- روبرت! روبرت! دعني أبقى، سأعود إليك، مزِّق الرسالة، أنا آسفة، دعني أبقى وتعالَ لرؤيتي وقتما تشاء لكن...، لا...، لن أرحل... لا...، لا...، لا، الألم، ذلك المونولوج العظيم، التحدث ناظرة نحو حذائه. محاولة لإرضاء كرامته. طريقة مثل أي طريقة أخرى لأكون جبانةً وأحمي نفسي، ولكن إذا سمحت لي بالبقاء.

كان بإمكانه أن يركلني، لم تكن هذه هي المرة الأولى. أملي أن يخترق بكائي ضباب غضبه بطريقةٍ أو بأخرى.

أخذ وقته في الإجابة. عندما تحدث -لم أتمكن من رؤيته، كان لا يزال رأسي مستندًا على حذائه - بدا أخرق كما لو أنه قد جُرد أخيرًا من غضبه، وظهر سُكره من خلال أذنيه اللتين تشبهان أذني الحمار.

- إذن...، أنتِ تريدين البقاء...، هيا، ابقي، على أي...، (لم يتمكن من قول «حال». فقد ابتعد عني مترنحًا) ابقي هنا، في جحر

الخراء هذا...، بالطبع، عندما تأتين...، عندما آتي أنا، أيتها الملكة! خصصي وقتكِ كله لي. (تجشأ) سأحتاج إلى المال من أجل العودة...، أنا مفلس...

رفعت رأسي. نظرتُ إليه.

راكعةً، متسخةً بالرمال، بين الأشجار، في ظل القرصان العجوز.

الساق الخشبية.

نظرتُ إليه كأنه شيءٌ غير معروف. مشهدٌ ما في الإنجيل، تجلٍّ ما، هبة يجب احترامها بحرص.

- هيا أيتها البلهاء! انهضي (كان متكئًا على جذع شجرة) وابقي مع...، شابكِ الوسيم.

تلك المعرفة العظيمة التي تلقيتها فجأة، ذلك اللسان الناري، جعلني أقف مثل شجرة أخرى فيما إليه.

- أنت لم تحبني قط.

كأنما تراه للمرة الأولى.

- ما بكِ الآن؟

- لا يهمك إذا بقيت أو ذهبت. هذا ليس يعنيك. كل ما تريده، ما أردته دائمًا، هو أن *أعيلك*.

نظر إليَّ باشمئزاز خفيف واهتمام طفيف. لم يكن لديه عقل صافٍ لتقديم الأعذار، لذلك لم يختلقها.

- هيا...، ماذا تقولين الآن؟ ألم تريدي البقاء؟ أسمح لكِ، ابقَيْ.

- كل هذه السنوات...،

- ابقي، أنا *أسمح* لكِ بذلك.

- اخرج من حياتي يا روبرت!

كان البحر هو نفسنا للحظة. لقد ثار كأنه يمنح الرد، ولكنني لم أعُطه الوقت.

-اخرج من حياتي ولا تعد.

أخيرًا، ابتعد الضباب الذي أعاقه بما يكفي ليدرك أن جديتي كانت طريقًا ضيقًا ذا اتجاه واحد.

- أنتِ مجنونة...، أنتِ مجنونة تمامًا.

اقتربَ.

- اخرج من حياتي. (عويتُ. ولكن لم يكن العواء، بل الكلمات التي أُعيد كتابتها الآن).

- اذهبْ.

قلتُ هذا ثم دفعته بنفسي.

لم أضع يدي فوق رجل قط إلا من أجل رعايته أو إرضائه.

لا أبدًا، فليسامحني الرب.

رعايتهم. إرضاؤهم.

مع روبرت تخيلتُ أنني لا أستطيع التفوق عليه في القوة.

لقد كان صخرة. اعتقدت أن الأمر سيكون مثل محاولة تحريك تمثال بالحجم الطبيعي.

ولكنني كنت مخطئةً.

اتضح أن دفعتي جعلته يتراجع عدة خطوات إلى الوراء وكدتُ أطرحه أرضًا.

اتضح أن الأمر لم يكن يتعلق بالقوة أو القوة البدنية التي كان يتباهى بها. لقد كانت مسألة إرادة.

وهكذا أمكنني التباهي بذلك أيضًا.

-8-

بالطبع، جاء الجواب على الفور. لديك أشياء لتقولها، لكن...، العواقب لجَّمتني. ارتطمَ ظهري بالشجرة جعلني أهتز وهو معي، بطريقة هزلية تقريبًا، واعتقدتُ أنَّ فقراتي كُسرت. طارت قبعة سوزي الصغيرة، لكنني لم أشعرْ بالخوف أو الألم. ليس بعد. واجه كلٌّ منا الآخر وجهًا لوجه. كان يزفر موجة من البيرة الحامضة وأنا أشعلها بالنار.

- أنت تدفعينني؟ أنا؟ مَن بحق الجحيم...، تظنين نفسكِ؟ (زمجر وابتسم) ها...؟

- دعني.

لقد حاولت، لكن الأمر كان مثل القبض على ذبابة. لقد أمسك بي بسهولة. بكل ثقله متكئًا عليَّ. انزلق لسانه مثل كلبٍ ضخم على وجهي. لعقني. متأثرًا بجمالي. لقد كنت *جميلة وشجاعة*، لكن لسان روبرت مسح كل شيء.

- انظروا إلى القطة الغاضبة، أعرف ما يعجبكِ يا ملكة البحار! ها أنا أعطيكِ إياه؟ يمكنني أنْ أعطيكِ ما تريدين.

جذب تنورتي بعنف، وسحق لحيته في فمي: «أعطيكِ ما تريدين، أنا الوحيد الذي...».

دفعت به الضربة جانبًا مثل الكرة، حتى إنه تدحرج على الرمال.

- اترك السيدة، المرة القادمة لن أضربك بهذه الحساسية.

كان روبرت لا يزال يتحسس رأسه، كما لو كان مدهوشًا أنه لا يزال موجودًا. طارت قبعته فأخذ يبحث عنها، والتقطتُّ على الفور القبعة الصغيرة.

- هو بخير؟

دويل، الذي كان لا يزال يمسك بعصاه، مد يده لي فتشبثتُ بها، سمحت له أن يأخذني ويعانقني، فقط ليتمكن روبرت من رؤية ذلك، أردت منه أن يراني. رفع عصاه مرة أخرى مهددًا: «أيها السكير! لا أعرف مَن أنت ولا أهتم، ولكن إذا اقتربت من السيدة مرة أخرى، فسوف تندم».

طلبتُ منه: «اتركه يا دكتور!».

روبرت ميلجرو، البحار من الدرجة الثانية واجه دكتور دويل.

- الطبيب الصغير من المدينة الكبيرة بعصاه، هيا، اترك عصا المشي، إذا كنت رجلًا؟

مع أثار التحدي أمام امرأة، كان دويل بالفعل على استعداد لقبول العراك إلى أن تشبثت به وعانقته: «من فضلك دكتور دويل! إذا كنت تقدرني بأي شكلٍ من الأشكال، فدعه يذهب».

غيرنا طريقنا وأنا أعانقه. روبرت بقى خلفنا، مستحسنًا التراجع، لكن دويل كان يراقبه، رافعًا قبضته.

- ابعد أيها الجبان، أعرف أين تعيش يا آرثر دويل! سأذهب إلى عيادتك، سنتحدث على قدم المساواة إذن يا دكتور! تلك المرأة لي، هل تسمعني؟

كان من المستحيل عدم سماعه. ربما سمعها كل سكان ساوث سي. أضاءت بعض النوافذ في كلارندون، ولكن ليست تلك ذات الجفن المغلق.

روبرت والبحر يتنافسان.

- أحبكِ يا آني!

صوت هدير البحر.

- حب....،

صوت هدير البحر.

- آني! آني...!

فاز البحر. ذاب اسمي في الأمواج مثل الملح. وعندما نظرت مرة أخرى، لم يتبقَّ سوى الليل.

- لحسن الحظ، عدتُ من طريق آخر، (أوضح دويل حين وصلنا لبوابة كلارندون) أتاح لي ذلك رؤية ذلك الرجل يخرج من الزاوية ويتبعكِ خلسة نحو الشاطئ. شعرتُ بالذعر. أنتِ تعلمين بالفعل أن اليوم، نظريًّا، الليلة....، هي...

- نعم أنا أعلم.

- اقتربت بحذر. سمعتكما تتجادلان. لم أرغب في التطفل، ولكن بعد ذلك رأيته يعتدي عليكِ و....، مَن كان ذلك الرجل، بحق الرب؟ ماذا يريد؟

- صديق، (قلت له) ليس بعد الآن. لقد كان بحارًا. لقد جاء من لندن، لكنه لن يزعج نفسه مرة أخرى.

كنت متأكدة أنَّ ذلك سيحدث.

- مع أصدقاء مثل هؤلاء...، (قال دويل الشهم) هذه المرة لن أغادر حتى أتركِكِ داخل المسكن.

لقد جعلني أبتسم.

ردد البحر اسمي في ظلمة غرفة نومي وأنا أبكي.

لكن في النهاية توقفت عن سماع هديره ونمت بسلام.

غافلةً عن الرعب الذي كان في طريقه إلينا.



عين بورتسموث

عمود المسرح

هول المسرح ويوليوس قيصر

مسرح الفكاهة والتراجيديا

فرقة كوبيلوس إدارة س. بيتيروسو

مسرح كاريداد الخيري سانت ماري بورتسوموث

رواية غامضة ورهيبة، العرض الأول: المشهد، عربة قطار، تسافر الفرقة للوصول إلى مدينتنا، وخلال الرحلة يحلم مديرها -السيد بيتيروسو نفسه- بحلمٍ يتشابك فيه تاريخ الطقوس الأورفية وموسيقى المسرح... رقصات إغراء، ورؤى سحرية... كان يوليوس قيصر مبتكرًا أيضًا. يبدو أنَّ قيصر مجددًا أيضًا، يطالب بالتضحية بنفسه... فرقة كوبيلوس العظيمة، شكرًا للسيد جورج إيربنجال، الراعي الرئيسي. انتحار هذا الرجل العظيم ترك بصمةً عميقةً في مدينتنا، والأطفال المحتاجون سيكونون ممتنين له.

إدموند هامرسميث

العرض الهزلي داني ووترز

العروض الهزلية بمنزلة تضليل للمشاعر؛ تعتقد أنها ستثير الضحك، ثم تكتشف الألم...

ت. روبنسون

مسرح المنوعات في بريطانيا العظمى (1856).

الصبي الفقير داني ووترز يبدو سعيدًا.

لقد حان الوقت أخيرًا.

بإمكانه الآن أن يُبرهن للعالم أنه ممثل جيد. لا تهم الأشياء التي يفتقدها المرء، يمكن دائمًا تعويضها بالطاقة والإرادة.

لا يزال الستار مسدلًا، خيَّم الصمتُ، لكن داني يعلم أنَّ الجمهور اليقِظ المرحب ينتظره. لطالما استعدَّ لهذه اللحظة.

لماذا يعتمد كل شيءٍ عظيم وحاسم في حياتنا، على مجرد بضع ثوانٍ من الصدفة؟ تساءل داني إذا أمكنه التعبير عمَّا يتساءل عنه الآن

في مثل هذه الكلمات. الشهرة أو الفشل، خطوط متباينة تبدأ من نقطةٍ واحدة. وهو المكان الذي يوجد فيه الآن فيما يقضم أظافره.

حسنًا، يفكر أنَّه لا يريد حقًّا أن يقضم أظافره، فهذا لا يليق بممثل، ولا حتى بمَن يقوم بأداءٍ فني في ساحة على الرمال.

ظلَّ واقفًا أمام الستار المظلم. وعلى الجانب الآخر الجمهور.

لقد حان الوقت، داني ووترز.

شعر بالبرد. وخزٌ ينتشر في قدميه العاريتين ثم يتسلل إلى معدته فيخدِّرها. أخبره صديقه العزيز إلمر، إلمر هاتشينز، أنَّ اضطراب الأعصاب لا قيمة لها إذا ما توقف الشخص عن التفكير في الأمر. كان من السهل جدًّا على إلمر أن يتوقف عن التفكير. تمنى لو كان صديقه هناك معه ينصحه كيف يُسيطر على نفسه.

إنه خائف، نعم.

لقد قيل له: إن هذا هو الاختبار النهائي، داني! لا يمكنك أن تفشل.

يبدأ في تمام الساعة الثانية عشرة منتصف الليل، مع دقات الساعة.

لقد قيل له: إنه «لا يمكنك أن تفشل، لأنك لن تحصل على فرصة أخرى».

الجمهور يفتقر إلى الصبر. الأمر يتعلق بفعل أي شيء وتأديته بسرعةٍ فائقة. بعد ذلك، وراء الكواليس، سوف يبكي قليلًا على صديقه إلمر، الذي وعد أن يكون في الصف الأول خلال ليلة انتصاره، لكنه -لسوء الحظ- لن يتمكن من الوفاء بوعده.

لأنه قد مات.

الآن داني لا يريد أن يتذكر ذلك.

جسده الضخم الملقى على الرمال. التفاصيل التي رواها بدقة لذلك الغريب «السيد إكس» دعونا لا نتذكر ذلك.

لقد ساعده إلمر كثيرًا، قبل مقابلته، كان داني متلعثمًا، ولم يذهب إلا إلى عروض «القتال» التي يؤديها الآخرون الذين لا يتحدثون أيضًا. وهو يعلم جيدًا أنَّ الصراعات ليست ضارة كما يظن البعض. أنت تتلقى الضربات، بغض النظر عن مقدار التدرب عليها كما لو كانت رقصة. وليس الأمر أنه يهتم بذلك. ليت الأمر كله يتعلق بالمعاناة من بعض الكدمات أو الخروج على المسرح دون ملابس. ولكن هذا لا يجعل من أحدهم ممثلًا. لقد أخبره إلمر بذلك. يمكنه السيطرة على عيوبه ويكون ممثلًا كوميديًّا -ليُّ قصمات الوجه لإثارة الضحك- أو تراجيديًّا -التجهم لإبراز الألم- لم يكن لديه أبوان ليظهر لهما انتصاراته، لكنه كان يُبديها لأصدقائه. لقد آمن أصدقاؤه الحقيقيون به، لقد فعلوا ذلك بالفعل.

تعالتْ أصوات قبالة الستار. بالفعل، ها هو داني يستعد، ولا تُسمع همهمة الجمهور. إنه جمهور بالغ التركيز، أو ربما قليل العدد. الدقات؛ ثلاثة...، اثنان...، واحد.

الستار يختفي. لا ينهض. يبدو كأنه لم يكن موجودًا أبدًا.

الصالة أكبر مما ظن داني -**لا يمكنك أن تفشل**- كبيرة ومظلمة مثل الليل في البحر.

الصمت مُطبق.

داني ووترز متصلب. لا يستطيع التحرك. لن يحصل على ما أراد. لكنه بعد ذلك يرى شيئًا غير متوقع.

كان في الصف الأمامي كما وعده. لحيته المتسخة إلى حدٍّ ما، وجسده مليء بالبقع الحمراء، وعيناه فارغتان بيضاوان، لكنه بابتسامة مشلولة وإيماءة استحسان. تفضل يا فتى!

صديقه العزيز إلمر، يهتف له، وفَّى بوعده. يستطيع داني رؤية رقبته مفتوحة مثل ابتسامة واسعة، تزحف منها الديدان.

قال له إلمر -بينما تخرج من فمه الأسود كتلة متجلطة من الأشياء الفظيعة-: **«إذا كنت لا تعتقد أنك ميت، داني، فأنت لست كذلك».**

يا لها من متعة سيد هاتشينز هناك! داني! حانت لحظتك. داني! سوف تقوم بعملٍ جيد! كوميديا! مأساة!

يضحك داني ويبدأ العرض.

شيرلوك هولمز في القصر الزجاجي



-1-

لن أنسى ذلك اليوم ما حييتُ.

استيقظتُ من النوم وشعرتُ بألم في جميع أنحاء جسدي، وخاصةً ظهري، حين دفعني فاصطدمتُ بجذع الشجرة. وما هو أسوأ بكثير، شعور بالغثيان الشديد. نظرتُ في المرآة كان الأمر كما لو كانت تقول لي: «ماذا كنتِ تتوقعين يا آني؟».

ولكن هل كنتُ لأنتظر أي شيء من روبرت؟ أردتُ الاعتقاد بأنني كنتُ قادرة على جذبه مرة، جعله سعيدًا، كما جعلني سعيدةً. كانت هناك لحظة، يوم، بضعة أيام في البداية. وماذا بعد؟ لقد افترضت أنه كان خطئي. كم مرة حدث ذلك لي؟ لم يكن الرجال في حاجة إلى أن يقولوا أحبكِ يا ملكة البحار! ولكن فقط «تعالي»، هكذا كانت الأشياء. وكنت أذهبُ.

لكن هذه المرة لم ينجح الأمر.

ما زلتُ أسمعه وهو يناديني «آني!»، حسرة ممزوجة بصوت الأمواج.

لقد تفاجأتُ أنا نفسي بمدى قلة اهتمامي بينما أتذكره.

في كل الأحوال -ومع الألم بجسدي إثر الضرر الذي لحق به- كنتُ قد صرتُ شخصًا آخر.

-2-

أثارتْ قلقي الكلمات التي قالها لي شخصٌ آخر.

دخلتُ بعد أنْ قُدمت وجبة الإفطار بالفعل، لكن الصينية الموضوعة فوق الطاولة أمام الكرسي لم تُمس. حتى قبل أنْ أُلقي عليه التحية سمعتُ صوته.

- لقد فعلتِ خيرًا بالانفصال عنه، فهو لم يكن شخصًا جديرًا بالثقة.

سألته بدلًا من الاستمرار في الموضوع: «صباح الخير. ليست لديك شهية؟».

- هل يمكنكِ أن تسدلي الستائر يا آنسة ماكيري؟

فعلتُ ما طلب، لكنني لم أرغب في التخلي عن الحوار السخيف الذي دار بيننا.

قلتُ بينما أغمض عينيَّ في الضوء: «لم يكن هناك أي خطر في المسرح».

- نعم المسرح، هل يمكنكِ أن تعطيني ملخصًا؟

كان من الواضح أنه كان عصبيًّا. كان ينتظر الصبية بلا شك، لكن في وجهه -في تلك اللحظة، وتحت الضوء- كان هناك شيءٌ جديد، لمحة قلق مختلفة.

أخبرته عن بيتيروسو ومساعديه والشاب قسطنطين وأبيجيل، وتوقفت عند ذكر الباب المغلق. كان هذا -بطريقةٍ ما- هو الهدف الذي أردت الوصول إليه. كان هناك باب مغلق، هل تعلم؟ أصررتُ على ذكر معلومة أنَّ قسطنطين انزعج عندما نظرتُ هناك إلى الباب المغلق. لقد استمع إليَّ في صمت. الإفطار كان لا يزال سليمًا، لم يُمس. وعندما توقفتُ لأرى ما يفكر فيه، قال: «لا تقلقي بشأن هذا الباب بعد الآن، ما يهمني هو المدعوون».

- المدعوون؟

نعم، أعتقد أنَّ الطبيب كان يعرف الكثير من الأشخاص، ولا بدَّ أنكِ تعرفت على بعضهم، أخبريني بما تتذكرينه.

لم أتذكر الكثير، كان هناك اسم واحد فقط لفت انتباهه: السيد إدموند هامرسميث، رئيس تحرير صحيفة بورتسموث *آي* على ما يبدو. في بعض الأحيان كان يقوم بمراجعات مسرحية. كما أمتعته حكاية القس الكاثوليكي الذي يلعب الشطرنج، الأب فيليبوتس. قبل كل شيء، حقيقة أنَّ الكاهن الذي تمت دعوته في الأصل لم يكن هو، بل الأب إيفانز، الذي كان مريضًا. وهذا -ويعلم الرب السبب- جعله يبتسم.

- هذا اللغز لا يصدق، تظهر كل يومٍ أقفال جديدة، وأنا على يقين متزايد من أنه يمكن فتحها جميعًا بمفتاحٍ واحد.

- أنا لا أفهم شيئًا، لكن، بالحديث عن الأقفال، أودُّ إخبارك أنَّك استبعدتَ مسألة الباب المغلق في وقتٍ مبكر جدًّا.

- لا تقلقي بشأن هذا الباب أو هؤلاء الشباب الأجانب بعد الآن، أنا فقط بحاجة إلى جريمة أخرى، فمن الظلم ألا يقدمها لي القاتل، لن يكلفه هذا سوى القليل جدًّا، متسولٌ آخر، متسول واحد فقط

وسأحصل على شيء، شيء صلب ملموس، لأن الواقع الآن هباء، وأيدينا مفتوحة تنتظر.

- والآن، تناول الفطور بسرعة، أنت تصيبني بالغثيان. أنت تبدو مثل الطائر الجارح.

وبالفعل -بينما كان يتحدث، وأنفه الكبير المعقوف يتشمم مثل المنقار فوق صينية البيض ولحم الخنزير المقدد والشاي القوي- أخذ رشفةً من الأخير.

- ليست لديَّ شهية، يجب أن يأتي شخصٌ ما بالأخبار أوَّلًا، كل شيء صحيح إذا لم تكن هناك أخطاء، اغفري لي الصراحة. هل آلمكِ ظهركِ كثيرًا إثر دفعكِ في جذع الشجرة؟

توقفتُ عن فرك ظهري، لكني أقسم أنني كنت خلف مقعده. مهاراته لا تتوقف أبدًا عن إثارة دهشتي.

- أجب على ذلك، فأنت تعرف الكثير. (أجبته بوقاحة، ثم ندمتُ على الفور) أنا آسفة. لا يزال ظهري يؤلمني، لكنه سيختفي، مثلما اختفى الآخر.

- الآخر؟

شعرتُ أنَّه يجب عليَّ توضيح ذلك.

- لديك كل الحق. لقد تركته.

- ماذا؟

- ذلك...، ذلك الرجل.

- أوه، آه، بالفعل، كنت متأكدًا من ذلك.

- متأكدًا؟

- نعم أنتِ امرأة ذكية، كان ذلك أمرًا مقضيًّا، والبقية كانت مجرد الانتظار. الصبر هو كل شيء.

- هل تتفضل بتوضيح العبارة؟

- الشيء الذي يهمني ليس نفاد الصبر، بل العيش في مستقبل الأحداث.

- لم يكن الأمر مقضيًّا بالنسبة لي حتى أفهمه.

سمعنا وقع خطوات.

قال السيد إكس: «هنا يأتي مستقبل الأشياء».

ضربات على الباب.

قال السيد إكس: «حسنًا».

لقد كان جيمي بيجوت، لم يكن أحمر اللون هذه المرة، ولكنه شاحب أصفر اللون كأنه ميت.

- لقد ظهر متسولٌ آخر. عند سفح الحصن...، رجلٌ شاب.

فرك السيد إكس كفيه: «هذا جيد جدًّا».

ثم باغتته هذا الرسالة من جيمي: «وواحد آخر عند ثكنات الإطفاء...، (صار صوته مثل الهمس) لن يعجبك هذا كثيرًا يا سيدي!».

-3-

ثكنات الإطفاء. هذا ما كانوا يُطلقون عليه. لقد حصلوا على هذا الاسم لأن حريقًا ألمَّ بهم قبل عشر سنوات. في بورتسموث، لم نتميز أبدًا بخيالٍ كبير فيما يتعلق بالأسماء. لقد كانت أكواخًا عسكرية قديمة، لأن كل شيءٍ مميز في مدينتي يشبه ذلك، بحريًّا أو عسكريًّا، كل شيء دفاعي ومحاط بأسوار. لقد تمَّ التخلي عنها منذ سنوات، وبما أنها لم

تكن ذات فائدة، فتلك التي احترقت ظلت هناك سوداء للغاية ووحيدة. لم يتم احتراق الخشب بالكامل بسبب الرطوبة، وأصبح الآن يُشكل مكانًا للبحث عن الكنوز أو لألعاب الأطفال. هو بيت للأشباح.

مع وجود شبح في الداخل هذه المرة.

تم العثور على داني ووترز من قِبل أطفال مثله.

وكان العثور عليه بالصدفة، لأنه كان ملقيًّا في قاع البرميل الذي يستخدمه المتشردون لدعم أعقاب الشموع أو مصابيح الزيت. لقد تخيلت ذلك...، لا، لم أستطع أن أتخيل ذلك. لم أستطع أن أفكر فيه؛ بل فكرت في الأطفال الذين نظروا إلى ذلك البرميل. ربما كانوا يلعبون دور أسياد قلعة غامضة. قد يرى شخصٌ ما البرميل ويريد استخدامه كطاولة. أرى رؤوسهم تحدق إلى ذلك الفم الأسود بلا أسنان، ورؤوسهم منتصبة وثابتة. ينظرون.

وصلت الشرطة، ووصل الجمهور -المتلهف دائمًا لوقوع الفظائع- وفي فترة ما بعد الظهر، وصلتِ العربة التي تحمل مرتون سريع الغضب ورقيبه الهادئ جيمسون.

ما لم يحققه اثنان من الأثرياء المحرومين والمتهمين بالسكر، حققه داني المسكين بمفرده.

أخيرًا أصبحتُ شهيرًا -دموعي تتساقط وأنا أكتبها- وأخيرًا مع الجمهور، كما كان يحلم.

-4-

انتفضت مدينة بورتسموث بأكملها كأنها في الحرب.

اشتعلت النيران في ثكنات الإطفاء مرة أخرى. احتشد غضب جموع المدينة. لم يسعني سوى التفكير أنَّ الأعين -التي كانت تبكي الآن، والأفواه التي تصرخ طلبًا للعدالة- تنتمي إلى نفس الأشخاص الذين ربما تجاهلوا داني عندما مدَّ يده للحصول على الطعام أو التصفيق. كان الأمر كما لو أن القاتل قد قتل جزءًا منا جميعًا.

منعت الشرطة عروض الهواء الطلق. كان لا بدَّ من إلغاء عرض البحث عن الكنز الذي تؤديه فتاة مسرحية شابة عديمة الخبرة تخلع فستانها الأحمر كأنها هي الكنز، لكنها تتركه بالخطأ بالقُرب من مخبئها بين صخور القلعة. تم القبض على عدد من الباعة المتجولين الذين نفذوا خدعًا إجرامية. كانت حادثة داني صادمة للغاية لدرجة أن حادثة ديفيد تايلور مرت دون أن يلاحظها أحد تقريبًا. كان تايلور في الخامسة والعشرين من عمره وإحدى ساقيه أقصر من الأخرى، لكن ذراعيه تتمتعان بقوةٍ كبيرة. كان عاملًا في مسرح في كاريداد.

اكتشف الجثة الأشخاص الذين يستيقظون باكرًا وهم من بين المشاركين في عرض البحث عن الفتاة. رأوا بالفعل شيئًا أحمر على الصخور، لكنه لم يكن ثوب الفتاة. ومع ذلك، لم يتم حظر المسرح بأكمله، وهرعت بعض الشركات للصيد في المياه العكِرة. حقق العرض نجاحًا هائلًا عندما أعاد إحياء جريمة *القتل القوطية في الجحيم* في الليلة نفسها.

وعلى الرغم من أنه لم يتم تأكيد ذلك بعد، فإن الرأي العام بعد ظهر ذلك اليوم -نيللي وهيتي، في حالتي- اعتبرتا أنه هو القاتل نفسه. حادثتا قتلٍ في ليلة واحدة. اشتعل فتيل الأخبار، لدرجة اضطرت الدكتور بونسونبي إلى القيام بجولةٍ خاصة في غرف المقيمين لديه لمحاولة تهدئتهم، كما اختصَّ الموظفين ببعض كلمات. أتذكر بكاء

سوزي ترينش وهيتي والترز، وإغماء السيدة جيليسبي أكثر من مرة، وتعانُق جين ويمبول ونيللي ورينجتون، وانهيار جيمي بيجوت. حتى السيد ويدون ظل جادًّا وصامتًا، ورفعتِ الرئيسة برادوك حاجبيها.

من الغريب أنني لا أتذكر خطاب الدكتور بونسونبي. ولكن قبل كل شيء، أتذكر السيد إكس.

-5-

كان العشاء قد قُدم بالفعل عندما اقتربتُ من غرفته. وصدر من الباب أنين تقشعر له الأبدان. نوعٌ من البكاء عالي النبرة، حادٌّ تقريبًا.

لم يسبق لي أن سمعتُ السيد إكس على هذا النحو. شعرتُ بالرعب، بل أكثر من ذلك؛ الذعر. كنتُ أعلمُ أنَّ هذا التمثال الملون يحمل مشاعر في أعماق قلبه، لكن ما سمعته لم أتوقعه.

فتحت دون أن أطرق الباب أو حاولت؛ حال عائق دون ذلك.

قال الصوت الجالس على الكرسي ببرود: «إنها الآنسة ماكيري يا رفاق، اتركوها تحدث».

نقل عنكبوت الكرسي بعيدًا. لفح هواء البحر وجهي. كانت النافذة مفتوحة. الطفلان يجلسان بجانب بعضهما بعضًا إلى جوار أحد المصابيح المضاءة. أعدتُ الكرسي إلى الباب وأسدلتُ الستائر. ما زال يؤلمني أن أتذكر تلك الوجوه المرتعشة، بالكاد تغسلها الدموع. كان ذبابة هو الذي بكى أكثر؛ صدر عنه الأنين والآهات. لقد وبختُ نفسي في صمت لاعتقادي في وقتٍ ما أنها صدرتْ عن المريض الذي أرعاه. أما هذا فهل قدم لهم العزاء بأيِّ شكل من الأشكال؟ لن أوجه اللوم لكم إذا ما

اعتقدتم أنَّ الإجابة على هذا السؤال هي نعم. كنتم ستحاولون ذلك، وأنا أيضًا، أي شخص عادي، حتى غير طبيعي...، لكن ليس هو.

قال، كما لو كان يواصل الفحص: «إصابات تايلور...؟».

- واحدة فقط في البطن يا سيدي...! وواحدة في الرقبة (قال عنكبوت)؛ السكين على بُعد عشرين خطوة.

تمتم رجلنا: «واحدة فقط، جيد جدًّا، وماذا عن داني».

عنكبوت خفض رأسه. وواصل ذبابة البكاء والمخاط.

قال: «لم نرغب...، في الذهاب لرؤيته في...، لقد عانقته».

قال السيد إكس: «لا يهم، صحيفة عين بورتسموث ذكرت جميع التفاصيل. أُصيب داني بقطعين في بطنه إضافةً إلى قطع آخر في الرقبة، تغيرات مثيرة للانتباه...».

قلتُ بينما أحتضن الطفل: «أرجوك، أتوسل إليك، هل تصمت؟».

تجاهلني النزيل.

- متى رأيتما داني آخر مرة؟

- في الليل، قبل الساعة الثانية عشرة بقليل.

عنكبوت بالطبع هو الوحيد الذي يستطيع الإجابة. كان ذبابة المسكين يرتجف بين ذراعيَّ.

- كيف عرفت أنه كان قبل الثانية عشر بقليل؟

- لأنه سألنا عن الساعة. كنا بالقُرب من المحطة التي نمنا فيها وسألنا البريء.

- البريء؟

- إنه حارس محطة يدافع عنا دائمًا عندما يريد زملاؤه التعدي علينا بالضرب بسبب نومنا هناك. ويقول: «إنهم مجرد أطفال أبرياء». لذلك أطلقنا عليه هذا الاسم، نحن نسميه ذلك.

- فهمتُ. وماذا فعل داني عندما عرف الساعة؟

- قال إنه يجب أن يفعل شيئا وجرى مسرعًا بعيدًا.

- ماذا كان يحمل عندما غادر؟

- الجوال وبه أغراضه. كما...، لو أنَّ لديه موعدًا مع شخصٍ ما.

أومأ السيد إكس ببطء شديد: «لا يمكنكم البقاء في المدينة، عليكم المغادرة فورًا».

انفلتَ ذبابة من بين ذراعيَّ على الفور.

- لكن لكن...، لا نستطيع أن نترك...، تارتا...، هو صديقنا.

قال له عنكبوت وهو يلكزه بكوعه: «لقد مات داني أيها الأحمق».

كانوا ثلاثة أصوات متباينة. ثلاث نغمات متنوعة، من الغموض الهيراطيقي للسيد إكس مرورًا بحزن عنكبوت الواجم المؤلم.

- عليكما أن تغادرا، سأعطيكما المال.

- لا نستطيع.

- اصمت، سوف يسمعوننا.

- ذبابة، (حدَّق الصبي في مريضي الذي أرعاه) داني لم يعد موجودًا، إنه ليس هناك، وفي الواقع، أؤكد لكم أنه لم يكن هناك عندما فعلوا *ذلك* به.

تساءل ذبابة: «ولماذا فعلوا ذلك به...، إذا لم يكن هناك؟».

- لأن جسده كان هناك، ولكن عقله قد غادر إلى مكانٍ آخر.

سأل الصبي وهو يفرك أنفه القذر: «وكيف تعرف ذلك؟».

- لأنني أعلم، توقف عن القلق بشأن داني، فهو لم يعانِ.

قال ذبابة بعد قليل، غير مقتنع: «لو كان في مكانٍ ما، لعاد».

- لا يستطيع، لقد قتلوه، ولا يستطيع العودة.

بعد التفكير في الأمر، تحدث الصبي القصير كما لو كان يحادث نفسه.

- أستطيع أن أعيرك جسدي...، يمكننا أن نعيش نحن الاثنان فيه.

تحدث عنكبوت متجاهلًا فكرة صديقه المجنونة: «لماذا تعتقد...، أنه يجب علينا أن نغادر يا سيدي؟».

- ستظهر الكثير من المشكلات، وترغب الشرطة في استجواب جميع أصدقاء داني ولن يكون الأمر ممتعًا. سيطلبون النتائج في لندن، وقد تمَّ تفعيل ماكينة القانون وعادةً ما تُطغي على كل شيء يقف في طريقها.

اقترح ذبابة: «يمكننا أيضًا الذهاب إلى المكان الذي يوجد فيه التارت... داني!».

- اصمت الآن ودعنا نخرج.

لكن ذبابة لم يتحرك. لكنه لم يكن يبكي في تلك اللحظة. عرضت عليه الطعام والماء دون جدوى. كان تعبيره عاجزًا، كان بالكاد يسمح ليد عنكبوت بسحبه عندما نطق الصوت من الكرسي: «مهلًا يا ذبابة! سأعزف لك الكمان».

نظرَ ذبابة إلى صديقه وانتظرا كلاهما بينما ترتجف جفونهما.

لم يكن «العزف» هو المعتاد، والمحاكاة بالسوء نفسه، كل الهزات كانت ستبدو مضحكة لو لم يتبين أنه مريض عقليًّا. ومع ذلك، حدث

شيءٌ جديد هذه المرة، لأن السيد إكس، دون أن يغير تعبيرات وجهه وهو ينظر للأطفال بدا وهو يجاهد للعزف، أغرقت قطرات العرق جبهته ونفر عرقٌ في رقبته بشكلٍ غير معتاد، لا بدَّ وأنَّ المشهد كان مرعبًا للطفلين.

سألهما عندما خفض ذراعيه: «هل أعجبكما؟».

أومأ الصبي كما لو كان منومًا مغناطيسيًّا.

قلبت المزهرية الذي كان يحفظ فيها السيد إكس المال. وغلبتْ علامات الدهشة على ذبابة مدهوشًا. كان على شريكه أن يسحبه، لكنه توقف قبل أن يخرج من النافذة عندما ناداه السيد إكس: «سأدمر مَن فعل هذا، أقسم لكما».

بدا ذلك ضربًا من الجنون، لكن عنكبوت أومأ برأسه وقد اتخذه على محمل الجد، كما لو كان يصدق ذلك.

- كيف يمكنك أن تقول ذلك لهؤلاء الأطفال البائسين؟ (سألته عندما غادرا، وأنا أسدل الستائر) «تدمره»؟

لم يُجب. انحنى إلى الخلف على الكرسي كان عزف «الكمان» قد استهلك كل قوته.

سألته: «أوَّلًا، هل أنت متأكد من أنه القاتل نفسه؟».

- إنه هو نفسه، لا أعرف إذا كان السلاح قد ظهر أيضًا في حادثة داني، لكنني أراهن أنه كان موجودًا بالفعل.

- وكيف تمكن من ارتكاب جريمتَي قتل في مكانين مختلفين؟

- لأنه ماهرٌ جدًّا.

للحظة لم أكن أعرف ماذا أقول. مَن بمقدوره أنْ يفعل شيئًا مثل هذا؟ إنه شبحٌ حقيقي؟ وهذا، في رأيي، لا علاقة له بالكراهية غير العقلانية

للمتسولين أو الانتقام الشخصي. كنت أعرف بعض القتلة المختلين عقليًّا في زنازين خاصة في ملجأ آشرتون، وعلى الرغم من أنني لم أعتنِ بهم شخصيًّا -كان الحراس مسؤولين عن ذلك- فإنني رأيت أيديهم التي تشبه المخالب تخدش ثقوب زنازينهم وأعينهم الزائغة. كانت جرائمهم وحشية لا يمكن تصورها، لكن جرائمهم كانت خرقاء، فقد تركوا آثارًا في كل مكان، إمَّا أنْ سمعهم أو رآهم أحد، أو وشوا بأنفسهم. لا يبدو أن قاتل بورتسموث إنسانٌ يعيش على وجه الأرض. شعرتُ بالخوف الحقيقي.

كنت سأخبره بما أفكر عندما بدأ الحديث، كان صوته مثل عمود من دخان الغليون يتصاعد من الأريكة.

- في مسكن أكسفورد...، (تمتم بصوتٍ أجوف خالٍ من النغمات، كما لو أنَّه بدأ يغطُّ في النوم) هل تتذكرين عندما أخبرتكِ أنني سأعطيكِ التفاصيل يومًا ما؟ حسنًا. لم أفعل الكثير في أكسفورد كما تظنين يا آنسة ماكيري! لكنني حصلتُ على الكثير، أقلها كان صداقة مع شخصٍ معين في ورطة، كاتب آخر...، لديَّ انجذاب نحوهم، كما ترين. لكنه في هذه الحالة هو نفسه طرح المشكلة. لم يكن بحاجة إلى الكحول، لقد كان متحفظًا جدًّا لدرجة أنه عندما قرر أن يثق بي. كان الأمر قد خرج عن السيطرة. كان كل شيء تقريبًا مصنوعًا من الرصاص، ولكن في بعض الأحيان كان اللؤلؤ يتساقط، وكنت أستمتع بصنع قلادة. ثم علمت بوجود شيء لا يجب أن تكرره إذا ما أردتَ البقاء على قيد الحياة وبصحةٍ جيدة وعاقلًا. لقد تعلمت عن العَشَرة.

- العَشَرة؟

حذرني بجدية: «لا تُكرري ذلك مرة أخرى».

- وهو كذلك.

تُرى ماذا كان ذلك؟ نوعٌ آخر من الجنون؟ هذا ما بدا عليه الأمر، لكنني استمعتُ.

- لقد كان رجلًا ذا خيال عظيم، ولكن على الورق فقط. لم يخطر ببالي للحظة أنَّ هذا كان اختراعًا آخر من اختراعاته. في الواقع، هو نفسه لم يكن على علمٍ بهوياتهم، ولكن كان يعلم أنه لا توجد سُلطة في هذا العالم يمكنها إيقافهم، لأن سلطته كانت بعيدة عن متناول أي قانون أو حكومة.

- وما هي هذه السلطة؟

- المسرح.

في تلك اللحظة تيقنتُ من أنَّ السيد إكس يهذي.

- أوه، من فضلك.

- هذا الكاتب الذي أتحدث عنه قد رأى أشياءَ معينة تتعلق بالمسرح.

- المسرح ليس سحرًا أو شعوذة سيد إكس! وكل مسرح له حيله الخاصة به.

- أنا لا أتحدثُ عن السحر أو الشعوذة يا آنسة ماكيري! أنا أتحدث عن قوة مُحددة لا يوجد دفاع ضدها؛ هي المتعة، من الواضح أنَّ المسرح يُنتج هذه المتعة، ولهذا فهو وسيلة الترفيه المفضلة في عالمنا. لكن... تخيلي للحظة مسرحًا ينتج متعة لا متناهية. ما هي الأشياء التي لن يتمكن من تحقيقها؟ لقد فكَّرتُ في هذا الاحتمال، لكنني لم أتوصل إلى نتيجة. (بدتْ لي فكرة مجنونة نموذجية. لا أستطيع أنْ أتخيلَ سيد إكس!).

- السيد هولمز.

- السيد هولمز، المتعة تتعلق بالشيطان أكثر منها بالرب، إنَّها ليست لا متناهية أبدًا. أنت...، حسنًا، ربما لا تعرف، لكن صدقني. تدوم لوقتٍ قصير جدًّا.

- من غير الضروري أن تكون لا متناهية. المتعة في أذهاننا يا آنسة ماكيري، ومَن يسيطر عليها يمكنه التلاعب بالأذهان.

- أنت تتحدث عن السَّحرة والمنومين المغناطيسيين.

- لا لا، العكس تمامًا. جوهر الأمر يكمن في هذا، أن سادة تلك المجموعة لا يتلاعبون بالعقل للسيطرة على العواطف...، إنهم يتلاعبون بالعواطف للسيطرة على العقل. إنه مجرد الاتجاه المعاكس، ولكن في هذا الاتجاه يكون الأمر الفظيع مخفيًّا. لم يعرف صديقي ذلك على وجه اليقين، لكنني متأكد أنَّ بعض المسارح تنتج الكثير من المتعة لدرجة أنها تُجبر الأشخاص الذين يشاهدونها على القيام بأشياء بعينها.

- تذكرتُ شيئًا فجأة.

- انتظِر لحظة. الدكتور كوريدج، الذي عملتُ معه في مصحة آشرتون.

- السيد أوين كوريدج، تقصدين؟

- نعم، عملت تحت إدارته.

- لقد كان هو الذي عالج صديقي كاتب أكسفورد...، هذا مثيرٌ للاهتمام، ولكن رجاءً أن تستمري.

بعد ذلك التعبير «مثيرٌ للاهتمام» وضع إصبعَي السبابة معًا على ذقنه، فيما يستمع.

- أخبرنا الدكتور كوريدج أنه لا يوجد مسرح عقلي قادر على «التلاعب بإرادة أي شخص لدرجة إجباره على القيام بأشياء ضد مبادئه» (لقد كررتُ ذلك)، كان هذا ما أخبرنا به كوريدج كثيرًا.

- هذا ممكن، لكن المسرح العقلي هو شكلٌ من أشكال التنويم المغناطيسي يا آنسة ماكيري! وكما قلتُ لكِ من قبل؛ ما يفعله هؤلاء الأفراد هو شيءٌ آخر. على أي حال، الكاتب الذي ساعدته سمع محادثة حول مشروع عَشَرة، ومرة أخرى أؤكد على عدم تكرار هذا أبدًا. لقد قرروا إرسال شخصٍ ما «للغناء في بورتسموث» هذا الصيف. أطلقوا عليه لقب «السيد ي». لم يكن صديقي الكاتب يعرف شيئًا عنه أو عمَّا يعتزم القيام به، لكنني افترضت أنه إذا كان الأمر يتعلق بـ العَشَرة، لن يكون الأمر جيدًا، وليس هناك حاجة إلى تخيُّل مجرد عمليات سطو أو جرائم قتل...، وهذا ما جعلني أطلب الانتقال إلى هنا. لقد استخدمتُ جيمي والأولاد، ولكني ارتكبت خطأ التقليل من شأن العدو.

تذكرتُ عبارة السيدة موراي: «إنه ينتظر شيئًا ما». لقد كان صحيحًا. لقد كان ينتظر ذلك منذ البداية. ولكن هل بالإمكان تصديقه؟ سيعتبر هذا شيئًا من الجنون.

- إذا كنت تعرف كل ذلك، لماذا لم تبلغ الشرطة؟

- إنه ليس بالشيء الذي يمكن للشرطة حله يا آنسة ماكيري! لا أعتقد أنَّ المفتش مرتون أعطى الكثير من المصداقية لتصريح كاتب عصبي المزاج.

- وكيف حال صديقك الآن؟

- جيدٌ إلى حدٍّ ما، ولكن إذا أفسدتُ خطط «السيد ي» وأخرجتها عن مسارها.

«السيد ي»، حتى إنَّ الأمر بدا ممتعًا. السيد إكس، والسيد ي، نموذج مثالي للهذيان. كالعادة، يبدو أن نزيل المصحة يقرأ أفكاري.

- آنسة ماكيري! قبل أن تحكمي، تذكري المسرح العقلي...، هل تعرفينه؟

- لقد حضرت الجلسة.

- هل يمكن أن تخبريني؟

- ليس بإمكاني أنْ أعطيك أسماء أو أي تفاصيل بعينها.

- ومع ذلك، أخبريني بما تستطيعين، أتوسل إليكِ.

في الواقع، لم أنسَ تلك التجارب أبدًا، لقد فهمت على ما استندوا -رويت بإيجاز وبتردد كبير، لأنني لم أرغب في تذكرها- كانت الجلسة مع أرمل مكلوم للغاية بعد وفاة زوجته. كان الديكور أسود والتابوت على منصة مفتوحة من جانب واحد، حتى تتمكن من رؤية مَن كان يرقد في الداخل، ولم يكن سوى الممثلة المغطاة بملاءة. كانوا دائمًا نساء صغيرات جدًّا أو أطفالًا. أجساد رشيقة ودائمًا ما تكون عارية، يمكن تشكيل إيماءاتها وأصواتها، وفقًا لكوريدج، ومن هنا العمر الذي يقع عليه الاختيار. تظاهرت الممثلة في تلك الجلسة بأنها «بُعثت»، وخرجت من الصندوق ورقصت وهي تقرأ شيئًا كتبه خصيصًا كاتب من المسرح العقلي -وأذكر أنه في تلك الجلسة كان السيد بيتر هارفيل- استنادًا إلى فقرات مختارة من رسائل الحب التي كانت ترسلها الراحلة للمريض حين تعرف أحدهما على الآخر. كانت الرقصة صادمة، بل شاذة في رأيي، وحتى لو كانت علاجًا طبيًّا، فقد كانت فاحشة أيضًا، لكنه كان مسرحًا عقليًّا، وليس فنيًّا. كان المسرح العقلي يُعتبر تقنية طبية، غير محتشمة *أو فاضحة* مثل تجريد المريض من ملابسه لإجراء عملية جراحية له.

سأل السيد إكس عندما انتهيت من قصتي: «والمريض؟».

- تحسَّن، تصالح مع ذكرى فقدانه.

- إذن صحيح أنَّ هناك نوعًا من المسرح يتلاعب بعقولنا.

- ولكن لا يمكن أبدًا استخدامه لإجبارنا على...

- هذا أمرٌ قابل للنقاش، لقد أخبرتكِ بالفعل، وسيعتمد على درجة المتعة. ألم تسمعي المثل القائل «لكل رجل ثمن»؟ أؤكد لكِ الإرادة أيضًا الشيء نفسه، وبعدها حتى الناسك الحديدي ينتهي به الأمر إلى الاستسلام للإغراء.

- لكن قاتل المتسولين لا علاقة له بالعرض (قلتُ) تظهر الجثث في أماكن مختلفة، وحيدة دائمًا، وذلك الشاهد سبنسر قال إنه لم يكن هناك أحد غير هاتشينز وذلك الحضور الضاحك.

- كما أخبرتكِ من قبل، كل شيء في هذا اللغز رائع، لكني بحاجة إلى قطعةٍ واحدة فقط لحله.

- ما الذي ترمي إليه؟

- إلى هذين الأسبوعين الفاصلين بين جرائم القتل الأخيرة. إنه المفتاح الأخير. (ثم أضاف شيئًا لا يمكن تصوره) أنا أعرفه بالفعل، لكني بحاجةٍ إلى استعادته، لذا سأذهب إلى كريستال بالاس الآن.

-6-

لم أعتقدْ أنني سمعتُ بشكلٍ صحيح، شعرتُ بالقلق.

- لا يمكنك مغادرة كلارندون دون الحصول على إذن من...

- لا أنوي مغادرة كلارندون. ولا حتى هذه الغرفة.

- ولكن...، قلت إنك ستغادر.

- نعم سأذهب، ولكن سيكون لبعض الوقت. بإمكانكِ البقاء أو المغادرة.

لم يسبقْ لي أنْ بدت عيناه ذات اللونين مثيرتين للشفقة مثل هذه المرة.

اقتربتُ وتحدثتُ أمامهما كأنني أمام نوافذ مغلقة، على أمل أن يسمعني مَن يعيش بالداخل.

- ماذا تقصد يا سيد؟ ما هذا بشأن الذهاب إلى...؟

- أنا شيرلوك هولم...

- سمِّ نفسك ما شئت، العب دور الشرطة إذا أردت...، ولكن، من فضلك لا تخلط خيالاتك مع...، مع هذا...، لن أستطيع احتمال ذلك.

لوى شفتيه في واحدة من تلك الابتسامات الباهتة.

- لماذا تخافين من أن أكون مجنونًا يا آنسة ماكيري؟ لقد تم تعيينكِ لرعاية شخصٍ مجنون.

- أنا...، لست خائفة.

- اهدئي. قصر الكريستال ليس هلوسة. إنه المكان الذي أحتفظ فيه بكل شيء؛ ما أُدركه، وما أتنبأ به، والنفايات التي يلقيها المحيط على شاطئي المتواضع. ليس بوسعي التعامل مع كل ذلك، لذا وضعته جانبًا، وعندما أرغب في استعادة شيءٍ ما، عليَّ فقط الدخول والبحث عنه.

- الدخول...، أين؟

- في كريستال بالاس، وهل هناك مكانٌ غيره. (كرَّر بعناد وصبر نافد) أنا بائع متجول أسعى إلى الحقيقة يا آنسة ماكيري! ألتقط

كل ما يعترض طريقي، لأن أي شيء يمكن أن يكون ذا فائدة. أبواب القصر ليست معتمة للغاية لدرجةٍ كافية تحول دون مرور أي شيء، وحياة رجل بالغ طويلة بما يكفي لحشد مجموعة تكون محل حسد المتحف البريطاني.

- منذ متى...، وأنت تفعل ذلك؟

- منذ أن كنت طفلًا بالطبع. عندما قررتُ أن أعرف الكثير، ولكن مُعظم ما عرفته رغبتُ لو لم أعرفه، لأن ذلك أزعجني لدرجةٍ كبيرة. وقتها استخدمتُ الكمان لأول مرة وسمحتْ لي موسيقاه بدخول القصر.

- انتظِر لحظة...، (لقد آلمني أن أقول له ذلك، لكنني توجب عليَّ أنْ أفعل ذلك) موسيقاك...، غير موجودة يا سيدي...، سيد هولمز! كمانك غير موجود (التزمَ الصمت. تدفقت الدموع على خديَّ وأنا أتحدث) هذا الكمان غير موجود ولا أنت تعزف أي شيء...، ربما لم يخبرك أحد من قبل، لأنهم...، تركوك *وحدك*، عائلتك تدفع ثمن إقامتك واكتفوا بذلك، يتحملك أطباؤك وممرضاتك للسبب نفسه، لكن لم يهتم بك أحدٌ على الإطلاق، حسنًا، باستثنائي (مسحتُ دموعي) أنا آسفة.

سأل بهدوء: «لماذا البكاء؟».

- اعذرني. سأنظف السجادة لاحقًا.

- لم أسألكِ عن *ماذا*، ولكن *لماذا*.

- أنا...، لقد غلبتني العاطفة.

- ولماذا غلبتكِ العاطفة؟

تنفستُ، وأتساءل إلى أين سيذهب هذا الكائن البائس الآن.

- لأنني لم أرغب في إيذائك يا سيد هولمز! لكنني شعرتُ..، كان عليَّ أن أخبرك.

- ألم ترغبي في إيذائي؟

- نعم، لأنك...، أنت الشيء الوحيد الذي أملكه، الشيء الوحيد الذي تبقى لي (جلستُ على الكرسي منزعجةً. اعتقدتُ أن المرساة. لم تعد معي بالفعل) لا أستطيع تحمُّل أن تخبرني بتلك الأشياء عن الكمان و...، «السيد ي»...، أنت غير قادر...، يجب أن ترى الحقيقة.

- لقد أسأتِ فهمي مرة أخرى يا آنسة ماكيري! خذي نفسًا عميقًا، واهدئي، أجيبي على هذا السؤال، تقولين إنك لا تريدين أن تؤذيني. بماذا؟ هل لديكِ سكين؟

نظرتُ إليه في حيرة: «ما الذي تقوله هذا؟».

- أسألكِ مرة أخرى، هل قصدتِ أن تؤذيني؟

أجبته متلعثمة: «لا. قصدت أنني لا أريد أن أوذيك بـــ...، بكلماتي».

- كلماتكِ! أوه! (لاحت عليه علامات الدهشة) وهل لكلماتكِ سنٌّ مُدببة أو نصل؟ هل بالإمكان لمسهم؟ هل تلمس أحدها الأخرى؟

- بالطبع لا، ولكن...

- لكن يمكنكِ أن تتسببي في أذى عميق بهم.

- نعم بالطبع. لكنها ليست جروحًا حقيقية.

- ولكنها تُسبب الألم.

اعترفتُ: «الكثير».

- وفي بعض الحالات، الموت.

- أجل.

- لذا يجب أن تكون حقيقية، حتى لو كانت غير مرئية. بإمكانها أن تسبب جروحًا بأشياء لا نستطيع رؤيتها أو لمسها، أو موسيقى بالكمان لا يراها أحد. يمكن أن نتحرك دون كلمات، نقتل دون قتلة، نسافر دون أن نتحرك من كرسينا...، أنتِ، الليلة الماضية، عانيتِ شيئًا لم تتمكني من رؤيته أو لمسه أو إدراكه بأي حاسة أخرى، لكنه يؤذي أكثر من ضربكِ في جذع الشجرة. الواقع يروي دائمًا القصة نفسها، ولكن بألف طريقة مختلفة؛ أنا أقرأ الواقع أكثر منكِ، هذا هو كل شيء (بقيتُ أحدق به. لم أستطع التفكير فيما أقول). ليس لديَّ الكثير من الوقت، سأغادر، أطلب منكِ البقاء. في بعض الأحيان يكون الأمر مؤلمًا بالنسبة لي، لكن لا بدَّ لي من البحث عن شيءٍ محدد للغاية.

قلتُ دون تفكير: «سأبقى...، سأفعل كل ما تقوله».

ابتسم ورفع ذراعيه.

كنا هناك، في ضوء المصباح الخافت والستائر مُغلقة، ويداه الصغيرتان بأصابعه الرقيقة تعزف على كمانه العبقري.

سأل بغتةً: «هل تسمعينه؟».

اعترفت: «لا».

- سوف تسمعينها، لقد سمعها ذبابة على الفور.

لقد ساورني الشك في ذلك، ولكن لم يمضِ وقتٌ طويل حتى رفع عينيه.

- القصر الكريستالي (همس) أوه، آنسة ماكيري! لو بإمكانكِ رؤيته! ستستمتعين به بكل روعته..! (لم تعد محاكاته تقليد عازف الكمان، بل لقائد الأوركسترا. حرك ذراعيه ببطء، كما لو كان ينظم

إيقاعًا بعينه. كان الجنون بعينه حقًّا. نظر إلى السقف بعينيه ذات اللونين) إنها عظيمة جدًّا...، لذا...، هائلة...، هل تشعرين بالدوار؟

أجبته بصراحة: «قليلًا».

- لا تقلقي إذا كنتِ لا ترين ذلك. إنه مصنوع من الزجاج، والزجاج لا يُرى إلا عندما يكون فوقه أشياء *ليست* من الزجاج...، لكن القصر مجرد زجاج.

أومأت بين تنهدات، غير قادرة على الكلام.

أمضى وقتًا غير محدد في تحريك ذراعيه والنظر إلى السقف. ثم رأيته يرتجف كما لو كان في نوبة حمى، تمتم: «هذا الدرج...، من هنا؟ لا، لا أريد الصعود من هُنا...، يا إلهي! يجب أن أجده...، من أجل داني...».

انخفض صوته واضطربت لهجته كأنه طفلٌ منبوذ. أدركتُ أنَّ هذا هو ما كان عليه دائمًا، ما أخفاه تحت جدار الجليد والعبقرية. السيد إكس، لا اسم له، لأنه بالكاد قد وُلدَ. كان مخلوقًا بلا حُب، حكمت عليه البشرية بالوحدة اللانهائية. ارتميتُ على الأرض وأسندتُ رأسي على الكرسي ووضعت يداي عليه، محاوِلةً عبثًا طمأنته، وإخباره بأنني هناك، وأنني لن أتركه أبدًا. لم يتحدث معي مرة أخرى، لقد نام، لكنه كان يستيقظ من وقتٍ لآخر.

لم أكن أعرف ماذا أصلي. وأخيرًا قررت أن أسأل الرب: «*أيها الرب!، اشفِه لنفسه أو اشفِنا من أجل الجميع*».

وهكذا فاجأني الدكتور بونسونبي وماري برادوك وأنا أعانق كرسيه.



رجلٌ يبلغ من العمر خمسين عامًا. سوف نسميه «ج» لم يعثر على دوافع لمواصلة العيش، كان غارقًا في مستنقع الكآبة العميق. شعر «ج» أنَّ الموت كان عتقًا له. ومسرحنا العقلي اعتبر بمنزِلة الموت بالنسبة له: تهديد ونهاية لسعادته. انفتحت النافذة الصغيرة المغلقة في قبو حياته، ودخل النور إلى ظلمته، وطهَّرها. ومع ذلك، لسوء الحظ، قام حاصد الأرواح بتحصيل ديونه بعد عامٍ واحد فقط، عندما تمكنت صاحبة المنزل من إقناع الشرطة بكسر الباب، رأوا جثة «ج» تتأرجح من حبلٍ متدلٍّ... نكرر: الطريقة نفسها التي يتمُّ بها المسرح العقلي لا يمكنها أن تمنع المصير القاتل في جميع الأحوال، ولا يمكنها أن تجبره للاعتقاد بأنَّ المسرح العقلي يمكن أن يُجبر إنسانًا ليفعل شيئًا ضد إرادته.

السير أوين كوريدج

(بعض الملاحظات عن المسرح العقلي، 1870)

عائلة السيد إكس



-1-

- منذ متى والسيد إكس على هذا الوضع؟

- عفوًا يا دكتور!

كنا وجهًا لوجه والجمجمة في المنتصف بيننا، لكننا بقينا واقفين، برادوك هي الضلع الثالث للمثلث. أو يجب أن أقول شكلًا رباعيًّا، لأنَّ السيدة موراي كانت تقف في زاويتها بجوار النافذة، وهي تحيك، وتحيك، وتتسمع. وتتناول الطعام؛ جذبتْ طبقًا من معجنات السيدة جيليسبي. وهو ما لم يمنعها من الاهتمام الشديد بالمحادثة.

- لقد سمعتِني. أنا أتكلم بوضوح. آه، لا أقول إنني أتحدث دائمًا هكذا، لكنني الآن أتحدث بوضوح.

- نعم دكتور!

- إذن أجيبي، منذ متى وهو هكذا؟ لا تتظاهري بتجاهُل ما أطلبه منكِ يا آنسة! في أحد الأيام السابقة، هرب بعض أطفال الشوارع

من أمننا ودخلوا المبنى. وسمع السير ليزلي طفلًا يبكي اليوم في حجرة السيد إكس. وأخيرًا -تقول الآنسة برادوك أنه عندما دخل الأطفال إلى كلارندون- كنتِ أنتِ والدكتور دويل...، متوترَين.

قالت برادوك: «هي أكثر منه يا دكتور!».

قالت السيدة موراي وهي تلتهم قطعة أخرى من الحلوى: «لقد حذرتك يا بونسونبي من أنَّ هذا الرجل حالةٌ خاصة».

- من فضلك.

تكلم الطبيب، لكن برادوك فقط هي التي اعتذرتْ.

شعرتُ بسلامٍ غريب بينما طغتْ على رأسي وقلبي برودة طاغية. إذا كانوا سيطردونني، فليفعلوا ذلك. كنتُ أعلم أنني ارتكبت خطأً، وأعلم أنني لم أرتكب أيَّ خطأ. ربما حضراتكم لا تفهمونني، لكن حسنًا. لا أعرف كيف أشرح نفسي بشكلٍ أفضل.

رشق بونسونبي ناظريه فيَّ بصرامة.

- كنت أسألكِ منذ متى وأنتِ على هذا النحو؛ تتحدثين مع الجميع -وربما حتى مع أطفال الشوارع، والتواطؤ مع ذلك الطبيب- بل والأسوأ من ذلك، معها؟

- لم أشاهده يتحدث إلى أيٍّ من أطفال الشوارع أيها الطبيب! (كذبت بلا خجل) لا أعرف ماذا يفعل عندما لا أكون هناك. والدكتور دويل ليس متواطئًا في أي شيء، على حدِّ علمي.

لقد دهشتُ من الطبيعية التي خدعتهم بها. هل تغيرتُ إلى هذا الحد؟ هل جعلني أتغير لهذه الدرجة؟

- واليوم؟ بعد شكوى السير ليزلي، نبهتني الآنسة برادوك أنكِ محبوسة في الغرفة مع السيد ليزلي. ماذا كنتِ تفعلين هناك

بجانب الأريكة، مع...؟ (وهنا أصبح تفكيره غائمًا. كان يبحث عن الكلمات عبثًا) أنا لا أقول في وضعٍ غير مناسب، ولكن...

- أنا آسفة يا دكتور! (لم يعرف ماذا يقول)، بدا لي أن النزيل كان متوترًا. كنت أحاول تهدئته.

- لم أنتهِ. (بعد أن اعتدل، نجح بونسونبي في تحقيق معجزة بمواجهتي) يواصل السيد ويدون شكواه بأنَّ مساعده، جيمي، يدير المهمات المستمرة للنزيل لدينا. وأخيرًا وليس آخرًا، وبالتزامن مع هاتين الجريمتين المؤسفتين، يرفض نزيلنا تناول الطعام. هل تعلمين ذلك؟

- الطعام، نعم. أعتقد أن الخبر أثَّر عليه.

- متأثرًا؟ لقد تأثرنا جميعًا، وتأثرتْ مدينة بورتسموث بأكملها! هل يتمتع السيد إكس بامتياز العواطف؟ أو ربما...، آه...، ربما هو هوسه بالجرائم؟ (لو كان مكتب الدكتور بونسونبي كهفًا، لكانت هذه العبارة قد أحدثت أصداءً. لم أقلْ شيئًا جعلني هذا الصمت أبدو كالمذنبة، اعترفتُ لنفسي بذلك) هل أنتِ في هذا الموضوع مرة أخرى؟

لم أستطع الإجابة. لقد قامت بها عني كلٌّ من برادوك والسيدة موراي: «بالطبع»، «هل كنت تشك في ذلك؟».

نفخ المدير صدره فخرًا، وقرر: «أعطياني لحظة بمفردي مع الآنسة ماكيري».

تحركت برادوك بلا صوت، كما تفعل عادة، كما لو كانت تطفو بجسدها الذي يشبه العوَّامة في بحرٍ غير مرئي. كانت لديها رعشة على جفنها الأيمن فقط، لكنها جعلت وجهها المستطيل بأكمله يرتعش. سددتْ وجهها نحوي في تلك اللحظة وهي تسير تحت القبعة الضخمة.

لقد جعلتني أشعر بالأسف من أجلها. اعتقدتُ أنَّها امرأة بائسة. على الأقل كان لديَّ روبرت، لكن هل لديها شخصٌ ما؟ لا بدَّ أنها كانت معجبة بالدكتور دويل، ولهذا السبب دعت بونسونبي إلى الغرفة. كنت أَوَّدُ إخبارها أن الطبيب الشاب -بالكاد- كان مهذبًا معي وأن نيته في مرافقتي إلى المسرح كانت مختلفة تمامًا عما تخيلته. لكنني لم أَلُمْها على غيرتها. لقد كانت وحيدة مثلي، محبوسة في سجن جسد يتألم.

خرجت السيدة موراي خلفها، وهي تحتضن طبق المعجنات مثل طوق النجاة، وتُلقي علينا نظرات الاستنكار.

انتظر بونسونبي وقتًا طويلًا قبل أن يتحدث مرة أخرى. اعتقدت أنه حتى الباب قد نسي أنه أُغلق عندما سمعتُ صوته مرة أخرى.

والشيء المضحك أنني توقعتُ لهجةً عنيدةً، لكنه بدأ يتحدث بنعومة.

- اسمعي، كما تعلمين، أو كما يجب عليكِ أنْ تعلمي... فإن تجربتكِ في الملجأ قلبت الموازين بشكلٍ كبير لصالح وظيفتكِ يا آنسة! (عدل ربطة عنقه ولعب بالأزرار الموجودة على سترته) ليست لدينا تلك المشكلات مع المقيمين الآخرين، لكن السيد إكس...، حسنًا، آه، إنه نزيلٌ صعب المراس. ويجب أن أعترف أنه قد شهد معكِ بعض التغيير...، آه...، لا أقصد التغيير العميق أو المرغوب فيه تمامًا، بل التغيير -مهما كان طفيفًا، وبالتأكيد- مرغوب أكثر من العكس. إنه أكثر نشاطًا وسعادة. يخرج إلى الشاطئ. كل ذلك يبدو جيدًا بالنسبة لي. ومع ذلك، هناك بعض الهفوات الأخرى. ويجب أن أحذركِ يا آنسة...

قلتُ له: «ماكيري».

- ماكيري. يجب أن أمنعكِ.

ورأيته يضع يده في درج المكتب. اعتقدت أنه قد حانت اللحظة الكبرى. ذلك الذي يُشكل الهدف، هدف كل أحاديثه. لقد أخذني إلى هناك ليريني ذلك -ربما طردي- كانت *تلك* قطعة من الورق مستطيلة الشكل ومُسطحة تمامًا. بدا الأمر، في الوقت نفسه، وبقدر ما يمكن أن يبدو *هذا* الشيء، بريئًا تمامًا وخطِرًا تمامًا. فقد تركه على الطاولة، في متناول يدي، كما يفعل لاعب الورق بالبطاقة الرابحة، بينما كان يتحدث.

- عائلة السيد إكس لم تنسَهُ بالكامل.

جال بصري بين المظروف وبينه دون أنْ أفهم.

اعترف بدوره: «نعم، أعرف لقد أخبرتكِ أنهم وضعوه في دور رعاية منذ أن كان طفلًا ولم يهتموا به بعد ذلك، لكنهم قلقون. أكثر من أي شيءٍ لأنهم يعرفونه. والآن يريدونه أن يكون هنا، في رعايتنا. وأنا أريد أن تستمرَّ رغبتهم في بقائه هنا، آه...، فعائلة السيد إكس كريمة في مساهماتها لكلارندون بالرغم من أنها ألزمتنا ببعضٍ. كانت واضحة بالنسبة لي منذ أنْ جاء السيد إكس إلى هنا، بيد أنَّ زيارة المحقق إلى هنا ذاك اليوم، والمعلومات التي أتلقاها من الآنسة برادوك أثارت مخاوفي. حتى المحقق اختار أنْ يوجه أسئلة مباشِرة -دون أن يخبرني- لأسرة السيد إكس، وبالطبع لم يرقْ هذا لهذه الشخصيات رفيعة المستوى. لقد تسلمتُ هذا الخطاب، آه...، إنها لا تحتوي على أي شيءٍ ملزم...، لا أريد القول إنه لا يحتوي على أي شيء، لا يوجد اسم مثلًا، ولكن بعض المعلومات المفيدة. أريدكِ أن تقرئيه هُنا والآن بصوتٍ عالٍ واهتمام كبير».

أخرجتُ الورقة من الظرف -بأصابعي المرتعشة- ورقة مطوية نصفين. تُمرر إصبعك فتلاحظ بروزات غريبة. عندما فتحته فهمت السبب، لقد كان مكتوبًا بإحدى تلك الآلات الأمريكية التي بدأ استخدامها

في بلادنا للوثائق الرسمية، ولكنني، على وجه الخصوص، لا أرى لها مستقبلًا، وحده الأمريكي قد يفكر في الكتابة بآلة، حيث يتبخر الخط الجميل، وشخصية الكلمات، ورسومات الأفكار تمامًا. كيف يمكن لأي شخصٍ أن يكتب رسالة عن أحد أفراد أسرته باستخدام آلة فظيعة؟ لقد دلل ذلك على الكثير -ولم يكن بالشيء الجيد- عن تلك «الشخصيات رفيعة المستوى»

لكن المحتوى كان لا يُصدق.

قرأته بصوتٍ عالٍ كما طلب، وألقيتُ نظرةً سريعة على بونسونبي من وقتٍ لآخر للتأكد من أن هذه ليست مزحةً كبيرة.

إرشادات عن كيفية التعامل مع السيد إكس

(تُستخدم من قِبل المختصين مهنيًّا)



تدرك هذه العائلة (التي سيُشار إليها من الآن فصاعدًا بـ العائلة (ف) حجم الإزعاج الناتج عن سلوك السيد إكس، يُرجى من السادة بعائلة (ف) إرسال هذه القواعد إلى موظفي المصحة التي ستكون بمنزلة تعليمات يُشار إليها فيما يلي باسم (آي) تتعلق بكيفية التعامُل مع السيد إكس في مثل هذه المضايقات. سيتم تنفيذ ما سبق ذكره في الموعد المحدد في الـ (ر) بدءًا من لحظة استقباله وإقامته. وتتألف من العناصر التالية:

1. يعاني السيد إكس مرضًا عقليًّا (يُطلق عليه منذ الآن إي إم)، ليس من مسؤولية العائلة تحديد نوع المرض الذي يعانيه السيد إكس، بيدَ أنَّ السادة المذكورين أعلاه يعتبرون من المناسب أنْ يوافق العاملون في المصحة (ر) على جميع البنود المذكورة (آي).

2. قد تصل إحدى هواجس السيد إكس المشار إليها فيما يلي بـ (واو) برغبته في أن يدلو بدلوه في قضايا قانونية، جرائم لم تُحل (من الآن سيُرمز لها بـ س ث) والتي قد يسمع عنها بالصدفة أو يقرأها في الصحف.

3. لا يجب تشجيعه أو تحفيزه أو امتداح السيد إكس تحت أي مسمى، لأي فكرة أو استنتاج أو تخمين يصدر عنه بشأن الجرائم.

4. كمان السيد إكس.

هنا كان عليَّ التوقف عن القراءة والنظر إلى الدكتور بونسونبي، الذي بدا منتصب القامة، كأنه يسمع النشيد الوطني.

قلتُ وأنا مرتبكة: «كمان السيد إكس».

أجابني الدكتور بونسونبي: «أكملي».

4. فيما يتعلق بكمان السيد إكس، وسيُطلق عليه (ك) تتم معاملته بعناية فائقة، دون عنف وبمنتهى الرقة والنظافة باعتباره شيئًا هامًّا وقابلًا للكسر، بالرغم من أنَّ أفراد العائلة يعلمون مسبقًا أنه ضمن نقاط الخلل العقلي للسيد إكس،

ولا يخفى على طاقم المعنيين به الأثر النافع والمهدئ باستعماله الوهمي لهذه الآلة.

(دون توقيع).

التقت عيناي بعينَي الدكتور بونسونبي ورمش كلانا.

أخبرته: «لم أفهم هذا البند الأخير».

ترجم الدكتور بونسونبي المحتوى: «الحفاظ على ذلك بعيدًا عن متناول السيد إكس، لقد كتبوا لي بالفعل في مناسباتٍ أخرى. ماذا تعتقدين؟».

- لا أعرف ماذا أقول...، أنا...، سأعطيهم تقدير ممتاز، كأنه اختبار.

لم يبتسم بونسونبي. فركَ أصابعه بعضها ببعض كما لو كان يقوم بالإشارة إلى «الـمال»..

- أعترف أنهم يفتقدون...، آه...، بالتأكيد، تفتقد لهجتهم لشيءٍ من المودة، لا أقول تمامًا، ولكن شيئًا ما. على الرغم من أنه يجب أن يؤخذ في الاعتبار أن عائلة السيد إكس مشغولة للغاية. قد يقول شخصٌ ما إن هذا لا يُعتبر عذرًا، لكنني أعتقد أنه كافٍ على الأقل لالتماس العذر لهم لعدم دخول عالم العاطفة بشكلٍ كامل. تخيلي المعاناة التي سيكابدها أحدهم لوجود أحد أفراد الأسرة بهذه الخصائص.

- سأضطلع بهذا الأمر يا دكتور!

حدق بي بونسونبي وهو يسحب الورقة من يدي ويطويها دون عناء، لأنها كادت تطوي نفسها وتعود بالكياسة نفسها إلى المظروف المثالي الأصلي. لا أعرف ما الذي لمحه في عينيَّ، لكني متيقنة أنه لم يكن حتى نصف ما كنت أشعر به. وسار بخطواتٍ هادئة نحو الباب.

- يا آنسة! عندما وظفتكِ اعتقدت أنني اتخذت أحد أفضل القرارات في السنوات الأخيرة بالنسبة لكلارندون. لا تجعليني أندم على ذلك. من الآن فصاعدًا، لا تشجعي السيد إكس ولا إلى أي هوسٍ آخر من أي نوع.

- تمام دكتور!

لكن كان عليَّ أن أكبح جماح غضبي وأنا أسير في الردهة. لقد جعلتني تلك الرسالة أتغير، ولكن ليس بالمعنى الذي قصده محررها أو محرروها، أيًّا كانوا. كيف كان من الممكن تصوُّر عائلة مثل هذه؟ كيف يمكن كتابة مثل هذه الوثيقة الباردة فيما يتعلق بشخصٍ عزيز مريض، مُحتجز في دور رعاية منذ أنْ كان طفلًا؟ مَن هم السادة (ف)؛ أشخاص عديموا القلب، ماديون، عبثيون، وجاحدون؟ شعرتُ بالرغبة في البكاء. السيد إكس البائس، بدتْ لي كل عيوب شخصيته مبررة في تلك اللحظة، وتقريبًا منطقية بعدما قرأت هذا الشيء. ومهما كانت أهداف تلك العشيرة عديمة المشاعر الذين دفن السيد إكس ذكرياته عنهم في «قصر الكريستال»، المشاعر التي أثاروها كانت على العكس تمامًا مما قصدوه.

في تلك اللحظة، كنت مصممة تمامًا على مساعدته في القبض على قاتل المتسولين.

-2-

ولكن حدث شيءٌ غير معتاد ليُعرقل خطتي في صباح اليوم التالي؛ السيد إكس نفسه. حين دخلتِ الخادمة لتضع له وجبة الفطور كان قد غرق في واحدةٍ من موجات الوحدة وفقدان الرغبة لعمل أي شيء، الستائر مُسدلة، ومنع دخول أي شخص. حين دخلتُ كان ذقنه مدفونًا

في صدره ولم يتحدث إليَّ. فضَّل بونسونبي احترام قراره، كما اعتاد أنْ يفعل دائمًا مع الرغبات المقبولة إلى حدٍّ ما لجميع مرضاه.

ومع ذلك، كنت أعلم أن هناك استثناءً واحدًا: لقد قام جيمي بيجوت بزيارته. عدة مرات ذاك اليوم.

أمَّا الدكتور دويل، الذي جاء صباح ذلك اليوم، فلم يتمكن من رؤيته. أخبرته في الردهة: «لا يتحدث معي أيضًا يا دكتور! وقد فقد شهيته».

- عزيزي شيرلوك! (ابتسم مع تنهيدةٍ حزينة) لا بدَّ أنه يشعر بالمسؤولية عمَّا حدث لذلك الصبي المسكين.

- آخر مرة تحدثتُ معه بالأمس كان لا يزال متمسكًا بوهم القبض على المجرم.

- ولكن هل ما زال يستقصي الأمر؟

- لم يعد يفعل أي شيء. يبقى في كرسيه، لا يرغب في رؤية أحد.

كان الاستثناء هو جيمي بالطبع، لكنني لم أعرف سبب هذه الزيارات. ربما أحضرَ له الصحف أو الرسائل أو حتى أموال العائلة. لقد شرعتُ في معرفة ذلك. واقترحتُ أيضًا شيئًا آخر وكنت بحاجة إلى دويل من أجله.

سأل دويل: «وهل لديكِ أي نظريات؟».

كنت أودُّ أن أخبره بكل ما قاله لي السيد إكس، لكنني لم أعرف حتى من أين أبدأ. حتى إنني شعرت بالخجل من الحديث عن تلك القصة عن مسرح المتعة اللامتناهية، والتي ذكَّرني بصانعي المعجزات، «رجال المسرح الساحر»، وهي حكاية ابتدعوها لإخافة الأطفال، ولكن يبدو أنَّ مريضي المسكين قد أخذها على محمل الجد. كنتُ سأتأذى لو رأى دويل مدى مرضه.

- لديه الكثير. لقد تحدث عن رجلٍ مريض آخر، في أكسفورد، أخبره بأشياء عن نوعٍ ما من...، مجموعة، أو طائفة. جنون محض. وهو لا يزال مهووسًا بالمسرح.

كان دويل يُدلك وجهه.

- أفهم ذلك. قد تكون بعض الأشياء نتاج جنونه، لكن لا شك أن مسرح كاريداد الخيري يتصل بالضحايا بطريقةٍ ما.

فجأة تذكرتُ شيئًا: «عمل تايلور كعاملٍ مسرحي، وقام داني باختبار الأداء في مسرح كاريداد».

أومأ دويل برأسه ولمعتْ عيناه الزرقاوان: «كوبيلوس وبيتيروسو مرة أخرى...».

- لقد مرَّ جميع الضحايا من هناك...، هذه حقيقة يا دكتور!

- قاتلٌ مجنون في فرقة كوبيلوس، يا إلهي! يبدو الأمر كأنه خبر صحفي...، لكن دون دليل لا يمكننا الذهاب إلى الشرطة. وهناك أربعة أيام متبقية حتى...، أو *الأيام التالية*.

أخيرًا امتلكتُ الجرأة لأقول بصوتٍ خافت: «دكتور! هل تتذكر الباب المُغلق خلف المسرح؟».

لقد تذكر. لقد كان من المدهش مدى سرعة استجابته لي.

- نعم، لقد أشرت لي لأراه. من المحتمل أن يكون خاصًا بالعروض السرية آنسة ماكيري! لا أعتقد أنَّ له علاقة بالأمر. تحتوي العديد من المسارح على حجرات خلف الكواليس حيث تقدم عروضًا صغيرة لجمهور مُختار. إنهم يعيشون من ذلك وليس من الأعمال المشتركة. في الواقع، هذه هي الطريقة التي يُمولون بها إنتاجاتهم

الكبيرة. لكنني لا أعتقد أنهما مرتبطان...، (ظلَّ ينظر إليَّ) بالرغم من أنه ربما يكون أحد عملائه.

كنت أعرف العروض السرية جيدًا، فقد ذهبتُ إلى أحدها في هذا المكان الأخير مع روبرت قبل بضعة أيام. كانت وقحة، كأنها خرجتْ للتو من فرن الخيال الجهنمي، ولكنها لم تكن خطِرة لدرجة القتل. إنَّهم يُنتجون *المتعة* وحسب، وهو ما جعلني أتذكر الأفكار الفانتازية للسيد إكس. تُرى هل يوجد شيءٌ ما بالمسرح قادر على إنتاج المتعة، وفي الوقت نفسه على أن يُجبر أحدهم على فعل شيء عكس إرادته؟

- عذرًا على السؤال دكتور! (احمررتُ خجلًا) هل بإمكانك أن تساعدني لـ...؟

فحصني دويل ثم أوما برأسه. وجعل هذا وجهي أكثر احمرارًا: «أعرف ما تحاولين اقتراحه يا آنسة ماكيري! يمكنني تسوية ذلك الأمر، نعم. لكن عليَّ تحذيركِ أن هذه مشاهد غير لائقة بالنسبة للمرأة...».

لم أهتم بالفُحش. أردتُ فقط معرفة ما كان يخفيه كوبيلوس.

- أريد أن أذهب. (أصريتُ) لكن يجب أن أقول شيئًا للدكتور بونسونبي.

- أسهل شيءٍ بالنسبة لي هو التحدث معه. لديَّ بعض التأثير عليه، لأن بعض المرضى الذين أعالجهم مرشحون مستقبليون لعلاج كلارندون.

عندما ودَّعت دويل، رأيت جيمي بيجوت ينزل على الدرج. دخل المكتب وخرج واضعًا قبعته على رأسه. استقبلنا في أثناء مروره. أين كان ذاهبًا؟ ما هي التعاملات التي كانت هناك مع المريض الخاص بي؟ سأرى ماذا سأفعل «معك»، فكرتُ.

شيءٌ ما جعلني أضحك، تقريبًا وبطريقةٍ ما كنت أتبنى دور المحقق، وهو الدور نفسه الذي يبدو أن السيد إكس قد تخلى عنه.

-3-

أمسكتُ بجيمي بيجوت في اليوم التالي. فقد استيقظتُ مبكرًا جدًّا عن قصد ورأيته يهرع إلى الأسفل مرة أخرى. دخل مكتب رئيسه دون أن يلاحظ وجودي -في تلك الساعة لم يكن ويدون قد وصل بعد- كانت نظريتي صحيحة؛ تقريبًا يُنفذ كل مهام السيد إكس في الصباح الباكر قدر الإمكان ليكون ويدون موجودًا. اقتربتُ وأطللتُ برأسي. مرة أخرى التقط القبعة، وهو على وشك المغادرة، كاد أن يُصاب بنوبةٍ قلبية.

- من فضلكِ يا آنسة ماكيري! يا للرعب الذي أصبتِني به.
- رسالةٌ أخرى من الرجل الجالس على الكرسي، جيمي؟

أمسك قطعةً من الورق ووضعها في جيبه: «لا أعرف ماذا تقصدين يا آنسة!».

- أعني أنك تعمل لحسابه فقط في الآونة الأخيرة. أعتقد أنَّه يدفع لك أكثر من راتبك في كلارندون. إلى مَن يكتب؟
- أرجوكِ، أنتِ تعرفين بالفعل أنَّ السيد إكس لا يريد...
- أنت تعلم أنني ممرضته، جيمي! السيد إكس مختل.
- لا، هو لا...
- لا أعرف أي شياطين تلك التي جعلتك تدخل في رأسه، ولكن بغضِّ النظر عن مدى ذكائه، فهو يحتاج إلى المساعدة، ولا يجب مجاراته في كل شيء، أخبِرني إلى مَن يكتب.

كدتُ أشعر بالأسف تجاهه. جيمي -يائسًا- نظر إلى الأرض.

- لا أستطيع أن أتحدث عن ذلك..

- أمَّا أنا، فأستطيع. بإمكاني التحدث مع الدكتور بونسونبي مثلًا حول صناديق البسكويت والرسائل. سأفقد وظيفتي، لكنني لن أكون الوحيدة.

- آنسة ماكيري! من فضلكِ...! لن تفعلي ذلك بي!

- إذا أخبرتني بما أريد معرفته، فسوف أنسى الأمر برمته.

بدا أن الشر والخير يتقاتلان في وجه جيمي بيجوت، أو المكر والحماقة، أو ربما الفطرة السليمة والبلاهة. ومهما كان الأمر، فقد اختار الحل الأكثر عملية. وكنت أتطلع إلى إطلاق سراحه، بعد كل شيء.

- إنه مجنون، نعم (أكَّد) لكنه يدفع لي الكثير مقابل أشياء هينة، يجعلني أقرأ له الصحف...، نُسخ احتياطية من صحيفة بورتسموث *آي*...، وهو الآن يراسل كاهنًا كاثوليكيًّا في منطقة جوسبورت. رسائل سرية في نوعٍ ما من الشفرة...، أنا لا أفهم شيئًا، من فضلكِ لا تدعيه يعرف أنني أخبرتكِ.

- لم أكن أتوقع ذلك. أي كاهن...؟ (ثم اعتقدت أنني تذكرت) «الأب فيليبوتس»؟

- هو نفسه. هل تعرفينه؟ كاهن كاثوليكي من الرعية من جوسبورت. الآن لدينا عددٌ كبير من الكاثوليك بالتزامن مع افتتاح تلك الكاتدرائية.

كان يُشير إلى الكاتدرائية البابوية في بورتسموث. كان مبنًى جميلًا، ومن المقرر أن يُنظَّم هناك حفل افتتاحٍ كبير في أغسطس.

أعتقد أنني أعرف ذلك.

سألته: «ما هي الرسائل؟».

- الشيطان وحده يفهمهم، أقرأ له الردود وهو يُملي عليَّ خطاباته.

- ولكن ماذا يقولون؟

- أقسم أنني لا أعرف. هناك اسمه...، وغيره من الحروف والأرقام.

- اسمه؟

- «إكس». في بعض الرسائل يوجد الحرف إكس، أعتقد أنه اسمه.

- هل هناك أيضًا «ياء»؟

ولكن جيمي نفى.

كان من الواضح أن السيد إكس قد فقد عقله تمامًا، ولكن ماذا عن الأب فيليبوتس؟ لماذا رافقه في ذلك الجنون؟

توسل جيمي: «أتوسل إليكِ يا آنسة ماكيري! لقد جعلني أقسم ألا أقول ذلك».

- لا تقلق يا جيمي! سأحتفظ بالسر...، إذا فعلتَ الشيء نفسه بحفظ هذه المحادثة.

كان جيمي مثلما كنت دائمًا، ذلك النوع من الكائنات الذي لا يزال يؤمن بالكلمات، وأن العالم يميل بشكلٍ موضوعي نحو الخير، والشيء الوحيد الذي يمنعنا جميعًا من أن نصير أصدقاء أننا لم نتحدث مع بعضنا بعضًا. موافقتي ووعدي كانا كافيين له، فعاد جيمي الواثق السعيد. بيدَ أنني شعرتُ بالقلق. إن كتابة تلك الرسائل إلى كاهن لا أعرفه كان معناه الوحيد امتداد سخافاته خارج أسوار كلارندون. كانت هناك أيضًا رسالة عائلته واسعة النفوذ. من ناحية كانت هناك أوهامه الخاصة -«مجموعة العَشرة»، و«الأوهام»، و«السيد ياء»، «الكمان»- ومن ناحيةٍ أخرى أشياء أبعد ما تكون عن الحقيقة لكنها قد تنهار فوق رؤوسنا جميعًا، بما في

ذلك جيمي، وربما أيضًا الدكتور دويل المسكين إذا ما تسبب في شيءٍ خطِر من خلال العزف هذا.

أمَّا ما قد يحدث معي، فنتيجته واحدة، لكنني لم أرغب في التسبب بضررٍ لأي شخصٍ ما كان.

-4-

دخلتُ غرفته ذاك الصباح متوقعةً أنْ أجدَ الأجواء المضجرة نفسها اليوم السابق، لكن كانت لديه مفاجأة جديدة يخبئها لي؛ مزاجه كان جيدًا لدرجة الشعور بالبهجة. الستائر مسدلة، وصوته الناعم دائمًا.

- أوه آنسة ماكيري! السماء صافية اليوم، إحم، يا لها من زيارة سارة! لقد تأخروا في تقديم الفطور لي، إحم إحم...، هل بالإمكان إخبار السيدة جيليسبي بالتعجيل بإحضاره، إنني أتضور جوعًا مثل ذئب. هل تفعلين ذلك من أجلي؟ أعلم أنكِ سوف تفعلين، فأنتِ أفضل ممرضة اعتنت بي على الاطلاق...، إحم...

سألته: «إنك تسعل، هل اكتشفت شيئًا؟».

ابتسم دون أن يُجيب وسعل بخفة. كان يقبض على عصاه في يده، ويقلبها مرارًا وتكرارًا، فيما يتطلع نحو النافذة. ما كل هذا؟ قررتُ أنْ أخفف من حدة الأمر قليلًا.

- لقد تلقى الدكتور بونسونبي رسالةً من عائلتك. (أخبرته، كان هناك صمت خلف الكرسي. تابعت) لقد اشتكى لهم المفتش مرتون على ما يبدو. وهم يوبخون بونسونبي لأنك تتدخل في الاستقصاء عن جرائم قتل المتسولين.

نطق أخيرًا: «وما رأيكِ يا آنسة ماكيري؟».

- سأكون صادقةً معك، بالرغم من أنني لا أريد الإساءة إليك. أعتقد أن تلك الرسالة ليست طبيعية. إذا كانت عائلتك هكذا، فأنا...، حسنًا، أنا أفهمك أكثر من ذي قبل.

- آه، لقد قلتُ ذلك بالفعل؛ أنتِ رائعة.

ثم سعل.

- ولكن هذا لا يعني...

- أن تصدقيني (قاطع السيد إكس) بالطبع لا، ولكن لا تحكمي عليهم بشكلٍ سيء أيضًا، فهم لم يكن لديهم الوقت للعاطفة، ولم يعرفوا كيفية إنتاجها، وهو ما يعجبني بشكلٍ جزئي، لأنهم يضعون العواطف جانبًا، ويختزلون كل شيءٍ في التفكير والعواقب المنطقية.

- مثلك.

- لا، إطلاقًا، أنا أكرسُ نفسي للحدس، لقد ذكرتُ لك ذلك بالفعل؛ لا شيء يمكن فهمه بالعقل والمنطق وحدهما، يجب أن نضيف القليل من الجنون.

- يعتقد الدكتور بونسونبي أنك تضيف منه الكثير.

- الدكتور بونسونبي لا يهتم إلا بالاسم الجيد لكلارندون الذي يمنحه العملاء الذين يحتاج إليهم، لكنه يتحملني لأن عائلتي تدفع، حسنًا.

- وهم يساعدونك بطريقةٍ ما.

- بالنسبة لهم، لا يتطلب الأمر أي جهدٍ على الإطلاق...، مخصصاتهم الشهرية تتيح لي حياة مستريحة، وهو كل ما أحتاج إليه. حسنًا، ولكِ أيضًا (توقف عن الكلام، وسعل مرتين أخريين، ثم وضع

العصا جانبًا) هذا العالم مظلمٌ تمامًا، لكنكِ أحد تلك الإضاءات القليلة التي يجود الحظ بها.

تظاهرتُ بالتقليل من أهمية المجاملة. تجنبتُ ذلك، أجل، بجهدٍ كبير من الانفعالات، واعتقدتُ أنه كان بإمكاني أن أقول الشيء نفسه عن هذا الموضوع. إنه مجنون، ولكن ثاقب البصيرة بشكلٍ غريب. بارد، لكنه رقيق بشكلٍ عجيب. مزيج غامض من المكونات الفريدة. كنت على يقين من أنه إذا كتب عنه أي شخص -دكتور دويل، على سبيل المثال- سواء أطلقوا عليه اسم شيرلوك هولمز أو أي شيءٍ آخر، فسيتعين عليه أن يؤدي عملًا فذًّا استثنائيًّا، يستحق نجاحًا مثل أعمال شكسبير أو ديكنز. تُرى هل السيد إكس مجنون أم عاقل؟ بارد أم عاطفي؟

نطقَ فجأة: «كلاهما».

سرتْ رجفةٌ في أوصالي.

- لا، ليس مرة أخرى... (تمتمتُ غير مصدقة) لا يمكنك أن تعرف بماذا أفكر.

- وأنا لا أعرف، صدقيني، ولكنكِ بقيت صامتةً لفترةٍ طويلة، آنسة ماكيري،!وعندما نفكر طويلًا وبجدية في شيءٍ ما، فإننا نزن دائمًا بين خيارين. الحل في جميع الحالات تقريبًا هو مزيجٌ من الاثنين معًا. الآراء المتعارضة هي مجرد مكونات لصنع الحقيقة؛ يمكنكِ تسميته بقانون هولمز. فالحقيقة دائمًا مزيج، وهذا ينطبق أيضًا على هذا السر العظيم.

- هل أحرزت أيَّ تقدم مع المتسول القاتل؟

- بالتأكيد نعم، يا آنسة ماكيري! بالتأكيد نعم، هذا اللغز مذهل والقاتل، لاعبٌ ماكر وماهر للغاية، ولكن كش ملك قريبًا.

- اعذرني إذا قلت لك إنني لا أفهم شيئًا.

- إذا لم يفدكِ العقل، اتركيه جانبًا. أحتاج إلى الاسترخاء الآن، هل يمكنني الحصول على الكمان الخاص بي من فضلك، آنسة ماكيري؟

رفع يديه الصغيرة ذات الأصابع الرقيقة في الهواء. لم يسبقْ له أن سألني شيئًا كهذا، ولا أعرفُ لماذا خطرَ لي أنَّ هذا هو بالضبط سبب طلبه مني الآن، لقد كانت خطوة أخرى في ثقتنا المتبادلة. نوعٌ من الاختبار بانتظار النتائج، مثل الاختبار الذي أجريته عندما كان الأطفال يستعدون لدخول الغرفة لأول مرة.

شعرتُ بالدوار عندما أجبته: «أين... أين هو؟».

- على الطاولة الصغيرة.

كانت لهجته كما لو كان يُشير إلى حقيقة واضحة.

لم يكن هناك سوى كوب من الماء على الطاولة، بالطبع. لكن عندما تحركتُ نحوها وفكرت بشيء، المحاكاة كانت شيئًا ضروريًا فقط عندما التفتُ نحوه -لأني أدرتُ له ظهري في تلك اللحظة- لكنني قررتُ أن ذلك سيكون بمنزلة الكذب عليه. لذلك تلاعبت بالهواء محاوِلةً أن أتخيل الخشب المطلي، والحبال المشدودة، والزخارف الحرفية. وهذا ما جعلني أتذكرُ الرسالة العائلية البغيضة: تعامل مع الكمان بعناية. قابل للكسر. التظاهر بإمساك شيءٍ ما؛ التفتُّ إليه.

- إن وزنه خفيف للغاية.

- إنه ذو نوعيةٍ جيدة، شكرًا لكِ آنسة ماكيري!

اقتربتْ يدي من يده وكما لو أنَّ الجنون اخترقها.

- سأعزف لكِ شيئًا.

أمضى بعض الوقت وهو يحرك ذراعيه كما هو الحال دائمًا. محاكاة ساخرة سخيفة. لكن، عندما نظرتُ إليه، بدأتُ أعتقد أنَّه لم يعزف أحدٌ شيئًا بمثل هذا الجمال بالنسبة لي. لم يحدث ذلك أبدًا في حياتي. وهو ما كان حقيقةً وكذبًا في الوقت نفسه.

ما أقوله هو أنَّه عندما خفض يديه أطبق *الصمت*، ستظن أنني مجنونة، لكني أقسم أنني شعرت بالفرق عن الصمت السابق. *وإذا كانت الحقيقة لا تناسبك، اتركها جانبًا*. وفي خضم اكتمال الإدراك الروحي -أو الجنون- الذي كنتُ فيه، سمعتُ صوتهُ الصغير مرة أخرى: «لا تنسَيْ تنبيههم لوجبة الإفطار، إحم».

ربما كان السيد إكس على حق، قانون هولمز، فحدُّ الكمال موجود في هذا الخليط الملتبس للأشياء. هذا هو قانون هولمز.

-5-

لم أخبره بأي شيءٍ بالطبع. كانت هذه هي خطتي. وتخيلتُ -على أي حال- أنه يعرفها بالفعل، بحدسه، بقدرته الخارقة على اكتشاف الأشياء في الآخرين. وإذا كان الأمر كذلك، فهو لم يحاول تثبيط عزيمتي، وهو ما اعتبرته إشارة أنه يريد مني التحقيق في الأمر، بعد إخفاق أطفاله الجواسيس في فعل ذلك. تحدَّث دويل إلى بونسونبي من جانبه، وكما توقع، سرعان ما حصل على إذنه. جاءت المشكلة من اتجاهٍ غير متوقع: زميلاتي. نيللي ورينجتون وجين ويمبول كان لديهما الكثير من المهام ولم ترغبا في تحمل مسؤولية السيد إكس، وكنتُ أتمنى مجددًا أن تضطلع سوزي ترينش، لكنه تصادف أنها كانت تنوب عن مديرتها في إجازة نصف اليوم، ومعنى ذلك أن تتولى سوزي الإشراف على المصحة

بالكامل، من المستحيل أن أسالها، ومع كل شيءٍ طلبتُ منها ذلك، بالرغم من أنني تلقيتُ الإجابة التي انتظرتها.

- هل طلب منكِ الخروج مرة أخرى؟ (وعندما أومأتُ برأسي إيجابًا) هذا أمرٌ جديٌّ إذن.

- ليس الأمر كما تعتقدين، أقسم لكِ.

ضحكتْ غير مصدقة عندما خرجت برادوك من غرفة اللورد ألفريد ومعها صينية من الشاش المستعمل، فأخافتنا كأننا حمامتان على حافة النافذة.

- ما الذي يحدث هنا؟ هل تتآمران على شيءٍ ما؟

تخطى قلبي النبض ولم أستطع حتى التحرك. ولا سوزي. اعتقدتُ أن سوزي بقيتْ ليس فقط من أجل مديرتي، بل من أجلي، لتدعمني، لكن الحقيقة هي أنها فعلتِ العكس تمامًا، فبوجود سوزي المسكينة، لم أكن سأستطيع الكذب. كان من السهل بالنسبة لي أن أعترف في نهاية المطاف بأن الدكتور دويل طلب مني مرافقته إلى المسرح بعد ظُهر ذلك اليوم.

وبعد صمتٍ قصير نظرتُ إليها. بدتْ على وجه برادوك علامات الازدراء والتي بدا أنها ولدت بها. لكن التشنج اللاإرادي أبطلها. فكرتُ: وداعًا لموعدي.

- هل تعذريننا للحظة يا سوزي؟ (طلبت، لم يكن لدينا مكان «خاص» للتحدث، لذلك وقفنا في مكاننا) هل تعتقدين أنني كنت ضدكِ منذ واقعة بونسونبي يا آني؟

لم يكن سؤالًا، لكنني أجبتُ عليه بكذبة مهذبة.

- لا، لا، على الإطلاق، يا آنسة برادوك!

قالت كأنها تتجاهلني: «لديكِ أسبابكِ للتفكير بهذه الطريقة، أنا، صدقيني أو لا، أنا آخذ كلارندون هاوس وعملي على محمل الجد. وعلى الرغم من ذلك، أعتقدُ أنكِ أديتِ عملًا جيدًا مع السيد إكس، لقد تورطتِ كثيرًا...، دعيني أُنهي كلامي. إنه شخصٌ خبيث للغاية، قادر على الحصول على ما يريد من الآخرين، ويجلس هناك على كرسيه...، عندما تعتقدين أنك توصلتِ إلى شيءٍ جديد لمساعدته، فذلك لأنه أراد ذلك بهذه الطريقة وعلى هذا النحو. يجعلكِ تعتقدين أنها أفكاركِ، لكنها أفكاره. إنه شيطان».

«لكنه مريض يا آنسة برادوك!»، أجبتها بهدوء وأنا أفكر: «أنتِ على حق، وإذا لم أعترف بأنكِ على حق، فهذا من باب المكابرة».

- هل تعتقدين أنني لا أعرف؟ قد تكون لديكِ خبرة في دور رعاية المسنين، ولكنني أعمل في هذا المجال منذ سنوات أكثر منكِ. إنه مجنون. ولهذا السبب أعتقد أنكِ متورطة جدًّا. (هل أنا متورطة جدًّا؟، فكرتُ. مع مَن؟ دويل أم المريض الذي أرعاه؟ يؤلمني الآن أن أعتقد أن كلماتها بدت معقولة، لكنني في خضم اضطرابي لمحتُ الغيرة خلفها) إنه يستخدمكِ أنت ودويل. ويستخدم مَن يريد (نظرتُ إليها بتعبيرٍ ما فأضافت): أخبريني إذا كانت زيارتكِ للمسرح مع دويل بعد ظُهر هذا اليوم لا علاقة لها بجرائم القتل. أقسمي على ذلك.

هززت رأسي، تلعثمت. يبدو أن «قدرتي» على الكذب قد تلاشت بالفعل. فاخترتُ استخدام أنصاف الحقائق.

- السيد إكس يعرف الأشياء يا آنسة برادوك! سواء كان مجنونًا أم لا، فهو يستشعرهم.

- أنا أعرف.

- والدكتور دويل يثق في حدسه.

أومأتُ برأسي ببطء وصمتٌّ، من تعبيرات ملامح وجهها الممتلئ. لكنني رأيتها بشكلٍ مختلف؛ بدأت أعتقد أن عملها هو حياتها، كما كان الحال معي. وإذا كانت هناك غيرة فهي مثل النار تحت الرماد. ربما لا تزال تحترق، لكن لا أحد يستطيع إدراكها. لقد أخفتها بنفسها منذ فترةٍ طويلة.

- الطبيب والسيد إكس يستقصيان بشأن مقتل ذلك الصبي الصغير، أليس كذلك؟ (ضاقت عيناها، لتثبيط محاولتي خداعها، أومأتُ بالإيجاب) وما دخلكِ بكل هذا يا آني؟

- إنهم بحاجة إليَّ... يبحثون عن دليلٍ وقد طلبوا مني المساعدة.

في الواقع، لم يكن الأمر كذلك تمامًا. أنا مَن طلب المساعدة من دويل. لقد كان شيئًا خاصًّا بي، وليس حتى السيد إكس، شيئًا أردتُ فعله بمفردي.

- ألن تتعرضي للخطر؟

فوجئتُ بالسؤال، وبالكاد تمكنتُ من هزِّ رأسي.

حدَّقت برادوك من نافذة الردهة. أظهرتْ ملامحها الصارمة عاطفة نادرة.

- المتشردون شيء، والطفل شيءٌ آخر تمامًا، لم يكن والدي يحب المتسولين، حتى وإنْ كانوا أطفالًا، ولكن في رأيي، الطفل الفقير هو قبل كل شيءٍ طفل. مَن أراد أنْ يفعلَ ذلك فعليه دفع الثمن بشكلٍ أو بآخر، أنا سأبقى.

أدهشني هذا العرض غير المتوقع.

- لا، إنها إجازتكِ... كنت ستذهبين إلى المسرح آنسة برادوك!

- همم، لقد كان عرض ميلودراما للعرائس المتحركة، *البحار بينتوب سيرحل إلى الأبد* على مسرح رويال، وليست لديَّ رغبة في رؤيته. لم يعجبني أبدًا مسرح الممثلين وبالمثل كان أبي، لكن حاليًّا حتى العرائس المتحركة لا تستهويني. كان من المقرر أن أذهب مع صديقةٍ ثقيلة الظل، وهذا سيعفيني من ساعتين من الملل. (ابتسمنا) ساعدي دويل، لكن لا تسقطي في حبال السيد إكس، وإلا سأشتكي الأمر إلى الدكتور بونسونبي، نعم، وسأعاود فعل ذلك إذا ما رأيت أنه يؤثر عليكِ بشكلٍ كبير. لا أريدهم أن يفصلوكِ من العمل آني! بل أنْ يغيروا لكِ المريض الذي ترعينه. هذا الرجل خطِر، احترسي.

تركتني وأنا في قمة الدهشة، حتى إنَّها حين عانقتني بدا لي الأمر طبيعيًّا. لمحتها تنسحب بمشيئتها البطيئة، وحيدة، بجسدها الممتلئ المستدير الشكل.

هذا الرجل خطِر. هكذا كنتُ أفكرُ وقد حانتْ ساعة ذهابي.

صعدتُ إلى حجرته وأخبرته من فتحة الباب أن بعد ظهر اليوم راحتي. لم يجبني. اعتبرته شيئًا من عدم الاهتمام. كان يجب عليَّ أن أسعد أنه لم يتدخل في شؤوني، ولكن هكذا أنا، وددتُ لو أنه قال لي الشيء نفسه مثل الآنسة برادوك؛ احترسي. منذ أن غادر روبرت حياتي أصبحتُ في حاجةٍ إلى ناس آخرين، كان هذا صحيحًا.

في تلك اللحظة فكرتُ، تُرى أين هو الآن؟ سألت نفسي بعبثية بينما أغادر كلارندون. ترى هل عاد إلى مركب *إنجراتو*؟ هل سيكون في قمرته ما وراء البحار يلعن الممرضة التي عرفها وتقيم في بورتسموث.

تمنيتُ له الخير ما أمكن ذلك، فليكن أينما يكن.

مجلة
تيتيري

بورتسموث، وساوث سي وجسوره

البحار بينتوب يرحل إلى الأبد
ميلودراما العرائس المتحركة (1882). فرقة هارلكين
مسرح رويال للعرائس المتحركة
بورتسموث

مستوحاة من أسطورة الكاتب الهولندي إيرانتي، روح البحار المتجول بينتوب لا تكف عن البحث عن حب يحتويها. وفي كل ميناء يرسو فيه بمفرده لا يجد سوى الخوف، النفور. الناس تجري منه مذعورة، أو تطرده بالبنادق والعصيان (ينفجر الأطفال ضاحكين من شجار العرائس المتحركة). وفي النهاية، أعين ضعيفة تُشفق عليه، وفرسان إسبارتو المصنوعين من القش. وبينتوبيدا فتاة قبيحة جدًا لكنها مرحة خفيفة الظل. يقع بينتوب في حبها. ولكن في اللحظة الأخيرة بينما تنتظره في الكنيسة يقرر بينتوب شيئًا غير منتظر، يكتشف أن الحب الذي ملك عليه حياته دائمًا هو البحر، وأنَّ البحر أيضًا يحبه. يُقرر بينتوب أن يهجر بينتوبيدا، ويستقبله البحر بذراعين مفتوحتين. النهاية.... هل هي نهاية سعيدة؟

ج. هـ. موريسون

ميلودراما الدُّمي المتحركة

الدُّمية المتحركة ليست إلا دُمية، تعتقد أنها إنسان.

ت. روبنسون،

ب ف موريس، مسرح العرائس البريطاني (1873).

يعتقد روبرت أنه لن يقدر على نسيانها. لماذا لا يقدر؟ حسنًا، لقد كانت هناك كثيرات قبل هذه الممرضة اللعينة، وستكون هناك أخريات بعدها.

يعبر الطريق ناحية الفندق الرخيص الذي سيقضي فيه ليلته. عليه الذهاب. إلى أين؟ حسنًا سنرى: بحار مثله لديه العالم بأكمله ليعيش فيه. بيد أنه عليه أنْ ينجز مهمة صغيرة وسهلة، بل إنها أيضًا مسلية.

إنه عجوز. هكذا يفكر بينما ينزل على درجات السلم الضيقة المتهالكة المفضية إلى غرفته. لم يعُد الشخص الذي كانه من قبل.

وهي المسؤولة عن ذلك بطبيعة الحال. روبرت، أيها العجوز الأحمق! لقد منحت تلك العاهرة أفضل سنواتك. حسنًا، ربما ليس ذلك بالشيء الكثير. أكثر ما يزعجه الآن أنها تبدو كأنها تفكر بمفردها. لقد لاحظ ذلك بالفعل عندما تشاجرا بشأن قراره بالقدوم إلى بورتسموث، لكنها الآن باتت حقيقة واضحة مثل الأُفق الهادئ تمامًا. ماذا حدث لها؟ مَن أو ما الذي تغير إلى هذا الحد؟ هذا الطبيب الصغير الذي لا وزن له؟

عجزه عن معرفة دوافع تغيرها يعذبه كثيرًا. إنه هو نفسه كما هو الحال دائمًا، روبرت ميلجرو. لقد تحمل العواصف في البحر والبر، وانظر إليه، ها هو لا يزال! لكن الآن...، تلك المرأة اللعينة، أجل، اللعينة، التي فقد كل حريته من أجلها، ذلك المخلوق الأناني الذي كان يستخدمه لمصلحتها الخاصة...، الآن قررتْ أنَّ باستطاعتها الاستغناء عن روبرت العجوز عديم الفائدة، فلديها راتبها بالفعل، يا للعاهرة! يمكنك المغادرة الآن يا روبرت! أليس صحيحًا أنه خسر وكل ما عليه فعله هو أن يرفع الأشرعة، ويدع الريح تحمله؟

ومن حسن الحظ أن السفينة تنتظره.

الغرفة مظلمة. يتحرك كيفما اتفق. ظلام مُطبق ومطلق للمحيطات على تلك الجزيرة الصغيرة الموجودة على متن السفينة.

عندما سافر، اللعنة عليها، عندما سافر كان بحارًا بحق، قبل وقتٍ طويل من لقائه بتلك المرأة التي لا تتمتع بأي درجة من الجاذبية لكنها عطوفة، هذه حقيقة -أوعلى الأقل هذا ما اعتقده في البداية- عندما كان بحارًا وترسختْ قدماه في البحر، قال له أحدهم إنَّ مَن عرف قاع البحر ليس بوسعه أن يسعد بوطئه الأرض، تذكر ذلك دائمًا يا فتى الكابينة. قاع البحر، مثله مثل الطفو في الهواء، والساقان تتأرجحان. روبرت، سوف تكره الأرض الجافة.

هل تعرف الشيء الوحيد الذي يمكن مقارنته بقاع البحر يا روبرت؟

شيئان: أحدهما أن تشرب حتى تنفجر. ثم ستطأ البحر ولو على الأرض. كل أرضٍ ستكون محيطك حينها.

ألا تريد أن تشرب؟ ألا يزال لديك احتمال آخر.

بينما يفرُّ في ذلك، تعثَّر ببعض الأحذية.

- نعم، اللعنة عليها، روبرت!

تعرف على الصوت قبل تشغيل المصباح. إنها الممرضة آني ماكيري هناك، في انتظاره. عيناها تبتسمان، وشفتاها تتطلعان إليه. إنه كائنٌ غريب. يبدو أنَّها قد تغيرت، لكن روبرت كان يعلم ذلك بالفعل، وقد أدركه منذ أن كان في بورتسموث، لقد تغيرت بالكامل.

سأل غير مطمئن: «ما الذي تفعلينه هنا؟».

لقد اكتشفتُ سرَّك الصغير، كما تعلم صوتها مثل صفارة الإنذار. في الحقيقة، الآن هذه هي المرحلة الأخيرة من رحلته الطويلة في تلك السفينة الحالكة، ليس سيئًا الاعتراف بذلك: «حسنًا» يقول: «أريد أن أكون صادقًا معكِ حتى يفرقنا الموت. أحبك يا آني! لكنني لست رجلًا يستطيع أن يكون مقيدًا بامرأةٍ واحدة. كم هو مضحك، الآن فقط يريد أن يطلق العنان للمراسي. أنا حُر. نحن البحارة أحرار. إذا لم يكن الأمر كذلك، فستكونين أنتِ، أقسم لكِ، صدقيني. لكن الآن...».

موسيقى البيانو الميلودرامية. مثل تلك المعتادة في مسارح الدمى المتحركة، إنك تعرف بالفعل يا روبرت! يسود صمتٌ رهيب بينهما، نغمات رهيبة مثل الدقات... الآن لا يمكنني سوى اختيار الحرية...، أوتار جدية، صوت أجراس الجنازة يسود، هيا، أخبريني...، أخبريني ما هي

الطريقة الأخرى التي يمكن من خلالها الطفو غير البقاء على متن قارب أو الشرب...؟ أخبريني، آني!

في تلك اللحظة، تخلع آني القناع هناك، في ظلام غرفته.

بالطبع لقد **تغيرتْ**. إنه مرتعبٌ لرؤيتها. لكن يشعر بالمتعة.

- سأخبرك بالطريقة الأخرى التي تطفو بها يا روبرت! (تمتم ذلك الشيء الذي يشبه آني، لكنه ليس هي أو أي شيء يمكن أن يتصوره روبرت) يمكنك أن تطفو مثل الدمى، معلقًا بالخيوط.

بينما يستمع إليها، يُدرك روبرت ميلجرو أنها على حق. يصعد على السفينة الشراعية، ويدفع السلم الخشبي بقدمه، ويفك المراسي، وهو مُفعم بالسعادة.

وبالفعل تتمايل قدماه كأنه يطفو.

خلف الأبواب المُغلقة



-1-

أتذكرُ الحزن الذي اجتاح مدينة بورتسموث بأكملها عندما غادرت. كانت الرياح باردة كأنها دعوة لدخول فصل الشتاء. وعلى الرغم من أن المسارح كانت لا تزال مكتظة، فإنَّ الشوارع كانت ميتة، والشخصيات الوحيدة التي قد تباغتك هنا أو هناك هي ضباط الشرطة، الذين يقفون تحت أعمدة الإنارة المُضاءة، أو يتسكعون حول مداخل الحانات والمسارح. كانت المدينة بأكملها عبارة عن سجن، وننظر جميعًا إلى بعضنا بعضًا من خلال القضبان بعين الريبة، دون أن نعرف أين يختبئ المجرم، ومَن سيضرب بعد ذلك. لا أريد حتى أن أتخيل كيف كان شعور المشردين، الهدف الواضح لذلك الشخص الذي لا يرحم. باستثناء عددٍ قليل من الأشخاص اليائسين، دفعهم الذعر إلى الخروج من الشوارع، وفضلوا التجمع في أماكن ضيقة بدلًا من أن يصبحوا الخبر التالي لقاتل المتسولين.

كان الطبيب قد رتَّب لاصطحابي من كلارندون، لكنني غادرت مبكرًا وقررت مقابلته في الطريق، أو حتى في منزله. انتابني القلق. هل كنت على علمٍ بما ورطتُ نفسي فيه؟ يمكن لهذا الباب المغلق أن يخفي دليلًا على جرائم القتل، لكنه قد يكون مميتًا أيضًا. لم تشجعني سوى حقيقة أنني عرفت أنَّ هذا هو تحقيقي الخاص. لم أفعل ذلك من أجل المتعة، بل من باب الواجب. أو أنَّ هذا هو ما أخبرتُ به نفسي.

أوه، حسنًا، ولأن المسرح السري دائمًا ما يكون تجربة *فاضحة*.

ومَن هذا الذي لا يحب الأشياء *الفاضحة*؟ لا تنكروا ذلك. إنها المتعة، كما يقول السيد إكس.

وسرعان ما وجدتُ العيادة في منطقة إلم جروف الهادئة الراقية. مبنى متواضع، اسمه فيلات بوش، مؤلف من طابقَين، لا شيء يسترعي الانتباه. كُتب على اللوحة الموجودة على البوابة «الطبيب آرثر دويل»، استدعى الجرس الطبيب مسرعًا، مرتديًا سترته.

- يا لها من مفاجأة يا آنسة ماكيري!

- قررتُ أن أمرَّ عليك لاصطحابك. كان لديَّ الوقت.

- فعلتِ خيرًا. اعذريني إذا لم أدعُكِ للدخول، المكان مقلوب رأسًا على عقب.

- ألم تنتهِ من الانتقال بعد؟

- نعم، لكن (ابتسم بطريقة القط تلك وهو يُغلق الباب) أعترف لكِ أنني أقضي القليل من الوقت في العيادة. علاجي للمرضى هو بالأحرى في المنزل، فما زلتُ لا أملك عددًا كافيًا من العملاء حتى تسير الأمور على نحوٍ طيب في العيادة. هل نذهب الآن؟

بدأنا بالسير عبر الأزقة شبه المهجورة. تحدثنا في تفاهات، كما لو كنا نتظاهر بأننا على طبيعتنا بينما كنا أبعد ما يكون عن ذلك.

علَّقت: «بورتسموث تبدو كأنها مقبرة».

- إنه أمرٌ مفهوم. لقد ظهر الخبر في الصحف اللندنية تحت عنوان «القاتل الكبير»، كما صارت الحوادث هي الموضوع الجديد للمحادثات ذات الصوت المنخفض في الأوساط الاجتماعية. الجميع يتساءل لماذا الصبي. لقد تحرك الضمير الاجتماعي تحت وطأة هذه المستجدات القاسية. المتسولون ذهبوا دون أن يلاحظهم أحد، ولكن الطفل.

فكرت في تأثير ذلك على الرئيسة برادوك.

- يبدو الأمر كما لو أن هذا الشيطان يريدهم أن يقبضوا عليه.

- ربما. والأمر الأكثر حزنًا أن أحدًا لم يهتم بالطفل عندما خرج إلى الساحة يتعارك مع آخرين، الذين ما زالوا على قيد الحياة ولا نبالي بشيء. لكن -كما تعلمين- يتم قبول العديد من الأشياء على خشبة المسرح ولكنها تُعتبر فاضحة خارج المسرح. بالمناسبة، هل لي بسؤالٍ شخصي يا آنسة ماكيري؟ (سمحتُ له. كانت هناك أشياء قليلة لم أكن لأسمح له بها في تلك اللحظة) لماذا تريدين الذهاب إلى مسرحٍ سري؟

- لقد ذهبتُ بالفعل إلى بعضها.

ابتسمت، لكنني لم أرغب في ذكر روبرت.

- أوه، بلا شك، العديد من النساء يذهبن، ولكن لماذا هذه بالذات؟

- أريد مساعدتك في التحقيق. ربما كوبيلوس له علاقة بالأمر.

- لكنه لم يهتم بنا أبدًا. ما الذي تغير؟

بدأت أفكر. هل عرفت حقًّا لماذا فعلت ذلك؟ فجأة خطرت لي إجابة، ولم أرغب في إخفائها عن الطبيب: «أعتقد أنني أفعل ذلك من أجل السيد إكس. (استرقتُ إليه النظر بطرف عيني) لا ينبغي لأحد أن يكون وحيدًا في هذا العالم، سواء كان مجنونًا أم لا».

صادق دويل على كلامي: «لا أعرف أحدًا مثله، ربما لهذا السبب هو وحي».

- إنه مريض.

اختتمت كلامي، على الرغم من أنه كان يؤلمني الاعتراف بذلك.

لم أذكر شيئًا عن الرسائل الغريبة التي بعث بها إلى فيليبوتس أو «قصره البلوري»، ولم أتحدث مرة أخرى عن نظرياته حول الجماعات السرية الخبيثة، لكن يبدو أن دويل يفهمني.

- إنها حالة جيدة بالنسبة لشخصٍ يعيش في فضائه، لكنه في الوقت نفسه يتمتع بعقلٍ لامع وعبقري. لقد تغيرت شخصية شيرلوك هولمز عندي بفضل صديقنا المشترك، ولا شك في أنه تغير نحو الأفضل. أنا متأكد من أنه عندما أنشر العمل سيُحقق نجاحًا مدوِّيًا. أود التحدث إلى عائلته...، هل صحيح أنهم قطعوا أي علاقة معه؟

- عائلته فظيعة، معذرةً. (امتعضتُ عندما تذكرتُ تلك الرسالة التي لا يمكن تصورها) لا أفهم كيف يمكن لشخص التخلي عن طفل لمصيره، مهما كانت حالته الصحية متراجعة. لا أعرفهم، لكن مما عرفته عنهم -مهما اعتقدوا أنهم نبلاء أو أرستقراطيون- فهم يفتقرون إلى المشاعر.

أخبرها الشاب دويل: «أنتِ امرأة طيبة».

- شكرًا لك، ولكنني آذيت الآخرين. أعتقد مثل أي شخصٍ آخر.
- بالطبع. لا أحد يستطيع أن يُلقي الحجر الأول. بالمناسبة.
- تفضل.

تردد دويل: «ذلك...، الرجل في تلك الليلة...، هل أزعجكِ مرة أخرى؟».

ابتسمت مطمئنة للطبيب وقد اعتراني الخجل، «لا، ولم أسمع منه مرة أخرى، أنا على ثقة من أنه في هذا الوقت سيكون موجودًا بالفعل في لندن. شكرًا لمساعدتك دكتور».

- لقد فعلت ما كان سيفعله أيُّ رجلٍ في مكاني، لا أريد أن أجرح مشاعركِ يا آنسة ماكيري! لكن ذلك الرجل لم يكن مناسبًا لكِ.
- جزئيًّا، هو أيضًا مريض ووحيد. أنا لا أتمنى له أي ضرر.
- كما قلت أنتِ إنسانة كريمة. ولكن هذا هو عالمنا الذي نحيا به.

وقد كان، مشينا في شارع سانت ماري الذي ينتهي بالكنيسة، والنُّزل مُغلق. ولكن يا لها من أجواء مغايرة عن أوقات عروض كوبيلوس بعد الظهر! لم يكن هناك أحد في الشارع، مجرد كلب ينبح عن بُعد، أحد هؤلاء الذين ينبحون دائمًا من بعيد ليُخبروا البشر بالسكون الذي يغمر المكان. ارتفع ضباب أنفاسي مثل نبض قلبي عندما عبرنا المدخل المهجور الآن إلى مسرح كاريداد، والذي اعتقدتُ أنه مغلق حتى فتحه دويل بلا أدنى صعوبة. كانت هناك ملصقات تُعلن عن عروض كوبيلوس الأخرى، لكن الطبيب الشاب أخذني مباشرةً عبر القاعة إلى غرفة المسرح. كل تلك الصفوف من المقاعد مع جمهور غير مرئي غمرت روحي، كأنهم ينتظروننا. كما لو كنا نحن الممثلين.

- لا تقلقي بشأن أي شيء. (همس دويل لي) لقد تحدثت بالفعل مع الشركة. إنهم يعرفون أنني قادم معكِ.

لمحتُ الباب الجانبي الصغير مفتوحًا خلف الكواليس. كان هناك رجلان يحيطان بها. كانا غريبين، على حدِّ علمي، وأحكمت قبضتي على ذراع دويل. لقد نظروا إلينا، وتحدث دويل إلى أحدهما. وبينما كنت أفعل ذلك، نظرتُ بعيدًا عن الآخر الذي كان يتفحصني وفي عينيه بريق ساخر.

فرحل الرجل وتبعه رفيقه. لقد استقبلونا بأدبٍ ظاهر.

دخلنا الملحق السابق نفسه؛ الآلات، الحبال، البكرات، السقالات صعودًا وهبوطًا. والباب المغلق، الذي كان الآن مفتوحًا، جاء منه الوهج. إلا أنه لم يكن يُفضي إلى أي غرفة شريرة، بل إلى بعض السلالم الضيقة التي تؤدي إلى ضوء المصابيح. لقد سبقني دويل. أحدثت أحذيتنا قعقعة على الدرجات الخشبية. وفي أسفل تلك الدرجات كان هناك بابٌ آخر مفتوح. خلفه، الوكر الذي خيب أملي في البداية. رائحة عفنة، عشرات الكراسي غير المريحة، مسرحٌ صغير، بلا ستارة أو أي زخرفة، مثل صندوق الأحذية الشاغر. على يميني في الصف الثاني رجل، وعلى يساري آخر في الصف الأول. الرجل على اليمين أصلع، والآخر على اليسار ذو شعرٍ رمادي أشيب.

هذا كل شيء.

لم يستديرا ولم يتحدثا مع بعضهما بعضًا، بينما جلسنا على كرسيين في الصف الخلفي، الذي اقترحه دويل. لقد بدوا مثل دميتين.

أتذكر الصمت. الصمت المطبق لا يقطعه سوى صرير الكراسي. قال أخي: «لا تخف من المسرح الذي يُسمع كالرعد أو يُبهر كالبرق، خف الظلام والصمت».

كان المكان الصغير المتوقع للمسرح السري مضاءً بشكلٍ غريب بتلك الأضواء المعتادة. مصابيح الكالسيوم أدَّتْ إلى انعكاسات ملونة

على الخلفية. لا شيء آخر. المسارح السرية التي اعتدتُ الذهاب إليها كان لها -على الأقل- زخرفةٌ ما. هنا لا يوجد سوى خلفية من الورق المقوى دون رسومات. (هل أنتِ بخير-همس دويل- نعم، أجبته). تحرك الرجل في الصف الأمامي. انتظرنا قليلًا، ولكن لم يحضر أي مشاهدين آخرين، افترضتُ أنَّ العرض لن يكون جيدًا. لا أعرف السبب، ربما لأنني كنت متوترة للغاية، ظللتُ أفكر في روبرت. تخيلته يظهر على المسرح أمامي بشكلٍ غير متوقع.

ثم انعكستِ الأضواء على شاشات مطلية باللون الأزرق الفيروزي، فغطت المسرح بأكمله في وهجٍ غير واقعي.

وخرجت الفتاة من فتحة جانبية.

-2-

أبيجيل، تذكرتُ اسمها. كانت ترتدي فستانًا ورديًّا بكسرات ضيقة، وحذاءً فضيًّا. بدتْ كأنها فتاة في حفلة. في الواقع، بدتْ أصغر سنًّا بكثير عمَّا كنتُ أعتقد. لفَّت شعرها في كعكة مما جعلها تبدو أكثر طفولية.

جلستْ على الأرض. ويبدو أنَّ الطريقة التي نظرتْ بها -بتلك العينين الزرقاوين الكبيرتين في الوهج الأزرق- جذبتنا جميعًا في وقتٍ واحد.

سُمع عزف البيانو.

لا بدَّ وأنَّ الصوتَ صدر من شخصٍ يعزف في غرفة أخرى. لم تكن مفاتيحه تستجيب تمامًا لأصابع العازف، لكن اللحن كان بسيطًا، مثل تهويدةٍ من أغنيات المهد. وفي الوقت نفسه، بدأتِ الفتاة تخلع حذاءها -هكذا تمامًا- دون أن تُكلف نفسها تصنع الإيماءات الجميلة، مدتْ ساقها الرفيعة ثم الأخرى. ثم نهضتْ وأدارت ظهرها لنا. خلعتِ الفستان، كنتُ

أعلم أنها ستفعل ذلك، وأنَّها لا ترتدي أي شيءٍ تحته -لمحتُ ذلك من إيماءاتها-.

استدارتْ وهي لا تزال تحمل الفستان على جسدها. من الواضح أنها كانت صبية، لا يتجاوز عمرها اثني عشر عامًا. رقصتْ بشكلٍ سيء. لو كان بالإمكان تسمية ما تفعله «رقصًا»، لم تلتزم حركاتها بإيقاع الموسيقى بأي شكلٍ من الأشكال. كانت مجرد حركات، ولا أستطيع التفكير في أي مقارنةٍ أخرى؛ لفتة، أو توقف، أو شيء آخر. لقد تقبلتْ كل شيءٍ حولها بهدوء شديد. لكن لم يكن هناك هدوء في وجهها المتوتر، كما لو كانت مجبرة على الأداء. كان الأمر كما لو أن كل ما تفعله، كل إيماءة بسيطة أو توقف، شيء في غاية الأهمية.

عندما رأيتها، شعرتُ كأن وجنتَيَّ تحترقان.

حدث ذلك بغتةً.

لقد بدأتُ أشعر بالانزعاج، بالغضب منها، من دكتور دويل -الذي لم أجرؤ على النظر إليه- من كوبيلوس. هل كان هذا مزحة عرض؟ أيٌّ منهما؟ غباء لا معنى له، لإمتاع أولئك الذين يحبون الأجساد الصالحة للزواج.

في تلك اللحظة تغيرت الأضواء وأصبحت حمراء كثيفة. ضغطتِ الأصابع اثنين أو ثلاثة من مفاتيح البيانو بإصرار -المفاتيح نفسها-.

ارتدتِ الفتاة العارية قفازين في ذراعيها النحيلتين. نظرتْ لأعلى وتطلعتْ إليَّ. أيُّ نوعٍ من السخرية كان ذلك؟ شيءٌ بلا أي معنى. أردتُ المغادرة. أردتُ أن أقول لها أداؤكِ ليس سيئًا، لكنكِ لا تعني لي شيئًا. مجرد فتاة بلا ملابس، شعرها الأشقر معقوف في كعكة غير مكتملة. فتاة تنظر إليَّ وحسب.

استدارتْ بالفعل بقفازيها وأعطتني ظهرها.

لم يبدُ لي ذلك *فاضحًا*. لم يكن ضروريًّا دفع أي تذاكر لهذا المسرح السري لرؤية فتيات كهذه.

كان ذلك عندما احتضنت نفسها بذراعيها، وباعدت ما بين ساقيها النحيلتين موجهة ظهرها للحضور.

في تلك اللحظة اعتقدتُ أنَّ كل شيءٍ بدأ يعجبني. كان غضبي بسبب نفاد الصبر الذي شعرتُ به تجاهها، لتبدأ بفعل ما تريد أن تفعله بجسدها على ذلك المسرح الفارغ مثلها، لكنني أدركتُ الآن أنَّ حالة نفاد الصبر هذه هي بعينها ما أعجبني.

أدركتُ بيقين أكيد شيئًا ما عن نفسي. كنتُ أعلمُ أنه عندما كنتُ طفلةً في الثالثة من عمري، كان ينبغي عليَّ أن أفعل شيئًا واحدًا لم أفعله. تذكرتُ ذلك بدقة بالغة.

كانت لديَّ دمية من الخرق يسميها والدي «الدب». لم يكن دبًّا ولم يكن يشبه الدب، لكن والدي صنعه عن طريق حشوه بشيءٍ ما وإلصاق أزرار سوداء به كأنها عيناه. لطالما كرهتُ تلك الدمية. الآن أدركت هذا. لقد كرهتها. ومع ذلك -عندما كنت ألعب به، خاصةً إذا كان والدي موجودًا- حاولت التغلب على تلك الكراهية -أو بالأحرى الاشمئزاز- وأن أحبه، لكن، دون أن أتمكن من تجنب ذلك، أصبحت ألعابي مع الدمية عنيفة. وبدلًا من احتضانه أو حمايته، اعتدتُ طرحه على الأرض. وجدته غير قابل للكسر، وتقريبًا استفزني ذلك، وأطلق العنان لغضبي، وفي الوقت نفسه أحببته أكثر فأكثر. أصبح «الدب» لعبتي المفضلة. كان هناك شيءٌ ما في قبحه المطلق، وهيئته الشبيهة بالخرقة وعينيه مثل الأزرار، ومقاومته لهجماتي المحمومة. أعجبني الشعور بنفاد صبري لتدميره، بدا لي ذلك *فاضحًا*. لقد احتفظتُ به طوال حياتي، واعتنيتُ

به، ولكن مع تنقلاتنا المستمرة من مكانٍ إلى آخر وبيع المنزل، فقدته إلى الأبد.

الآن تذكرتُ ذلك، بعد سنواتٍ عديدة. لكنني عرفتُ في الوقت نفسه ما كان عليَّ أن أفعله. تصلبتْ يداي مثل مخالب حادة.

-3-

لن أتباهى بأنني خبرتُ الكثير من المتع، ولكن لا شيء مما عرفته من قبل -لا شيء في جسدي، ولا في دمي، ولا في ذهني- كان يشبه ولو قليلًا جدًّا مما شعرتُ به عندما تخيلتُ «تدمير» ذلك الدب اللعين. حلمتُ أنني فعلتُ ذلك بأظافري كطفلة تبلغ من العمر ثلاث سنوات، ولكن ليس بمفردي. أحطمه أمام والدي. بقيتْ له عين واحدة، نظر إليَّ والدي -ثم الأخرى- وواصل والدي النظر إلى خرقةٍ واحدة وأخرى، عبس والدي، سلبته كل كيانه، جردته من ملابسه، لم تعد له أي هيئة أو كيان، دنستُ كل ما اعتقدتُ أنه مقدس.

وداعًا، وداعًا، وداعًا. اخرج من حياتي.

على الرغم من خجلي من الاعتراف بذلك، سأقول إنني استعذبتُ القيام بذلك. ذلك النوع من المتعة الذي لا نرتبط به بأي شيءٍ ملموس، وربما نختبر منه قطرات طفيفة جدًّا عند التمكن من تمديد جسمنا بعد ليلةٍ من النوم في وضعية واحدة، أو شرب الماء بعد فترةٍ من العطش. تشابه طفيف فقط. إنها متعة الشبع.

توقفتِ الموسيقى.

نظرتْ إليَّ الفتاة، التي ترتدي الزي الأزرق الآن، وهي جالسة على المسرح.

كانت تلهث، كان ذلك واضحًا، لكنها أبقتْ فمها مغلقًا. ثم نهضتْ بخفة، خرجت من فتحةٍ جانبية. رأيتُ فرقًا متناغمًا لظهرها وصولًا بعنقها وفتحة فستانها.

وفي تلك اللحظة سمعتُ الجوقة.

-4-

لم يقولوا شيئًا مفهومًا، بل كانت أصواتًا بشرية. أصواتنا.

أصوات عملية التنفس، أربعة أنفاس، ثلاثة رجال وامرأة، أنا.

مرَّ وقتٌ غير محدد دون أنْ نفعل أيَّ شيء سوى التنفس. عندما نظرتُ مرةً أخرى، كان الرجلان في الصفوف الأمامية قد اختفيا. نظرتُ مرة أخرى وكنتُ أنا ودويل نخرج من الباب. لقد رأيت وجه بيتيروسو في الظلام، وهو يبتسم، وعلى نحوٍ أقرب إلى حدٍّ ما، الشكل الضعيف والهزيل لمعاونه الشاب جدًّا، السيد قسطنطين. خرجتُ أستنشق هواء الليل ثم نظرتُ إلى الساعة في حقيبتي، أدركتُ -مع أول ومضة مفاجئة برقت في عقلي- أننا بقينا في تلك الغرفة الضيقة لأكثر من ثلاث ساعات.

أكثر من ثلاث ساعات.

سرتُ بخطوات قصيرة في الشارع الشاغر. نظرتُ إلى النجوم، إلى نقاط غامضة في السماء، كما لو أنَّ أحدَهم قد رشَّ حبرًا أبيض على ورق أسود. دويل إلى جانبي مثل ظلي، وإن كان ظلي الملتبس. مشينا في صمتٍ تام.

شعرتُ أنني بحالةٍ جيدة، لكنني شعرتُ بالعجز.

التناقض ما بين كوني عاجزةً للغاية وأنني في حالة جيدة جدًّا بدا أمرًا رائعًا بالنسبة لي. منعزلةً تمامًا ووحيدة، وممتنة لكوني هكذا على هذا الحال.

وسرعان ما تلاشى ذلك الإحساس، انحسر قليلًا دون عنف، احترق مثل مصابيح الكالسيوم على ذلك المسرح، ورحل حتى قبل أن يعرف كيف يتخذ اسمًا، أو يتم تعريفه بأي شكلٍ من الأشكال.

عندما رأينا منزل كلارندون -في الظلام المواجه للبحر- كانت هذه أنا مرة أخرى، أو الشخص الذي اعتقدته دائمًا. تملكني انطباع -صحيح من ناحية أخرى- بأنني كنت أجلس لساعات في غرفة تفوح منها رائحة العرق والخشب القديم، أنظر إلى فتاةٍ شقراء حسنة المظهر، ولكنها ليست جميلة حقًّا، دون أن أراها تفعل أي شيء، بخلاف خلع ملابسها بالكامل، ولم تستطع حتى أن تتذكر متى خلعت ملابسها أو ماذا فعلت بها، أو متى ارتدت فستانًا آخر مرة أخرى. دون رقص أو كلمات. أبيجيل ترتدي ملابس أبيجيل العارية. لقد كانت مبتذلة للغاية لدرجة أنني أثني عليها إذا وصفتها بأنها «غير لائقة».

لم يتبقَّ لي سوى ذكرى لهذه الحقيقة البسيطة. لقد اختفى الشعور. بقيتْ مخلفات غريبة وغير سارة إلى حدٍّ ما.

تيقنتُ من شيءٍ ما، من الأفضل أن نقول شيئين. لكنني أخبرت الطبيب بأمرٍ واحد فقط منهما:

- لا أعتقد أنَّ هذا له علاقة بقاتل المتسول.

- أعتقد ذلك أيضًا (أجابني) ولكن هل لي أن أسألكِ لماذا؟

- لأنَّ... لأنَّ هذا هو المسرح. كما تقول؛ عالمٌ آخر. عرض. غريب، نعم، ولكنه مشهد كاذب مع كل شيء.

أومأ دويل برأسه وابتسم لبعض الوقت، كما لو كنتُ قد أخبرته في بضع كلمات ما كان يفكر فيه دائمًا.

أخبرني: «كان من الجميل أن آتي معكِ».

- وأنا أيضًا أشكرك على وجودك معي.

آخر شيءٍ فكرت فيه قبل أن أنام بسرعة.

الشيء الآخر الذي لم أرغب في إخبار الدكتور كونان دويل به أنني لن أعود أبدًا إلى عروض المسرح السري ما حييت.

لم أكن تعيسةً أو سعيدةً جدًّا بمشاهدته، لكنه لم يكن لي، مثله مثل الكحول. كان من المقبول أن أشعر بالدوار قليلًا في ليلةٍ مجنونة بصحبة رجل وسيم، لكن المسرح السري كان غريبًا للغاية. فأذواقي أكثر اعتيادية.

-5-

في لحظةٍ ما، لا بدَّ وأنني غفوتُ، لأنني حلمتُ بلحن كمان. لم تكن جميلة بشكلٍ خاص، لكنها كانت معقدة وغريبة، غريبة مثل الألحان الغجرية، متنافرة كأنها لشخصٍ مبتدئ. والشيء الغريب هو أن كل شيءٍ آخر كان غير مرئي؛ الكمان لم يكن هناك وبالمثل السيد إكس، لم يكن هناك سوى اللحن. ثم ظهر رأس خلف الستار: «كل هذا مسرح يا سيدتي!».

لقد كان بيتيروسو.

ومن خلف الستار الأحمر سُمع صراخ طفل. كرر بيتيروسو: «المسرح»، ولكن الآن أصبح روبرت هو مَن يكرر ذلك. قطعت الصرخات خلف الستار، التي تصمُّ الآذان، أصوات قرقعة، أشياء مثل فقاعات

ضخمة تنفجر، مثل قطع اللحم في أثناء التقطيع...، «مسرح»، صرخ روبرت متعجبًا، وارتفع حاجباه إلى أقصى نقطة بجبهته، ارتفع شعره في شكل خصلات متجعدة مثل الديدان السوداء، وتجعدت جبهته مثل قرنين. لكن أسوأ ما خرج من فمه لسان طويل ناعم منتفخ ذو لون أبيض مثير للاشمئزاز -ما زلت أراه أمامي، لا يزال نبضي يرتجف عندما أكتب ذلك- وهو ما جعلني أُحدق فيه بثباتٍ مطلق. أكرهه وأعشقه في آنٍ واحد.

استيقظتُ وأنا أتصبب عرقًا، وأرتعش فيما أسمع طرْقًا وأصواتًا عالية على الباب.

كانت ماري برادوك: «آني؟ آني؟ افتحي، إنَّ...».

فتحتُ الباب مرتدية قميص النوم، وجدتُ نفسي فجأةً أمام رجل يقف بجانب زميلتي. لقد تعرفتُ عليه قبل أن يتكلم.

- الآنسة ماكيري؟ إنني المفتش مرتون، سكوتلاند يارد، نحن نعرف بعضنا بعضًا بالفعل. ارتدي ملابسكِ وتعالي معي. أنتِ مقبوضٌ عليكِ.

-6-

جاء أسلافي الإسكتلنديون إلى بورتسموث من أجل الهجرة إلى أمريكا، كما أخبرني والدي، لكننا أتينا من فرع ماكيري الذي قرر البقاء في أرض وسيطة، على وشك المغادرة بشكلٍ دائم، ولكن دون البقاء بشكل كامل. أنا وأخي بطريقةٍ ما هاجرنا أيضًا دون أن نغادر نهائيًا. من الواضح أن آل ماكيري لم ينهوا الأمور على نحوٍ جيد. كنا لا نزال ننتمي إلى ذلك المجتمع الصغير من عمال البحر المجتهدين، وأسطح الكنائس المرتفعة، والمنازل الصغيرة المتجاورة ذات المداخن الطويلة، والأرصفة والحصون. أنا وآندي كنا من بورتسموث. أو على الأقل كنت

كذلك حتى ذلك اليوم. المهاجرون من كل مكان، ينتمون إلى مكانٍ كان بمنزلة مكان عبور، لكننا الآن على الأقل أصبحنا شيئًا طبيعته خاصة بنا.

وبينما أسير بمحاذاة رصيف كلارندون هاوس، برفقة المفتش مرتون واثنين من رجال الشرطة في ذلك الصباح الذي يتعذر نسيانه، عرفتُ على الفور بالرغم من ذعري وبكائي المستمر، وهلعي بينما أتمكن مما يحدث، ومن طردي إلى الأبد من المدينة. فليكن ما يكن إذن.

احتشدَ جميع الموظفين ليصدروا حكمًا عليَّ، وقد تحلَّقوا عند الممر الضيق. كان هناك ويدون يومض بعينيه، تميل بشرته إلى اللون الأبيض الشاحب، كما لو أن عمله قد حوله إلى مجرد قطعةٍ أخرى من الورق، ينظر إليَّ بعينين نصف مغمضتين. لم يكن يريد تفويت العرض، حتى لو اضطرَّ إلى ترك تقاريره للحظة. وخلفه كان الفقراء مدهوشين من الإحباط على وجه جيمي بيجوت. تعبيره «لكن... أنتِ؟» تأذيتُ كثيرًا. كانت هناك مجموعة من رفاقي يتجولون في نهاية ذلك الطريق الضيق -الذي ذكرني كثيرًا بحلم النفق الذي لم يكن بوسعي سوى أنْ أتقدم فيه- وإحقاقًا لهنَّ يجب أن أقول إن ماري برادوك وسوزي ترينش ونيللي ورينجتون كنَّ ينظرن إليَّ بدرجاتٍ متفاوتة ما بين الألم وحتى الشفقة. ربما الإثارة -لقد كنت الآن مسرحهن- لكنني لم ألاحظ عليهنَّ ازدراء المارة الذين شاهدوا عرضي المخزي، بعضهم توقف عن المشي أو أوقفوا دراجاتهم. لم تكن السيدة موراي غائبة، بنظرتها المائية الشبيهة بالسمكة، فهي الوحيدة التي لم تبدُ متفاجئة. وأخيرًا وليس آخرًا الدكتور بونسونبي -في النهاية- عند البوابة. وحيدًا، أريد أن أقول إنه كان متحيرًا، ولكن مع بريق فولاذي في عينيه السوداوين ولحيته الصغيرة مثل خنجر موجه نحوي.

ما نوع التعبير الذي يجب أن أستخدمه لإصلاح كل شيء؟ هل كان هناك مثل هذا التعبير الذي يمكنك استخدامه عندما تُجبرك الشرطة -في مدينةٍ خائفة وانتقامية- على مغادرة منزلك وتأخذك إلى مركز الشرطة؟ أردتُ البكاء، لكني اعتقدت أنَّ ذلك سيؤدي إلى القسوة وحسب. وإذا بدوت هادئةً جدًّا، ألن يُعتبر ذلك علامة على الذنب؟ سواء نظرت في أعين الآخرين أم لا، هل سيُحررني ذلك من نظرات الآخرين وحكمهم عليَّ؟

أتذكر أنه في النهاية لم يبقَ لي سوى مكانٍ واحد لألجأ إليه.

كان ذلك عندما أدخلوني العربة التي انتظرتْ عند الباب، الرقيب الأول، وأنا في الخلف أرفع أطراف تنورتي، ودخل المفتش بعد ذلك. ثم تذكرتُ فجأة جفن كلارندون المغلق.

لم يكن من الممكن رؤيته من تلك الواجهة، لكنني كنتُ أعلم أنه لا يزال هناك، خلف الستار، وأنَّ لديه أجمل مشهدٍ على الإطلاق، وهو ما أعطاني أقصى قدر من الأمان.

«قبيحة، ساحرة»... صرخ بعض الأطفال عندما تأكدوا من وجودي داخل العربة. وقد شجع ذلك الأولاد الآخرين، وسرعان ما كانت هناك ضجة أعلى من أصوات طيور النورس. الساحرة ذات الأنف الضخم! قاتلة! ساحرة قبيحة!

لم أكن أبتسم، بل كنت أفكر فيه. لم أستطع أن أشرح الثقة المذهلة التي منحتني إياها عيناه، وذكرى يده الصغيرة عندما قمتُ بقياس نبضها، وقبل كل شيء، كلماته. *آني جميلة وشجاعة*. ربما لم أعد أنتمي إلى بورتسموث بعد الآن، لكن كان لديَّ مكان آخر لأعيش فيه.

أينما كان سيعيش هناك، في قصره الكريستالي. لأننا لا ننتمي إلى الأماكن، بل إلى الأشخاص. أماكننا تتحرك، وتمتدَّ حتى تصل إلى حيث نذهب.

غادرتْ عربتي وهي تحمل مكاني بداخلي.

-7-

حاصر الصحفيون مركز شرطة طريق فيكتوريا يحملون دفاتر ملاحظات في أيديهم. صرخوا ورفعوا رؤوسهم واستدعوا المفتش، لكن الرجال الذين يرتدون الزيَّ الرسمي دفعوهم لإفساح المجال لنا. توقفتِ العربة، وعندما نزلتُ منها شعرت بشيءٍ لا أستطيع تفسيره، التعاطف مع الجميع. اعتقدتُ أن هناك الكثير من الجهد، والكثير من المعاناة بداخلنا جميعًا. كانت هناك أسئلة وقلق، ولكن أيضًا خوف، وبشكلٍ عام، تعب على الوجوه. لم أكن أعرف ما هي التهمة الموجهة إليَّ، وقد عاملوني بقسوة؛ قبضوا على ذراعي وسحبوني إلى داخل المبنى، متجاهلين الصراخ -«*أنا من صحيفة عين بورتسموث، أيها المفتش!*»- لكنني لم أفكر كثيرًا في نفسي ومصيري. لأن كل شيءٍ تغير بالنسبة لي داخل مركز الشرطة المزدحم. لم أرتكب أيَّ خطأ، أو هذا ما اعتقدته، ولكن في ذلك المكان المليء بالأوراق، ورائحة الحبر، والملفات المتعفنة، والتبغ القوي والعرق، وحيث تعلو كل شيء صورة جلالة الملك، شعرتُ بالذنب.

الشعور بالذنب، مثل الديكور، يتخلل كل شيء.

أخذوني بسرعة إلى مكتب صغير. أُغلق الباب، تاركًا الضجيج خلفي، وأحاط بي مرتون والرقيب. أحسستُ أنهما كانا على حافة أن يفعلا كل شيء أو لا شيء. كان هذا سينتهي الآن، كانا فقط بحاجة إلى تعاوني

لتسوية الأمر. لقد كانوا مواطنين في قرية من الصيادين والبحارة السذج، وأرادوا العودة إلى وطنهم في لندن وإبلاغ رؤسائهم بأن كل شيء قد تمَّ حله. لم تكن هناك مقدمة أو وقفة. لم يقدم لي أحد أي شيء للشرب. كانوا في عجلة من أمرهم.

وضع مرتون ورقة على الطاولة أمامي: «هل تعرفين هذا الخط؟».

لقد كان الخطاب متجعدًا ومتسخًا بشيءٍ ما، لكنني كنت أعرف ما كان عليه حتى من قبل أن يقرأها.

روبرت!

أحتاج إلى أيامٍ للتفكير في الأمر. إنه قرارٌ مهم للغاية بالنسبة لي وأريد التأكد من ذلك. إذا كنت لا تستطيع انتظاري، عُد إلى لندن. وإذا كنت تعتقد أن قراري يجب أن يكون بالضرورة طاعتك، فيجب أن أخبرك، بحزنٍ شديد، أنَّ ما بيننا قد انتهى. سأحتفظ باللحظات السعيدة في ذاكرتي. شكرًا على كل شيء.

سألني مرتون مرة أخرى: «هل تعرفتِ على خط اليد؟».

تحجر فمي ولم أستطع النطق، كان جافًّا وعاجزًا بينما جسدي بلله العرق بالكامل، باستثناء ذلك التجويف، ذلك الكهف الضيق.

كرر: «هل تعرفتِ على خط اليد؟».

ألقى مرتون الورقة أمام عينيَّ فقفزتُ مكاني: «نعم».

الإجابة التي قدمتها لا تتطلب فاصلةً أو أحرفًا كبيرة.

- إذن أخبرينا لمَن هي؟ اللعنة!

ضجت أصوات ضحك في الخلف.

- لي.

الآن كان هناك المزيد من الناس ورائي. لكنني لم أعد أستطيع التفكير بوضوح.

- ولمَن وجهتِها؟

أجاب صوتٌ آخر من خلال شفتي الجافة: «رو...، روبرت ميلجرو».

- ما هي العلاقة التي كانت بينكِ وبين السيد ميلجرو؟

لقد كان سؤالًا جيدًا. ما العلاقة التي كانت بينكما؟ لقد كان الدب الخاص بي.

أردت أن أقول: قطعة قماش سوداء العينين، لكنني دمرتها. اعتقدتُ أنَّ ذلك سيريحني.

- هو...، لقد كان...، صديقي.

- كان...

كان مرتون يتأمل الكلمة، وهو ينظر إلى شاربه الشائك، كما لو كان يخترقني.

هززتُ رأسي: «لم يعد كذلك».

- جيد جدًّا. لكن...

- هناك دائمًا ولكن.

تعجبَ الرقيب جيمسون من خلفه بينما يُدون الملاحظات.

- وكيف تُترجمين...، لكن هذه يا آنسة ماكيري؟ هل كنتما عاشقَين؟

كانت أسئلة مرتون بمنزلة طلقات مصوبة نحو غزال هارب. فقط في وقتٍ لاحق، عندما أُنزل السلاح، توقف مؤقتًا للتحقق. ما إذا كان هناك دم أم لا، ما إذا كان الحيوان يعرج أو نجا دون أن يصاب بأذى.

- لقد انفصلنا منذ أسبوعين.

- هل حدث شيءٌ لروبرت؟

اقترب مرتون مني كثيرًا لدرجة أنني اعتقدتُ أنه سيضربني. «آنسة ماكيري! هل تسمحين لنا بالقيام بعملنا؟».

- معذرة.

- متى رأيتِ السيد ميلجرو آخر مرة؟

- منذ أسبوع تقريبًا، على...، على الشاطئ.

- الليلة التي قُتل فيها ديفيد تايلور والصبي؟ داني ووترز؟

أومأتُ برأسي مصدقةً على كلامه.

- ما سبب وجودكِ على الشاطئ في ذلك الوقت؟ أنتِ تعملين ممرضة في كلارندون هاوس.

- لقد خرجت لأستنشق الهواء البارد قليلًا...، كان رأسي يؤلمني.

- هل أصابكِ الصداع بعد الذهاب لرؤية الطبيب...، (راجع ورقةً ما) دويل في المسرح بعد ظُهر ذلك اليوم؟

كان من غير المجدي إخفاء أي شيء. أومأتُ موافقة مرة أخرى.

- وقبل الشاطئ؟ متى رأى أحدكما الأخر؟

بدا لي أنهم يعرفون ذلك بالفعل كانوا ينتظرونني أن أقع في فخ الكذب. دفعني ذكر المطعم إلى التفكير في أبيجيل. الفتاة تحتضن نفسها -جسدها كخطٍّ مركزي وحجم متماثل من اللحم على كل جانب- لم أرغبْ في تذكُّرها، لكن صورتها ظلت عالقة داخلي.

- ولكن، إذا كنتِ لا تريدين رؤيته مرة أخرى، فلماذا رأيتِه على الشاطئ لاحقًا؟

أخبرته أنَّ روبرت تبعني عندما ذهبتُ إلى المسرح بعد ظُهر ذاك اليوم.

- هل تجادلتما؟

- نعم.

- عن ماذا؟

- أراد مني ترك الوظيفة في كلارندون.

- لماذا؟

- حتى أتمكن من الذهاب معه إلى لندن.

-هل كنتما تعيشان معًا؟

- لا...، لكنه قال إنه يفضل لندن.

- هل كان سيعيش معكِ؟

- لا.

كان تعبير مرتون ماكرًا وقد شبك ذراعيه.

- معنى هذا أنك كنتِ ستتركين وظيفتكِ هنا لتعيشي بمفردك في لندن، فقط لأنه قال ذلك.

- لا، قلتُ له إنني لن أغادر.

- ألهذا السبب أرسلتِ له هذا الخطاب؟ (أومأتُ برأسي بالإيجاب) لكن ماذا كانت الخطة؟ يبدو أنكما كنتما متحابين على ما يبدو، لهذا أخبركِ أن تذهبي إلى لندن.

- أراد أنْ نعيش هناك حتى نكون أكثر هدوءًا، عندما يحضر لرؤيتي

- عندما يحضر لرؤيتها (كرر مرتون) ماذا كان يعمل السيد ميلجرو؟
- إنه بحارٌ على متن السفينة التجارية إنجراتو.

كان مرتون قد خلع سترته وجلس قبالة الطاولة من زاوية بعينها، حتى لا يُعطي الانطباع بأنه يريد أن يكون بالقرب مني. ويداه في جيبيه دائمًا. مع ردي الأخير، نظرَ إلى الرقيب. لم يكن وجهه الأحمر الحاد -لموظف حكومي مُثقل بالعمل- هو وجه مرتون المنتصر الذي وصل قبل شهر إلى كلارندون، قادمًا من لندن للاستفسار عن مقتل المشرَّد هاتشينز. لقد أصبح الأمر أصعب. تحجرت المسؤولية في ملامحه.

قام جيمسون بلفتةٍ غامضة. نظر مرتون إليَّ مرة أخرى. سألني: «كيف علمت بذلك؟».

- هو...، أخبرني.
- وماذا قال لكِ أيضًا؟
- إنه جاء إلى بورتسموث لرؤيتي.
- لرؤيتكِ.

كرر مرتون كما لو كانت إجاباتي مذهلة.

- نعم.
- هل تعرفين في أي نُزل كان يقيم؟

-لا.

- هل أخبركِ من قبل عن حياته كمتشردٍ في شوارع لندن؟

نظرتُ إليه في حيرة.

- روبرت...؟ لا، هو...
- لقد عاتبتِه لأنه لا يملك المال للعيش معًا، أليس كذلك، صحيح؟

- أنا...

بدا شارب مرتون ضخمًا شيطانيًّا بينما ينحني.

- صحيح يا آنسة ماكيري؟ ألم تحتقريه لأنه بائس؟ تميل النساء إلى كراهية الرجال غير القادرين على إعالتهن.

- أنا...، لم...، لم أحتقره.

- ولكن عندما جاء طلبَ منكِ المال.

راودني الشك بشيءٍ ما. كما هو الحال عندما تكون لديك بشرة حساسة وشخصٌ ما يخدشها، وميض من برق مباغت. عرفت ذلك عندما نظرتُ إلى جيمسون، الذي نفخ خديه وهو يراقب مفتشه الذي يقدسه. انتفختْ أوداجه واحمرَّ وجهه وسط هذه الأجواء المليئة بالتوتر.

أجبتُ كأنني على وشك البكاء: «نعم».

- لقد شعر بالغضب الشديد في لندن عندما اكتشف أنكِ تريدين المجيء إلى هنا. كان يحتقر هذه المدينة المليئة بالبحارة المتشردين القدامى الذين يُذكرونه بحياته الحقيرة...، لكن أنتِ، بحسٍّ سليم وعملي مثل كل جنسكِ، احتقرتِه لأنه يعيش في بؤس.

كنتُ أبكي غير قادرة على النطق بأي شيء. نظر مرتون إليَّ للحظة، ثم نظر للأعلى. لقد كانت مثل الإشارة المُتفق عليها.

كان ينبغي للضحك الذي انفجر خلفي أن يهدئني -لا يمكن لوم أحد على أي شيءٍ خطِر في مواجهة مثل هذا الضحك- لكن الحقيقة هي أنهم ضاعفوا قلقي.

- هل يمكنني أخذُ كوب ماء؟ (طلبتُ وسط تلك الضوضاء) فتجاهلني مرتون.

- تتقاضى العاهرات -على الأقل- أجورهنَّ مقابل استقبال الزبائن. هذه السيدة كانت تدفع له، مما يجعلها غبية أيضًا.

أدَّتْ موجة الضحك البشعة إلى التصفيق. بدا الأمر كأنه مسرحٌ كامل عندما أسدل الستار. في الواقع، كان مرتون ينحني. وقال: «غبية لأبعد حد. أدركتُ ذلك عندما رأيتها لأول مرة».

لم ينظر إليَّ عندما نطق بعبارته، ليس احترامًا، ولكن لأنهم لم يعودوا مهتمين بي.

-8-

استقبله مركز الشرطة بأكمله بحفاوةٍ بالغة من مسافة بعيدة، وطوَّقت عناصر شرطة بورتسموث المدربة على استخدام القوة المكان بأكمله، صرخ الصحفيون ورفعوا قبعاتهم. لكن صوت مرتون المتسلط سيطر على الجميع، رفع كلتا يديه المفتوحتين، ورفع كفيه إلى الأمام، والمتحدث يطلب التوقف.

- أيها السادة! مدينة بورتسموث **آمنة**.

ومرة أخرى تمَّ إطلاق العنان ليعم الفرح. ويبدو أنهم كانوا يقولون: «لقد كان الطريق صعبًا. لكننا وصلنا» إكبار مرتون أمام كل أولئك من بورتسموث، الذين استمروا في تمجيده، قلب الأمر ضدي، مما تسبَّب في واحدةٍ من تلك الوقفات في الصخب حين يكون الشخص المخمور هو الأكثر سماعًا.

- أما أنتِ، فيا للشياطين، استيقظي، اللعنة. لا تملكين أي قسطٍ من الجمال، كما أنكِ تزيدين الأمر سوءًا بكونكِ حمقاء أيضًا، هيا اغربي عن وجهي.

لقد نسوني بالفعل. كان ذلك منطقيًّا لأنني كنتُ -ولم أكن- أيَّ شيء آخر سوى مصدر للمعلومات. مع اكتمال دوري، كل الأنظار، واللحظات القلقة السابقة، تحولت الآن عني واستغرق الأمر مني جهدًا للسير نحو باب الخروج. دفعني ضابط شرطة بكتفه حتى أتمكن من المرور، فلمست ذراعه قائلة: «عفوًا، هل يمكنك أن تخبرني ماذا حدث لروبرت ميل؟».

واصل الشرطي طريقه. جربتُ أنْ أسأل شخصًا آخر بدينًا، نظرَ إليَّ كأن سؤالي أغضبه ودفعني بعيدًا. كان جلُّ اهتمامه أنْ يراه مرتون في تلك اللحظة. أي شخص يباركه مرتون بنظرته يمكن -مَن يدري- أن تتم ترقيته، وربما يتم نقله إلى لندن في يومٍ ميمون. لم يكن لي أي علاقة بالأمر، لكنني أردتُ أن أعرف ما حدث لروبرت. لم أعد أحبه، لكن مصيره يهمني؛ لأنني أحببته ذات يوم، وهو أيضًا أحبني، حتى لو كان ذلك في البداية وحسب.

لم تكن أذرع رجال الشرطة القوية قادرة على احتواء هجوم صخب الأفواه الصارخة، والشوارب المرتجفة، وجوع الصحفيين المتلهفين إلى الأخبار. وقفتُ أمامهم وحدث انقلابٌ هائل في تبادل الوظائف: أنا الذي طرحتُ الأسئلة هذه المرة، وهم الذين استجابوا لها.

- هل يمكن لأحد أن يخبرني ماذا حدث للسيد ميلج؟

«ما هو شعوركِ عندما تكوني عاشقةً لقاتل؟». صاح أحدهم. وفجأة بدأت الحقيقة المروعة تشقُّ طريقها إلى رأسي، مثل حيوانٍ قارض أسود اللون.

- هل تعلمين شيئًا؟ هل كنتِ شريكةً له آنسة ماكيري؟ هل صحيح أنكِ ممرضة تراعين المرضى المجرمين؟ قولي لا، لكنكِ تبكين، لماذا تبكين يا آنسة ماكيري؟ تبكين من أجل القاتل المتسول آنسة ماكيري؟

-9-

هذا ما رأيته.

رأيت كُمَّ زِيٍّ ما موحدٍ يمتد كالحبل أو الشبكة، كانت له القدرة على طرد الأصوات والأشخاص من حولي. سحبني. جعلني أعبر بين دفاتر الصحفيين والأفواه المفتوحة التي تُسبب الصمم.

صاح صاحب هذا الكُم: «اتركوها وشأنها، اتركوها وحدها، السيدة ليست متهمة بأي شيء، اتركوها».

ظهرتْ فجأة أمامي عربة. الكُم الذي جذبني جعلني أنظر إلى وجه صاحبه. كان ضابط شرطة شابًّا، ذا شارب أشقر. نظر إليَّ بالازدراء نفسه الذي نظر إليَّ به الآخرون، لكن كان هناك بعض التفهم على وجهه.

- لقد شنق نفسه الليلة الماضية في غرفته في نُزله، نُزل بيكوكس إنْ، عند النقطة...، (أخبرني بسرعة ودون اهتمام). لقد ترك خطابًا مكتوبًا بخطٍّ يده مع الرسالة التي أرسلتِها إليه، يعترف فيها بجميع جرائم القتل. كان يعيش في لندن، ويعمل كعامل موسمي على الأرصفة، وليس على متن سفينة، ولهذا السبب لم يُرد أن تأتي إلى هنا. يعتقد المفتش أنه قضى سنواتٍ عديدة كمشرد، وأن حقيقة رغبتكِ في الابتعاد عن لندن دفعته إلى الجنون، مما جعله يعتقد أنكِ تكرهينه بسبب فقره. لقد وصل قبلكِ بأسبوع وبدأ في قتل أولئك الذين ذكروه بما كان عليه؛ بلا مأوى. عودي إلى المنزل وفي المرة القادمة تخيري أصدقاءكِ بشكلٍ أفضل.

سلمني الكُم إلى العربة، أُغلق الباب.

كان لديَّ شك واحد، واحد فقط.

من فضلك أردتُ أن أسأل...

خطاب بخط يده؟ روبرت بالكاد كان يعرف كيف يكتب.

-10-

لقد عاد الكابوس، في الاتجاه المعاكس. هذه المرة رصيف كلارندون. بينما أدخل عبر الردهة. دون أن أرغب في التفكير، كما لو أن الذاكرة أيضًا لها ظهر ولا تستطيع أن ترى ما تنأى بنفسها عنه. تقدمتُ بخطواتٍ مرتعشة، وأنا أعلم ما هو هدفي دون أن يُخبرني أحد بذلك، وبالتأكيد قبل وقتٍ طويل من إعلان السيد ويدون -أعني ببعض الأسف- أن الدكتور بونسونبي كان ينتظرني في مكتبه.

كل ما سيحدث سيكون قليلًا، هكذا اعتقدتُ. كل شيءٍ سيكون قليلًا بالنسبة لي وبالنسبة لما حدث.

هذه المرة دعاني الدكتور بونسونبي للجلوس.

هذه المرة تذكر الدكتور بونسونبي اسمي.

كنتُ قد توقفتُ عن البكاء. الحقيقة أنني لم أشعر بأيِّ شيء. فوجئتُ بنفسي خاضعة للكلوروفورم العاطفي، وهو حلو تقريبًا. رأيت بونسونبي يتحرك ذهابًا وإيابًا -لم يجلس- بدا هو أيضًا ضبابيًّا وغير مستقر. ثم تحدث بعد قليل وسمعته.

- ...على مدار سنوات...، إنه شيءٌ حاولتُ الحفاظ عليه، يا آنسة ماكيري! مهما كلف الأمر، لأنَّ بقاءنا يعتمد على اسمنا، أوه، أنا لا أقول إنَّ هذا كل ما لدينا في كلارندون، ولكن...، نحن لا نزيل الزوائد الجلدية، أو نولد أطفالًا، أو نجري عمليات المرارة هنا، هذه دار رعايةٍ خاصة للمرضى العصبيين، ولكنَّ هؤلاء المحترمين من العائلات النبيلة.

تأملتُ يديَّ بينما يتحدث إليَّ. لقد كان محقًّا. لم أساعد في أي عمليات. فقد كرَّستُ تعاطفي وخبرتي إلى المجانين فقط. لم أمنح مأوى في قلبي سوى للمجانين والمجرمين. لم أكن ذات قيمة، بلا أهمية أيضًا. عاش المرضى العقليون محبوسين بأماكنهم. السيد إكس عاش محبوسًا. فلماذا يحتاج إليَّ أحد؟ ماذا كنت أفعل، حقًّا؟ أشعر بالشفقة وحسب، لقد كنتُ مجرد متعاطفة. كان السيد إكس بحاجةٍ إلى شفقة الآخرين.

- لا يمكننا أن نسمحَ بتلك الممارسات، وأكرر، سُمعتنا على المحك. لذلك سوف تحزمين حقائبكِ وتغادرين صباح الغد مبكرًا. دون مستحقات. ولا تتوقعي مني أيَّ خطاب تزكية. في الواقع، لو كان الأمر بيدي، لكنتِ غادرتِ اليوم، لكن السيد إكس...

كان هذا الاسم بمنزلة طرْقٍ على الباب. استيقظتُ من سباتي ونظرتُ إلى بونسونبي.

- لقد رفضَ السماح لكِ بالمغادرة اليوم. يريدكِ أن تغادري غدًا.

تمتمتُ كما لو كنتُ في حلم: «ماذا؟».

- ألا تسمعيني؟ السيد إكس أيضًا يريدكِ أن ترحلي، لا يريد ممرضة من طرازكِ، لكنكِ ستفعلين ذلك غدًا. أنتِ لا تنتمين إلى كلارندون. أنتِ لستِ ممرضة. ليس لديكِ أي حق، وسأحرص شخصيًّا على أن يكون هذا معروفًا في عالم الطب في هذا البلد. (واصلتُ النظر إلى يديَّ، واحدة تلو الأخرى، متشابكتين على حجري. كنتُ أفكر في تلك الكلمات القاسية: «السيد إكس أيضًا يريدكِ أن ترحلي») يبدو أنكِ تهربت من مسؤولياتكِ الجنائية...، لقد تحدثتُ إلى المفتش مرتون هذا الصباح. أخبرني أنه على الرغم من أنهم استجوبوكِ بشكل روتيني، فإنه يبدو من المؤكد تقريبًا أنكِ كنتِ

تجهلين تمامًا ما كان يفعله ذلك المتوحش...، *جاهلٌ* معقد، لقد كان ذلك من حسن حظكِ، لا أقول إنكِ محظوظة جدًّا، لكنكِ ربما لحدٍّ ما، لأنه لولا ذلك الحظ لانتهى بكِ الأمر في السجن، أنتِ آمنة أمام القانون، أجل. لكن في نظر السادة المحترمين، السيدات المحترمات، والكرامة نفسها، لقد تمت إدانتكِ، كل ما تبقى هو تبرئة سُمعة واسم كلارندون النظيف. الآن من فضلكِ اغربي عن ناظري. غدًا عند الفجر أريدكِ أن تغادري المكان. هذا كل شيء.

جلستُ هناك أشعر بالبلاهة، أدركتُ أنَّ الريح سوف تدفعني للخارج.

-11-

يدٌ أخرى ألبستني، لم تكن يدي.

ظهرت أمامي ماهرة، لكنها متعبة من تكرار الإيماءات نفسها. نظرت إليَّ عينان أخريان في المرآة. وجهي انعكس عليها، أنفي المنتفخ، وذقني الصغير الذي يكاد يكون معدومًا. عيناي القريبتان جدًّا من بعضها بعضًا. اليد الغريبة توجتني بقبعة الممرضة للمرة الأخيرة. هذا ما كان متوقعًا مني.

ثم غادرتُ غرفتي، وسرت في الردهة، عبر المطبخ بينما تراقبني السيدة جيليسبي للحظة، عبر القاعة حيث أرشدتني هيتي والترز في اليوم الأول، ويبدو الآن أنها تريد أن تكون حاضرةً لتودعني، تبتسم وتبكي في ذات الوقت.

لقد صرتُ فضيحة. قمة العار. والعار له عربته الخاصة التي يُعجب بها الجميع. خطوات محسوبة وبطيئة. تشابكت يداي فوق بطني كأنني قد أُصبت بجرحٍ مميت، وكنت أنزف حتى الموت.

لم أستطع التوقف.

صعدتُ الدرج كما لو كنت أطفو على الدرجات. كانت ماري برادوك قادمة، ولم تتحدث معي حتى. كان السيد كونراد هــ. ينظر إلى الردهة، لكنه أغلق الباب عندما رآني. لقد ورثتُ البارانويا لديه، وربما كان يعرف ذلك أيضًا. وصلتُ إلى الباب الأخير، فتحته. وأخيرًا، توقفتُ.

-12-

بدا أنَّ كل شيءٍ على حاله، ولكن لم يعد أي شيء على حاله.

قال الصوت من خلف المقعد المجنَّح: «كوني واثقةً يا آنسة ماكيري!».

لكنه لم يُحركني.

- أنت أيضًا...، سأغادر مبكرًا صباح الغد، سيدي! وفقًا لرغبتك لا تقلق. هل يمكنني أن أسألك لماذا تحتاج إليَّ اليوم؟

كانت كلماتي عالقة في حلقي، كما لو كنتُ قد شربتُ الماء الجهنمي لذلك الشيطان الذي كان شريكي -حبيب، *آني*- على مدار سنوات. لكن حتى هذا لم يكن مؤلمًا بقدر تجاهُل السيد إكس.

- هناك شيءٌ أريدكِ أن تفعليه، (أجاب) سأخبركِ به غدًا قبل أن تغادري.

ولأتجنب البكاء مرة أخرى، استدرتُ بعيدًا وتظاهرتُ بأنني أقوم بمهامي.

اعتقدتُ أنَّ الأمرَ مؤلم، لكن ليس مؤلمًا إلى هذا الحد، وإذا فكرتِ يا آني! ستستنتجين أن هذا هو القرار الأكثر منطقية الذي قد يتخذه أي شخص بشأنكِ، نعم، حتى شخص مثل السيد إكس الذي اعتقدتِ في لحظةٍ ما غبية أنَّ صحبتكِ تعني له شيئًا، وأنَّه فهمكِ أفضل مما فهمتِ

نفسكِ. لكنكِ موصومة. لقد أعطيتِ المأوى والمال للقاتل المتسول. لقد قدمتِ جسدكِ وروحكِ للشيطان. ولا حتى السيد إكس بقادرٍ على قبول ذلك. إنه أمرٌ منطقي.

لم يقاطعني إلا ليسألني سؤالًا بلهجته الناعمة المعتادة: «هل كان المرور بمركز الشرطة هذا الصباح صعبًا للغاية؟».

- بعض الشيء.
- لا بدَّ أنه كان هناك صحافيون...، (قال بلهجةٍ ساخرة). هل كان هناك صحافيون من جريدة عين بورتسموث؟ هل طرحوا الكثير من الأسئلة؟

أجبته إيجابًا لكلا الأمرين (أتذكر ذلك الصحفي جيدًا).

همس بشيءٍ كأنه يُحدث نفسه: «طبعًا الآن تنقصهم المعلومات».

لم أفهم ما يقصده ولم نتحدث مرة أخرى.

-13-

لم أستطعْ مواصلة العمل إلى جواره. لم أجد أيَّ عُذر للذهاب بعيدًا ورعاية النزلاء الآخرين، الذين لحسن الحظ لا يفكرون كثيرًا، أو ربما لم يفعلوا ذلك على الإطلاق، ولم يعرفوا حتى النبأ العظيم عن علاقتي بقاتل المتسولين والتي سيتم الإعلان عنها بعد ذلك من قِبل بائعي الصحف في لندن أيضًا. ولكن كان لديَّ انطباعٌ غريب، والذي كان يتعزز في كل مرةٍ أعود فيها إلى السيد إكس، في بعض الأحيان كنتُ أسمعه يُدندن بأغنية قصيرة، لم أتعرف عليها حتى اعتقدتُ في حالة ذهول أنه سعيد لأنني سأغادر غدًا، يا إلهي! لقد كان شيئًا عميقًا وفظيعًا لدرجة أنني استمددتُ منه القوة للمقاومة، كما يستخرج المرء مكنون البئر حتى

أتمكن من الوقوف شامخةً وأقاوم. ومن ناحيةٍ أخرى، لم يكن المريض الذي أرعاه على علمٍ بهذه المخاوف. كان بالكاد يأكل ويكرس نفسه للعزف بكمانه غير الحقيقي، وبعد الظُّهر بقليل، سُمِع طرق الباب معلنًا وصول الدكتور دويل، الذي أدخلَ رأسه أوَّلًا، وابتسم كاشفًا كل أسنانه ثم دخلَ بجسده في حركة مباغتة.

- مساء الخير لهذا التجمع الجميل والممتع، كيف حالك أيها الشاب العزيز؟ أرى أنك أفضل بكثير. المزيد من الأشياء تستحق الاحتفال آنسة ماكيري!

كان بحوزته صندوق تحت ذراعه، قرأتُ عليه اسم أحد أفضل متاجر المشروبات الكحولية في بورتسموث.

- يزعمون أنها أفضل شمبانيا فرنسية مستوردة...، أصدقائي الأعزاء، ألا تقولون شيئًا؟ أفترض أنه على الرغم من إخفاء الصحف هنا، إلا أنكم تعيشون في العالم...، على الأقل، أنا أثق بكِ يا آنسة ماكيري! لأنني أعرف بالفعل أن شيرلوك الحصيف جالس على نجمٍ بعيد...، من أين تأتي تلك الوجوه الذابلة؟ هل أوقعوا بكِ في *الفخ*؟ (فتح ذراعيه في انتظار ردِّ الفعل، لكنه أساء تفسير صمتنا) حسنًا، لنفترض أنه في الواقع لم يخرج...، لقد سبقنا مجرمنا العزيز اللعين وأفسد الحفل من أجل العدالة. أتصور أنَّه شك في أنهم يبحثون عنه لأنك تعلم بالفعل أنهم عثروا عليه ميتًا في فندق بيكوك إن...، (كان مترددًا ينقل بصره بيننا، فاختار أن ينظر إليَّ) لم يظهر في صحف المساء بعد، لكن...، أخبروني أنه...، بحَّارٌ من...، يا إلهي! (شحب لونه) هو؟ ذاك الغبي!

لم تكتمل فرحته لدرجة أنني سارعتُ بالابتسام له.

- لا تنزعج (كذبتُ) لقد منحتني الوقت بالفعل...، للاعتراف بذلك.

كان دويل قد تراجع منكسًا كتفيه، مكتئبًا. أخذ يدي في يده.

- أوه، يا إلهي! يا إلهي! أوه، من فضلك ...

لقد كان من دواعي سروري أن شعرت عندما رأيت أن هناك شخصًا ما، شخصًا *ما*، إنسانًا، شعر بالأسف من أجلي حقًّا، شخصًا لا يريدني أن أترك حياته، لا اليوم ولا غدًا، حتى انهرتُ فتلقَّتْني ذراعا الطبيب.

- آنسة ماكيري! آني! يا إلهي، أنا آسف جدًّا!

- الآن...، لا داعي للخوف منه بعد الآن.

تمتمتُ بين ذراعَي دويل: «لقد كذبَ عليَّ. أخبرني أنه لا يزال يعمل على متن سفينة، ولكن مرَّت سنوات منذ أن حصل على عمل...، ولهذا السبب لم يكن يريدني أن أغادر لندن...، لقد كان بالكاد يعيش هناك بما قدمته له. رغبَ فقط في أعطيه المال...، كان بإمكاني مسامحته على كل ذلك...! تحشرج صوتي، وتقطَّع بكائي، فشعرتُ بالخجل من نفسي، مما جعلني أبكي أكثر -ويزداد قُبحي- لكن الجرائم لا، على الرغم من كل الحقد بداخلي...، تجاه الحياة...، تجاهي...!».

واساني الطبيب الرحيم بعناقٍ شديد: «أوه...، يا آنسة ماكيري!».

صرختُ: «بسبب ما فعله لـ داني ووترز، أتمنى أن يحترق في *الجحيم*».

وتمكنتُ أخيرًا من الاستسلام للغضب، وهي طريقةٌ رائعة لتجفيف أي دموع. ثقوا بي.

نطق برقة السيد إكس: «أنتِ لم تكوني مسؤولة عن ذلك».

وهذا جعلني أبكي مرة أخرى، ولكن بعيدًا عن ذراعَي دويل.

- بل كنتُ مسؤولة عن ذلك، لأنني لم أستمع إليك! لقد حذرتني وأخبرتني أن أكون حذِرةً معه، كان أول شيءٍ قاله لي -وعاد

الغضب بناره الحارقة- وعلى أي حال...، ما يهمك إذا كنت مسؤولةً أم لا؟

بعد ذلك انهرتُ غارقةً في تنهدات بلا دموع. لكن في تلك اللحظة لم يكن الندم على علاقتي مع روبرت؛ بل كان الفتور نحو الرجل الذي كنت أعتقد أنه مميز جدًّا، ومتفوق جدًّا، ذلك الشعور هو ما أصابني بجراح قاتلة. أغلقتُ جفنيَّ. جميلة...، شجاعة...، غبية. إنه الوقوع في شباك رجلٍ مجنون بعد أن تركتُ نفسي يمتلكها شخصٌ آخر. هذه كانت أنا.

وضع دويل يده على كتفي وتحدث معي كأنه الرب من السماء: «أول مَن حكى لي في ذاك الصباح كان واحدًا من المرضى، أخبرني أنه بحار ولم يخطر ببالي حتى أنْ أفكر...، يا لي من أحمق! (طمأنته، لقد أحزنني أن أرى فرحة شبابه تنهزم على هذا النحو) ذلك الرجل القاسي...، لقد كان يخونكِ طوال هذا الوقت...، لا بدَّ أن الأمر كان فظيعًا بالنسبة لكِ».

قال السيد إكس: «كلُّ واحدٍ منا يحمل إرهابه الخاص».

حدَّق به دويل ثم رمقني بإحدى نظراته «الرائعة المبهمة».

- حسنًا، أرى أن الجو ليس مناسبًا للشمبانيا، لكن مع كل ذلك، ما زلتُ مبتهجًا. لأننا قد تخلصنا من وحشٍ مريض...، اعذريني على التحدث علنًا، يا آنسة ماكيري! (قمت بإشارة لأؤكد أنَّ كل ما قاله على ما يرام)، ومن الواضح أن هذا الرجل كان مجنونًا. لقد كان ذلك بمنزلة راحة بالنسبة لك، وبالنسبة لبورتسموث، نهاية الكابوس...، خاصةً وأنَّ اليوم هو اليوم المناسب.

- اليوم؟

تدخَّل السيد إكس في الحديث: «اليوم يُصادف مرور أسبوع بالضبط على وفاة داني ووترز».

داني ووترز.

لقد صدمني الخبر. شاركتُ دويل فرحته جزئيًّا، ولكن الطريقة التي تكلم بها السيد إكس لم يقلها بنبرةٍ مرتاحة، بل بصوتٍ عنيد، مثل البندول الذي يشير إلى وقتٍ مشؤوم.

- نعم، لقد فكرتُ في ذلك أيضًا (اعترف الطبيب الشاب) ولهذا السبب أعتقد أن لدينا شيئًا نحتفل به...، ربما نظرياتك...، نظرياتنا حول المجرم لم تكن صحيحة، لكن...، حسنًا، لا تنزعج يا صديقي العزيز؛ شيرلوك هولمز موجود بداخلي فقط. خيال. ألن تشاركني النخب سيد إكس؟

أجابه السيد إكس: «أطلب منك تأجيله يا عزيزي الدكتور دويل!».

- لماذا؟

- لأنه يجب علينا أن نحتفل بانتصاري، ولكن في وقتٍ لاحق، لم يصل بعد.

- أقسم أنني لا أفهم ذلك.

- ليس هناك ما يمكن فهمه. إنها مجرد طريقةٍ لقول ذلك.

لقد استمعت إليهما، لكنني كنت أنظر من النافذة بعيدًا، ما وراء الأشجار، تحرك البحرُ، رماديًّا، غير ملموس. تذكرتُ صراخ روبرت قائلًا إنه يحبني في الشاطئ نفسه. روبرت ورسائله كتبها أشخاص آخرون. لكن ضابط الشرطة الذي تكرم ليشرح لي ما حدث قال إنه ترك رسالة «بخط يده». لم يكن ليتمكن من فعل ذلك أبدًا، ناهيك بشرح شيءٍ معقد للغاية. لم يكن ذلك خطه.

شعرتُ بقشعريرة خفيفة، كما لو أن برودة البحر تتجه نحوي بمجرد النظر إليه، مثل شبحٍ ما. هل أجرؤ على قول هذه التفاصيل؟ ألا يبدو،

ربما، أنه كان يحاول الدفاع لأقصى حدٍّ عن ذكرى القاتل، حيث لا شيء ولا أحد يستطيع أن يفعل ذلك بعد الآن؟

لكنني قررتُ ألا أنظر إلى أيٍّ من الرجلين فقط، وكنتُ على وشك ذكر ذلك، وفتحت شفتَيَّ بالفعل عندما سمعنا طرْقًا جديدًا على الباب. ابتسمَ السيد إكس وبدا عليه الحماس وهو جالس في مقعده.

- هذا هو، إذا لم أكن مخطئًا.

سأل دويل بسذاجته المعتادة: «مَن؟».

- غريمي، انتصاري، لقد وصل الآن. هل تتكرم بفتح الباب يا دكتور؟

سادتْ لحظة من الصمت المطبق والمفاجأة المُطلقة عندما فتح دويل الباب. ثم جلجَلَ الصوت.

- حسنًا... حسنًا... لقد سمعتك من الخارج. لذا هل تعتقد أنك ستفوز اليوم يا سيد هولمز؟ اسمحوا لي أن أشكَّ في ذلك.

تعرفتُ على الرجل القوي ذي الشعر الأبيض والعباءة السوداء واقفًا عند عتبة الباب، كان الأب فيليبوتس.

يوليو 1882



نيران في تيلمو

مجلة بورتسموث الكاثوليكية

الكنيسة الكاثوليكية ترفض عروض المسرح السري.

لا أحد يذكرهم في الأماكن العامة. هل يخجل السيد ديكنز والسيد تينيسون والسيد ثاكيراي من زيارتهم؟ يا للانحطاط الأخلاقي الذي لا يُوصف! إنه تدهور لا يُوصف. تلك الألواح التي تدوسها الأقدام العارية، وأحيانًا الطفولية، تلك الحماقات المنحرفة والإغراءات التي أدانها بحق الكاردينال جون هنري نيومان، الإنجليكاني السابق...! لكن الآن، مع كاتدرائية القديس يوحنا الإنجيلي المقدس، الذي سيتم تكريسه ومباركته في أغسطس المقبل، يجب علينا -نحن الكاثوليك الإنجليز، مرة أخرى- إعادة التفكير في العدو الشيطاني... أي باب، أي مدينة... الظلام... كلمة المرور...السلالم التي تؤدي دائمًا إلى صالاتٍ صغيرة جدًا... لكن بعضها الآخر هائل مثل الطاغوت... ما هي الإشاعة حول ما يحدث وما مدى صحتها؟ أجساد جرداء تتقاتل في عروض جنونية، عائلات مدمرة تُجبر على إذلال نفسها على المسرح، تجدر الإشارة إلى أن الشخص الذي يكتب هذا لم يقم بزيارتهم مطلقًا ولا يعرف هذه التفاصيل إلا عن طريق السماع. لن يزورها أبدًا، ويجب على أهلنا في بورتسموث، الذين عانوا للتوِّ رعبَ قاتل المتسولين، أن يحذو حذوي، ألم يكن هذا المجرم روبرت ميلجرو -ليضعه الرب في أسوأ درجات الجحيم- يرتاد المسرح السري؟ أليست تلك المسارح الفاسدة هي التي أصابته بالجنون؟ إلى متى أيها الرب نتحمل فجور المسرح...؟

كليفورد إيفانز

حَركات اللعبة النهائية



-1-

- دكتور دويل، أنت أيضًا هنا. يا لها من مفاجأة!

وفجأة، لم نتمكن أنا ودويل من الرد. لكن القسَّ بدا مرتاحًا، وبعد أن ألقى التحية على دويل وأومأ برأسه في اتجاهي، ألقى نظرةً خاطفة على الشمبانيا وأطلقَ ضحكة.

- أوه، شمبانيا فرنسية، احتفال سابق لأوانه، سيدي! لا بدَّ وأنك السيد شيرلوك هولمز.

- تشرفت بلقائك يا أبي!

على عكس عادات أسلافه، صافح السيد إكس بحماس اليد الكبيرة التي مدها إليه الكاهن. تفاجأنا أنا ودويل. شكرًا لحضورك.

- حسنًا أيها السيد! شكرًا لك ولعدوانيتك. اليوم سوف يسيل الدم يا سيد هولمز! إن لم يُعالج الرب الأمر.

- الأمر أمرك.

- من الأفضل أن نبدأ العمل لأنني أرغب في ركوب العبَّارة الأخيرة. الرحلة الصغيرة من جوسبورت ليست بالأمر الهين. (أحضر حقيبة صغيرة وأخرج صندوقًا ولوحًا خشبيًّا قويًّا به مربعات باللونين الأبيض والأسود. ثم لاحظ صمتنا المرتبك) أوه، لكني أخشى...، ألم يخبركم السيد هولمز بأيِّ شيء؟

- لم أكن أعرف إذا كنت ستأتي أم لا. (أوضح السيد إكس) طلبت من جيمي أن يطلب الإذن من الدكتور بونسونبي وتمَّ منحه الإذن.

- حسنًا. (قال القسُّ القوي وهو يضع اللوح على الطاولة التي أزاح عنها زجاجة الشمبانيا بسهولة). اعتقدتُ أن السيد هولمز قد أخبرك بأننا نخوض جدلًا عن طريق المراسلة منذ بضعة أيام...، سبع تحركاتٍ فقط، ولكن كان هناك بالفعل ضحايا.

بدتْ علامات الرضا على وجه السيد إكس.

- كتبتُ إلى الأب فيليبوتس أنني لم أعد أستطيع تحمل هذا التوتر؛ كان عليَّ إنهاء اللعبة اليوم، مهما حدث. لحسن الحظ، وافق بلطف على المجيء إلى هنا. على الرغم من ذلك، أخشى أنه عندما ترى النتائج، ستتمنى لو أنك لم تترك أبرشيتك طوال فترة ما بعد الظهر.

- سيدي، لا تظن أنني غير مستعد للهزيمة (ضحك الكاهن مرة أخرى) ولكن لا تزال لديَّ بعض الحيل في جعبتي.

- أتمنى ذلك، وأنا على ثقةٍ من أنَّ قطعك ستخوض المعركة بكل عزيمة.

- معذرةً...، (تحدث دويل أخيرًا وقد تملكت منه الدهشة مثلي تمامًا) ولكن...، منذ متى وأنتما تعرفان بعضكما بعضًا؟ لم يُخبرني هولمز بأي شيء.

وكانت الإجابة «بالخطابات» و«بالمراسلة»، «السيد إكس هو مَن لعب اللعبة الأولى».

أوضحَ: «هل تتذكرين يا آنسة ماكيري! عندما أخبرتِني عن الأب فيليبوتس وحبه للشطرنج؟ اكتشفتُ أنه يمكن أن يكون منافسًا جديرًا. على كل حال، الدكتور بونسونبي يريدني أن أُلهي نفسي، أليس كذلك؟ وألا تشغلني هواجسي بعد الآن».

وافق الكاهن بإيماءةٍ من رأسه: «لديَّ خبرة مع لاعبين من مُدن أخرى يقترحون عليَّ ألعابًا. لكن هذا الرجل تركني عاجزًا عن الكلام...، قبل بضعة أيام كتب لي يُقدم نفسه وتحداني في مباراة سريعة، مع أدوارٍ يومية تقريبًا. لقد تحمل الرسول المسكين بيننا العواقب، نعم. ولكن الأمر كان يستحق كل هذا العناء».

أجاب السيد إكس: «أعتقد الشيء نفسه يا أبي!».

قال فيليبوتس: «يمكن للدكتور دويل أن يخبرك عن خطورتي».

- ليس عليك أن تفعل ذلك، لقد أثبت لي بوضوح يا أبي! أعتقد أننا تركنا معركتنا عند نقطة توتر يمكن حلها بطريقةٍ أو بأخرى، ولكن لديَّ فيها ميزة كبيرة من جهتي، وأؤكد لك أنني أنوي استغلالها إلى أقصى حدٍّ حتى أكتسح خصمي في اللعبة.

- أرى أنك واثق جدًّا. (ابتسم الكاهن بحماس) أنا لا أقول لا، ولم أنكر ذلك أبدًا. ولكن مرة أخرى، أعتقد أنَّ لديَّ بعض المزايا. لنبدأ، إذا كنت لا تمانع؟

- عفوًا يا أبي! هل يضايقك أن أطلب منك أن تُحرك قطعي من أجلي؟ أعاني ضعفًا بسيطًا يجعلني أهتزُّ عندما أتعامل مع الأشياء الصغيرة.

- لا توجد مشكلة.

تساءلتُ ما هو الضعف الذي يعنيه؟ لقد رأيته يتعامل مع أدوات المائدة والنظارات كأحسن ما يكون. هل كان هذا شيئًا عاناه مؤخرًا؟ على الرغم من استيائي من السيد إكس، شعرتُ بشيء من القلق والشفقة تجاهه.

- وشيءٌ آخر، يا آنسة ماكيري! من فضلك؛ اكتبي تحركاتنا *بالضبط*، لقد أخبرت الأب فيليبوتس بالفعل أن هذه اللعبة ستكون خالدة وستستحق أن نتذكرها إلى الأبد. هل ستفعلين ذلك يا آنسة ماكيري؟ إن لم يكن لديكِ مانع.

نظرتُ إليه مذهولة؛ ابتسامته، وهدوءه أمام القطع في مربعاتها. هل هذا ما أرادني من أجله؟ هل هذا هو سبب رغبته في البقاء معه يومًا آخر؟ ليُسجل مباراة لعينة؟ أقسم أنني أردتُ ضربه بعصاه تلك.

في المقابل قلتُ بجفاء: «لا أعرف كيف أكتب ذلك. أنا لا أعرف اللعبة يا سيدي!».

- أوه، لكن لا توجد مشكلة. (أجاب الرجل الصغير بسعادة) أنتِ ستكتبين اللعبات كما سنمليها عليكِ، الأب وأنا، هل تمانع يا أبي؟

- إطلاقًا.

- حسنًا تفضل.

تبادلت نظرات الدهشة مع دويل، وأخرجت دفترًا وقلمًا من مئزري، ووقفت هكذا، متوترةً بسبب تلك الصفاقة، استعددت للنسخ من الإملاء.

قال فيليبوتس بعد وضعه القطع السوداء: «سأواصل حركتي، الفيل، الحصانان، سيدتي!».

لقد كتبت هذا الشيء وسرعان ما تنبهتُ أنَّ «الشفرات الغامضة» التي أرسلها جيمي المسكين وأعادها كانت عبارة عن تحركات هاتين الشخصيتين غير العاديتين.

لقد فوجئنا بأن السيد يُعلق قائلًا فيما يلعب: «البيدق الرابع، الطابية».

- هذا مثيرٌ للاهتمام. (حرك الكاهن القطعة المشار إليها) أنت مستعد تمامًا. دعنا نرى. ماذا تريد بذلك؟ البيدق...، الرابع، الطابية.

- أقول لك أسقف، الفيل و...

- إن انسحابك يا سيدي لا يبشر بالخير! أن تعد لي فخًّا...

جعلتُ أُسجل بسرعة شاعرة بالغباء. لقد ألقيت نظرةً على اللوحة، وعلى الرغم من أنني كنت أجهل قواعد الشطرنج، فقد لاحظت أن معظم القطع لا تزال نشِطة. قد يعني ذلك، ربما، ساعات كاملة من المقاومة. نظرت إلى الطبيب بالدهشة الصادمة نفسها التي أعادها إليَّ.

قال دويل: «أعتقد أنني سأضطر إلى شُرب الشمبانيا بمفردي في النهاية».

- بالمناسبة، بماذا نحتفل؟ (قال فيليبوتس وهو يفكر ناظرًا للوحة). لو أستطيع أن أسأل...

أجاب دويل: «لقد أوقعوا بقاتل المتسولين».

وشكرته لأنه لم يُقدم أيَّ تفاصيل أخرى.

- أوه، نعم، صحيح! يا لرأسي، أخبرني الأب إيفانز، الذي تعافى الآن قليلًا، أنه يعتزم نشر شيءٍ عن ذلك في مجلتنا نيران *سان تيلمو* للاحتفال، نعم، لقد وصلتني الشائعات. دعونا نرى...، بيدق الملكة الأسقف الخمسة...، تجرأت على كسر دفاعاتهم! دورك يا هولمز.

- سيدتي! ثلاثة...، الفيل...

- لا هوادة في ذلك. (احمرَّ القس خجلًا) لكن ليس بوسعي إلا أنْ أفعل هذا؛ الحصان ضد الفيل، سيدتي!

- وأنا، هذا يا سيدتي! الملك...

- وأنا أمنعك. بيدق ملكي لا يُقهر، يا سيد إكس!

- لا يوجد شيءٌ لا يمكن قهره. (أجاب بهدوء السيد إكس)، لن أتناول الكحول يا دكتور دويل! آسف بشأن الشمبانيا، لكني سأقبل كوبًا من الماء.

أجاب دويل بسخرية -وهو يتجه نحو الإبريق على الطاولة بجانب السرير-: «بالطبع، الرذيلة فوق كل شيء».

عرضتُ: «سأقدمها له يا دكتور!».

- لا تقلقي. أنتِ في أمس الحاجة إلى تسجيل اللعبة «الخالدة».

كان فيليبوتس يتحدث فيما ينظر نحو اللوحة: «بالطبع أنا سعيد لأنه تمَّ القبض على المجرم...، ولا أتمنى الأذى لأحد. كلنا مستحقون الرحمة أمام الرب، ولا يعاقب إلا الإله القدير...، ولكن بعد ما فعله بذلك الطفل...، حسنًا، ليغفر له الرب...، سيد هولمز! هل لديك ما تقوله قبل أن تموت؟ (ابتسم وهو يُحرك قطعته) الفيل...، حصان، أربعة يا سيدتي!

- أوه، إنك عنيد، لكنني لن أستسلم دون قتال. الحصان...، الفيل، أربعة يا سيدتي! الأسقف، الملكة.

- أوه. أوه أوه. لقد كانت هذه قرصة حيث ينقسم الظهر. اعذري لغتي يا آنسة!

قال السيد إكس وهو يرتشف من الكوب الذي أعطاه إياه دويل: «أنت فردٌ من العائلة يا أبي!».

نظرت إلى دويل بتعبيرٍ واضح لدرجة أن الطبيب الشاب لم يستطع إلا محاولة كتم ضحكته بصعوبة، ومع ذلك -في الوقت نفسه- بدا أنه معجبٌ به أكثر. همس لي: «إنه شخصٌ رائع. لم أقابل أحدًا مثله أبدًا يا آنسة ماكيري! إنه فريدٌ من نوعه».

- البيدق ستة، سيدتي!

- أوه. (هَمهم فيليبوتس) أعتقد أن هذا كان خطأً يا سيدي العزيز!...، الحصان يلتهم البيدق سيدتي!

واستولى على القطعة بأخرى. بينما امتعض السيد إكس.

- واو، هذا هو مصير هذه اللعبة. في بعض الأحيان تكون لديك خطة جيدة، لكنك تُهمل قطعة واحدة. وتصبح تلك القطعة المفقودة حاسمة. ولحسن الحظ، من الممكن إنقاذه. وعندما يحدث هذا، فمن الأفضل للخصم أن يخاف. (ابتسم)، الطابية تأكل الحصان.

- طريقةٌ غريبة «لإنقاذ» القطعة المفقودة، يا صديقي العزيز! الملكة تأكل الطابية، أكرر، إنك فشلت.

كان دويل أول مَن استسلم: «أنا آسف يا سيد هولمز، لكنني لا أعتقد أن الأمور تبدو جيدة بالنسبة لك. سأغادر بعد إذنكما لأنني لا أرغب في رؤية التضحية بك. ولأن المرضى ينتظرونني متوترين وفي مزاجٍ سيء. سأعود لاحقًا، إذا كنتما تريدان صُحبتي، وأتمنى من أجلك يا شيرلوك! أن أظل هنا لأنه ربما يكون ذلك علامة على التعادل...، أبي، فلتشمل رحمتك السيد هولمز...».

وقد استمتع فيليبوتس بذلك، الذي بدا في الواقع كأنه يعيش أفضل لحظاته في لعبة الشطرنج.

- يا بني! أنا لا أُضحي بنفسي إلا من أجل الآخر، وليس من أجل خصمي. (ضحك دويل مع القس) حقًّا، السيد هولمز شخصٌ رائع، لكنني رأيتُ نفسي في مواقف أسوأ من ذلك.

- يمكنكم الاحتفاظ بالشمبانيا، لكن ممنوع فتحها لحين عودتي. السيد هولمز، الآنسة ماكيري،

- دكتور!

- سنكون هنا. (هتف السيد إكس) وسنفتح تلك الشمبانيا للاحتفال بانتصاري *الحقيقي*، هل أنت متأكد أنك لا تريد تغيير خطوتك الأخيرة يا أبي؟

عبس فيليبوتس: «لماذا يجب أن أفعل ذلك؟».

- لأنك إذا أكلتَ طابيتي، سأفوز باللعبة.

فكَّر الكاهن للحظة: «أوه، هذا لا يُغتفر، لم أرَ الفخ مع الفيل، والقضاء على الملكة يعني النهاية، آه آه، هذا لا يُغتفر..».

- دينك يُعلمك التسامح، لا تقلق. أعِد تلك الحركة ودعنا نواصل، يمكنكِ شطبها يا آنسة ماكيري!

ردَّ القس فيما يلغي هذه الخطوة: «سيدي! أنت منافسٌ جدير بالاحترام».

غادر دويل بعد أن رفع حاجبيه بشكلٍ هزلي بينما ينظر في اتجاهي. بدا كأنه يقول: «أنتِ الممرضة، فلتعاني من أجلي».

-2-

لم أعانِ، على الأقل في البداية، ثم جاءت المعاناة بعد ذلك، في تلك الليلة الأكثر رعبًا التي مررتُ بها على الإطلاق. كانت مشاهدة هذين

الرجلين غريبَي الأطوار، وكتابة تحركاتهما المبهمة، والتي جعلتني أنصرف عن كابوسي الشخصي. كان الرجل الجالس على الكرسي يُملي عليَّ حركاته، وهو سعيدٌ للغاية. لم يبدِ أدنى تلميحٍ للقلق بشأن توقع رحيلي في اليوم التالي. في الواقع كان يريد مني المغادرة. لكن ماذا كنت أتوقع؟ تعاطفه؟ ربما كان السبب ببساطة هو أن السيد إكس، الملقب بشيرلوك هولمز، كان لا يُطاق. لقد لفظته عائلته وكلُّ أحبائه من حياتهم. الآن أُتيحت لي الفرصة لفعل الشيء نفسه. لماذا كان الأمر صعبًا جدًّا بالنسبة لي؟ ما الذي وحدني بذلك الرجل الصغير ذي الرأس الكبير باستثناء بعض الأشياء غير الواقعية، بين علامتَي تنصيص -«كمان»، و«قصر»، و«فرقة سرية»، و«مسرح المتعة»- و... بضع كلمات؟

والفيل والحصان والملكة.

لقد وجدني جميلة. كان هذا كل شيء، آني ماكيري. في عينيه كنتِ جميلة. كانت هذه هي المرة الأولى التي يُخبرني فيها أحد بذلك. وبقدر ما حذرني عقلي من أنها كانت مجرد مجاملة، فقد أدركت الصدق فيها.

«الملكة، الطابية، الملكة».

- أقل ما يمكن قوله؛ هو أنَّ طريقتك في الكر والفر مثيرة للفضول يا بني! إنك نلت مني، لكن لم يكتمل الأمر بعد. ماذا تتوقع؟ دعنا نجرب هذا.

قلت بعد ذلك، وقد انتابني الأمل فجأة: «إذا سمحت لي. السيد إكس...، السيد هولمز».

- نعم يا آنسة ماكيري!

- أعتذر لمقاطعتك، ولكن يجب أن أذهب لرؤية النزلاء الآخرين.

لقد قررتُ أن قُرح اللورد ألفريد سي تبدو أكثر أهمية بالنسبة لي.

- لكن بالطبع يا آنسة ماكيري! هذا هو سبب وجودكِ هنا، وأضيف أنه لا داعي للقلق، لأنه يمكننا أنا والأب فيليبوتس أخذ قسط من الراحة، أم أنك لا تتفق معي يا أبي؟

- الراحة مناسبة للرب أيضًا في اليوم السابع. لكنني أتوسل إليكِ يا آنسة أن تعودي خلال سبعة أيام...، العبارة الأخيرة...

قلتُ وأنا غير قادرة على الوقوف لدقيقةٍ أخرى: «سأعود حالًا يا أبي!».

عندما عدت بعد تغيير الضمادات، وقياس درجات الحرارة، وإعطاء الأدوية، كان وقت الظهيرة قد أصبح أكثر قتامة. كان كلا الرجلين منخرطين في محادثةٍ لم أسمع منها سوى بضع كلمات.

- أوه، هذا مثيرٌ للفضول (قال فيليبوتس)، لكن هل كان لعائلته الحق في ذلك... لكن ما خطبك أيها السيد؟

التفتُّ ورأيت أنَّ السيد إكس كان يرتعش من قمة رأسه إلى أخمص قدميه. ثم تقوس جسده الصغير بصرخةٍ مؤلمة. لقد كان انكماشًا عنيفًا لدرجة أن ساقيه اصطدمتا بلوحة الشطرنج، وتطايرت القطع في الهواء في كل الاتجاهات، كما لو أن شيئًا بداخله قد انفجر.

-3-

لم يسعنا أنا والكاهن سوى لحظة أن نحمي أنفسنا من سيل قطع الشطرنج المندفعة. لكنني أتذكرُ أنني ركضتُ نحوه حتى قبل أن تصل آخر قطعة من هذه الأشياء إلى الأرض.

قال فيليبوتس ورائي: «إنه يختنق!».

رأيت جذعه ينتفخ بحثًا عن الهواء، وغضروف حنجرته يرتجف، وسمعتُ أفظع حشرجة موت تخرج من شفتيه.

كان يتشنج، هذا صحيح، لكنه كان لا يزال يتنفس. اندفع فيضٌ من القيء من فمه، من الواضح أنها الصفراء، أدرتُ رأسي إلى الجانب، محاوِلةً التظاهر بالبرود، من فضلك آني! على الأقل يا آني الغبية! تذكري الإسعافات الأولية...، تحت يدي القويتين، جسده بالكامل ينتفض من تقلصات كأنه حيوانٌ بري. سقط بعض الشعر على جبهته. الآن نعم آني! الآن إنَّها النوبة، وليس الكمان. إنها ليست موسيقى الآن، ولم تكن كذلك من قبل، لكن...، أبقيتُ رأسه مائلًا وتأكدت من أنه يتنفس. كانت يدي المبتلة من قيئه تنزلق من ذقنه. لا، أرجوك، أنتِ تفعلين ذلك بشكلٍ خاطئ آني! لا، ليس هكذا. هدأت التقلصات، لكن عينيه كانتا على شكل هلالين بلون أبيض شاحب، وجسده صلبٌ مثل التابوت، انسالت الرغوة من شفتيه. بحثت عن نبضٍ ولكن عبثًا.

نطق أحدهم خلفي ولا أتذكر مَن كان: «باسم مريم».

- ساعدني...، (طلبتُ من صاحب الصوت) ساعدني لأضعه في السرير.

- حالًا.

وحَّدنا قوانا، أنا والصوت، في عالمٍ مشوش مثل الزجاج في فصل الشتاء. ولكن لم يكن ذلك ضروريًّا. كان جسده خفيفًا، يكاد يكون بلا وزن يُذكر. اعتقدتُ أنه قد يختفي ولن يلاحظ ذلك أحد.

لكنني أديتُ التمثيل الصامت. يا إلهي! لقد فعلتُ ذلك. حملته بكل عناية ورهافة، هذا الجسد البشري الهش، بحذرٍ شديد، ووضعته بهوادة على الملاءة.

- ماذا حدث له...؟ (قال الصوت الغبي بجانبي) هل لديه نبض؟

- اتصِل بالدكتور بونسونبي. (تمتمتُ: لم توقظ الأصابع الموجودة على رقبته أي إحساس أو صدى. بدا كأن لا شيء بداخله) استدعي...، استدعي...

وضعتُ أذني على صدره بعد أن فتحت بيجامته. كان يجب أن تكون هناك أصداء موسيقى ما، لكنني لم أستمع إليها. العيبُ عيبي. لقد كنتُ صماء لا أسمع موسيقاه الصغيرة. الآن فهم ذلك. هيا، هيا، الموسيقى. أخذت ساقيه ورفعتهما لأعلى تجاه رأسه. ثم طبقت شفتي فوق شفتيه المتصلبة. فتحت فمي واستنشقت هواء الحياة. حياتي للفم الميت. أردتُ أنْ أموتَ وأعطيه ذلك، أيًّا كان، غير الملموس، وغير المرئي، الذي حركني وجعلني أعزف، كماني، كمان حياتي الثمين، حتى يصبح ملكًا له.

عاد الصوت مصحوبًا بعدة أصواتٍ أخرى. لا أعرف كم، لم أنظر إلى أيِّ شخص. ولا أتذكر ماذا قالوا أيضًا. لم يكن لديه سوى أذنَين بجسده الصامت، ولا يلمس سوى شرايينه الساكنة. لكن أحد الأصوات انبعث أخيرًا. كأنه يسحبني، يُخرجني من هناك، من الظلمة التي سادتْ هناك، نحو عالم النور. الصوت الوحيد الذي كان لديه مثل هذه القوة بعد صوته.

- تنحي جانبًا يا آنسة ماكيري من فضلك!

أمسك الدكتور دويل كتفي بلطف، لكنني هززتُ رأسي نفيًا. لماذا كان عليَّ أن أفعل ذلك؟ لا يمكن.

لم أستطع المغادرة من دونه.

كان صوت الرئيسة برادوك الآن: «آني!...، أرجوكِ دعي الطبيب...».

تأوهتْ سوزي بجانبه: «آني!».

- آنسة ماكيري!

شعرت كما لو كانوا يُحدثون شقًّا بداخلي. كان الأمر مؤلمًا. أخذتُ ألهث، وجلس الطبيب على ركبتيه. كان هذا هو عالمي؛ سترة دويل الشاب الداكنة، بطبقاتها. ومن خلفه كان الوجه الأبيض الشاحب للكاهن الذي نسيت اسمه بالفعل.

سأل دويل: «منذ متى وهو على هذا الحال؟».

تحدثنا أنا والكاهن في الوقت نفسه تقريبًا. كان من السهل شرح ذلك، لقد حدث ذلك قبل دقيقة واحدة فقط. أو ربما خمس عشرة، أو عشر، أو أقل. دويل لم يقل أيَّ شيء. استمع كمحترفٍ شاب. لقد عشقته. لقد وضعت فيه كل حبي وقوتي.

طلب الطبيب سماعة بونسونبي الطبية. ركضتْ ماري برادوك إلى مكتب الثاني.

قال دويل: «لحسن الحظ، كنت لا أزال أنتظر السيد ويدون ليوقع لي بعض الأوراق».

شاهدتُ المسرحية دون المشاركة. لقد كانت مأساة. رأيت تلك الإيماءات الهائلة التي لا تُمحى أمام عينيَّ. سمعت صوتَ قرقعة يأتي من مكانٍ ما، وحديثًا كأنه تمَّ التدرب عليه مُسبقًا بين شخصين، طبيب وكاهن. كيف حدث ذلك؟ تقولين إنه تقيأ؟ نعم صحيح يا آنسة! لكن هذا...

- إنه لا يزال على قيد الحياة.

قال دويل حينها، والسماعة بين يديه، كان الزمن قد قفزَ إلى الأمام دون توقف. لكنه يحتضر.

- وماذا عن نقله إلى المستشفى...؟

قال الرجل الذي كان يرتدي زيَّ كاهن على استحياء.

قامَ دويل بقياس نبضه مرة أخرى، ثم حرَّك رأسه من جانب إلى آخر. وبعد فترةٍ توقف، جلس. نظرتُ إلى مكانٍ ما على الأرض. لم أستطعْ حتى أن أتخيلَ ما كان يفعله هذا الشيء هناك، لقد كان رأس حصان خشبي.

قال دويل: «يجب إحضار بونسونبي».

- إنه يعيشُ في الضواحي على طريق الشمال. (قالت ماري برادوك) لكن لا يمكننا مغادرة المصحة. نحن نعتني بالمرضى الآخرين وفي هذا الوقت نحن فقط.

قلتُ بكل يقين: «لن أتحرك من هنا».

قال دويل: «لا تقلقي، سأذهب أنا. أبي، سأحمله، هل ترافقني؟».

- أمم...، لا...، لا أعتقد ذلك. (قال القس فيليبوتس، الآن أتذكر اسمه) أعتقد أنني سأبقى.

- يمكنني أن آخذك إلى جوسبورت يا أبي!

- لا، سأبقى.

- كما تريد. كم الساعة؟ هل ساعتي مضبوطة؟ (قال أحدهم «الحادية عشرة ليلًا») اسمعوني سأذهب إلى بونسونبي. أنتم أيتها الممرضات بإمكانكم المغادرة، باستثناء الآنسة ماكيري. ليس هناك ما يمكن فعله، ويجب ألا تسمحوا للمرضى الآخرين بالدخول وإعاقة الطريق.

لقد كان خوفًا معقولًا؛ كان السيد كونراد هــ يطلُّ من القاعة بالفعل، كما كان السير ليزلي المصاب بالزهري مبتسمًا. لا يوجد شيء أكثر جاذبية من موت الآخرين. كأننا نستنشقه من بعيد. يقترب عمَّال القمامة من الجثة التي ستقوم بعملية العبور.

أجابت ماري برادوك وهي تتولى زمام الأمور: «مفهوم، دكتور!».

ولن أنسى أن كليهما، قبل مغادرتي، جاءا لتعزيتي بطريقةٍ ما. كانت ماري برادوك هي التي أظهرت أكبر قدرٍ من المودة، بوجهها الذي كان يبدو دائمًا بعلامات الازدراء وسط ملامحها المستديرة. اعتقدتُ في تلك اللحظة أنها امرأة جيدة. أخذتْ يدي، وضغطتها. أومأتُ برأسي ورأيتُ الشفقة في عينيها.

- هل تمانع لو جلستُ هنا بجانبه؟

سأل الأب فيليبوتس، الذي كان -وسط شهقاته- قبل وقتٍ قصير يجمع قطع الشطرنج المتناثرة ووضع اللوحة على الطاولة. في تلك اللحظة حرَّك الكرسي بالقُرب من السرير ليجلس عند مقدمته. وأحضر لي رفاقي كرسيًّا آخر. الرجل المسكين... ماذا يمكن أن يحدث له؟ لقد كان في أحسن حال.

التفت دويل نحوي: «آنسة ماكيري! سأحضر تعزيزات. اعتني بالمصحة في غيابي».

عندئذٍ -في تلك الـ «عندئذٍ» التي كان من الممكن أن تستمر ثانية أو ربما أكثر من دقيقة كاملة- ذكَّرني النظر في عينَي دويل بشيءٍ ما.

-4-

- دكتور! انتظرْ.

أخذته جانبًا بعيدًا عن فيليبوتس، لكن الكاهن المسكين لم يبدُ مهتمًّا بالاستماع إلينا ووضع يده الساكنة على السيد إكس.

أخبرني دويل: «استعدي للأسوأ. لا أعتقد أنه من الصواب استمرار سريان مفعول هذا القرص...».

- أعلم، فقط أخبرني.

- لا أعرف ماذا حدث له، (قال بسرعةٍ وهو يضع قبعته على رأسه ويتوقع سؤالًا مفترضًا) هناك العديد من الاحتمالات، وهو رجل ضعيف وكبير في السن. أنا أميل نحو السكتة الدماغية، ولكن...

- لا، لا، ليس هذا ما أريد أن أعرفه. اسمعْ من فضلك.

أخبرته بذلك بسرعةٍ وبشيءٍ من التماسك؛ كنت معتادةً على ذلك في مواقف التوتر الشديد، لكن ليس مثل هذا الموقف، لم يحدث مثل هذا أبدًا. أخبرته أنني سمعتُ جزءًا من تلك المحادثة خلف الباب، في اليوم الذي تعرف فيه هو والسيد إكس، وما قاله الأول عن «السر» -هذا ما قلته- وأنه بالنسبة لي «لا يجب أن تعرف أبدًا»، ابتسمتُ وأنا أحاول غرس الثقة فيه أيضًا.

- إنه مرض، أليس كذلك؟ السيد إكس يعاني مرضَ عضال.

نظرَ إليَّ بذهول. وأرجعتُ ذلك إلى أنه اعتبر من غير المعقول أن أطلب منه خيانة التزامٍ طبي. ركعتُ عند قدميه، دكتور دويل! أناشدك...، أعلم أن هذا ليس هو الشيء الصحيح الذي يجب القيام به، لكني أريد أن أعرف، وقد لا تكون هناك فرصة أخرى...، أتوسل إليك. أخبرني بأي شيءٍ، فأنا على تمام الاستعداد.

فكرتُ: أنا مستعدة. فليكن ما يكن هذا الشيء الذي أخفاه هذا الرجل الذي وجد بداخلي الجمال. الرجل الذي اعتبرني جميلة.

فليكن ما يكن.

- أوه، ألم تعرفي ذلك بعد؟ (قال دويل بسخريةٍ تقريبًا) آسف، اعتقدتُ أنه في مثل هذه المرحلة...، حسنًا، لن تصدقيني، لكن...

صاح الكاهن: «إنه يستيقظ!».

ركضنا نحو الفراش.

وبالفعل فقد تحرك.

انقباضٌ بسيط، أو حركة في الرقبة أو الجذع. مثل جذوة في الرماد المشتعل. «سيد إكس»، ناديته أنا ودويل في الوقت نفسه. سأل فيليبوتس محتارًا: «مَن هو السيد إكس؟» عاد الطبيب ليقيس نبضه. كان عابسًا. كنت معتادة على الصبر مع الأطباء، ولكن كم كنتُ بحاجةٍ إليه الآن ليقول شيئًا يبعث على الأمل.

وبعد توقُّف مؤلم، نظر إلى أعلى.

- إنذار كاذب، قلبه ينبض، ولكن ضعيف جدًّا، يجب الإسراع، وسوف يقوم بونسونبي بترتيب ما يلزم.

استدار مرة أخرى عند الباب وأشار إليَّ بيدٍ مرتجفة: «اسمعي، هل هناك مفتاح للغرفة؟ (أجبتُ بأن لديَّ واحدًا، وأن هناك نسخةً في مكتب بونسونبي) ممتاز. أغلقي بالمفتاح. لا تسمحي لأحد بالدخول حتى أعود. ما دمنا لا نعرف ما يحدث له، فمن الأفضل أن نُبقيه معزولًا. سوف آتي في أقرب وقتٍ ممكن. لا تتركيه».

- لن أفعل أبدًا.

بعد أن أغلقت الباب مرتين وعدتُ إلى السرير، أدركتُ أن دويل نسي أنْ يُخبرني.

السر.

-5-

- عذرًا يا آنسة، لكنني أعرفه.

- معذرةً؟

ابتسم الكاهن: «هذا السر».

بقيتُ كالمتحجرة.

حدثَ ذلك بعد ذهاب الطبيب الشاب بالفعل، بعد أنْ جذبتُ الكرسي الآخر بجانب السرير استعدادًا لملاحظته. لحمايته. ثم قال لي الكاهن الجالس أمامي: «عليكِ أن تسامحيني، لكنني لم أستطع منع نفسي من سماعكِ تسألين الطبيب عن «سر» السيد هولمز. (أومأتُ برأسي دون أن أعرف حقًّا ما كان يشير إليه. كان وجوده هناك، في تلك اللحظة الحاسمة، غريبًا جدًّا لدرجة أنني بالكاد استطعت فهمه، لكن حقيقة أنه يعرف «سر» السيد إكس كان أمرًا غريبًا. لا بدَّ أنَّه شعر بشيءٍ ما في رد فعلي، لأنه سارع وأضاف): أوه، هذا ليس اعترافًا، أستطيع أن أقول لكِ. لم يمنعني من ذلك صراحةً، رغم أنه طلب مني التحفظ بالطبع...، وأنا لست أهوج، فليرحمني الرب، ولكن...، لقد بدوتِ حزينةً للغاية منذ لحظة، هناك، على ركبتيك أمام الطبيب...، (عدَّل ياقته، التي لم تنكشف بالكامل إلا عندما رفع ذقنه) لا شيء خطِر، بعد كل شيء».

فكرتُ: «الجميع هنا يعرف السر اللعين إلا أنا». واجه أحدنا الآخر على ضوء مصباحٍ صغير بجوار الفراش، بينما الجسد المسجى في المنتصف، بدا أن فيليبوتس كان ينتظر إشارةً ما مني، نوعًا ما من إعطاء الإذن. كان من الواضح أنه رجلٌ معتاد على انتظار الرسائل من الأشياء.

تمتمتُ: «أبي، افعل ما يُمليه عليك ضميرك».

داعبَ وجهه، كأنه يحاول أن يلمسَ ضميره هناك ويكتشف ما سيقوله له. وبعد لحظةٍ من التفكير، ابتسم لي: «كما ترين، عندما غادرت، قبل أن...، أعطاني ملخصًا لحياته، والتي أفترض أنكِ تعرفينها بشكلٍ عام؛ أقام في مصحات رعاية منذ الطفولة، وحيدًا...، كل شيء حزينٌ جدًّا.

لكن انظري (ورفع سبابته الغليظة) أخبرني أنه تعلم أن يكون قويًّا بفضل عائلته».

نظرت إليه مذهولةً: «عائلته؟».

- نعم. والظاهر أنهم أناس طيبون من كل قلبهم.

- أوه.

- ثم كشفَ لي شيئًا قال إنه لا يريد أن يعلنه، لأنَّه لا أحد يهتم به حقًّا، وهو على حق (بدا التأثر على وجه الأب فيليبوتس الوردي وأخفض صوته، ومن جانبي انحنيتُ ناحيته). لقد عُمد على المذهب الكاثوليكي. أكنتِ تعرفين ذلك؟

- لا.

- عائلته كاثوليكية. ولكن في تحفُّظ (خفض صوته أكثر، واقتربتُ منه أكثر) من الواضح أن آل هولمز يشغلون مناصب ذات صلة في طبقة النبلاء ولا يريدون...

- آل هولمز...؟

- إنه اسم العائلة، أليس كذلك؟ اسمه شيرلوك. جون شيرلوك، في الواقع، منذ أن تمَّ تعميده...

- آه...

تنهدتُ ونظرتُ بشيءٍ من اللوم إلى الرجل الصغير الذي كان يقع بيننا. يا له من كائنٍ ضئيل، فكرت دون ضغينة. لقد كان يسخر من الكاهن المسكين. أو ربما كان يعتقد حقًّا أنه هو شيرلوك هولمز، تمامًا كما كان يعتقد أن عائلته كانت «لطيفة» وحتى «كاثوليكية». مَن بإمكانه معرفة ذلك. كان مجنونًا.

أضاف الكاهن بينما يربت بيده الصغيرة على الفراش: «سوف يذهب بسلام، لقد قررتُ البقاء (أضاف وهو ينظر نحوي) لـ...، ربما في أسوأ الظروف...».

بدأتُ أفهم ما يعنيه الأب فيليبوتس بلغته الهادئة. وخلصت إلى أنه مقبول. ولن يضره أي ضرر إذا اعترف بذلك، وربما كان كاثوليكيًّا حقًّا. السيد إكس كان غريب الأطوار، وساخرًا، كان لديه أشياء كثيرة. يمكن أن يكون كاثوليكيًّا. سواء أكان يمزح أم لا، فقد كان قد فعل القليل من الخير للأب فيليبوتس، بدا وجهه الممتلئ اللطيف راضيًا. شعر بأنه ذو فائدة، وجوده ضروري، وربما حتى مرتاح لعدم اضطراره إلى خسارة المباراة بينهما.

التزمنا الصمت، وعاد كلٌّ منا ليعيش الدراما الخاصة به. جعلتُ أزيل الشعيرات القليلة من جبهته، والتي كانت دائمًا مُشذبة بعناية. كانت بشرته باردة. في الواقع سيموت قريبًا. انسدلتْ دموع ناعمة داعبت خديَّ. السيد إكس، فكرتُ فيه بشعورٍ خلى من الحزن. فكرتُ في الأمر مثل شخص يتقبل القدر مع تمجيد قدر الشهيد. قدري أن أكون معه في تلك الرحلة الأخيرة. مررتُ يديَّ على وجهه؛ الأنف المعقوف، وعظمتا الوجنتين العاليتان. تذكرتُ أنني فعلتُ الشيء نفسه مع والدي المحتضر قبل وقتٍ قصير من فقدان الوعي، والغرق في غياهب الأنفاس الأخيرة، قال لي والدي: «هل تعرفين ما الذي يعجبني أكثر يا آني؟ أن أعرف أنني كنت رجلًا صالحًا»، ولم يكن بوسعي إلا أن أوافقه الرأي، بالرغم من أنني لم أعرف صحة ذلك من عدمه -كان والدي لغزًا، لغزًا بالنسبة لي- لكنني وافقتُ على ما قاله لأنني أردت ذلك وحسب.

الآن فعلت الشيء نفسه، كما لو أن صوتًا من الماضي أخبرني بذلك عن السيد إكس.

لقد كان غريب الأطوار، وربما مجنونًا، كان يكذب بشكلٍ صارخ إذا ما همَّه الأمر. لكنه كان رجلًا طيبًا. لقد أراد أنْ يرفع من شأني، أن أرى نفسي جميلة، مدحني لأمتدح نفسي، أبدع الحب من أجلي بالرغم من أنه هو نفسه لم يحبني، ولكنه حب نفسي لنفسي. كانت عيناه مرآتين انعكست صورتي فيهما بلونين مختلفين، لقد أهداني شيئًا رائعًا، أفضل وأهم هدية قد يهديها شخصٌ ما لآخر.

لقد أهداني نفسي.

- انظري، انظري... (أشار الكاهن إلى يد المحتضر الصغيرة التي استراحت في كفه الكبير التي ظهرت عليها علامات الشيخوخة وكساها الشعر الأبيض) أعتقد أنه يريد الاعتراف... بُني، هل تسمعني؟ هل تندم على أخطائك؟

تركته يقوم بذلك، فلم أكن كاثوليكية، لكنني مؤمنة، وكنت على يقين بأنَّ مصير السيد إكس أو شيرلوك هولمز هو في رعاية الرب.

«*الرب يغفر لك*»، رتَّل الأب فيليبوتس فيما ترسم يداه علامة الصليب.

-6-

ثم عاود الصمتُ عنيدًا متجليًا بهيبةٍ ملحدة. بغض النظر عما نؤمن به، سواء كنا من الإنجليكان أو الكاثوليك، كان الصمت يعود دائمًا.

لا أعرف كم من الوقت استغرق الأمر حتى لاحظت -يا إلهي!- تغيرًا في الرجل المحتضر.

حقيقةً ليس فيه، بل في عينيه. شيءٌ ما هناك، ظِلٌّ أو ضوء، أو كلاهما. وقف الأب فيليبوتس بلا حراك حينئذٍ، كأنه تمثال منحوت، كما

لو أنه بعد أن أنجز وظيفته، لم يعد يرى أي حاجةٍ إلى البقاء إنسانًا. ربما كان نائمًا، ولذلك لم يرَ ما رأيته. إذا كان هناك شيء يستحق الرؤية.

انحنيتُ.

بقيت عينا السيد إكس نصف مفتوحتين، لم يبد أي شيءٍ غريب فيهما.

انحنيتُ لأقترب أكثر. لقد ثبَّتُّ نظري على اللون الأزرق. كانت القزحية فريدة من نوعها، ومن مسافة قريبة جدًّا رأيتها تمامًا. كانت الأقواس الزرقاء منسوجة في جميع أنحاء محيطها وتتركز عند نقطة الحدقة، وهي جرفٌ مستدير. بئر.

أما العين الحمراء فكانت مثل الفم المفتوح. بركان.

ثم سمعته.

للحظة لم أستطع الرد. شعرت بالخوف.

سألتُ الأب فيليبوتس وقد انقطعت أنفاسي: «أتسمع ذلك؟».

وعندما رفعت رأسي، انخفض الصوت. فعاودت الانحناء مرة أخرى.

لم أكن مخطئةً، لقد جاء من عينيه.

لقد كان لحن الكمان.

تردَّدَ الصوتُ بداخلي، من حولي أيضًا. امتدَّ من هذين التجويفين، من نسيج عينيه، وهو ما منح شكلًا جديدًا لكل شيء. الجسور، والدرج، والأبراج، والأسوار، والعمق والعرض، والدوار الهائل، كل شيءٍ مُرتب داخل فوضى متاهة بعينها. وأيضًا تحت قدميَّ حيث اختفى الكرسي. الكريستال النقي. الأعمدة التي، مثلها مثل التلسكوبات، تتوسع من تلقاء نفسها. كل ألوان قوس قزح الأزرق، واللون الشاحب لسماء الفجر. لون

ذاكرة البحر. أحسستُ أنني صغيرةٌ، متناهية الصغر، بلا قيمة، إزاء ذلك العالم الشفاف. نظرتُ إلى الأسفل وجعلني الدوار أتعثر.

ثم رأيته. كنت أقف متكئةً على درابزين زجاجي تمكنتُ من رؤية يدي من خلاله، فانحنيتُ صوبه وفاجأته، من مسافةٍ هائلة، على بُعد ألف طابق، بكمانه.

توقف السيد إكس عن اللعب للحظة ثم نظرَ إليَّ وابتسم. وضع سبابته على شفتيه كأنه يشير إليَّ أن التزم الصمت، واستمرَّ في العزف.

كمانه -أخيرًا رأيته- كان حيًّا جميلًا وشفافًا أحمر اللون، كما لو كان مستخرجًا من النار. علمتُ أنني إذا رمشتُ بطرف عيني، سيتبخر لهشاشته المطلقة. لم أحرك جفني، لكنني لم أستطع المقاومة. فقط مرة واحدة. رنَّ الجرس وتحول الكمان ومعه القصر بأكمله إلى ثلج. قطع الشطرنج بلورية، مطرٌ من الأحجار الكريمة الحمراء والزرقاء عليَّ على شكل بيادق، طابيات، أفيال. وفي هذه الأثناء، من فوق، دوَّى صوت الرب: «السر، **السر**».

كانت العودة إلى الغرفة بمنزلة السقوط في الاتجاه المعاكس.

استيقظتُ وأنا لا أزال أنظر إلى عينيه، حتى بدا لي أنني خرجت منهما، مدفوعةً إلى الخلف من أعماق حدقتيه. أدركت أنني قد غفوت لوقتٍ ما ورأيتُ هذا الحلم الغريب. جاءتِ الدقات من الساعة الموجودة في الطابق الأرضي. كانت الثانية عشرة.

لكن صحوتي المفاجئة لم تكن هي ما جعلني أتأوه من الرعب؛ بل رؤية ما كان يحدث.

-7-

كانت الغرفة هي نفسها، والسيد إكس لا يزال في المكان نفسه، ولكن الأب فيليبوتس قد تغير بطريقةٍ رهيبة.

أصبح وجهه بالكامل الآن أبيض رخاميًّا، كان تعبيره متحجرًا حتى أصبح يشبه قناعًا من الجبس لنفسه.

ومع ذلك، كان هناك شيءٌ فيه لم يتغير؛ بقيت يده تحت يد السيد إكس الصغيرة التي بدت مفتوحة مثل المخالب، وبدا أنه يجاهد ليسندها.

إنه الرعب -ما زلت لا أعرف بالضبط الرعب من ماذا- منعني ذلك من القيام بأي شيءٍ آخر باستثناء النهوض والتراجع. لقد كان يتأمل -كما فهمتُ- نوعًا من الصراع. كان الكاهن يحاول سحب يده لتحرير نفسه، لكن السيد إكس تشبث بها، ولكن شيئًا فشيئًا، فاز الأول. لقد نهض، مثلي وسقط الكرسي إلى الخلف من الهزة المفاجئة. ومع ذلك، كان كلاهما لا يزالان مرتبطين بهذا الحبل السري من التقاء الأصابع. كان أمرًا لا يُصدق، مدى قوة السيد إكس، الأكثر رعبًا أنه أبقى عينيه مغمضتين، بالطريقة نفسها التي فتحَ بها السيد إكس عينيه، وكلاهما في صمتٍ مُطبق بينما يرتعشان، أحدهما من الجهد المبذول للانفلات والآخر ليحول دون ذلك.

في تلك اللحظة دققتُ النظرَ وتأكدتُ أنه كان هناك شيءٌ ما بين أيديهما.

دماء.

ثم بدأتْ تتساقط على الورقة في شكل خيوطٍ كثيفة.

لم أتأمل في حياتي شيئًا أكثر بشاعة من هذا المشهد الصامت.

انتحبتُ: «أبي...! الأب فيليبوتس...! سيد إكس!».

وبجهدٍ مفاجئ، التوى تمثال الأب فيليبوتس من عند الخصر وتراجع خطوة إلى الوراء، وأصبح الآن حرًّا. تعثر لكنه لم يسقط على الأرض.

عندها -عندها فقط، لن أنسى هذا أبدًا- اعتدلَ السيد إكس مثل الزنبرك، عيناه مفتوحتان على اتساعهما، وتطلُّ منهما نظرة أكثر رعبًا من الموت نفسه.

- آنسة ماكيري! اخرجي من هذه الغرفة على الفور (صرخ) هل تسمعيني؟ اخرجي من هنا وأغلقي الباب.

لم يسبقْ لي أنْ سمعته يصرخ. السيد إكس لا يصرخ أبدًا، هذه الحقيقة وحدها كانت سترعبني، لو لم أمعنِ النظر إلى الأب فيليبوتس.

لأن ما رأيته يتلوى في منتصف الغرفة لم يكن الأب فيليبوتس. كانت أشبه بدمية بحجم الإنسان، وقفتُ أرتجفُ في صمتٍ رهيب، دون أي شيءٍ يسندها، تهتزُّ قدماها في صمتٍ مرعب، دمية أصيب صاحبها بالجنون. رأيته يرفع اليد التي قبض عليها السيد إكس -اليمنى- والتي تحولت إلى قبضةٍ مقفولة، فيضرب بها نفسه بقوةٍ هائلة، وجه عدة ضربات نحو ضلوعه من الجانب الأيسر للعباءة. لقد فكَّرتُ في الأمر كنوعٍ من التكفير عن الذات بشكل هذيان، لكنه تجاوز كل ذلك. ذاك الإيقاع الميكانيكي والدقيق. والضربات المدوِّية مثل الطبول. والتي لو لم يكن للسيد إكس أطلق تلك الصيحات العالية، لسمعها الجميع في كلارندون.

- لا يمكنه إيذاء نفسه الآن، لا تقلقي يا آنسة ماكيري! (ثم رفع السيد إكس يده الدامية، فجذب شريحة معدنية رقيقة وصغيرة لكنها حادة، شيئًا ما مثل شفرة فتح الخطابات) **لقد نزعتُ من يده السكين، اذهبي حالًا الآن.**

أردتُ أنْ أطيعَه، لكن شيئًا ما جعلني أشعر بالخوف عندما نظرتُ إلى الكاهن. وبمجرد انتهاء سلسلة الضربات تلك، رفع اليد نفسها ومررها على رقبته في لفتةٍ رهيبة كذبحٍ غير مادي واحترافي، ذبح ممثل رائع يتظاهر بالموت.

ثم سقط على الأرض.

-8-

في تلك اللحظة، فُتح الباب وأُغلق.

لقد كان دويل. يعكس وجهه سحرًا مُطلقًا. التفتَ نحوي وقام بالإيماءة نفسها التي حلمتُ بها أنَّ السيد إكس يلمس شفتي بسبابته. ثم ساد الصمت.

كان من السهل طاعته، لم أستطع أن أنطقَ بكلمةٍ واحدة ولا أنْ أتحرك.

انصرف عني السيد إكس، كأنه اعتقدَ أنَّ الضوضاء الصادرة عن الباب سببها خروجي، فقفز من السرير حيث استقرَّ السكين المهلك الملطخ بالدماء. جلس السيد إكس -إلى جوار الكاهن- على الأرض ببلاهة، كان يحرك رأسه الأشعث بشعيراته البيضاء التي تناثرت منه. عادت الدماء إلى وجنتيه، دماء ذلك الذي يُحسن تناول الشراب أو الآثم.

- اهدأْ يا أبي! (قال السيد إكس وهو يضع يده السليمة على كتفيه العريضتين). لقد انتهى كل شيءٍ بالفعل...، اهدأ.

- ما...، ماذا حدث؟ (قال الكاهن بصوته المعتاد) هل فعلتُ شيئًا؟

أجابه السيد إكس: «لا، لم تفعل أي شيءٍ يا أبي!».

أثارتْ تعبيرات الأب فيليبوتس في تلك اللحظة التعاطف؛ كان في حالةٍ من الحيرة المطلقة، على الرغم من أنَّ الشعور بالذنب غطى ملامح وجهه، كما لو أنه قد تمَّ القبض عليه في عمل مشين.

- أعتذر إذا ما كنت قد سببتُ إزعاجًا.

- لا عليك. اطلب من الممرضات في الدور السفلي البقاء في كلارندون حتى تفتح العبارة المتجهة إلى جوسبورت. حاوِل أن ترتاح (أعطى السيد إكس ظهره لـ دويل ولي أيضًا غير عابئ بأي شيء عدا الأب فيليبوتس) سأعيد لك اللوحة والقطع غدًا. أراك قريبًا يا أبي! شكرًا لقدومك.

وبعد أن قال ذلك، ذهب إلى كرسيه المفضل واختفى عن أعيننا، مختبئًا خلف مسند الظهر. كان الكاهن قد وقف بالفعل بشكلٍ طبيعي ووضع قبعته. بدا الرعب الذي حدث قبل دقائق قليلة فقط كأنه كابوس غير حقيقي، لولا الدم والسكين، اللذان نظر إليهما فيليبوتس بنظرةٍ محايدة، كما لو أنه لم يفهم -أو يهتم- بوجودهما في الغرفة.

ثم ابتسم لنا بلطف، لكنه تحدث نحو السيد إكس.

- لا تتعجل للحصول على اللوحة والقطع، لديَّ واحدة احتياطية...، بالمناسبة، لا أتذكر أننا انتهينا من اللعبة.

- نعم، لقد انتهت يا أبي! (قال الصوت الصادر من الكرسي بحزم) انتهيت تمامًا.

- و...، مَن...، مَن فاز؟

قال السيد إكس: «أنا، دون أدنى شك».

- أهنئك على أي حال، أعتقد أنني كنت على حق حين قررتُ الحضور.

- لقد كان أفضل قرارٍ اتخذته في حياتك، صدقني.

- إذا كنت تقول ذلك...، (حكَّ الأب فيليبوتس صدغه)، فمن المضحك أنه لا...، مساء الخير.

نطق الصوت من خلف الكرسي: «ليلة سعيدة يا أبي!».

فتح دويل الباب للكاهن الذي حيَّانا تحية رزينة قبل المغادرة ثم أغلقه. سمعت نقرة المفتاح وافترضت أنه أخذ النسخة من مكتب بونسونبي. كنت سأسأله عن هذا عندما تحدث دويل نفسه: «واو، واو، ماذا حدث هنا؟».

- إن حكْيَ ما حدث سيعد ثرثرة زائدةً عن الحاجة (قال الصوت الخافت الجالس على الكرسي ذي الذراعين) كما لو أنك أخبرتني بما ستفعله بعد ذلك.

أطلق دويل ضحكةً صغيرة غريبة شاركها معي، كما لو كان يفكر مرة أخرى؛ يا له من رجل مثير للإعجاب! يا له من عبقري! ثم أضاف الصوت القادم من الكرسي بنبرة هادئة: «لكن اعذرني إذا لم أرحب بك بعد؛ مرحبًا بك يا سيدي!».

الجزء الثالث

مشهد النِّهاية



يا لتشابه نهاية المسرحية مع الموت!
ربما نصفق لأن شخصًا آخر قد مات، ربما نحتفل بأننا نجونا هذه المرة.

سير هنري جورج براينت،
دراسة عن المسرح الإنجليزي (1871)

حزن الميت

تجوَّلَ الرجل الميت في غرفة المعيشة مضطربًا. السيد ليفرام لم يأتِ اليوم.

السيد ليفرام -اسمٌ غريب بلا شك، ولكن هناك العديد من الأسماء الغريبة في العالم، الرجل الميت يعرف ذلك- هو صديقه الوحيد في الحياة الآخرة. إنه يأتي دائمًا لزيارته في أوقاتٍ محددة، لا يفعل ذلك كل يوم في الوقت نفسه، ولكنه يتبع دورةً ما، متغيرة ولكنها دقيقة تمامًا، وبلا شك لها علاقة بالإمكانيات التي يُقدمها هذا العالم، والتي لم تعد هي نفسها بالنسبة للميت.

لكنه اليوم تأخر.

وبالمثل المجموعة لم تأتِ أيضًا، خاصةً تلك... الفتاة؟ الصبية؟ راقصة جميلة تتحرك بلا إيقاعات، في رقصةٍ لا تتبع أي إيقاع، لكن الرجل الميت لا يستطيع التوقف عن النظر إلى تلك الرقصة. غريبة، نعم، لكنها رائعة.

قال إنه سيأتي. ليفرام رجل يلتزم بكلمته. لقد أوفى حتى الآن بكل ما وعده به، باستثناء تفصيلةٍ صغيرة واحدة؛ ما يزال ليس لديه أي صحبة.

الوحدة تحزن الميت قليلًا، أجابه ليفرام في اليوم الذي وبخه فيه:

- لا تقلق بشأن ذلك. ستصبح وحيدًا. سيكون لديك المزيد من الوقت لممارسة هوايتك المفضلة، وسأساعدك في ذلك...، سأخبرك بأشياء عن شخصٍ خاص جدًّا تتمنى أن تصادفه...، ربما في الوقت المناسب ستقابله.

وتذكر أنَّ الرجل الميت يجلس على الطاولة، ويلتقط قلمه ويستمر في فعل الشيء الوحيد الذي يفعله، باستثناء الأكل والنوم، منذ أن مات في تلك المزرعة الفارغة:

يكتب.

كِش مَلك



-1-

أتذكرُ أنَّ كلَ شيءٍ، منذ تلك اللحظة فصاعدًا، حدثَ بسرعةٍ مذهلة.

أو ربما كان ذلك في ذهني وحسب، وهو الشاهد على ما حدث حتى الآن في تلك الغرفة في غضون ساعاتٍ قليلة؛ نوبة السكتة الدماغية التي تعرض لها السيد إكس، التشنجات الرهيبة التي أصيب بها الأب فيليبوتس، والتي انتهت الآن بأعجوبة، تلك التي كانت تتطور ببطء رهيب. فهناك عقد في الدماغ مثل تلك التي توجد في المعدة، أعتقد أنني قلت ذلك بالفعل.

وعلى كل حال، فقد أصبحتُ مجرد متفرجة على حوارٍ عبثي، حيث دويل هو البطل الرئيسي، لأنه على الرغم من أنني وجدتهما رائعين، على الرغم من أنَّ تعليقات السيد إكس تخللت الحديث، وجاءت بطريقته المعتادة ناعمة مثل خيوط العنكبوت، بينما أبهرتني تعبيرات دويل الرائعة على الرغم من أنها كانت غريبة عنه بعض الشيء. في الواقع، كان دويل الجديد هذا -المختلف تمامًا عن الطبيب الشاب الذي اعتقدت

أنني أعرفه- هو مَن أبقاني ثابتةً في مكاني، صامتةً، دون أن يقاطعني. لقد تغير كثيرًا حتى بدا لي أن له وجهًا مختلفًا، كما لو أن القط في تلك القصة -التي لا أتذكر مؤلفها- قد أصبح غير واضح المعالم حتى لم يبقَ منه سوى ابتسامته وحسب.

أول شيءٍ فعله -ولن أنسى ذلك- أنْ قفزَ قليلًا، خلع معطفه وطواه على السرير، مع الحرص على عدم مس دماء السيد إكس التي لا تزال طازجة. بعد ذلك، مسح شاربه وبدأ في الكلام. ولكن ليس بالنبرة الشبابية الساذجة التي اعتاد استخدامها. على العكس من ذلك، أظهر دويل الجديد ثقة ونضجًا مذهلَين.

لنفترض أنه في غضون ثوانٍ، تضاعفت خبرته الطبية خمس سنوات، خاصةً في غرف العمليات. لأنه الآن يُذكرني بالجرَّاح أكثر من أي شيء آخر؛ حازم وعملي، يستخدم يديه وأصابعه كأحسن ما يكون.

ومعتاد على الدم أيضًا.

- عزيزي السيد إكس! متي ستنتهي من إدهاشي؟ أخبرني بشيء، حتى لو كان مجرد خدعة...، كيف يمكنك التظاهر بالموت؟ أنا في الواقع طبيب وقد فحصتك. بحق كوكب المشتري، نبضك، تنفسك، درجة الحرارة...! هل تمارس الأداء المسرحي؟

- إن السيطرة على الجسد أسهلُ بكثير من السيطرة على العقل...، (أجاب الصوت الصغير الجالس على الكرسي) وعليك أن تصدق أن السم الذي استخدمته قد نجح.

- وكيف تعرف أنني سأحاول تسميمك؟

- كان الأمر واضحًا، عندما رأيت الأب فيليبوتس هنا، على الرغم من أنني لم أصدق بالطبع أنه كان في الشمبانيا. كان من الممكن أن يؤدي ذلك إلى المخاطرة بتسمم فيليبوتس أو الآنسة ماكيري أيضًا، كما أن

وجود ثلاثة قتلى سيكون أمرًا جدليًّا، لذلك اخترت أن أطلب منك كوبًا من الماء وقد نجح الأمر.

- كأس ماء لم تتذوقه إذن، رغم أنَّ نصفه فارغ.

- أنا لا أشرب الزرنيخ كثيرًا يا سيد «ي».

استمع دويل إلى السيد إكس بانتباه ملحوظ، ثم بحث في جيبه وأخرج زوجًا من القفازات الجلدية رائعة الصنع، من النوع الذي تشتريه من متاجر معينة في لندن، والتي عندما ترتديها، تجعلك تعتقد أن سعادتك تعتمد فقط على حماية يديك.

كان لون القفازين رَماديًّا كريش الحمام. تركهما على السرير معًا، مثل الأخوين الطيبين.

- وأخيرًا، كيف عرفت أن فيليبوتس سيكون الضحية التالية؟

- كان ذلك أمرًا واضحًا.

- يا لها من تعبيرات... أنت تقدم عرضًا لقوى خارقة للطبيعة....

- ألم تظن يا سيد «ي» أن قدراتك ربما تكون غير طبيعية؟

- لقد فكرتُ في الآخرين، لكنني لم أشمل نفسي أبدًا بينهم. (سحب دويل قفاز اليد اليسرى وبدأ في ارتدائه، مباعدًا ما بين أصابعه، ببطء يشبه عشيقًا يحاول إرضاء خمس سيدات) ولكن، أتوسل إليك أن تخبرني عن فيليبوتس، وعن معرفتك بأنني السيد «ي».

- لقد تمَّ تحذيري بالفعل منك ومن مجموعتك.

- نعم، أعلم أنك تعرف جمعيتنا الصغيرة.

- لا أستطيع أن أُشير إلى أي هوية محددة غير هويتك، وهذه هي نقطة جهلي الوحيدة، وأما أنت، فقد عرفتُ أنك لست الشخص نفسه الذي قدمته لنا منذ اللحظة التي فحصتني فيها لأول مرة.

- من «الدراسة القرمزية» و«الدراسة السوداء»؟ (نظر إليَّ دويل بالغمزة نفسها) يا لك من رجل! ولماذا سايرتني فيما أفعل؟

- لأن دويل الحقيقي على قيد الحياة بلا شك.

اتسعت عينا الطبيب لسماع هذا وبدأ يصفر.

- كيف عرفت أنني أنتحل شخصية شخصٍ حقيقي؟

- لقد وصلت إلى بورتسموث قبل بضعة أشهر لإعداد هذا المسرح، لكنه كان بحاجةٍ إلى هوية، لأنه عندما ينتهي المسرح، سيحتاج إلى المغادرة دون أثر، وهل هناك أفضل من استعارة هوية حقيقية؟

- حسنًا، لكن لماذا لم أقتل دويل الحقيقي دون أن أُزعج نفسي كثيرًا؟

- لأن دويل سيظل لديه أقارب يكتبون إليه، وأشخاص يعرفونه ويمكن أن يأتوا لرؤيته بشكلٍ غير متوقع غير إذا ظهرتْ علامات تدل أنه لم يعد على قيد الحياة.

- حقيقي. إنه حي. ولكن على الأقل اعترِف بأنني خدعتك لفترةٍ من الوقت.

- على العكس من ذلك، كانت محاكاتك الساخرة لطبيب بريء سخيفة.

- رائع. (قال دويل وهو ينظر إلى المريض على الكرسي) يجب أن أعترف أنه عندما أخبروني عنك بشكلٍ غامض في أكسفورد، قللتُ من أهمية ذلك، شخصٌ مريض عقليًّا يُحقق في أمرنا، الآن أعتقد أن جنونك هو الذي سمح له بتجاوز العالم الظاهري والوصول

إلينا. يا لها من صدفة محظوظة أنهم طلبوا مني فحصك عندما كنت أُخطط لتقديم نفسي.

- المصادفات أسبابها مجهولة يا سيد «ي».

أخافتني ضحكة دويل. كان الأمر كما لو أنه حبسَ هذا الضجيج في حلقه طوال الوقت، وهو الآن يفتح القفص.

- لقد استمتعتُ بالتأكيد باختراع نظريات حول جرائم القتل برفقتك.

- جعلتني أشعر بالإطراء، لكن أخبرني، هل الدكتور دويل بخير؟

- أوه، في أحسن حال. يعيش في مزرعةٍ في الشمال الشرقي في كروسينج، إنه لا يمارس الرياضة كثيرًا، هذا ليس كل شيء. كرَّس نفسه للكتابة عن شيرلوك هولمز. الحقيقة هو مَن اخترع الشخصية بالفعل...، مع أنني ساهمتُ أيضًا، بكل تواضع...، كما أنني أحب الكتابة. لقد استخدم دويل الملاحظات التي سجلتُها عنك. ومن العار أنه لن ينشر أي شيءٍ أبدًا.

- أنت كاتب محبط، سيد «ي»، أليس كذلك؟

الطريقة التي نظر بها دويل إلى الكرسي أرعبتني.

- حسنًا، أنا أخطو خطواتي الأولى. يقوم دويل بعملٍ أفضل، هذا هو. لكن...

- وماذا فعلتم به لإبقائه ساكنًا؟

أعاد ذلك السؤال روح الدعابة إلى دويل.

- أسئلة كثيرة جدًّا مقابل الحصول على إجابةٍ منك، سيد إكس!

- قيمة إجاباتي أعلى بكثيرٍ من إجاباتك يا سيد «ي».

- وما السبب يا شابِّي المحبوب؟

- لأن كل ما ستخبرني به لن يُعرف أبدًا، مع الأخذ في الاعتبار الخطط التي حِكتها ضدي، ومن ناحيةٍ أخرى، فإن ما أُجيب عليه له قيمة كبيرة بالنسبة لك، ستتمكن بهذه الطريقة من تصحيح الأخطاء الصغيرة في المستقبل.

- لن أُنكر ذلك (قال دويل وهو يرفع قفازه الأيمن) على الرغم من أن «الأخطاء الصغيرة» كانت قليلة لكنني سأُجيبك. الدكتور دويل واقع تحت تأثير مسرح جميل ومثير للقلق يسمى أكتايون. ونحن نسميه «مسرح التحول»، إنه يعمل فقط على المستوى العقلي، ولا توجد تغييرات واضحة في المظهر. هل هذا واضح...، (كرر).

- وإلى ماذا...، تحول؟

- هو يعتقد أنه مات. بهذه الطريقة لا يُعاني، وبالكاد يتكلم ولا يصدر ضجيجًا، ولا يحاول الهرب. أعرف زوجات يمكن أن يستفدن من مسرحٍ كهذا. هو يكتب، يواصل الكتابة، وهذا لا يفاجئني؛ فهو ما يريده جميع الكتاب، أن يستمروا في الكتابة بعد وفاتهم. *هذا* هو.

- إذن، في الواقع، المسرح قادر على السيطرة على العقل.

- سيدي العزيز! المسرح هو سحر الواقع. يمكنك تحقيق أي شيء.

- بما في ذلك موافقة الضحية على طعن نفسها.

- بالطبع، في الزمان والمكان الذي نُمليه، مثل دمية بالخيوط. ويسمى بمسرح أبي الهول أو «سؤال بلا جواب»، لدينا فتيات مدربات جيدًا على القيام بالإيماءات اللازمة.

وبذلك بدأ يرتدي القفاز في يده اليمنى، وبينما كان يفعل ذلك، نظر إليَّ بنظرةٍ مضحكة، كما لو كان يقول: «هل أعجبك؟» هل أعجبك؟ في

تلك اللحظة لم يعد لديَّ أي شك. إيماءاته، حركات وجهه، تصرفاته...، كيف لم أعرف من قبل؟

لقد ارتجفتُ من هذا التفكير.

دويل، طبيبي الشاب المعجب بي، كان ممثلًا مسرحيًّا.

-2-

- دورك يا سيد إكس! كيف كشفت أمر فيليبوتس؟

- عزيزي السيد «ي» معرفة أن فيليبوتس هو اللعبة القادمة، كان يتطلب معارف أساسية بلعبة الشطرنج، مثله مثل معرفة أن كوبيلوس قام مسبقًا بدعوة الأب إيفان، ولكن عندما اضطرَّ هذا إلى الانسحاب إثر مرض ألمَّ به، فدعوا الأب فيليبوتس لأنهم كانوا بحاجة إلى فيل أسود بطبيعة الحال، كما أن اسمه الأول يبدأ بحرف الشخصين الآخرين «C»: تشارلز فيليبتوس، وكليفورد إيفانز.

- مع ذلك فإن منعه من قتل نفسه كان محض صدفة يا سيد! أصررت كثيرًا على الكاهن أن يأتي معي، لكنه أراد أن يبقى معك.

- أخبرتُه بكذبةٍ صغيرة، قلتُ له إنني كاثوليكي. كنت على يقين أنه إذا رآني أموت، فإنه سيبقى.

- ها ها (قال دويل كما لو أنَّ أحدهم قام بدغدغته) هذا يكفي، أنت تعرف كل شيء.

- الشيء المهم فقط يا سيد «ي»، على سبيل المثال، دعا كوبيلوس الضحايا المحتملين بموجب تعليماتك، وأنت اخترتهم وبعد ذلك

-وبأي عذرٍ ما، وبمساعدة بيتيروسو- تأخذوهم إلى الغرف خلف الكواليس للقيام بهذا المسرح.

- من فضلك لا تنادني بـ السيد «ي» بعد الآن. هذا مجرد اسمي الحركي. أنا الدكتور هنري مارفل سنيور، في خدمتك.

- لسوء الحظ، لن أستطيع حتى لو أردت ذلك، منذ رحيله إلى عالمٍ *أفضل* ليس ذلك الخاص بـ *دويل* (ارتدى دويل القفاز الآخر وقام بالأداء نفسه؛ حرَّك أصابعه أمام وجهيهما، ونظر إليهما بحدة، كأنه يتأكد من حسن سلوكهما) على الرغم من أنَّ لديَّ أخًا رائعًا يمكنك التفاهم معه.

- ليس لديَّ أي اهتمام بعائلة مارفل، لكنني أشعر أنني سألتقي أخاك في نهاية المطاف، عاجلًا أم آجلًا.

سألَ دويل بفضول: «وما السبب؟».

- لأنه سيكون الوحيد منكما الذي بقي على قيد الحياة بعد اليوم.

- كان هذا مسليًا. غدًا ستستمر اللعبة وسوف تفوتك.

أجاب السيد إكس: «في الواقع، ستنتهي اللعبة غدًا».

- أوه حقًّا؟ ولماذا؟

- أسئلةٌ كثيرة جدًّا يا دكتور مارفل! الآن دوري؛ هل أنت مَن خطرت له الفكرة الرائعة المتمثلة في الاحتفال بمسرح بلعبة شطرنج بشرية عن بُعد؟

- أنا سعيدٌ أنها أعجبتك. كما ترى، فإن ألعاب الشطرنج أو لعبة السيدات مع البشر في حالة التحول شائعة جدًّا ومكلفة. لقد قمنا بتشكيلها لعدة سنوات. هناك جمهور مُختار ودولي يدفع مقابل الحضور. وهم يدفعون الكثير، يمكنك أن تتخيل، لكن، لا شك

أنها ليست رخيصة تمامًا، رغم أن تكلفة الأزياء للقطع لا شيء -اسمح لي بالمزاح- مسرح ضخم يتسع لأربعة وعشرين شابًا من الجنسين، وجمهور كبير جدًّا تتوفر له التغذية الجيدة والنقل من أركان العالم النائية. اقترحتُ أن كل ذلك يمكن تغييره مع لعبة الشطرنج بالمراسلة. بدلًا من أن نقتصر على التخلص من القطع المطاح بها في اللعبة فقط، فكل خطوة ستكون بمنزلة جريمة قتل.

- إنها فكرةٌ ممتازة، بالطبع. (أجاب السيد إكس) وسيكون من اليسير إرسال حركات اللعبة عن طريق التليجرام من أي مكان، ومن خلال صحيفة محلية مثل عين بورتسموث، فهي الوحيدة التي حددتْ تفاصيل الطعنات ومواضعها، لا شك أنَّ ذلك كان من خلال رشوات تدفعها أنت. من السهل ارسال المعلومات. فشفرة اللعبة من السهل اختراعها، أي منها يصلح، واسمح لي أن أخبرك بلعبتي.

شجعه دويل: «تفضَّل».

- خطٌّ وهمي، ربما تم رسمه من مكتبك في إلم جروف، يفصل بين جهتَي الشرق والغرب، والجانبين اللذين ظهرت فيهما الجثث، الأبيض والأسود على التوالي، والطبقات الاجتماعية للقطع التي تُمثلها: المتسولون، والعمَّال، الكهنة والأساقفة الكاثوليك. سادة المجتمع الراقي، الخيول.

- ستستخدم قلعة ساوث سي محل الطابية (تابع دويل كأنه يتلو سلسلة من الابتهالات) والسيدات...، آه من المؤسف أننا لم نحركهم بعد.

- والأحرف الأولى من الأسماء، الأعمدة؛ إدوين نوجز، إلمر هاتشينز، عمود للملك (E)، والفيل (C)... وعدد طعنات البطن مع عدد المربعات.

- والذبح؟

كان الأمر كما لو أن دويل يمتحن طالبًا متفوقًا وأراد أن ينصب له الفخاخ.

- إنه التوقيع. ليس فقط أنك لا تستطيع المخاطرة بأن تكون الضحية على قيد الحياة، ولكن أيضًا أن يتم طعن شخصٍ لم يكن قطعة في اللعبة ليموت عن طريق الصدفة...، كان عليك ترك علامة تُشير إلى أنَّ الشخص الميت كان ضمن اللعبة. لقد انتحروا بعد سماع أجراس الساعة الثانية عشرة، وهذا ما أُمروا به، بعد السير على جانبٍ من الشاطئ.

- كيف اكتشفت كل ذلك؟

- منك.

لم يستسغ دويل ما قاله السيد إكس على الإطلاق.

- مني؟

- بطبيعة الحال، عزيزي دكتور مارفل: أتتذكر روايتك لما رآه كوينتن سبنسر...؟، قررت أن تخبرني بافتعال ضحك «كالأشباح» و«الظلال» لتشتيت انتباهي، بالطريقة نفسها التي أمرت بها هاتشينز بجذب أمعائه ليجعل الجريمة مختلفة، لكنك بعد ذلك كررت ما قاله الشاهد دون حذف؛ إنه رأى هاتشينز يترنح وبيده زجاجة، عرفتُ على الفور شيئين؛ تلك التفاصيل كانت من تأليف سبنسر حقًّا، وليستْ من اختراعك، لأنك كاتب رديء، ولم تكن

لتخترع مثل هذه التفاصيل الطبيعية. وعلمت أن هذا هو مفتاح الوفيات، لأنه لم يتم العثور على زجاجة بجوار الجثة، وهذا ما لاحظه جواسيسي الصغار، على الرغم من العثور على سلاح الجريمة، كما هو الحال دائمًا.

لذلك كنت مهتمًا بمعرفة ما يشربه هاتشينز. أخبرني داني أنه لم يشرب، كما افترضتُ بالفعل، لذلك تساءلتُ: ما *الشيء* الذي يمكن أن يلمع تحت ضوء القمر ويجعل شاهدًا عاديًّا يظن أنَّه زجاج؟

أجاب دويل بجدية في تلك اللحظة: «هناك عدة أشياء».

- نعم، ولكن ما هو الأرجح لو كان هاتشينز بمفرده عند ارتكاب الجريمة و*العثور* على السكين؟ عندها اعتقدتُ أن هاتشينز نفسه هو مَن حمل السكين في يده، سار كل شيءٍ بسلاسة. يظهرون قريبًا من الضحايا لأنَّهم هم أنفسهم يرمونهم بعيدًا عندما يقتلون أنفسهم...، وبهذه الطريقة تبعد أيضًا الشك في أنهم مَن فعلوا ذلك بأنفسهم...، على الرغم من أنني أعترف بأن هذا الحل بدا لي لا يُصدق. كيف يمكن لشخص أن يفعل ذلك بنفسه تحت تأثير أمر شخصٍ آخر؟ ثم تذكرت أنه قيل لي في أكسفورد: إن مجموعتهم تتمتع بسلطات خاصة جدًّا تتعلق بالمسرح، وإنَّ جميع الضحايا كانوا منخرطين في المؤسسة الخيرية، والبقية مجرد أدوات لربط النقاط بعضها ببعض.

أخذ دويل يضحك مرة أخرى: «هذه مجرد مصادفات وتخمينات في الهواء».

- لكنك ارتكبت خطأً آخر يا دكتور مارفل! يوم أخبرتني بخبر رجل الأعمال الذي انتحر في لندن.

- لم يكن ذلك خطأً. أردت أن أعطيك فكرة لم تستفد منها. أنا أحب التحديات.

- صحيح دكتور! كنت أبحث فقط عن المتسولين، لقد كانت القطعة المفقودة، لقد نسيتها. ولكن عندما وجدت ذلك في ملفاتي العقلية، أحضرت جيمي بيجوت مع صحيفة عين بورتسموث لذاك الأسبوع، وتفجرت الأخبار من تلقاء نفسها؛ السير جورج إيربنجال، صاحب بسكويت ميري ويزر، وهو مواطن من بورتسموث وراعي المسرح الخيري، كان قد فعل ذلك. انتحر في مكتبه بلندن بفتّاحة رسائله الخاصة؛ جرحان في البطن، وثالث في الجانب الأيسر. رجل نبيل يقطن شرق بورتسموث، ثلاثة جروح، الأخيرة ناحية اليسار، حصان أبيض، الفيل، الملك.

- أنت رائع. كان من السهل تخدير إيربنجال بعد تناول العشاء مع رجال المسرح لدينا وأخذه إلى غرفةٍ في لندن لإعطائه التعليمات. لقد كان ضحية ذات مصداقية، فقد أفلست شركته، كان على وشك بَيع بناته.

- الاختلاف في عدد الإصابات، والطبقة الاجتماعية هو ما جعلني أفكر في لعبة الشطرنج. (تابع السيد إكس). والحقيقة هي لعبة تستهويني لأبعد الحدود، وأؤدي خطواتها ذهنيًّا في كثيرٍ من الأحيان، وتذكرتُ مباراةً شهيرة ما بين الشاب ميرفي والكونت إيسوارد، منذ عشرين عامًا، والمدافع فيليدور؛ الموت المرعب لـ داني ووترز، بيدق أبيض للملكة، كانت هذه هي اللعبة التالية بعد تايلور.

- مرة أخرى أنتَ على حق؛ نعم، لقد كانت مجرد استنساخ للعبة مورفي، هذه اللعبة هي مجرد اختبار، لإقناع عملائنا بأن لعبة مثل هذه يمكن لعبها.

- كانت هناك حاجة إلى روبرت ميلجرو لصرف انتباه الشرطة.

- على الأقل مؤقتًا. مقتل ثلاثة متسولين وآخر شيء، ومقتل كهنة ومسؤولين وسيدات شيء آخر. كان عليَّ أنْ أجد «الجاني»، وذلك السكير الأخرق، البحار الذي يُحب ممرضتنا، أصبح في متناول يدي. الغبي الغيور المسكين جاء لي في اليوم التالي، وأراد الاعتداء عليَّ في مكتبي. كان من السهل «إقناعه» بشنق نفسه. لقد كتبت رسالته بنفسي، وشوهتُ خط اليد.

تنفس السيد إكس بعمق: «إن خسارة السيد ميلجرو أمرٌ مُحتمل، لكن اختيار داني ووترز كان أمرًا قاسيًا يا دكتور! ولهذا السبب سأقتلك بدلًا من تسليمك للعدالة».

ضحك دويل مرة أخرى، ضحكة قصيرة جدًّا: «أوه، شكرًا على التوضيح، لكنني لا أوافق على ذلك؛ فالطفل المتسول أقل أهمية من بحار عجوز، وجدير بك أن تشكرني لإنقاذ حياة من العذاب في عروض الرمال. علاوة على ذلك، كنت في حاجة إليها. كان عليَّ أن أثير بعض الرعب في المجتمع، فكان هو كبش الفداء الخاص بي. وقد كان على أكمل وجه. ما هو أفضل من الإعلان عن لعبتين في الوقت نفسه، إحداهما مع أحد...، أطفالك؟».

- أنت تستحق نصبًا تذكاريًّا للخسة.

جعلت هذه العبارة الرجل الذي دعوته دويل يُمعن التفكير.

- مع الأخذ في الاعتبار أنَّ الشجاعة عادةً ما تموت منسية. باختصار أعترف أنك نجحت في الكشف عن كل شيءٍ بطريقةٍ رائعة أيها المختل العزيز.

- عندما يُلغى المستحيل، فكل ما يتبقى، مهما بدا غير محتمل، هو الحقيقة يا دكتور!

اتسعتْ عينا دويل عن آخرها لدرجة أنني اعتقدت -مرعوبةً- أنهما ستنطلقان في الهواء مثل رصاصتين. ولكن لم يلبث أنْ أخرج دفتر ملاحظاته.

- يا إلهي! دعني.

- اكتب الملاحظة يا دكتور! سأجعل دويل الحقيقي يرثها عندما تموت.

ابتسمَ دويل بشكلٍ مبالغ فيه. ربما شعرتُ بذلك لتوتري، لكنني أتذكر أنه بعد أن وضع الدفتر جانبًا، اتسعت زاويتَي فمه مثل شارب تلك القطة الشبحية في القصة المعروفة، فظهر فكاه بوضوحٍ كاشفًا عن عددٍ كبير من الأسنان أكثر من المعتاد.

- أخشى أنه عندما يتعلق الأمر بالموت، فهذا دورك أوَّلًا.

اقترب من الكرسي رافعًا يديه.

- من فضلك قم بإرضاء القليل من فضولي أوَّلًا يا دكتور!

- هل لديك شكوك؟ أخبِرني بها.

- هل يفعلون كل هذا من أجل المال فقط؟ إنهم أغنياء بالفعل. لديكم قوة مذهلة. ما الذي تبحثون عنه أيضًا؟ ما هو أكثر ما يمكن أن تطمحوا إليه؟

- الإجابة سهلة يا سيد إكس! لقد خيبت ظني. نريد المتعة.

أجاب السيد إكس: «لقد حصلتم بالفعل على المتعة».

- تمامًا. ولهذا السبب نريد المزيد.

-3-

في تلك اللحظة تحوَّل تحولًا مذهلًا آخر فبدتْ ملامح دويل خالية من أي تعبير، ذابلة، مملة. فغر فاه كطفلٍ أحمق، فرأيتُ اللعاب يلوح داخل تجويفه. ثم تحدث ببطءٍ هائل رهيب.

- متعة...، الغرق...، في أنفسنا والبحث في ذلك...، الوحل، من خلال المسرح...، (استردَّ نفسه وابتسم مرة أخرى) ...، ألا تبحث عن المتعة؟

- نعم، لكن أشياء مختلفة تبعث فيَّ المتعة.

- ها أنت تخطئ، معذرة. المتعة عند كل إنسان واحدة، إلا أن درجتها تختلف. لقد قُتلت قطع الشطرنج لدينا في منتصف حالة النشوة، هل تعلم ذلك؟ حتى داني كان لديه نشوته الخاصة به. الأحرى بك أن تحسدهم ولا تُشفق عليهم. هذه اللعبة ستفتح لي الأبواب يا سيد إكس! لقد لفتت نظر البروفيسور العجوز نحوي. أؤكد لك أنني قريبًا سوف أصير أستاذًا لمجموعة العَشَرة جنوب إنجلترا.

- أوه، أهنئك. بالمناسبة مَن هو البروفيسور العجوز؟

نظر إليه دويل بسخرية: «أنت رائع، معرفة مَن هو السيد «م» تعني أن يموت الشخص، سيد إكس!».

- ولكن، وفقًا لك، سأكون في تلك الحالة عاجلًا. بوسعي معرفة ذلك.

- أوه، لا تحاول تسلق جبل إيفرست بهذه السرعة.

- لا أنوي أن أفعل ذلك، مَن تظنني؛ أنا في مستواه، عليَّ فقط أن أسير نحوه. أعطني الوقت وأؤكد لك أنني سأصل في النهاية.

- سأعطيك وقتًا محددًا.

تقدم دويل نحو الكرسي.

في تلك اللحظة سُمعت طَرْقات على الباب.

- دكتور! دكتور دويل!

-4-

هل ذكرتُ من قبل أنني كنت أستمع إلى كل ذلك؟ هل قلتُ إن ذلك حقيقة، ولم يكن الأمر امتدادًا للحلم الغريب الذي راودني، عندما اعتقدت أن الرجل الجالس على الكرسي يحتضر؟ هل قلتُ إنني شعرت بالارتياح في الوقت نفسه من بعث السيد إكس، وإني اضطربتُ بشأن بقعة الدماء والسكين، وإنني ارتعبتُ من إيماءات دويل الذي لا يبدو كـ دويل واسمه الحقيقي غير ذلك؟

إذا لم أقل شيئًا مما سبق، أو لم تكن الإجابة على أيٍّ من هذه الأسئلة واضحة لكم، فسوف أهنئ نفسي، لأن هدفي من سرد كل شيء كما ذكرتُ سيكون قد تحقق، وفي تلك اللحظة سأفعل ذلك. لقد كنتُ مرتبكةً تمامًا بشأن ما كان يحدث. تحركتُ في حالةٍ بين الواقع والحلم، خطٌّ مثل ذلك الذي يفصل المسرح عن الجمهور. أو على الأقل هذا ما ظننته عندما سمعت طرْقًا على الباب ونادى أحدهم: «دكتور!» لأنني تعرفت على صوت ماري برادوك، رئيسة الممرضات.

والصوت نفسه هو الذي ناداني: آني! أنا حقيقة، وها أنا أطرق بابكِ. هناك أمرٌ خطِر يحدث ربما لم تتمكني من فهمه بالكامل بعد، لكن

صدقيني إنه أمر خطِر عليكِ وعلى مَن حولكِ. يجب أن تتخذي رد فعل. ولكن كيف؟ بطلب المساعدة من الرئيسة؟ مساعدة...، ولماذا؟

الذي تحدث بالرغم من صوته المنخفض هو السيد إكس.

قال بنبرة مرحة وهو جالس على كرسيه، وظهره إلى الباب، ولي: «آهه، لقد وصلت التعزيزات»، كيف ستفسر موتي الآن يا دكتور مارفل؟ أم أنك ستُقرر مصير جميع الممرضات المناوبات في كلارندون هاوس؟

- لن يكون ذلك ضروريًّا. (أجابَ دويل) أنا فقط بحاجة إلى الآنسة ماكيري.

شعرتُ بالبرد إثر الصمت الهائل الذي أعقب تلك الجملة.

وكأنَّ صاحب الكرسي قد اختفى.

نادت برادوك مرة أخرى: «دكتور؟ دكتور دويل؟».

- هل أستطيع الإجابة؟ (سأل دويل وهو ينظر نحو الكرسي) شكرًا...، (ورفع صوته) آسف على عدم الرد، ممرضة برادوك، أنا مشغول، السيد إكس لا زال على حاله، إذا حدث سأناديكِ.

لا تقاطعيني الآن.

- أوه، لم أكن أريد أن...، (قالت ماري برادوك بعد تردد) المعذرة، لكنني لم أرَ الدكتور بونسونبي يصل بعد و...

- لقد أخبرتكِ بالفعل. هو سيأتي في أقرب وقتٍ ممكن. (في أثناء إجابته عليها، أشار لي دويل، كما يفعل المرءُ للأطفال) لا تقولي أي شيء، ابقَيْ هناك، لا تطرقي الباب، لا تحاولي فعل أي شيء على الإطلاق.

ألقتْ ماري برادوك التحية وسمعنا صوت نقرات حذائها. اتضحَ لي أنَّ دويل كذب ولم يذهب لـ بونسونبي. هذا في مصلحتكِ آني! على الأقل

اتضح لكِ شيءٌ واحد...، ولكن بعد ذلك كسر الصمت الصوت المفاجئ للسيد إكس الذي بالكاد تصنَّع كأنه يشعر بالضيق.

- آنسة ماكيري! هل أنتِ...، هنا...؟ طلبتُ منكِ أن ترحلي.

تمتمتُ وجعلتُ أرتجف بشكلٍ لا يمكن السيطرة عليه: «أنا...، آسفة».

- آه، دعونا من المبالغة في الأمر. (قال دويل) ولنفكر أنَّ هناك مصلحةً ما من ذلك سيد إكس! كنتُ سأقتلك أنتَ وحسب، لكن الآن سأفعل شيئًا أفضل.

اقترب مني بخطوتين، ومدَّ لي ذراعه ودعاني بكل تهذيب نحو الكرسي. تحركتُ دون خوف أو قناعة، بطريقةٍ آلية، كما لو كنتُ أرقص الفالس، وأشار بالتناوب نحو الكرسي وإليَّ، كما لو كان يريد أن يجعلني أُدرك شيئًا ما.

لكنني لم أكن في قمة بصيرتي.

- إذا صرختِ أو حاولتِ أي شيء، سأقتلكِ...، سأقتلكِ. إنه توازن القوى، مقايضة. أوه، انظري له.

التفتُّ نحو الكرسي وتمكنتُ أخيرًا من رؤية السيد إكس. أتمنى لو أنني لم أره. لم يهتز، ولم يتحرك، لكنه شهد تغييرًا بطريقةٍ ما، ولكن ليس للأفضل. الآن بدا كما كان دائمًا، رجلًا بائسًا مريضًا وبجبهةٍ منتفخة، وعينين بلونين مختلفين، وجسد طفل. أتذكر أن يده اليسرى التي أُصيبت، حماها بذراعه اليمنى الصغيرة.

نطقَ بصوتٍ محايد: «دكتور مارفل! اسمع».

- أوه، لقد فقدت رباطة جأشك بالفعل يا سيد إكس! لكن لا تقلق. كيف تظن أنني أوذي سيدة طيبة ولطيفة مثل الآنسة ماكيري؟

ثم قبض بكلتا يديه على رقبتي وبدأ بخنقي.

-5-

روبرت، فكرتُ.

لقد بدأ كل هذا لي بمحاولة خنقي.

وانتهى الأمر بمحاولة أخرى. لقد كان ذلك عادلًا.

توقفتُ عن التنفس على الفور. كدتُ أموت في تلك اللحظة -أجل- تمنيتُ أنْ أخبرَ السيد إكس ألا يقلق -لكن بلا طائل- لم أستطعِ النطق، كل ما حاولته هو التنفس...، بلا طائل.

لقد كان دويل. كان يخنقني، كانت قوته هائلة. نقي العصب والعضلات والتركيز والبرودة...

ولكن قبل كل شيء عيناه.

عيناه.

عينان زرقاوان، لا يوجد بهما احمرار، عينان فوق شارب على وجه رجل ظننتُ أن اسمه دويل، شيءٌ آخر، مختلف عن العينين الزرقاء والحمراء اللتين لم تنظرا إليَّ أبدًا عندما كنت أتحدث. ولم تكن تلك عينَي روبرت، وقتما اندلعَ الغضب. من تعبيرات وجهه، يمكن لصاحب هاتين العينين أن يعتقد أنَّه لم يفعل شيئًا أكثر إثارة للاهتمام من إغلاق صمام الغاز. لقد فُقد الهواء. الهواء هو الشيء الذي يُبقي رأسك مرفوعةً، مثل البالون، كان رأسي يفرغ من الهواء.

لكن صوت السيد إكس خنقني أكثر من قفازَي دويل: «دكتور مارفل، أتوسل إليك، بالتأكيد يمكننا التوصل إلى اتفاقٍ ما...».

خفَّ الضغط وتمكنتُ من أخذ نفسٍ عميق. لقد أعمتني الدموع الحمراء البرَّاقة. هويتُ على الأرض عند قدمَي دويل المزيف.

- إذن فقد. انتهتْ لعبة «الأسئلة للأسئلة؟ لقد أعجبتني حقًّا. اسمحوا لي أن أواصل اللعبة لدقيقةٍ واحدة...، (سمعتُ صوت دويل المزيف وصلني من الأعلى، من فوق حزامه، وحمالتيه، وياقته المنشاة، وشاربه. لقد كان صوت الرب) دعونا نرى أين توقفتُ...، أوه نعم. دوري. لقد هددتَ بقتلي عدة مرات الليلة. أعلم أنك قزم عنيد ومريض، لكنكَ لست غبيًّا. ما هي البطاقة التي تحملها في جعبتك أيها القزم العزيز...؟

رفعني دويل فجأةً، طوق رقبتي بأصابع يديه دون أن يضغط عنقي. داهمتني نوبة من السعال المتصل.

سمعتُ نداء السيد إكس عن بُعد كأنه إجابة لسؤال دويل: «دكتور!».

- لا تجعلني أفعل هذا أيها السيد القزم! ما هي حركة الشطرنج السرية الخاصة بك؟ هل اتصلت بالشرطة؟ لا، فأنت ذكي للغاية...، مَن سيصدقك في سكوتلاند يارد؟ أنت مجنون رسمي...، إذن؟ هل هو صديق؟ أعلم أنَّ لديك العديد منهم منذ إقامتك في أكسفورد...، أنا طبيبٌ سيدي! أستطيع ضغط حنجرة السيدة الشابة وأقتلها على الفور، أو أخنقها ببطء.

- دكتور! رجاءً.

- هذا يعتمد عليك.

- لديَّ بعض الملاحظات

نظر إليه جلادي: «بعض الملاحظات؟».

- مفكرة. هناك كل ما أعرفه عن قاتل المتسولين. إذا حدث لي أي شيء، سيأخذها جيمي بيجوت إلى الشرطة.

- على أي حال، لن يصدقوه. ولكن أريد أن أتأكد. أين تحتفظ بها؟

- تحت المزهرية على الخزانة، والآن دعها تذهب رجاءً.

بعد توقُّف مؤقت. رفع دويل المزيف يديه عن رقبتي.

- أنا أعرف حيلك يا سيد إكس! اعذرني.

- معذرةً يا آنسة ماكيري! هل يمكنكِ إحضار دفتر الملاحظات هذا من فضلك؟ يجب أن أحذركِ أن الباب مغلق. إذا ركضتِ نحوه، أو صرخت، أو فعلت أي شيء لا أحبه، فسوف ألحق بكِ. هل فهمتِني؟ أريد أن أسمع أنك فهمتِني. آه، أرى أنكِ لا تستطيعين التحدث. حسنًا، العالم لن يخسر كثيرًا بذلك. الآن، اذهبي واحصلي على دفتر الملاحظات.

قال الرجل الصغير الجالس على الكرسي بينما أسير بجانبه: «آنسة ماكيري! كل شيءٍ سيكون على ما يرام...».

سعلتُ مرة أخرى، ويد واحدة على رقبتي.

أتمنى لو أنني قلتُ له: «أنا سعيدة لأنني بقيت. أردت البقاء. أنت الذي طردتني، أتذكر؟ أنت مَن قال إنني يجب أن أغادر في اليوم التالي. لكنني لا أريد أن أغادر. لن أتركك أبدًا. لأنني رأيتُ قصرك الكريستالي. لقد سمعتُ موسيقى كمانك. لن أتركك أبدًا».

هذا ما أردتُ أن أقوله له، لكن بهذا الصوت الأجش لم أكد أعرف كيف أفعل ذلك.

ما عرفته هو أنه كان لدينا بضع دقائق للعيش.

توجهتُ كالمترنحة نحو الخزانة المجاورة للسرير، وفي أثناء مروري، وقعت عيناي على معطف دويل، والدماء.

صاح دويل: «من فضلكِ يا آنسة! دفتر الملاحظات. إنه لهذا اليوم».

وبينما كان يتحدث معي، ألقيتُ بنفسي على السرير.

قال الصوت من خلفي: «يا لكِ من حمقاء».

شيءٌ ما سحبني، من قدمي، من أسفل السرير، على الأرض. أطلقتُ صرخةً مبتورة إثر ضربة قوية تلقيتها. مالتْ قبعتي بشكلٍ يبعث على السخرية. في بعض الأحيان، عندما كان يضربني، أخبرني روبرت أنه لو تصرفتُ بشكلٍ أفضل، لكان ارتدى قفازًا وهو يفعل ذلك، لأنَّه اعتقد أن الضربات تؤلمني بشكلٍ أقل إنْ فعل.

هذا كذب. فتأثير قفاز دويل الخلفي حين ضربني أصمَّ سمعي وجعلني مذهولة.

سمعته: «إنها... ليست... كافية...».

عاد كائنان وحشيان مألوفان إلى رقبتي مرةً ثانية، وأحاطا بها بخمس ثعابين في كلٍّ منهما. سمعتُه مرةً أخرى: «شريرة يا آنسة ماكيري! سأضطر إلى قتلكِ حقًّا هذه المرة...».

ثم حركت يدي اليمنى المخبأة خلف ظهري. اليد التي تمكنتُ بها من انتزاع السكين الصغيرة رغم كل شيء.

-6-

اسمي آني ماكيري وكنت ممرضة. لم يسبق لي أن تسببتُ عن عمد في ضررٍ حقيقي لأي شخص. ولا حتى أولئك الذين فعلوا بي ذلك، مثل روبرت ميلجرو أو السيد جروسبورو العجوز.

لكن شيئًا ما تغير بداخلي -منذ أنْ دفعت روبرت- للأبد.

ومع ذلك، كنت أول مَن استسلم عندما أدركتُ ما فعلته. لقد سحبتُ فتاحة الرسائل بسرعةٍ مرعبة، وهنأني ملاكي الطيب بينما سخر مني ملاكي الشرير. نظرَ دويل إلى الجرح البسيط تحت سترته، على مستوى

طحاله، وفقًا لجالينوس؛ سينجو، هذا ما اعتقده. ثم ضربني مرة أخرى وركل السكين بعيدًا عن متناول يدي. نزف كلانا. ربما هو أكثر مني، مع أنني استمتعتُ بذلك. قال السيد إكس شيئًا ما لكنه لم يُسمع وسط ذلك الإعصار.

«انظروا إلى الآنسة ماكيري، عاهرة البحار»، قال دويل ثم قفز فوقي (يا له من فاجر، كم هو فاضح) ثم أمسك بشعري (كان رأسي عاريًا، مَن يعرف أين انتهى الأمر بغطاء رأسي). لم يعد ساحر الثعابين، البهلوان القط، بل وحشًا، خنزيرًا بريًّا يشبه وجهه (الآن) وجه روبرت، لأنه تأتي لحظة حيث يتشابه جميع الرجال مع بعضهم بعضًا، سواء في الشراب أو الوحشية أو كليهما. (زمجر: حسنًا ممرضتنا العزيزة) رزحتُ تحت ثقله، وأردت أنَّ أعضه، فضربني مجددًا.

- سأخبرك بما سيحدث يا سيد إكس! سأقتلها ثم سأستخدم السكين لقتلك، إذا كان عليَّ أن أساعدك في مثل هذه المهمة، فسأقوم بذلك بكل سرور، ستقول الشرطة أن مرضه دفعه إلى قتل الشابة والانتحار، في نهاية الأمر، أنت مجنون...، و...، تُذكرني بشيء...، **السر** يا آنسة ماكيري...؟ (ثم جذبني من شعري) السر، أردتِ أن تعرفي سرَّ هذا القزم.

- لا، من فضلك يا دكتور! ليس هذا.

لقد كان النداء البعيد للسيد إكس.

كانت أذني كأنها مغطاة بقطن تنزف منه الدماء. قلت لنفسي لا أريد أن أعرف بعد الآن. لا تهمني أسرارك. كان وجه دويل المزيف عبارة عن قناع بشارب يظهر ابتسامته المرسومة كأنها مروحة مفتوحة.

- أوه، سيكون هذا هو الشيء الوحيد الذي ستأخذه هذه العاهرة معها إلى القبر، تريدين أن تعرفي، أليس كذلك يا آنسة فورسيا؟

كان الوجه المرفوع فوقي مكسوًّا بالدماء، لكن معظمها كان دمائي. سرك، هاه؟ لن تصدقي! هو!

ومع أنني كنتُ كالصماء فقد سمعت ذلك. ضوضاء عند النافذة قوية للغاية. صوت خبطات على الزجاج. شيءٌ ما، ربما حصاة أو ما شابه.

أدار دويل المزيف رأسه مذعورًا، بينما قال السيد: «ذبابة وعنكبوت، اتصلا بالشرطة».

- هل أتى هؤلاء الأوغاد...؟ (قال دويل المزيف غير مصدق. أفلتتني من قبضته وأنا بدوري انهرتُ). هل ناديت هؤلاء *الأوغاد*؟

خطا من فوق جسدي وأسرع لينظر من النافذة المغلقة. كان الزجاج ضبابيًّا من حرارة الغرفة والبرد في الخارج. فركه دويل المزيف بالقفاز، وبدا أنه غير مكتفٍ فأمسك بالمقبض، وجده عالقًا فأخذ يحاول لفتحه وفي اللحظة التي انكسر فيها المقبض -كنتُ أرى كل شيءٍ من الأرض- بدقة لاعب البلياردو أو لاعب الشطرنج الذي يواجه قطعةً ما، دفعته عصا السيد إكس إلى الخلف.

حركة خفيفة ولكنها دقيقة جهة اليمين.

هذه المرة. ثم لا شيء بعد ذلك.

والشيء التالي الذي شعرتُ به هو يدا السيد إكس الصغيرتان اللطيفتان تساعدانني لأقف وأتمالك نفسي. كنت لا أزال أسعل، لكنني لحسن الحظ كنت قد درست التنفس.

- هل أنتِ بخير؟

- لا تقلق... (أجبتُ بصوتٍ أجش). لقد تعودت على... الخنق... لديك دماء على يدك.

- وأنتِ في الوجه...، (قال وهو يداعب وجهي) ولكن من حيث الدماء، دكتور مارفل يتفوق علينا.

- أوه.

صرختُ حينما استدرتُ. لأنَّ دويل المزيف كان يقف هناك. بالطبع ليس في وضعٍ مُجد بالنسبة له. ومع ذلك، بدتْ عليه علامات الارتباك.

- لقد تحققتِ العدالة من خلال المزلاج القاتل. لا تلمسيه. ولا تنظري إليه كثيرًا أيضًا، ليس بالشيء اللطيف. لكنني لا أريد لمعاناته أن تنتهي سريعًا. سيستغرق الأمر بعض الوقت حتى يموت، أو ينزف حتى الموت أو يغرق في الدم، سنرى. أريده أن يشعر بالألم لكل ثانيةٍ باقية له من أجل المتسولين، وداني، وحتى روبرت ميلجرو...، (اكفهرَّ وجهه) ولكن قبل كل شيء، لأجلكِ أيضًا.

غاص سلاح المزلاج في حلقه حتى اختفى في الجسد. تدفق الدم من الجرح الصغير، لكن لا شيء مقارنةً بما كان يتدفق من فمه. في الواقع، كان يغرق في دمائه، لقد ناضل لإنقاذ نفسه، لكن الجهود جعلته ينزف أكثر واستنزفت قوته. كان مثل حشرةٍ كبيرة تحت دبوس مغروس فيها. نظر إليَّ بعينين متوسلتين، غائمتين. ومن خلال النافذة المفتوحة، كان بالإمكان سماع صوت البحر وهبوب الرياح. بحر بورتسموث العزيز. اقترب السيد إكس.

- وما قاله الدكتور هنري مارفل جونيور. سوف يذهب إلى القبر. لقد أمليتُ على جيمي بالأمس مذكرة لمحرر صحيفة عين بورتسموث، السيد هامرسميث، الذي قبل الرشوة بلا شك مقابل أن يذكر في صحيفته عدد ومكان جروح كل ضحية، وغدًا يُذكر الأب فيليبوتس في جوسبورت، لكنني كتبت رسالةً أخرى وسوف ينشرها إذا كان لا يريد أن يتدحرج رأسه على تورطه في ذلك، على الرغم من

جهله ولكنه كان قاتلًا، ومع كل هذا؛ وفاة «السيد ي» مذبوحًا على هذا النحو. وباعتبارك الملك الأسود، فهذا يعني أنك قد سقطت ومعك كل القطع السوداء (ربتَ على الجثة ثم عاد إلى كرسيه، وجلس كما لو كان يستمتع بالعرض) شعرتُ بالأسف تجاه الرجل أيًّا كان، لكنه كان على وشك الموت على أي حال، ومن المؤكد أن داني ووترز عانى أكثر من ذلك بكثير. وحتى روبرت، اتصلي بزميلاتكِ يا آنسة ماكيري! ستصل الشرطة قريبًا.

كنت سأفعل ذلك عندما تذكرتُ شيئًا ما. اضطررتُ إلى إجبار نفسي على التحدث، لكنني كنت أعلم أنني سأحتاج إلى استخدام صوتي كثيرًا قبل انتهاء الليل.

- الضوضاء عند النافذة...، سمعناها أنا وهو...، الأطفال...؟

كان السيد إكس بانتظار السؤال، وحرك يده الصغيرة في الهواء: «ذبابة وعنكبوت لا يزالان آمنين، على ما أعتقد، وبعيدين جدًّا عن هنا. لكن عندما يخنق رجلٌ امرأة...، فلنفترض أن كليهما عادةً ما يُركزان على المهمة. من السهل عدم ملاحظة أشياء معينة...».

نظرتُ حولي.

لقد اكتشفته في زاوية من الأرضية. كائن صغير.

الملك الأبيض.

قال السيد إكس: «كِش مَلك».

بالِغ السرية



خطابٌ خاص



...ومن موضعي هذا أؤكد لك أنَّ اللذة التي يشعر بها الفرد تحت تأثير المسرح مثل السؤال الذي لا إجابة له، يُجبره على فعل أيِّ شيء، حتى ولو كان إيذاء نفسه أو الآخرين. اللذة تمنح التحكم. قدمها بجرعات صغيرة، مثل اللودانوم، وسينتهي العالم عند قدميك [...] هل تصدق ذلك؟ المفاتيح موجودة في مسرح شكسبير [...] أودُّ أن أعرف تفسيره...

السيد (م) 1880

توضيح



-1-

اصطفُّوا ووجوههم جهة الجمهور.

بدتْ وجوه الجمهور متنوعة للغاية، مثل ألف وجه في وجهٍ واحد فقط، والجمهور يؤدي دائمًا بشكلٍ أفضل من الممثل. أعرف هذا لأنه -مثل معظم النساء- في كثيرٍ من المشاهد الكريهة أحوِّل عينَيَّ نحو الجمهور. كانت تلك النظرة على وجهيهما سوزي ترينش وماري برادوك عندما دخلتا الغرفة مثل شيءٍ ما لم ترغبا في رؤيته. وسوزي على وجه الخصوص بدت مفتونة، لقد اقتربتْ من الرجل الميت الآن عند النافذة بينما كنت أشرح لها. ولكنها لم تهتم بما أقوله في تلك اللحظات. مدتْ رقبتها الصغيرة مثل سلحفاة خجولة، وعيناها الزرقاوان الجميلتان منتفختان، في حين أن شيئًا لم يكن ابتسامة أو خوفًا أو ألمًا أو حزنًا أو ضحكًا، ولكن كان له القليل من كل ما ظهر على شفتيها عندما رأت دويل الكاذب.

- آه...، (قالت وبعد ذلك) أوه...، آه!...، إيه!...، هيه...

عبرت عن انفعالاتها بهذه الأصوات كأنها مغنية في أثناء البروفة.

كان التواضع والرعب والفرح الشديد والمبتهج يمرُّ عبر وجهه.

- إنه ميت، أليس كذلك؟

- نعم.

الرئيسة برادوك لم تُحرك عضلة. لقد فوضتْ هذه المسؤولية بالكامل إلى سوزي.

«سوزي! اذهبي إلى مركز الشرطة»، نطقتْ أخيرًا وهي تنظر إلى السيد إكس.

بينما أسرعت سوزي ترينش تركُض، بدأت أنا وماري برادوك في تضميد السيد إكس، بدا الجرح عميقًا، لكنه كان في كفِّ يده وحسب، ووفقًا لخبرتي قدرتُ أنه سيتعافى تمامًا لكنه سيخلف ندبةً قبيحة دائمة.

أتذكر هذا السؤال من الرئيسة برادوك: «ألم يكن دويل، كما تقولين؟».

- لا...، أمم...، كان...، آخر.

- عليكِ أن تشرحي لي الأمر بشكلٍ أفضل يا آني! يا إلهي! انظري لوجهكِ.

- نعم...، أمم...

كنت أتساءل عما إذا كان منقوع الشاي والعسل مفيدًا في محاولات الخنق الأخيرة التي مررتُ بها.

السيد إكس كان لا يزال هكذا عندما امتلأت الغرفة بالشرطة. دخل مرتون بخطى سريعة، متنبهًا، مجذوبًا مثل الآخرين نحو الجثة الواقفة المُعلقة على النافذة، مطالبًا بتفسير. وحيث إنَّ السيد إكس لم يتكلم،

بدأتُ الحديث بنفسي، لكن كل شيء كان معقدًا بالنسبة لي، لأنني لم أذكر ما تعرضتْ له حنجرتي.

ثم تذكرتُ دفتر الملاحظات. ذهبت إلى المزهرية والتقطته.

لم يكن هناك شيء.

غمغمَ مرتون: «ماذا يعني هذا؟».

أجبته: «لا أعرف».

كانت علامات أصابع دويل المُزيف على رقبتي ووجهي واضحة للغاية، وأعتقد أن ميدالية بقائي على قيد الحياة كانت الشيء الوحيد الذي منع مرتون من اعتقالي مرة أخرى. ارتفع نحوي بفجاجة بالغة، وجهه بشاربه الفظ، وشعيراته النافرة. كان التعبير على وجهه كما لو كان لديه هدفٌ حيوي وحيد هو اكتشاف الجاني الكبير، وقرر في تلك اللحظة أنه أنا. بعيدًا جدًّا عن مرتون الأول الراضي عن نفسه الذي التقيناه قبل شهر، وحتى عن مرتون الثاني الذي استجوبني وأهانني في اليوم السابق، كان مرتون الجديد طافحًا بالغضب الأرجواني الأحمر، من ذلك النوع الذي يجعل المرء دائمًا يشعر بمزيدٍ من الأسف للشخص الغاضب من ضحاياه المفترضين.

من حسن الحظ أن هذه كانت اللحظة التي اختار فيها الدكتور بونسونبي الظهور، برفقة ويدون، وجيمي بيجوت، وهيتي والترز -التي قدمت الحرف المتحرك الوحيد الذي كانت سوزي تفتقده، أووه!- وحتى السيدة موراي، جالبة الشؤم. وقف بونسونبي وسط الجميع وأشار لتهدئة الأمور.

- أيها المفتش! أيها السادة! اهدؤوا. لقد تلقيت للتو برقية عاجلة من عائلة السيد إكس التي كانت على علمٍ مُسبق بما يجرى من خلال السيد نفسه، أيها السادة! لقد فعل السيد إكس شيئًا مشابهًا في

مصحته السابقة من قبل. فهي من عاداته أنْ يقوم بحل الألغاز الغامضة من وقتٍ لآخر. ليس من الصعب تفهُّم ذلك. آه...، لا أقصد أنَّ الأمر هين أيضًا (أضاف فيما يتطلع إلى الجثة المعلقة على النافذة) ليس كثيرًا...، كل ما أطلبه منكم هو القليل من الوقت، والهدوء وضبط النفس. سيكون هناك دائمًا تفسيرٌ لكل شيء، لا أعني تفسيرًا كاملًا، ولكن...

استشاط مرتون غضبًا: «عزيزي الدكتور بونسونبي! أرجوك، قدِّم لي أوراق الاعتماد التي تمنحك القدرة على تقرير ما تفعله، أو لا تفعله سلطات إنفاذ القانون في هذه المدينة...».

لقد كان ذلك محض عبث بشكلٍ يصعب تصديقه، أخذ بونسونبي الأمر على مَحمل الجد.

- سأقدمها لك على الفور إذا تكرمت بمرافقتي للحظة.

أظهر لنا مرتون الذي عاد بعد دقائق وجهًا آخر لشخصيته التي تحولت. لم يكن الأمر مزعجًا تمامًا الآن. لقد كان الموظف الماهر في وظيفته هو الذي -حتى دون فهم ما كان يحدث- يعرف كيف يؤدي واجبه وإن لم يفهم كل التفاصيل. إنه انكماش الكتفين والخنوع الأبدي للجندي والموظف: «هذا ما طلبوا مني أن أفعله».

تُرى ما هو طراز عائلة السيد إكس؟ تساءلتُ. هي عائلة قادرة على ترويض زخم مفتشي سكوتلاند يارد في غضون دقائق. منذ تلك اللحظة، حدث كل شيءٍ بانضباط بارد. عندها نطقَ وحش الغرغول ذلك الصغير الجالس على الأريكة لأول مرة.

- في مزرعةٍ في كروسينج سيجدون دويل الحقيقي، وأنا أقترح الذهاب في أسرع وقتٍ ممكن، أيها المفتش؛ لأنه يعتقد فقط أنه مات، خشية أن يُصبح ما يعتقده حقيقة معجزة. (ثم أدار وجهه

نحو بونسونبي) معذرةً يا دكتور! هل يمكننا أنا والآنسة ماكيري الذهاب إلى مكتبك؟ تذكر أنه عليك أن تُنهي خدمتها في العمل هنا.

-2-

بعد أن جذبَ عصاه التي لا تفارقه أبدًا أمسك بذراعي، تابع السيد إكس خطوات الطبيب على الدرج بمساعدتي. لم تكن نظراتي المتسائلة التي صوبتها نحوه في طريقنا ذات فائدة، لم يكن ليخبرني بأي شيء، مهووسًا بهذه الفكرة بطريقةٍ أو بأخرى. أرادني أن أختفي عن المشهد.

كان بونسونبي جالسًا بالفعل خلف المكتب، ولم يكن متأكدًا أيضًا مما يعتزمه نزيله المريض، ففحصه بنظراتٍ وامضة عابرة مثل إشارات استغاثة لم تتلقَّ أي استجابة. أخيرًا، ابتلع بتبجح، مُقيِّمًا الوضع بحاجب مرفوع في السلطة وآخر في فشل، وبعد ذلك انهار كلاهما. ثم نظر إليَّ. لقد كنت في حيرة من أمري مثله.

- آه...، أعتقد أنه يمكننا أن نُغير رأينا بشأن الآنسة ماكيري، أخشى أنني تعجلتُ في الحكم عليها بالأمس.

قال الرجل الصغير: «ومع ذلك، فأنا أُصر؛ يجب أن تنهي خدمتها».

من المؤكد أن شيئًا ما في لهجته لم يسعد بونسونبي، الذي بدأ بإرسال رسائل مختصرة محمومة، وهو يقرع بأصابعه على جمجمته.

- دعونا لا نتعجل...، إيه...، لقد مررنا جميعًا بلحظات من التوتر بالأمس...، والاسم الجيد لـ كلارندون هاوس، كما تعلم، مهم جدًّا. لكن...، الآنسة ماكيري أثبتت أنها...، قيمتها...، لا أريد ذلك، بسبب سوء فهم.

عدم ارتياحه جعلني أتفاعل: «لا تقلق عليَّ يا دكتور!».

بدأت أتكلم، لكن السيد إكس قاطعني: «سوء الفهم معي يا دكتور بونسونبي! لقد طردتها بالفعل وهي مطرودة الآن، لذا كل ما تبقى هو أن تدفع لها الأيام التي تدين بها لها، وتضيف مبلغًا صغيرًا إضافيًّا مقابل الإهانات الخطِرة التي وجهتها إليها بالأمس».

قلت: «ليس من الضروري...».

ولكن المريض استمرَّ دون توقف: «إضافةً إلى كل ذلك، أودُّ منك أن تضيف اعتذارًا، كتابيًّا وشفهيًّا، للآنسة، عن الإهانات والافتراء والافتقار المطلق للياقة والاحترام، الذي كنت تكنه تجاهها بلهجتك التي سمعها جميع الموظفين في كلارندون، على الرغم من أنه -بالطبع- إذا كنت تتوقع مني أن أقوم بالكشف عن الشخص الذي كررها لي؛ فإنك تُضيع وقتك».

- هل يمكنني التحدث يا سيد إكس؟ (تدخلتُ، متوترة بصوتي الأجش) ليست هناك حاجة للطبيب إلى الاعتذار عن أي شيء. إذا كان على أي شخص أن يعتذر عن شيءٍ ما، فهو أنت، الذي بالكاد تستطيع إخفاء رغبتك في أن أغادر.

تحشرج صوتي، لم يُجب السيد إكس فتوجهت إلى بونسونبي: «أستميحك عذرًا دكتور! يجب أن أجهز حقيبتي».

- لا حاجة إلى ذلك يا آنسة ماكيري! (قال السيد إكس) سنغادر في غضون أيام قليلة. ليس بعد.

قال: «سنذهب». نظرتُ إليه...، نظرنا إليه، أنا وبونسونبي، في حيرةٍ من أمرنا.

تمتم الطبيب وهو يرتجف: «سيد إكس...».

- ليس خطأ كلارندون. (قال المريض وهو يرفع يده المغطاة بالضمادات) لكنني أريد التغيير وزيارة صديق قديم. لم أعدْ أحب البحر بعد الآن. سأنتقل إلى مصحة داخل المدينة خلال أسبوع، لقد أخطرتُ عائلتي، وستتلقى التسوية المقابلة خلال هذه الأيام.

- سيد إكس... (أصرَّ بونسونبي. كان يجد صعوبة في اختيار كلماته وقمع مشاعره) إذا ارتكبنا خطأً ما في كلارندون...

- أكرر يا دكتور؛ أنا من أريد التغيير. ما عدا الممرضة، لأن الآنسة ماكيري ستأتي معي بالطبع. لقد قررتُ أنها ستكون ممرضتي الخاصة مدى الحياة، وبما أنك فصلتها بالأمس، فلن يكون لديك مشكلة في الاستغناء عن خدماتها. وبطبيعة الحال، سأقدم أفضل التوصيات لكلارندون، ما دام أنه تمَّ استيفاء جميع شروطي.

همس الدكتور بونسونبي الموقر: «شكرًا لك، شكرًا لك يا سيد إكس!».

- وغني عن القول، سأدفع مقابل أي وقتٍ إضافي أقضيه هنا قبل أن أغادر، ولن أُصرَّ على أن تدفع للآنسة ماكيري أكثر مما تمَّ الاتفاق عليه، حيث إنني قررت أن أدرج في التعويض جزءًا من الراتب الذي كان مفترضًا أن تتقاضاه خلال الأيام المتبقية حتى رحيلنا.

انحنى بونسونبي: «أنت نموذج للطف...، امتناني...».

- سيبدأ امتنانك، هنا والآن، بتقديم كلمات الاعتذار للآنسة.

جعلتنا هذه الكلمات نتجمد في مكاننا عندما رأينا النظرة الوامضة المؤلمة في عينَي الطبيب البارزتين، شعرتُ بما يُشبه الاستياء.

قلتُ: «لا داعي للاعتذار».

- أنا أُصر.

- وأنا أُصر على أنْ لا. ولكن هناك شيئًا ضروريًا. (أضفتُ) لستُ أنا ومستقبلي تحت تصرُّفك، يا سيد إكس! «ستكون ممرضتي الخاصة مدى الحياة»، هل قررتَ بالفعل بنفسك؟ هل نسيت التفاصيل الصغيرة لمعرفة إذا كنت سأقبل أم لا؟

- هل تقبلين أم لا؟

- إيه... نعم. أنا موافقة.

- شكرًا. والآن أيها الطبيب! بعد إذنك.

نظر إلينا بونسونبي كأنه مستعدٌّ لتقديم نفسه للاستشهاد لسببٍ أسمى. خلال الوقت الذي تحدث فيه، كان يداعب الجمجمة أمامه مثل هاملت بعد أن أصابه الهِرم.

- الـ...، السيد إكس على حق، فتصرُّفي معكِ أمس قد تجاوز الحدود آنسة ماكيري! على ما يبدو، وفقًا لما أخبرتني به الممرضات، أنكِ ساعدتِ حتى في القبض على الجاني الحقيقي. آه، أنا لا أقول إنني فقط ممتن لك؛ كل سكان بورتسموث سيكونون ممتنين لكِ إلى الأبد، ولكن...، أنا ممتنٌّ لكِ أيضًا...، أنتِ ممرضة رائعة، وكنت أخرق للغاية كرئيس وفظًّا كرجل. لن أقول إنني في ذلك الوقت لم أصدق كل ما قلتِه، ولكن...، لكل هذا، أطلب منكِ قبول اعتذاري الصادق.

- شكرًا لك يا دكتور! عذرك مقبول.

ثم عاد صوت السيد إكس الرفيع: «ممتاز، وبعد الانتهاء من الإجراءات، هل تسمح من فضلك دكتور بنقلنا إلى غرفةٍ أخرى إذا أمكن؟ ونقل مقعدي أيضًا، وبهذه الطريقة سنسمح للشرطة بإكمال عملها بسلام، ويمكن للمفتش مرتون أن يذهب ليرتاح قريبًا».

-3-

لا أعرف ما إذا كان مرتون قد تمكن من الراحة. الشخص الذي فعل ذلك، وأكثر مما رأيته في أي شخصٍ آخر، كان السيد إكس. أغمض عينيه، وتقاطعتْ يداه على صدره، ووجهه للأعلى. في بعض الأحيان كان يتحرك ليأكل شيئًا ما، مجرد لقيمات قليلة. كان الأمر كما لو أنه بذل جهدًا هائلًا، كان جسده الهش يُطالبه بدفع ثمن ذلك بالنوم.

أما بالنسبة لي، فكل ما حدثَ بدا لي، كما هو الحال دائمًا منذ التقيتُ ذلك الرجل الصغير، باهرًا ومدهشًا وغريبًا ومروعًا. انتهى بي الأمر إلى استنتاج أن السيد إكس، كما قلت لنفسي: «*ستكون ممرضتي الخاصة مدى الحياة*» بطريقةٍ ما، أحببته.

في اليوم الثالث تلقينا زيارة، قدَّمها جيمي بيجوت. كان شابًّا، رغم أنه هزيل إلى حدٍّ ما، ذو شارب كث ومظهر يدل أنَّه عانى كثيرًا وما زال في مرحلة التعافي، كما لو أنَّه جاء من الحرب.

سألَ بنبرةٍ جادة، مسؤولة ومتعبة: «السيد إكس...؟».

عند سماع صوته، اعتدل الرجل المعنيُّ بشكلٍ مستقيم في السرير

- أنا الدكتور آرثر كونان دويل. أخبروني بما فعلت. لقد جئتُ لأشكرك.

كان الأمر كأن القيامة قد قامت. قفز السيد إكس من الفراش وجلس على الفور على المقعد.

- دكتور دويل! شكرًا لحضورك. (ثم قام بمقدماتٍ سريعة) الآنسة آني ماكيري، ممرضتي الخاصة، دكتور دويل!

كنا جميعًا سعداء بلقاء بعضنا بعضًا، على الرغم من أنه عندما بدأت المحادثة -واستمرت لساعات- تمكنتُ من التحقق من أن دويل الحقيقي

-على الرغم من تشابهه الجسدي الملحوظ مع المزيف- كان أكثر جدية واحترامًا من ذاك. ولم يكن بنفس القدر من الإغواء، ربما لأنه لم يكن بحاجةٍ إلى ذلك. ولم يأتِ ليتم تصديقه، بل ليعرف. جلس مائلًا نحو السيد إكس، يتفحصه بعينيه. لقد كان رجلًا أهلًا للثقة ولكنه مرهق، فقد تمَّ التلاعب به، وأصبح متشككًا، وهو شيءٌ مفهوم تمامًا.

ناداه السيد إكس: «صديقي! لا بدَّ وأن الملحمة التي مررت بها كانت بغيضة للغاية».

أقرَّ دويل: «أؤكد لك أنني ما زلتُ لا أفهم الأمر بالكامل».

فكرتُ: إنه يحتاج إلى تفسير أيضًا.

سأله السيد إكس: «هل سيكون من المبالغة أنْ نطلبَ منك أن تخبرنا كيف تم إنقاذك؟».

- سيكون من دواعي سروري أنْ أخبرك بكل ما أتذكره سيد إكس!

كانت قصته مذهلة، أوضح أنه -قبل يومين- زاره مرتون ومعاونوه في مزرعة شمال شرق المدينة، في كروسينج، وهي مزرعة -وفقًا لـ دويل- باعها بعض كبار السن المحليين من وقتٍ قصير للهجرة. المالك الحاليّ كان هنري ليفرام. لم يكن هناك في ذلك الوقت، ولكن الذي كان هناك -والذي خرج استجابةً للشرطة، وهو مذهول ومغمض العينين كان دويل. ارتدى كمَّي قميصه، بينما وجهه بحاجةٍ إلى حلاقة جيدة. لم يكن لديه مشكلة في القول إن اسمه آرثر كونان دويل، وإنه طبيب، وإنه مات. ما وجد صعوبةً في تصديقه هو أن المفتش مرتون وضباط الشرطة كانوا على قيد الحياة. ورغم أنه كان من الذين اعتبروا التواصل بين العالمين حقيقيًّا، فإن هذا الأمر لم يحدث إلا في الجلسات الروحانية وليس في سقيفةٍ تفوح منها رائحة البيض المخفوق -الذي كان دويل قد صنعه للتو- وبالمثل رائحة روث الخيول.

تفاصيل عاطفية: عندما طلبت منه الشرطة بلُطف مرافقتهم إلى بورتسموث، دخل دويل المزرعة القديمة مرة أخرى، وخرج بنفس الملابس والمظهر كما كان من قبل، ولكن مع حزمةٍ كبيرة من الأوراق تحت ذراعه لم يرغب في التنازل عنها، قال: «ولا حتى ميتًا». كانت كتاباته في الغالب قصصًا عن المُحقق الخاص به، شيرلوك هولمز. عندما أعادوه إلى بورتسموث، تولَّى المزيد من الأشياء. وسرعان ما كشف أن آخر ما يتذكره بوضوح -قبل مرحلة المزرعة- هو أن ذلك الشاب -الذي يُدعى ليفرام- جاء إلى مكتبه؛ ليتحدث معه عن الصداع. بدأ دويل في التسجيل، وفجأة حدث شيءٌ ما. لقد استيقظ ميتًا بالفعل في المزرعة. أخبره ليفرام -الذي كان يزوره أحيانًا- أن هذه هي الحياة الآخرة. نظر دويل حوله واعتقد أنه رأى أماكن أسوأ. وطلب ورقةً وقلمًا. واعترف بأنه -بعد موته- عاش كما كان يحب دائمًا؛ الكتابة من الفجر إلى الغسق دون الحاجة إلى كسب لقمة العيش، لأنه لم يعد هناك أي شيءٍ يكسبه. كان الجوع والطعام والشبع يأتي ويذهب في دورةٍ سهلة ومتكررة، وكذلك بقية احتياجاته القليلة. شارك ليفرام أيضًا هوايته معه، كان مهتمًا جدًّا بشخصيته شيرلوك هولمز. لقد ساعدته بالنصائح والتحسينات، وقد أعجب باستلهام دويل من أحد أساتذته في الطب. حتى إن ليفرام أخبره ذات يوم: «يجب أن تقابل شخصًا يشبه هولمز بشكلٍ لا يُصدق». كان دويل متحمسًا وطلب مقابلته. قال له ليفرام شيئًا مثل: «إنه مريض عقليًّا ولا أستطيع تقديمه لك لأنه لا يزال على قيد الحياة...» وأضاف مبتسمًا: «لكنني سأعرفكَ عليه قريبًا». لم يتفاجأ دويل بأي شيءٍ قاله صديقه. وعاش في حالة من البهجة والسلام المطلق، حتى في أثناء غيابه الطويل. «هذه هي الجنة»، اعترف لليفرام ذات يوم، وبكى كلاهما بانفعال.

ولم تكن العزلة تامة. كان ليفرام يتواصل معه من وقتٍ لآخر من خلال رسالة أو برقية من أحد أقارب دويل، ويخبره أنَّ أحباءه كتبوا له أيضًا بعد وفاته. وطلب منه الرد دون ذكر حالته، فقط بضع كلمات مختصرة ومطمئنة، فقبل بحماس، معتقدًا أنه اكتشف أخيرًا كيفية تواصل الأحياء مع الأموات. لم يكن أحد يتخيل ذلك؛ عن طريق البريد العادي. أسهل شيءٍ في العالم.

فقط في مناسبات نادرة جاء أصدقاء ليفرام أيضًا. ممثلو مسرح على ما يبدو، اعتقدت أنهم فنانون مسرحيون بسبب الطريقة التي يرتدون بها ملابسهم أو يخلعونها. كان يحتفظ بصورةٍ واضحة لفتاة صغيرة جدًّا، لا يزيد عمرها عن اثني عشر أو ثلاثة عشر عامًا، جميلة، رشيقة العود، كرست نفسها لـ...، حسنًا، اعترف بأنه لا يتذكر ذلك جيدًا. وقال: «قبل كل شيء، المشي دون ملابس». وفي تلك الزيارة، استيقظ دويل كأنه بعد نومٍ طويل، كان الانطباع العام لطيفًا، كما لو كان يشرب الخمر في إحدى الحفلات كانت الذكرى مسلية.

علَّقَ السيد إكس: «لقد كانت جلسات لتجديد المسرح الذي قاموا به من أجله».

عبس دويل: «مسرح؟ هل تقصد...؟».

- شيءٌ مشابه للمسرح العقلي، لكنه أكثر فعالية. ينتج نشوةً عميقة بسبب المتعة. الضحية يُصدق ما يُقال له أو يفعل ما يُقال له.

- مَن...، مَن الذين فعلوا ذلك؟

- من الصعب الإجابة على ذلك، أشخاص ذوي عزم. على الرغم من أن عزيزي المفتش مرتون سوف يستجوب السيد قسطنطين، والسيد بيتيروسو، والآنسة أبيجيل في هذه الساعة، فإنني أخشى أنهم مجرد قطع صغيرة ولن يحصل على أيِّ شيءٍ منهم.

- لكن لماذا...؟

لخَّص السيد إكس تاريخ مراسلة الشطرنج وضحاياها. وبينما كنتُ أراقب من كثب دويل ما بين عدم تصديقه ودهشته لما يسمع، لاحظت اهتمامه الكبير؛ تتبعتْ عيناه أصغر الإيماءات، والتعبيرات، وصورة الرجل الجالس على الكرسي.

وحينما انتهى السيد إكس، سرح دويل قليلًا.

- مسرحٌ يجعل الجمهور تحت تأثير النوم المغناطيسي...، إلى هذه *الدرجة*؟

- لا تسألني عنه، فأنا لا أعرف ما هو وما أصله.

أومأ الطبيب: «أنا متأكد من أنهم فعلوا شيئًا ما لإبقائي على هذا النحو...، لأنني استعدتُ وعيي تمامًا عندما أعادتني الشرطة إلى عيادتي».

عندما دخل دويل الحقيقي عيادته في شارع إلم جروف -الذي كان يخضع للتفتيش في ذلك الوقت- كان قد اقتنع بالفعل ببعض الأشياء المؤلمة، أن ليفرام خدعه، وأنه افتقر إلى الخيال لاختراع أسماء مزيفة -«ليفرام»، «مارفل»- وأنه من ناحيةٍ أخرى كان جيدًا في التظاهر بامتلاك هويةٍ أخرى، واعتمد هويته الخاصة خلال الأشهر القليلة الماضية. ومع ذلك، فإن ما سبَّب له أكبر قدرٍ من الألم هو إدراكه أنه لا زال على قيد الحياة. أخبرنا أنه رفض الفكرة على الفور، وأنه بدا فظيعًا العودة إلى المسؤولية، إلى الدراما اليومية، إلى الواجبات الملحة للبشر على الأرض. «على قيد الحياة؟» اشتكى. أومأ مرتون برأسه حزينًا، كما لو كان يرافقه في الشعور نفسه.

قال دويل: «أنا متأكد من أن هؤلاء الأوغاد كانوا يعتزمون التخلص مني حقًّا حين أُصبح غير ذي نفعٍ لهم».

علق السيد إكس: «للأسف، انطباعك صحيح جدًّا يا دكتور!».

- هل تعتقد أنني ما زلتُ في خطر؟

- لا، لا أعتقد ذلك، لقد استخدموك في إحدى المناسبات والتخلص منك الآن سيكون محفوفًا بالأخطار وغير مجدٍ، فكل هذا بالنسبة لك كان بمنزلة فصلٍ تمَّ محوه من حياتك، وهم غير مهتمين بجذب الانتباه، إنهم يسعون لتحقيق أهداف جوهرية ويضحون بالأهداف الصغيرة، وهم يشبهونني ويشبهون جميع لاعبي الشطرنج الجيدين في هذا الجانب.

- ولكن ماذا لو كتبت عنهم؟ ماذا لو كشفتهم علنًا؟

هزَّ السيد إكس رأسه: «أنا آسف يا دكتور دويل! ستكتب عن أشياء أخرى، وليس عن هذا الشيء».

- لماذا؟

- لأن بهذه الطريقة ستكون حياتك أكثر أمانًا، لقد أخبرتك بالفعل. هذه مجموعة تملك المال والسلطة، وهما شيئان عادةً ما يحققان أي شيءٍ في هذه الحياة. اكتب روايات واترك مهمة جعلها خيالية لي.

احتجَّ دويل بعصبية: «ولكن... يجب أنْ يكتب شخصٌ ما عن هذا، أي بيان أو... تفسير، على الأقل إشارة ما...».

تمتمتُ: «سأكتبها أنا... (نظرإليَّ كلا الرجلين) ... في يومٍ ما. عندما يسمح لي السيد إكس أعتقد أنني بحاجةٍ إلى القيام بذلك».

قال السيد إكس: «ربما لا، ليست هذه بالفكرة سيئة، أمَّا بالنسبة للشرطة، فلا تقلق. لقد أعددتُ بالفعل التوضيح للمفتش مرتون».

غرق دويل متأملًا هنيهة: «حين يموت شخصٌ ما ظاهريًّا ويُبعث حيًّا» لاحقًا...، ليس موضوعًا سيئًا للقصة...، امتناني لك هائل. أنا لا أعرف كيف أوفيك حقك».

أجاب السيد إكس بهدوء: «أوه، أمَّا أنا فأعرف...، الحقيقة أنني أنا من طلب هذه المقابلة، أحتاج إلى خدمة، أو ربما اثنين».

- إن كان بيدي.

- بالطبع هما بيدك، أخذ دويل المزيف دوره على محمل الجد، وتحدث معي عن الشخصية التي اخترعتَها كما لو كانت خاصة به، ولكن أودُّ منك أن تخبرني إذا ما كنتُ انعكاسًا لرؤيتك للشخصية دكتور! (وبقي متكئًا على كرسيه، في الانتظار) هل أنا شيرلوك هولمز؟

أذهلني السؤال، دويل الحقيقي أظهر رد فعل مختلفٍ تمامًا عن رد الفعل الذي كان من الممكن أن يُعبر عنه الشخص المزيف؛ نظر إليه ببساطة وفي صمت.

- لا أعرف كيف أقول ذلك، أعتقد أن الأمر على العكس.

- هل يمكنك تفسير ذلك؟

عبس دويل: «أنت لست الفكرة التي كانت لديَّ عن شيرلوك هولمز. لكن، كما أخبرني ليفرام...، أو مارفل بأشياء عنك، تغيرت فكرتي عن شيرلوك هولمز...، لقد أخبرني بحكايات، مثل عندما فحص عينك وأخبرته أنه أجرى «دراسة قرمزية» وأنت أعطيته «دراسة سوداء»...، ضحكنا على هذه الفكرة. أعجبتني كثيرًا. وأخبرني عن...، عن الأولاد المعدمين الذين استخدمتهم للعثور على أدلة...، وعن كمانك...، بالمناسبة، سيكون من المثير للاهتمام أن يعزف هولمز على الكمان. كمانٌ حقيقي بالطبع».

- كماني أيضًا حقيقي تمامًا مثل شخصيتك.

- آه طبعا أعني...

- أنا أعرف ما تعنيه. أكمِل من فضلك.

تحدث دويل دون أن ينظر إلينا، كما لو كان يفكر بصوتٍ عالٍ: «لا أعرف...، كان الأمر غريبًا جدًّا. أخبرني ذلك الرجل أشياءَ عنك، وتخيلت أنها تنطبق على شيرلوك هولمز، ومن جانبي أضفت أشياء خاصة بي. والآن، هنا أمامك، أشعر كما لو كنت أمام المادة الخام...، أنت لست شيرلوك هولمز، لكن شيرلوك هولمز هو أنت، لا أعرف إذا كنت سأشرح نفسي...، (وبعد هنيهة، مترددًا) حسنًا، أعلى قليلًا، ربما... (توقف، واحمرَّ خجلًا).

ابتسم السيد إكس بحبور، كان تعبيره ينمُّ عن السعادة الحقيقية.

- هذا لا يُضايقني يا دكتور! ومن المنطقي أن يحدث ذلك.

- هل يمكن أن يكون أطول؟

- نعم. في مخيلتك، كبر شيرلوك هولمز.

ابتسم دويل: «حقيقي. لم أفكر في ذلك، ولكن صحيح».

- وأما المطلب الثاني...

- أخبِرني.

- هل يمكنني الحصول على موافقتك؛ لاستخدام اسم شيرلوك هولمز في وقتي الخاص مع الآنسة ماكيري وحدها؟

شيءٌ ما خيم على وجه دويل الهادئ والمتعب.

- حسنًا...، هذا...، أنا...، أنا فقط لا أعرف...، لا أعرف كيف أقول.

لقد فوجئت أنا ودويل بسماع ضحكةٍ رقيقة صدرت عن السيد إكس.

- هل تدركين يا آنسة ماكيري؟ (التفت إليَّ وتابع) كنت أعرف على وجه اليقين أن دويل المزيف كان يكذب عندما سمح لي بذلك. لا يوجد كاتبٌ حقيقي يقبل أن يلعب أحد بأسماء شخصياته.

اضطرَّ دويل إلى الابتسام وهو يمد يده: «عزيزي السيد إكس! كان من دواعي سروري مقابلتك حقًّا».

- إذا سمحت لي، أنا لا أصافح عادةً، لكني أتمنى لك حظًّا سعيدًا رغم أنك لن تحتاج إليه، أنت رجلٌ موهوب. إن مهنتك -ككاتب- لم تكن تحتاج إلا إلى الطيران والتحليق عاليًا، وهو ما يحتاج إليه الكثير من الأشخاص الآخرين الذين يريدون إعطاء اتجاهٍ جديد لحياتهم أن يولدوا من جديد. لقد حققت ذلك بالفعل.

كان الوداع وديًّا، لكن عندما دخل دويل إلى بهو كلارندون، بدا غير مرتاح.

اعترف وهو يشعر بالقلق والخجل: «لا أعرف إذا كنت مخطئًا في عدم السماح له باستخدام اسمي... بفضله يمكنني استخدامه بنفسي».

لقد طمأنته بشأن ذلك. قلت: «لقد كان اسم شخصيتك، كان لديك كل الحق في الاختلاف. علاوةً على ذلك، فقد تعامل السيد إكس مع الأمر بشكلٍ جيد».

لم يبدُ دويل مقتنعًا، لكنه انحنى لي برشاقة وشاهدته يسير ببطء صوب الشارع.

وفي اليوم نفسه، أرسل السيد إكس إلى مرتون، من خلال جيمي بيجوت، التفسير الذي طال انتظاره. لقد كان دفترًا صغيرًا بغلافٍ أزرق. أتخيل وجه مرتون عندما قرأ العنوان:

أفضل خمسين نقلة شطرنج

على صفحةٍ ذات زاوية مطوية ظهر رسمٌ تخطيطي للعبة.



-4-

بعد تسليم ذلك المظروف، عاد جيمي بيجوت وسلمني مراسلات اليوم. ثم توجهتُ إلى المطبخ وأعددت الشاي للسيد إكس.

ابتسمت: «إذًا هذا الدفتر...، لم يكن موجودًا...، لقد فعلت ذلك من أجلي».

- في هذه الحياة يجب أن نعرف مَن هم الأشخاص الذين نهتم بهم، عزيزتي الآنسة ماكيري!

قلتُ بحماس: «شكرًا لك يا سيد إكس!».

واصلتُ الابتسام له بينما أرفع يدي اليمنى بالسكين التي أخذتها من المطبخ، وغرزتها في أحشائه بدقة.

الستار الختامي

ذلك الحاجز الغريب بين المسرحية والواقع، ذلك الجفن الذي يُغلق في النهاية على الوهم، كان المسرح بأكمله عين عظيمة كانت تنظر إلينا حتى ذلك الحين، تدخلنا في حدقتها مثل بروفيسور التنويم المغناطيسي.

- جي إتش ميل ستون،
تأملات في الفن المسرحي (1865)

كان راكب الدراجة واضحًا للعيان، لكن ربما يظن المراقب الفطِن أنه أراد لفت الانتباه إلى تفاصيل معينة لإخفاء تفاصيل أخرى. شيءٌ مثل خدعة سحرية على العجلات. ومع ذلك، لا يوجد مراقبون بالقُرب، سواء كانوا ذوي قدرة على الملاحظة أم لا. يقطع راكب الدراجة مسافة هائلة عبر مساحات مدينة ساري التي تكتنفها الأشجار. ذيلٌ طويل لمعطف

جلدي، ربما أغلى بكثيرٍ من دراجة باهظة الثمن، يرفرف مع الحركات الميكانيكية على العجلة الأمامية الضخمة، وتشكل ما يشبه الذيل الذي يرفرف في الريح على العجلة الخلفية الصغيرة. يقطع المعطف لإفساح المجال للساقين، ولكنه يخفيها بالكامل. إنه أمرٌ متفاخر وسخيف للغاية، لدرجة أن مراقبنا الافتراضي سيولي اهتمامًا أكبر للتنانير المرفرفة أكثر من الخصر الناعم أو الشكل الغريب الذي يتخذه الثوب على الجذع. عندما ننظر للأعلى، نجد ما هو أقل من الأشياء المثيرة للفضول: وشاحٌ رمادي، ونظارات ملونة، وغطاء للأذن، وقليلٌ من الشعر الأسود المرئي يرقص على صوت السرعة. الكل يتحدث عن الابتكار، والآلية، والمجد الإنساني في نهاية القرن. إن دوران العجلة الكبيرة يرسم حلم ليوناردو دافنشي مع كل دورة.

بعض العوائق تجعل من الصعب على الرياضي السريع والمجتهد أن يتبعها: أشجار البلوط الطويلة والعجوز، والمسار المتعرج، وجدران الملكية الخاصة الهائلة، بوابة تفتح وتغلق مثل سجنٍ ريفي، ممرٌّ من الجرانيت، ممر يحميه الحراس. وأخيرًا، يصل راكب الدراجة إلى فناء داخلي يمكنه بسهولة استيعاب قرية صغيرة.

ولكن لنتوقف عند هذا الحد، لأننا إذا تابعنا الأمر حتى هذه النقطة، فسوف ندرك أنه لا يوجد طريق آخر للذهاب إليه. لقد وصل إلى وجهته دون أدنى شك. وعندما نُفكر في الأمر، تكتسب مكابح العجلات الوضوح، وتختلف عن بعضها بعضًا، ويمكننا عزلها، وإعطاء كل واحدةٍ منها اسمًا، وتُصبح مملة، وتتوقف. إن مشاهدته وهو ينزل لا تبدو مذهلة، وذلك ببساطة بسبب رشاقة الراقص ونعومة الزيت الذي ينزلق على العجلة. حذاءٌ واحد على الأرض ثم الآخر. يقترب الخدم بكسوتهم المميزة من الطرف المقابل للفناء، بينما يسند راكب الدراجة دراجته

على الحائط، ويرفع يده مرتديًا القفاز ممسكًا بمستطيلٍ من الورق. يرافقه الخدم إلى الداخل، ويسيرون عبر ممراتٍ كثيرة بحيث يبدو أن الرحلة الآن أطول من تلك التي قطعتها الدراجة، خطوات من ستة أحذية، وأبواب مزدوجة مفتوحة بحيث يدخل راكب الدراجة بمفرده إلى غرفة جديدة يوجد بها نادل. ينتظر الرجل الذي يتوقف أمامه راكب الدراجة، ويقف منتبهًا، ويجلب اليد التي لا تمسك الورقة إلى رقبته، ويفك زرًّا، فيسقط المعطف بأكمله بثقلٍ على قدميه، ومعه قبعة ونظارة ووشاح وحذاء برقبةٍ طويلة.

بعد أن أصبحت المرأة عارية تمامًا، سلمت الورقة.

يسحب الرجل الرسالة من الظرف ويقرأها.

- مثيرٌ للاهتمام.

يقول رجلٌ آخر من بعيد في الغرفة نفسها: «هذا مثيرٌ جدًّا».

- ها...

يغادر كلا السيدين الغرفة من بابٍ آخر. وتبقى المرأة في الخلف بلا حراك. عند قدميها، كل ملابسها تُشبه البحر المظلم الذي وُلدت منه أفروديت قصيرة الشعر. تنطفئ الأضواء في غرفة المعيشة.

يقول الرجل الأول: «لقد تمَّ الكشف عن لعبة بورتسموث».

- و...؟

- و...، أيضًا.

- أوه.

- نعم.

- هذا مثيرٌ للاهتمام.

- بالطبع.

يتحرك الرجلان عبر الغرفة الجديدة. خطوات مكتومة على السجادة. تماثيل على الجانبين. العشرات منها في القاعة الكبرى المظلمة.

يقول الرجل الذي لا يحمل الورقة: «مَن كان؟».

- اقرأ.

لقد انقلبت الأدوار وأصبح الرجل الثاني هو الذي يحمل الآن الورق.

يقول الشخص الذي يحمل الورقة بعد قراءتها: «يجب إخطار السيد م، أليس كذلك؟».

- أوه، لقد تمَّ تحذير البروفيسور العجوز بالفعل.

الرجل الآخر يتوقف، ويُداعب العمود الفقري ومؤخرة تمثال جميل شارد الذهن -التمثال يومض- وقد اتخذ إجراءات بالطبع.

الخَاتمة

اسمي آني ماكيري وأنا ممرضة.

لكن المرآة تعكس لي وجهًا جديدًا الآن. أو ربما عيناي تراه بطريقةٍ مختلفة، محروم من الجمال، ولكن أيضًا من الإحباط. وجهي، المصنوع لي، مثل حياتي، مصنوعٌ بمادة واقعية. أشعر بهذا التغيير، وذلك التحول الداخلي، كما لو أن بشرتي قد اكتست بالنور وعواقب ذلك ممتعة بالنسبة لي. لا يوجد تغيير حقيقي يتعارض مع رغباتنا؛ إنما التغيير الكامل يعني أن نكون سعداء. التغييرات الحزينة هي مجرد طُرق مختلفة للاستمرار في فعل الشيء نفسه.

«اسمي آني ماكيري وأنا ممرضة»...، أقول.

أقول هذا للعلم فقط، لكن لهجتي لا تُخفي أي تحدٍّ ولو بسيط. فالممرضة في مستشفى بورتسموث الملكية عبارة عن كعكة من الكريمة تمشي على الأرض. زيهم الرسمي هو أروع ما يمكن أن تتمناه أي ممرضة. نتبادل ابتسامات التقدير بين الزميلات، ويرشد بعضهم بعضًا عبر الغرف الجميلة، وأجنحة النساء المليئة بالزهور النضرة

العطرة، والأروقة التي تسحرها رائحة الأثير البعيدة، والأثاث المصقول، والأرضيات اللامعة، كل الزينة التي نُخفي بها الألم. أبتسمُ لكل مريض في أثناء مروري، على ما أعتقد بسبب الصورة المشوهة عن الممرضات، وبعضهم غير معتاد أن يكون الزوار مهذبين مثل العاملات بالمصحة، فلا يردون على هذه الإيماءة، بل ويبدو أنهم يشعرون بالإهانة.

- اسمي آني ماكيري، أنا ممرضة.

أذكر ذلك فقط كمعلومات لضباط الشرطة الذين يرتدون الزيَّ الرسمي ويحرسون الباب. يتحركون جانبًا، فأدخل جنة النور. الغرفة، في الواقع، نظيفة للغاية لدرجة التألق.

وهناك -في الوسط- جوهرة القصر المقدسة.

ولا تخفي رهافتها العاجزة قوة تألقها للموجود على السرير، وهي علبة كبيرة جدًّا بالنسبة للجوهرة الصغيرة. عيناه مفتوحتان، واحدة ياقوتة والأخرى زبرجد، لكني أعلم أنه نائم. لقد تعلمت تمييز الرموز الموجودة في خطوط جبهته المصنوعة من عرق اللؤلؤ، وهي أبجدية من الخطوط الهيروغليفية التي لا تتحدث إلا إليَّ. الآن لا تكاد توجد أي تمويجات، وهذا يعني أنه تائه في ممراتٍ لا نهاية لها، في إحدى غرف القصر المخصصة للراحة والسعادة.

غردتِ الممرضة مثل طائر الزقزاق: «لقد أقبلت الآنسة ماكيري، يا سيدي!».

قلتُ لها: «اتركيه ينام».

- عيناه مفتوحتان.

- هو نائم.

أجذبُ كرسيًّا وأجلس بجوار ظهر السرير. الدمية الخزفية لا تتحرك، محاطة بالبياض من كل جانب.

- شكرًا جزيلًا لك، سأبقى لبعض الوقت.

الممرضة -كعكة الكريمة- ترد لي الابتسامة ثم تغادر الغرفة. هي غرفة مزينة بشكلٍ نموذجي لشاغلها. لا شيء على الجدران، ولا شيء على الأرض. نافذة، وطاولة بيضاء صغيرة، وكرسيان بعيدًا عن السرير. وهذا هو سبب سعادته الشديدة، أحدث نفسي: أولئك الذين يعيشون بالفعل في العدم لا يخشونه.

ومع ذلك، هناك شيءٌ جديد على الطاولة. كتاب صغير.

وجوده غريب مثل العثور عليه في قاع البحر. مبهورةً، أميل إلى التقاطه.

وهو من *ذلك المؤلف* الذي لم أُفلح في تذكره أبدًا.

ثم أدرك التغيير.

ما زالت عيناه مفتوحتين، لم يتحرك، لكنني أعلم أنه قد عاد بالفعل من قصره، وينظر إلى شرفة الواقع، ولها شكل ابتسامته بالضبط.

- آنسة ماكيري! لقد أتيتِ مبكرًا اليوم.

- صباح الخير سيد إكس! لقد تحدثت بالأمس مع الأطباء أخيرًا.

- وماذا؟

أتلعثم: «قالوا لي إنك سوف تتعافى...، ولحسن الحظ، لم يتأثر أيُّ عضو حيوي».

- أوه، كان ذلك مؤكدًا. وأنتِ؟ هل تعافيتِ؟

السؤال ليس من السهل الإجابة عليه.

لقد أخرجت الخنجر بعد الطعنة الأولى التي نزفتْ شلالًا من الدم.

أنا ممرضة وأعرف الأماكن التي يمكنني أن أتسبب فيها بأكبر قدرٍ من الضرر.

رأيتُ السيد إكس يتهاوى بعد تلقيه الطعنة المباغتة التي تلقاها وهو ينتزع السكين من جسده، سقط كوب الشاي الذي كان يحمله، وقعا بجانب بعضهما بعضًا، في البركة نفسها، كما لو أنهما تحطما. كم شعرت بالسعادة حينها! رأيت ساقيه الصغيرتين منحنيتين، ورأسه ووجهه بين كفيه. وهكذا -من حيث نظرت إليه- بدا كأنه جنين مجهض مكتمل ملفوف في ثوب انتُزِع مؤخرًا، وقُطع بالفعل الحبل السري الذي كان يربطه بالحياة.

انحنيتُ حتى لا أفوِّت طعنتي التالية، والتي لا بدَّ أنْ تكون الأخيرة.

سعادتي لم يكن لها حدود، كانت مثل بحرٍ ممتع مفتوح على أي أفق، خالقًا للمسارات اللانهائية. متعة أعظم من جسدي، ولكن *داخل* جسدي.

الظهر مكانٌ سيئ للطعنة، ما كان عليَّ فعله هو قطع الشريان السباتي، ولأنه كان هامدًا، لم يكن الأمر صعبًا بالنسبة لي، كل ما كان عليه فعله هو رفع ذقنه بيده الأخرى والكشف عن موضع نبض قلبه في رقبته. وهناك، نحو ذلك الوتر الأزرق الأخير، وجهت سكين القابلة ورفعت يدي لمنعه من الولادة.

ثم رأيت شفتيه مفتوحتين.

- آنسة...، ماكير...، آن..ي.

لقد تحدث معي.

لقد كان أمرًا لا يُصدق أنه فعل ذلك. لقد علقت السكين في بطنه. وسرعان ما ستبرز أحشاؤه، وتبحث عن مخرج. ومعها ستذهب الحياة عاجلًا أم آجلًا. لا بدَّ أن الألم كان بالغًا، أعرف ذلك جيدًا؛ كان يناديني...،

حسنًا، لم أكن أعرف ذلك حينها، لكنني كنت ممرضة. كنت أعرف أنه ألمٌ لا يشعر به سوى عدد قليل من البشر، ولحسن الحظ، وعادةً ما يشعر به مرة واحدة فقط.

رغم كل شيء تكلم: آني!

ما زلت في الوضع نفسه ومن الارتفاع نفسه، والموت يقطر.

- آني! هم مَن فعلوا...، هذا...، ليس أنتِ.

التوت شفتاي، أفترض أنه بالنظر إليَّ من وضع مقلوب، تبدو كابتسامة. ومن زاوية أخرى، تكشيرة حزينة. كل شيء يعتمد على عين المراقب، مثل الجمال.

- آني!

في كل مرةٍ نطق اسمي طرد فقاعات حمراء من فمه، كان اسمي هو دمه. كان يموت أكثر قليلًا عندما ذكرني، لكنه استمرَّ في القيام بذلك. عنيد.

- آني...، آني...، هل أنتِ...، أنتِ متفوقة على...

كان سكيني معلقة. غير حاسمة، بلا حراك أو غير متردد؛ متصلب.

- لقد فعلوا...، المسرح...، لكنكِ متفوقة على...، تريدين المقاومة...

أرسلتْ إليَّ نبضات رقبته رسالة تتباطأ أكثر فأكثر، وتحت جسده الضئيل امتدت بركة من الألم الأحمر. انعكست بركة الدماء تلك في مقلتيَّ...، حمراء ومستديرة.

- إنكِ تريدين المقاومة...، اسمكِ آني...، جميلتي الشجاعة...، آني الشجاعة.

عندها لاحظت وجود شيءٍ بجانبي. حجب عني الضوء المنبعث من نافذة غرفة النوم جزئيًا. لقد كانت سكينًا دموية. اعتقدتُ أنها كانت

تطير في الهواء، لكن ذراعًا مُغطاة، كُمَّ زيٍّ ممرضة كلارندون هاوس كانت تمسك بها. وقفتُ أحدق متعجبة إلى ذلك الشيء الغريب بينما كان الصوت ينفث كلمات الألم على الأرض.

لقد أذهلني مشهد ذراعي الممدودة من كتفي، متصلبةً تتألم، ترتعش. كتفي وجسدي، ورأسي شاخص لأعلى بينما أشقُّ طريقي.

- لا تدعي أحدًا أبدًا يخدعكِ مرة أخرى.

بدأت أرتعش، فقط لأنه كان هناك قتالٌ في داخلي. كنتُ أرغب في الكسر والتمدد والانقسام حتى أظهر مرةً ثانية.

عند قدمي، ذاب جسد الرجل الصغير في الدماء.

كان اسمي آني ماكيري وكنت ممرضة.

السكين لم تكن ملكًا لي. لقد رميته بعيدًا. واندفعتِ الدموع، وتزايد الألم، وأدركتُ ما قمتُ به. ضاعت كل صنوف البهجة، وتحطمت كل الملذات، غامت رؤيتي في بلورات سائلة. لم يبقَ لي سوى هو، متكئًا على الأرض مثل طفلٍ حديث الولادة ينتظر عناقًا. ذهبت إليه. على هذه الحال وجدتني سوزي وجين، منزعجتين من صرخاتي.

فعلتُ الشيء نفسه. انحنيتُ أبكي وأشعر بيده على يدي.

«عزيزتي آني! لا تلومي نفسكِ بعد الآن»، تكلم بلطفٍ كما اعتاد دائمًا، ولكن بأنفاسٍ متقطعة، لا تزال كأس حياته وطاقته نصف ممتلئة: «لم تكوني أنتِ...، لقد كان مسرح الغرفة حيث أخذوكِ...، حيث أخذكِ السيد «ي»...، هكذا أوضحتُ للشرطة ولعائلتي الأمر...».

- ولكن كيف...؟ ذهبتُ لأقدم لك الشاي بعد دويل و...

- عندما طردت دويل في ذلك اليوم...، ماذا فعلتِ؟

لقد حاول أن يذكرني عدة مرات وشيئًا فشيئًا، كما لو أنَّ ذاكرتي قد جُرفت حتى اكتشفت حفريات التفاصيل، ظهرتِ الحقائق الدقيقة أخيرًا إلى النور.

- انتظِر، نعم...، أخبرني جيمي أن هناك مراسلات. رسالة لي. اعتقدتُ أنه كان أخي.

أشار السيد إكس بالإيجاب.

- لكنه لم يكن كذلك، صحيح؟

- لا.

- ماذا كان فيها؟

تباطأتُ في الإجابة لأن تلك الذكرى المحددة لا تزال تهزُّني، من المتعة، من الرعب.

- دائرتان كبيرتان باللون الأسود مرسومتان بالقلم الرصاص. واحدة على جانب الأخرى.

أعتقد أنه «دمية الدب» ذات الأزرار السوداء.

شرح لي: «كانت هذه هي الطريقة التي اختاروها لينشطوا بداخلكِ التعليمات التي تلقيتِها. لم تعودي لطبيعتكِ بعد رؤية ذلك الرسم...، أخذتِ سكين المطبخ، وصنعت لي بعض الشاي وخرجت متحولةً إلى شيءٍ آخر...، أداة أرادوا استخدامها. لكنكِ أثبتت أنه لا يمكن لأحد استخدامكِ بعد الآن».

تمتمتُ: «لكنني...، أردتُ أن أقتلك...».

كان لا يزال إحساس الألم المؤلم (المتعة) حاضرًا.

- لا، ليس أنتِ، بل هم. لقد تمَّ استغلالكِ للتو. لقد أرسلوا تلك الرسالة عندما علموا أنه قد تمَّ القضاء على السيد «ي»...، لقد

جعلوا الملاذ الأخير موضع التنفيذ. كان استخدامكِ قاسيًا للغاية، لكنني أقسم لك أنهم سيدفعون الثمن غاليًا يا آنسة ماكيري! لن تكون أي سكين، ولا حتى واحدة مصنوعة من الماس، أكثر تكلفة مما استخدموها معكِ، أؤكد لكِ، أنا عند كلمتي.

صدقته، وبدا لي كل شيءٍ واضحًا.

سألته بينما أجفف دموعي: «هل كنت تنتظر ذلك...، هل كنت *بانتظار* ما حدث...، كنت تعرف ذلك منذ أن اصطحبني السيد «ي» إلى المسرح...، تركتني أذهب ولم تحذرني...، (كان صمت السيد إكس هو التأكيد الذي انتظرته) لماذا؟».

- لأنك كنتِ بحاجة إلى ذلك.

- ماذا؟

- آنسة ماكيري! هل تتذكرين في المرة الأولى التي تحدث فيها دويل المزيف عن كوبيلوس، وألمح إلى أن ترافقيه؟

- نعم.

- لماذا فعل ذلك، ألم تفكري في الأمر؟ لماذا رغب في اصطحابكِ إلى الفرقة التي ينفذ أصحابها الجرائم؟ لقد أرادكِ أن تلاحظي ذاك الباب.

تظهر على وجهه لمحة حزن ويلتزم الصمت. أوافقه على ما قال.

- نعم، الآن أفهم.

- أرادوا استخدامكِ حال أن تفشل الخطة...، ولديكِ الحق فيما قلتِ، لقد علمتُ ذلك، لكنني تركتهم يفعلونه، كنتِ بحاجة إلى هذا المشهد الأخير، وأن تخرجي في النهاية...، إلى النور، أكثر قوةً وصلابة.

- لا أعرف.

- ما الذي لا تعرفينه؟

- لا أعرف إذا ما كنت قد خرجت أكثر «قوة»...، أنا...

أجاب السيد إكس: «إنها المتعة».

همستُ: «نعم. إنها...».

أكمل عبارتي: «...بالغة، لهذا خرجتِ أكثر قوة آنسة ماكيري! نحن أقوى من أي مسرح آخر، من أي وهم، ولكن كان عليكِ البرهنة على ذلك، الآن تدركين أنه لا شيء بقادر أن يُجبرنا على فعل ما لا نريد».

- لكن كان من الممكن أن أقتلك؟

- علمتُ أنَّ الأمور لن تجري على هذا النحو. أنتِ آني الجميلة الشجاعة، وقد برهنتِ على ذلك دومًا، هل ترغبين في التعاون معي آنسة ماكيري؟ لقد وصلنا إلى نهاية كل هذا. الأمور محفوفةٌ بالأخطار لأقصى حد، وقد اختبرتِ ذلك بنفسك.

أجبته دون تردد: «أنا على استعداد... سأكون معك».

ولكي أتفادى عاطفتي الزائدة، أشرتُ إلى الكتاب الموجود على الطاولة بجانب السرير: «*أليس في بلاد العجائب*...، لقد قرأتها. هل لويس كارول صديقك من أكسفورد؟ هل هذا هو سبب طلبك للانتقال إلى نفس مسكن أكسفورد الذي كنت تعيش فيه قبل بورتسموث؟».

قال متجنبًا سؤالي: «قصة ذلك الكتاب ومؤلفه غريبة...، سأخبركِ عن ذلك. وبالفعل يجب أن أعود إلى أكسفورد في أسرع وقت. إنه أمرٌ عاجل (لاحظتُ التململ المعتاد في صوته، القلق لمواجهة تحدٍّ جديد) ولكن دعينا الآن ننغمس في متعة الأدب الجيد. هل يمكنكِ أن تقرئي لي

القليل من الكتاب؟ أودُّ أن أتطرق إلى بعض التفاصيل في تلك القصة قبل أن نسافر».

تأملتُ نسخة الكتاب فيما انغمستُ في التفكير.

- لا أشعر برغبةٍ في القراءة يا سيد إكس! خطرتْ لي فكرةٌ ما... لماذا لا تقرأ لي أنت؟ ... إنني جادة... أحبُّ أن تفعل ذلك من أجل التغيير.

سلمته الكتاب. لم يأخذه. واتسعتْ ابتسامته مثل الضوء.

- عزيزتي الآنسة ماكيري! أنتِ لا تعرفين كيف تكذبين، لقد أخبركِ الأطباء بذلك بالأمس، أليس كذلك؟

جعلتُ أنظر إليه بينما ترتعش شفتي السفلية.

قال السيد إكس: «لا يهمني إذا كنتِ تعرفين بعد الآن، في البداية أردتكِ أن تثقي بي، وأن تصدقي أن هناك طرقًا أخرى للنظر للأشياء، لرؤية أنفسنا والآخرين. الآن لا يهمني إذا كنتِ تعرفين سرِّي الصغير أيضًا...، عرف بونسونبي والدكتور مارفل ذلك بالطبع، كانا مدهوشَين فقط. أتمنى أنكِ لا تمانعي في معرفة ذلك أيضًا...».

وبينما هو يتحدث، ألوح بيديَّ أمام عينيه. لهما لونان مختلفان، ولكنهما متطابقتان في المظهر. يبدو أنه لا شيء يغيرهما.

في الواقع، أخبرني الأطباء، والمثير للدهشة أنني لم أتفاجأ كثيرًا. حسنًا، نعم ربما قليلًا.

ثم توالتِ التفاصيل بعد ذلك: غرفته المظلمة دائمًا، اضطرابه عند المشي على الشاطئ، لماذا «لم يرَ» والديه أبدًا، الطلب من شخصٍ ما أن يحرك قطع الشطرنج وأن يكتبها، حتى يقول فيليبوتس -تحركاته

بصوتٍ عالٍ-: جيمي يقرأ له دائمًا ويكتب كل رسائله، عدم معرفته بأنني لم أغادر الغرفة...، تلك التفاصيل.

كما بدا الأمر لا يُصدق لدويل المزيف بعد فحصه، وربما اعتقد خطأً أنه لن يكون ضارًّا. وبقدر ما بدا الأمر غريبًا ولا يُصدق لبونسونبي- الذي طالب دويل بتسليم التقرير إليه امتثالًا للحظر الذي فرضه المريض عليه بعدم خيانة «سره». بقدر ما قد يكون أمرًا لا يُصدق بالنسبة لنا جميعًا الذين عرفناه حقًّا، وعرفنا ما هو قادر عليه.

داهمتني موجةٌ من الضحك. الرجل الوحيد الذي وصفني بـ «الجميلة».

لكنه لم يكذب. لقد رآني.

لأنه بالإمكان الرؤية بلا أعين، والقتل دون قتلة، وعزف الموسيقى بغير آلاتٍ حقيقية.

«سأقرأ لك قليلًا»، أجبته بينما تغسل الدموع وجهي الجديد، وجه آني الجميلة والشجاعة.

- شكرًا لكِ. أولًا سأذهب إلى القصر لأحفظ كل ما تقرئينه لي.

مدِّي يديك، سأسلمك الكمان.

يعزف السيد إكس موسيقى رائعة.

النهاية

أكمل الدكتور آرثر كونان دويل المخطوطة. نُشرت بعد سنواتٍ في الكتاب السنوي *لعيد الميلاد* بيتون. أطلق عليه عنوان «*الدراسة القرمزية*». وأُرسلت نسخة من الطبعة الأولى إلى عنوان شخصٍ بعينه، مُخصصة بخطٍّ يد مؤلفها.

يقول الإهداء:

«إلى السيد شيرلوك هولمز».

شكرٌ واجِب

إن تخيُّل روايةٍ يتطلب شخصًا واحدًا فقط، بينما نشرُها يتطلب الكثيرين.

والحقيقة أنَّه في حالتي، هناك الكثيرون مما لا يتسع المكان هنا لذكرهم جميعًا، لكن دعوني أحاول.

شكرًا لأفضل وكالة أدبية في العالم، وكالة كارمن بالسييس (س أ)[1] وفريقها من المحترفين الكبار، وبالأخص رامون كونيسا، لجهودهم المتواصلة وتشجيعهم الدائم. شكرًا لمُحررتي، آنا روسا سمبرون وميريام جالاس، والفريق الرائع في دار النشر Espasa، على ثقتهم في إمكانيات هذا العمل. شكرًا لصديقي الدكتور دييجو خيمينيث مورون لقراءته الرائعة للمخطوطة ونصائحه المفيدة لتحسينها. شكرًا لصديقي فرناندو شاكون، الذي خصص وقتًا حيث لم يكن هناك مَن يقرأها. شكرًا لزوجتي ماريًّا خوسيه، لموافقتها على الاستماع إليَّ وأنا أقرأ فصلًا بعد فصل، فيما أصبح شبيهًا بنوعٍ من المسلسلات الإذاعية في فترة ما بعد

---

(1) Carmen Balcelles SA

الظهر في الصيف، وعلى انتقاداتها الدقيقة انتقامًا مني. شكرًا لأبنائي، خوسيه ولاثارو، اللذين يساهمان دائمًا بوجهات نظرهما الخاصة ويساعدان في تحسين رؤيتي.

وعلى وجه الخصوص، امتناني الأبدي لوالدي، الذي أُهدي إليه هذا الكتاب، والذي أخبرني ذات يوم بتلك الكلمات البسيطة التي يخبروننا بها، عندما يعطوننا كتابًا يُشكل لاحقًا جزءًا من أحلامنا وحياتنا إلى الأبد.

الكتاب في تلك المناسبة عبارة عن مغامرات شيرلوك هولمز الكاملة لآرثر كونان دويل.

وهي الكلمة نفسها التي قيلت لك أيضًا في وقتٍ ما:

اقرأه.

الدراسة السوداء

إنجلترا ١٨٨٢، ممرضة شابة تهرب من لندن إلى بورتسموث لتعمل في مصحة عقلية تُكلَّف برعاية مريض غامض وسيىء الطباع يدعى السيد إكس، نزيل المصحات العقلية منذ صغره، غريب الأطوار يحب الظلام ولعب الشطرنج ولا يخرج من غرفته. يحاول حل سلسلة من جرائم القتل البشعة: جرائم منظمة بشكل مسرحي وبوتيرة متصاعدة ضحيتها المتسولون.

ينضم إليه طبيبه، آرثر كونان دويل الذي يحاول كتابة رواية تحقيق ويبحث عن إلهام ليساعده برفقة الممرضة. فينجذب الاثنان معًا في عمق تلك الجرائم في جو من الدعابة والمؤامرات وأجواء المسرح الفيكتوري.



غلاف: محمود هشام





عصير الكتب
www.aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
aseeralkotb
aseeralkotb
aseeralkotb